

جامعة الحسن الثاني - المصمدية
مشرقات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمصمدية
سلسلة رسائل وأطروحات رقم: ٩



د. حسن أميلي

المهراج البحرى بمصعب أبي رقراق

خلال القرن السابع عشر الميلادي

الجهاد البصري
بمصطفى أبي رفاق

جامعة العين الثاني - الممعدة
مشررات كلية الاداب والعلوم الانسانية بالممعدة
سلسلة رسائل واطروحات رقم: ٩

د. حسن أميلي

الجهاد البصري بمصباح أبي رفاق

خلال القرن السابع عشر الميلادي

الكتاب، الجهاد البحري بمصّب أبي رفرق

خلال القرن السابع عشر الميلادي

المؤلف، د. حسن أميلي

الطبعة الأولى 2006

الإياع القانوني 2006/1682

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

النشر، كلية الآداب - المحمدية - جامعة الحسن الثاني المحمدية.

الطبع،

دار أبي رفرق للطباعة والنشر

10 شارع العلويين رقم 3 حسان الرباط

الهاتف، 037 20 75 83 الفاكس، 037 20 75 89

إهداء

إلى أمينة مرأتي في الحياة
إلى حسام الدين، وشهاب الدين.
نورا العين والقلب

مقدمة

إذا كان المغرب قد عاش خلال الثلاثين الأولين من القرن السابع عشر الميلادي أزمة داخلية مزمنة عصفت بتماسكه السياسي وبمقومات بنيانه الاقتصادية والاجتماعية، فإنه بالمقابل عرف بروزاً متميزاً لحركة شعبية مهمة أخذت من المجال البحري مسرحاً لنشاطها، ومن الجهاد المقدس أسلوباً لإشعاعها، حاملة لواء المساهمة المغربية في السياسة الدولية، ومحافظة على مكانة المغرب البارزة أكرسها تألقاً وشهرة دام بريقهما القوي طوال هذه الفترة، وامتد ذلك حتى بعد عودة الوحدة السياسية على عهد العلويين؛ ولم يعرف هذا التألق بداية أفوله إلا عند حلول نهاية القرن المذكور.

وقد كانت منطقة مصب أبي رقراق ومرسى سلا الجديد مركز هذه الحركة ومنطلقها المتوهج الذي عاد عليها بالخطوة والاهتمام الواضحين على الصعيد المحلي كما على الصعيد العالمي، نتاج تبونها مرتبة رئيسية على مستوى النشاط الملاحي الإسلامي كاقصى مركز غربي، وكأهم قاعدة جهاد بحري بعد مدينة الجزائر.

وما كان لهذا الحدث أن يكتسب أهميته البليغة لولا تظافر عوامل عديدة تشابكت في ما بينها لتمنحه وضعية هامة جداً للتأثير في صيرورة العلاقات المغربية الأوروبية، بفضل بروز منطقة مصب أبي رقراق كواجهة محلية مطلة على المحيط الأطلسيكي، المسرح الرئيسي للتجارة العالمية وتأثيراتها السياسية، وبالتالي بروزها كبعد استراتيجي ساهم بالسلب أو بالإيجاب في المنافسة الأوروبية-الأوروبية المتدرجة إلى المحيط انطلاقاً من القارة، التي استمدت دوافعها من مخلفات الصراع الديني-السياسي: الكاثوليكي/البروتستانتي أولاً، ثم من مخلفات التسابق الاقتصادي-السياسي عقب ذلك، مما حدا بفاعليات الجهاد البحري - انطلاقاً من المنطقة - إلى الإسهام بتأثيراتها في توجهات التجارة الدولية، مرتكزة على دوافع ذاتية حماسية، ومستفيدة من تضارب مصالح الفرقاء الأوروبيين.

إن تأسيس القوات الإيبيرية لطرق تجارية رابطة بين مناطق الإنتاج الإفريقية والآسيوية والأمريكية من جهة، وجنوب غرب أوربا من جهة ثانية بديلاً عن الطرق التقليدية القارية والمتوسطة، قد نقل الثقل الاقتصادي العالمي إلى المحيط الأطلسيكي،

تلاه انتقال مواز للبنيات الملاحية والاقتصادية بوتيرة متسارعة، جعلت المناطق المتاخمة للمحيط في أوروبا وإفريقيا تتمتع بوضعية سياسية واقتصادية غير منتظرة، تحولت معها سواحل شمال غرب أوروبا إلى مراكز تصنيع واستثمار للخيرات القادمة من إيبيريا - بوابة مواد ما وراء أوروبا - واستفادت في ذلك بالأساس مراكز لندن وأمستردام وأنفوس. في حين كانت سواحل إيبيريا تلعب دور نقط استقبال وتوزيع لتلك الخيرات نحو الداخل القاري انطلاقا من مركزي لشبونة واشبيلية، ومن بعدهما قاديس.

ومقابل هذه الوظائف كانت سواحل المغرب الأطلنטיكية مهياة للقيام بوظيفتين متناقضتين، جدليتي التأثير حسب حركية التجارة الأطلنטיكية:

1- وظيفة حامية وتموينية للأساطيل التجارية بواسطة سلسلة من المراكز الملحقة بإيبيريا عن طريق الاحتلال، مثل طنجة ومازغان، باعتبار قرب الساحل المغربي من المضيق، نقطة بداية خطوط التجارة العالمية ونهايتها.

2- وظيفة عرقلة الملاحة التجارية ذاتها: حيث حاولت القوات البروتستانتية المتحالفة شن حركة استنزاف اقتصادي ضد المصانع الإيبيرية انطلاقا من الساحل المغربي المطل سنويا على حركة قرابة مائتي سفينة تجارية إسبانية، فأصبحت بعض مراكزه قواعد لقيام تنظيمات قرصانية أو جهادية إسلامية، وأساسا بمركزي العرائش والمعمورة الذين سوف يؤدي سقوطهما بيد الاحتلال الإيبيري إلى وراثته مصب أبي رقرق لدورهما المعرقل للتجارة الأطلنטיكية.

من جهة ثانية برزت المنطقة في قيامها بالجهاد البحري كاقرب قاعدة بحرية إسلامية إلى المضيق الفاصل بين العالمين المتوسطي والأطلنטיكي، أو بين مجالي النفوذ العثماني والإيبيري، مع ما يشكله ظهورها كنقطة متقدمة على مستوى الصراع التقليدي الإسلامي-المسيحي. ذلك أن انتهاء الصراع على شواطئ البحر الأبيض المتوسط لفائدة القوة العثمانية دفع أوروبا إلى نقل الصراع نحو الغرب الإسلامي، بغاية إخضاع الكتلة الإسلامية للحصار الاقتصادي، وتطويرها ومهاجمتها سياسيا وعسكريا انطلاقا من جناحها الأقصى والأقل قوة، مستغلة في ذلك تحليلها للنتائج الوخيمة التي حصنتها في الحروب الصليبية السابقة.

ولذا، كان على المناطق الإسلامية رفع التحدي بالمواجهة الشاملة من جهة، وأيضاً بفتح جبهات متعددة على السواحل القريبة من أوروبا الغربية بسعي من القوة العثمانية، وهو ما اضطلع به منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي مجاهدو طرابلس وتونس والجزائر، وتأثر بهم مجاهدو تطوان خلال مرحلة المجابهة المتوسطية، قبل أن يفرض على القوات الإسلامية تعقب الخصم خارج المضيق إلى "بحر الظلمات" كتطوير استمرارى لجهادهم، وأساساً على يد رياس مصب أبي رقرق.

وما كان لهذه المنطقة أن تنتقل فجأة إلى صدارة الأحداث الإقليمية والدولية لولا وجودها بعيداً عن تأثيرات الاضطراب السياسي القارية والحروب الأهلية الناجمة عن أزمة البيت الحاكم منذ سنة 1603م، وما رافقها من تآزم طبيعي واجتماعي تمثل في انتشار وباء الطاعون والمجاعة في عموم البلاد بشكل عطل عجلة الإنتاج الاقتصادي، وأفرغ المناطق من ساكنتها البشرية، كما فرض ركوداً متنامياً في العلاقات الاقتصادية والسياسية بين المغرب والسودان الغربي، كان من نتيجته ضمور في كميات البضائع الإفريقية المتوجهة نحو المغرب، وعلى رأسها مسحوق الذهب، وارتداد الخطوط القافلية - المتأثرة أصلاً باشتداد المنافسة الأوروبية عبر المحيط - نحو مناطق النفوذ العثماني، مبتعدة عن الأسواق المحلية.

إن هذه الظرفية الخائقة التي أضحت المغرب يعيشها بسبب الحصار المفروض عليه شرقاً كنتاج موروث عن تضارب الطموح المغربي-العثماني، وشمالاً نتيجة الضغط المسيحي الممارس من قبل إسبانيا، وانطلاقاً من مراكز الاحتلال المتوسطية، وجنوباً من جراء ضعف انفتاح البعد الاستراتيجي الذي جاهد المنصور في سبيل تأمينه كمجال حيوي اقتصادي-سياسي، في الوقت الذي راحت فيه الواجهة الغربية تتجه هي الأخرى نحو الانسداد تبعاً للحصار الإيبيري المتمركز في عدة قواعد، والمرشح للامتداد نحو مراكز أخرى، جعلت البلاد تبدو أشبه بمرجل في مرحلة غليان، متاهب للانفجار ولا ينتظر سوى فرصة الانفلات من الضغط انطلاقاً من إحدى الواجهات السامحة له بذلك: منطقة مصب أبي رقرق ضعيفة التأثير سياسياً، والنقطة المحلية الأقرب إلى المضيق، التي بمجرد احتضانها لعنصر غريب عنها، ومتعارض مع مكوناتها البشرية، وحاضن لدوافع ذاتية قوية، ستتوهج بها شرارة الجهاد البحري لتمنحها شهرة عالمية كأحدى القواعد الرئيسية في مجال الملاحة الإسلامية الحديثة.

الباب الأول

مرتكزات الجهاد

البحري لمصب أبي رقرق

شكل انتقال الحركة التجارية العالمية من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلنטיكي حدثا بارزا الأهمية في القرن السادس عشر الميلادي، كنتيجة غير مباشرة للصراع التقليدي الإسلامي- المسيحي¹، بعدما أضحى الحوض الشرقي المتوسطي بحيرة عثمانية عقب سيطرة الأتراك على أوروبا الشرقية ومنطقة المشرق العربي، وسعيهم إلى بسط نفوذهم على الغرب الإسلامي، عاملين على فرض مراقبة دقيقة على الحوض الغربي بالعمليات الجريئة سواء بحرا، أو في الأطراف الجنوبية للقارة الأوربية²، محققين من ورائها ربحا راح ضرره وتأثيره ينموان ضدا عن مصالح التاج الإسباني، إلى درجة صار معها رجال الجهاد البحري يحظون بلقب " وباء المسيحية " ³ بفعل جسارتهم ونجاح عملياتهم حتى في عمق التراب الإسباني.

وقد شجع ازدهار المحيط الأطلنטיكي وتحكم الكاثوليك في خطوطه القوات البروتستانتية المناوئة على بذل ما في وسعها لعرقلة قوات الربط المعتمدة بين المركز الإيبيري ومنابع الإمداد، وفرض عليها تعقب السفن التجارية وخلخلة الوضع بالمحيط الأمر الذي كان له الأثر الكبير على دخول المغرب حيز الاهتمام العالمي، لا سيما وأن القوات البحرية العثمانية قد وعت بدورها أهمية سواحله الغربية منذ تيقنتها من ضعف حركية البحر الأبيض المتوسط تقلص حجم النشاط التجاري به لفائدة المحيط الأطلنטיكي والذي عاينت قوته من خلال تعقب بعض سفنها للملاحة الإسبانية به قبل منتصف القرن السادس عشر الميلادي⁴، وبالتالي استنتاجها للدور المهم الذي يمكن أن تلعبه المراكز الأطلنטיكية للمغرب لدعم النشاط الجهادي العثماني.

إن صيرورة المغرب كنقطة اهتمام مشترك بين مختلف السياسات العالمية كان من حتميتها الإسهام في دفع الفاعليات المستقرة به إلى الإعراض - ولأول مرة - عن الامتداد القاري التقليدي، وبداية اهتمامها بمجال "بحر الظلمات"، ومساهمتها في الصراع البحري الدائر على مقربة منها، وفي مراسيها أحيانا، باستغلال التنسيق مع القوتين الإسلامية العثمانية والمسيحية البروتستانتية، وأساسا الأقاليم المتحدة، حيث سيقوم مصب أبي رقراق بحمل لواء المغرب على مدار القرن السابع عشر الميلادي،

¹ لرنولد توينبي: "العالم والغرب" - تعريب نجدة هاجر وسعيد الفز - بيروت 1960 - ص 29.

² Pierre Dan " Histoire de Barbarie et ses corsaires " - 2° éd. Paris 1649 - p 203.

³ Roger Coindreau " Les corsaires de Salé " - P. I. H. E. M. - Paris 1948 - p 22.

⁴ في رسالة من أحد القواد البرتغاليين في سنة 1531 وردت معلومات عن بداية ظهور السفن الجهادية العثمانية في المياه الأطلنטיكية انطلاقا من موانئ المغرب. انظر: Les S I H M. - 1° série - Portugal - T I - p 3.

فارضاً شهرته على كافة أنحاء أوربا بدهشة ممزوجة بالرعب¹، مستفيداً في ذلك من
تضافر مجموعة من العوامل الطبيعية والبشرية والسياسية، ساهمت في بروزه كقوة
قاعدة جهاد بحري إسلامية.

اكتت

الإسلامية

جهة ثانوية

مسير أمور

والتي أ

1578م

ملوك ال

وإ

أحمد ال

الصعود

المحيط

عموما

البحر

المؤسس

مناظرة

أخرى

و

الإبحار

العنصر

خصوص

وايضاً

مقب

كافة

éd.

الفصل الأول: خصوصيات المنطقة

اكتسب المغرب منذ الفترة السعدية أهمية استراتيجية بالغة باعتباره المنطقة الإسلامية المشرفة على المحيط الأطلنטיكي من جهة، والقاعدة الأقرب إلى إيبيريا من جهة ثانية؛ ولذلك ظل محط تضارب الأطماع المتباينة وعرضة لتأثير سياستها على سير أموره، من محاولات الهيمنة التي نهجتها القوتان الإيبيريتان (إسبانيا والبرتغال) والتي أدت إلى سقوط أغلب مرافقه، رغم نجاح السعديين في سحق إحداهما سنة 1578م، إلى محاولات الضم التي جاهد العثمانيون من أجل تنفيذها، والتي تحداها ملوك المغرب بمختلف الوسائل المباشرة وغيرها.

وإذا كان هؤلاء قد استطاعوا إيقاف التهديد الشرقي بصورة شبه مؤكدة في عهد أحمد المنصور، فإن الحضور الإسباني قد زاد تمركزا في المراسي المغربية¹، رغم الصعوبات الطبيعية التي تعترض أهمها، لكونها ليست سوى مصبات أنهار مفتحة على المحيط بدل موانئ مؤسسة على الساحل مباشرة، وذلك لامتياز الساحل المغربي عموما بصخريته وقلة الخلجان الطبيعية به، وصعوبة تضاريسه التي يزيد بها هيجان البحر وقوة تعرضها للموج ضالة من حيث فرص الاستغلال²؛ وحتى الموانئ المؤسسة داخل المصبات تساهم الظروف الطبيعية تضاريسيا وبحريا في تقليص سعة منافذها وعمقها، مما يفرض على مرتاديهما التكيف معها باستعمال سفن معينة دون أخرى³.

ومقابل ما تتميز به من صعوبة في التمرب وموسمية فترة الاستغلال لاستحالة الإبحار فيها خلال الفصول الربينة، تمنح من جهة أخرى ميزة هامة من حيث توفيرها للعنصر أمن ثمين للسفن بمجرد التوغل داخلها، ضدا عن كل ملاحقة بحرية، وهي خصوصية تتمتع بها كافة المصبات المغربية الرئيسية: اللكوس، وسبو، وأم الربيع، وأيضا أبو رقراق⁴.

¹ عقب معركة وادي المخازن، وخاصة بعد توحيد إيبيريا تحت سلطان فليب الثاني سنة 1582، ورث التاج الإسباني كافة الممتلكات البرتغالية بالمغرب.

² Coindreau - Op. cit - p 160.

³ Louis Brunot "La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé" éd. Leroux - Paris 1920 - p 65.

⁴ Coindreau - Op. cit - p 35.

1 - طبيعة مصب أبي رقراق

يقع مصب أبي رقراق في وضعية جغرافية واستراتيجية هامة باعتبارها ظل منطقة مستقلة لم تعرض لا للغزو الإيبيري ولا لنشاط قرصني ملموس خلال القرن السادس عشر، فصار بذلك القاعدة البحرية الإسلامية الأقرب إلى المضيق من جهة المحيط، حيث لا يبتعد عن رأس سبارتيل إلا بستة وثلاثين فرسخا (حوالي 250 كلم) وقد ارتقت أهميته مع عودة الاحتلال الإسباني إلى العرائش (1610م) والمعمورة (1614م)، إلى درجة رجوعه إلى وضعية شبه مماثلة لما كان عليه منذ قرن بصيرورته مفتاحا للمغرب الشمالي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا.²

إن هذه الوضعية الاستراتيجية قاريا وارتباطها بالتمركز الجغرافي للمصب المشرف على الخطوط التجارية، هي التي ستجعل الوافدين من الأندلس يركنون إلى التجمع بصفته اليسرى، خاصة وفراغ جزء هام من رباط الفتح، مع تشابه الظروف المناخية بينها وبين الأندلس من حيث الاعتدال ولطافة الجو³، موفرا بذلك عناصر جذب لهؤلاء الذين سيبادلون احتضانه لهم بازدهاره التاريخي على يدهم.

لقد أخذ المصب مكانة بارزة بفضل مركزية خاصة سلا، ذلك أن وجوده في نهاية منطقة الغرب وعلى مشارف إقليم تامسنا، متمركزا بذلك في نهايتي الامتداد الإداري لمركزي فاس ومراكش، جعل المدينة تظهر كتجمع حضري رئيسي وسط فضاء قروي أو شبه قروي⁴ يمتد شمالها، وأساسا جنوبها، بعيدا عن أية منافسة حضرية أخرى، مما يفسر بروزها كقاعدة محورية في العلاقات التجارية والسياسية والفكرية على الصعيد الجهوي.

وظهوره كنقطة التقاء بين الشمال والجنوب قد جعل المنطقة تتخذ ومنذ عهد سحيفة كجسر عبور غربي رئيسي بين الوجهتين بشريا وسياسيا، وكمنفذ اقتصادي مشترك أو بوابة تجارية بين السهول الأطلنطية وسهول الشمال الغربي⁵، ومن ثم سوقا تجارية لا غنى عنها، ومركزا سياسيا مهما يستمد أهميته من التقاء التيارين

¹ Albert Savine : "Dans les fers du Moghreb" - éd. L. Michaud - Paris 1912 - p 32.

² Henri de Castries : "Le Maroc d'autrefois: Les corsaires de Salé" - in Revue des deux mondes - fev 1903 - p 817.

³ Burlot - Op. cit - p 6-7.

⁴ Dan - Op. cit - p 206.

⁵ Burlot - Op. cit - p. 33.

الأساسيين القادمين من العاصمتين فاس ومراكش، رغم انتماء المنطقة الطبيعي للمركز الأول، ودخولها في عداد موانئه الأطلننتيكية¹.

ويحظى المصب من جهة المحيط بميزتين متناقضتين:

* أولاها: ضالة صلاحيته كمرفأ نظرا للعوائق الطبيعية التي تعترض النشاط الملاحي به.

* ثانيهما: امتيازه بدفاع طبيعي يوفر له مناعة وقائية أمام الهجمات الرامية إلى تخريبه أو إلى السيطرة عليه، إذ على بعد نصف فرسخ من الشاطئ تنتصب أقاصير رملية تحت سطح الماء، خالقة بذلك حاجزا ملاحيا صعب الاختراق نتيجة الارتداد العنيف للأمواج من جراء اصطدامها به²، كأحد الأسباب الرئيسية لضعف استغلال المرسى منذ وقت باكر، والناجمة عن صعوبة ولوج المصب³، الذي بالرغم من تجارب الرياس كثيرا ما تجنح السفن بسببه⁴.

وتزداد صعوبة المدخل كلما ساءت أحوال الطقس، إذ يتعاضد التأثير السلبي للأقاصير مع شدة عنف الموج، دافعا إلى توقف الإبحار فيه خلال فصلي الخريف والشتاء؛ وحتى إذا ما تم تجاوز الأقاصير المذكورة تؤثر فاعليته سلبا على المساحة الممتدة بينه وبين الميناء، فلا يترك للملاحة داخل المصب سوى قناة ضيقة متعرجة تتحول عن قرارها باستمرار⁵، مما يزيد من مخاطر الملاحة ويساهم في إلحاق الضرر بالسفن الناجية من مخاطر الأقاصير⁶.

هذه العوائق ساهمت في تبديد جهود بحارة المصب الرامية إلى تطوير أنشطتهم، إلى درجة أن المؤرخين اعتبروها مانعا للاتصال بين البحر والنهر⁷، رغم أن سكان المصب انكبوا على تطوير وسائل العمل بشكل يتلاءم مع الوضعية، وتمكنهم من التحكم في السفن وفقا لجغرافية المدخل، محولين العوائق إلى امتيازات؛ فلم تعد

¹ De Castries Op cit - p. 819.

² Brunot Op cit - p 100.

³ مؤلف مراكشي: "كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار" - نشر عبد الحميد ز غول - الإسكندرية 1958 - ص 141.

⁴ Les S. I. H. M. 2^e série France - T IV - p 327.

⁵ Jacques Caillé "La ville de Rabat jusqu'au Protectorat français" Vol I, Paris, 1949, p 17.

⁶ Charles Penz "Les captifs français du Maroc au 17^e s." P. I. H. E. M, Paris 1944, p 147.

⁷ Brunot Op cit - p 77.

الأقاصير ولا القناة الضيقة موانع ملاحية، قدر ما أضحت تمثل عناصر دفاع طبيعي، ودرعا أمام الهجمات الخارجية على الميناء أو السفن الراسية به¹. أما بالنسبة للجزء المتقدم من نهر أبي ررقاق²، فيعرف بدوره سلبيات طبيعية تتمثل في عدم تعمق مجراه، بحيث لا يتعدى عمق ثمانية عشر قدما عند المد³، نتيجة اتساع مجرى النهر المترتب عن تراكم الإرسابات النهرية والبحرية، خصوصا في مقعره الشمالي الذي يشكل شاطئا نهريا من جهة سلا، بمقابل جرف القصبّة المشكل لمحده الجنوبي⁴؛ وهو ما جعل النشاط البحري يتخذ من الضفة اليسرى مركزا له، مؤشرا بذلك على استقرار الغالبية العظمى لرجاله - بحارة ورياس وصناع مرتبطين به - بالقصبّة وبسلا الجديد⁵.

إن توفر الضفة اليسرى على قاعدة رملية محاذية للنهر⁶ قد مكنها من اتخاذها كرسيف طبيعي قابل للاستثمار خلال الفترة الصالحة للملاحة (من بداية شهر أبريل إلى متم شهر شتنبر عادة)⁷، كميناء نهري نشيط قبل تعطله في الفصول الرديئة، والتي تنقطع خلالها كل إمكانية الاتصال بالبحر. ولا يعني هذا أن الملاحة خلال الموسم المساعد مسموح بها لجميع السفن، وإنما للخفيف منها فقط، والمتوفرة على مواصفات دقيقة، خاصة وأن المرسى لا يمكنها القيام بدورها البسيط بفعالية قصوى لامتيازها السلبي بالاتساع وبالانفتاح الشديد على البحر وعلى حركاته المتقلبة، الشيء الذي يجعلها تحت رحمة تأثيرها بصورة شديدة⁸.

وعلى العموم يبدو مصب أبي ررقاق بمميزاته الطبيعية الصعبة في وضعية سلبية، وكمرفأ متوفر على خصوصيات أمنية إيجابية من جهة أخرى. وقد مكن شقه

¹ Savine - Op. cit - p 10.

² سمي بذلك منذ القرن الثالث عشر الميلادي. ويقدم برينو تفسيرات حول التسمية وغيرها من التسميات التي عرف بها النهر قبل ذلك. وقد ظلت بعض الأسماء القديمة متداولة في كتب المؤرخين المغاربة حتى مطلع القرن العشرين، مثل اسم "واد أسير". انظر: محمد بن علي الدكالي: "الإتحاف الوجيه: تاريخ العدوتين" - تحقيق مصطفى بوشعراء - الخزانة الصبّحية - سلا 1986 - ص 39. وأيضا: Brunot - Op. cit - p 95.

³ Savine - Op. cit - p 32.

⁴ Caillé - Op. cit - p 15.

⁵ Brunot - Op. cit - p 77.

⁶ نظريا تكون هذه القاعدة معتدة من النهاية الحالية للقصبّة حتى مشارف منحدر سيدي مخلوف، ومن رصيف المرسى الذي لا زال قائما حتى حدود المباني المتقدمة من حي القناصل، وذلك بناء على وضعية المرسى في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

⁷ Coindreau - Op. cit - p 35.

⁸ Brunot - Op. cit - p 100.

الإيجابي من البروز أكثر من جانب السلب، ليتم استغلاله بقوة من طرف ريلس الرباط وسلا طوال القرن السابع عشر الميلادي.

2- الأهمية الاقتصادية

إن أول ما يتميز به المصب هو وقوع حاضريته - وخاصة سلا - كقاعدة حضرية لمنطقة تعرف ضعفا استقراريا جنوبيا بغياب تجمعات حضرية أخرى، وبدرجة أقل شمالها بوجود بعض المراكز الثانوية¹؛ وهذا ما طبع حضورها بالقوتين التاريخية والاقتصادية بعيدا عن أية منافسة، إن استثنينا الدور النسبي الذي تقوم به المعمورة أثناء تحررها.

وتكمن الأهمية الاقتصادية لمنطقة المصب في اعتبارها موقعا مركزية على المستوى الجهوي، ومركز تنظيم العلاقات بين باقي الجهات المحيطة بها إداريا وفكريا، سواء على صعيد التنشيط الإقليمي، أو على مستوى الربط بين المنطقة كوحدة وباقي الوحدات الأخرى، لا سيما وقد سبقت الإشارة إلى حضورها كنقطة وسطى بين الأقاليم التابعة لفاس ولمراكش. واعتبارا لذلك كانت مجبرة على التنسيق بين الامتدادين بمساهمتهما الاقتصادية في التجارة الداخلية، وكمعبر منفتح على الشمال والجنوب، رغم ارتباطها الطبيعي بفاس من حيث هي نهاية خطها التجاري على المحيط²، ليس على صعيد التجارة المغربية مع الخارج فحسب، بل ولكونها تشكل أيضا نقطة نهائية للخط القاري القادم من المشرق عبر تلمسان³.

وقد كان لمنطقة المصب - باعتبارها خلفية غربية لمنطقة فاس - أن تحظى بسمعة عالمية جعلت تجار أوروبا يتقاطرون عليها منذ القرن الثاني عشر، وزاد حجم معاملاتها بعد احتلال سبتة (1415م)، فأضحت مدينة سلا البوابة البحرية الرئيسية في التجارة الخارجية⁴. وحتى في الوقت الذي ألت فيه الوضعية السياسية المحلية في آخر عهد المرينيين إلى فوضى عارمة مع ما واكبها من امتلاك الإيبيريين لأغلب ثغور البلاد، حافظ مصب أبي رقران على دوره المتميز ببقائه خارج دائرة الاحتلال إبان ازدهار الحركة التجارية الأطلنتيكية، لتزداد أهميته كمرفأ محلي يحول دون

¹ Dan Op cit p 206.

² "Léon l'Africain" Description de l'Afrique - Trad. A. Epolard - T I - Paris 1956 - p 170.

³ De Castries Op cit p 820.

⁴ Ibid - p 821.

الاستنزاف الكلي للاقتصاد المغربي الذي كان يمارسه البرتغاليون انطلاقاً من قواعد الاحتلال، إلى درجة أدرك معها هؤلاء بأن إمكانية القضاء النهائي على المغرب لن تتم إلا بالسيطرة على مصب أبي ررقاق¹.

زيادة على دور المنطقة التجاري، فإن غنى مركزيتها يكمن في كونها يجمعان بين البداوة والحضارة، لتوجههما عموماً نحو خلق نسيج اقتصادي متكامل يهدف إلى تحقيق الاكتفاء الذاتي كنمط طبيعي في تحديد الاختيارات الإنتاجية، وبالأخص في النواحي المعيشية ذات الأولوية؛ يضاف إلى ذلك هدف تحقيق إنتاج ثانوي تكميلي بالنسبة للمنطقة ومطلوب في الرواج التجاري خارجها، وهذا ما جعل الميدان الفلاحي يحظى بالاهتمام الأساسي للسكان، من حيث توفر المنطقة على بنية ملائمة للنشاط الزراعي، وخاصة في الضفة اليمنى التي تشكل سهلاً رسوبياً يمتاز بخصوبته في بلاد الولجة، وأيضاً بالساحل البحري وبالمناطق القريبة من المدينة². وتتمتاز الضفة اليسرى من جهتها بوجودها في نهاية إقليم تامسنا الخصيب، مع ما يوفره النهر من سهولة في الري المنظم بواسطة الترع والقنوات، والعيون المائية القريبة من المنطقة أيضاً، نظراً لامتياز المنطقة بمناخ جيد طوال السنة معتدل ورطب ومنظم التساقطات. وهذه الخصوصيات نجدها من بين الأسباب الرئيسية في اختيارها من طرف يعقوب المنصور الموحد لبناء مدينة رباط الفتح³.

وقد كانت هذه الظروف قميئة بخلق نشاط زراعي هام، أساساً الحبوب من قمح وشعير لما كان لذلك من أولوية في التغذية المحلية، يواكبه نشاط مواز يتمثل في تربية الماشية والدواجن⁴؛ على أن استثمار الأراضي الخصبة كان من شأنه أن يدفع السكان إلى الانكباب على زراعة المواد الأولية للنسيج خاصة القطن والكتان⁵، حتى كادت غراستهما أن تكون حكراً على أهل سلا، مما ساعد على قيام صناعة نشيطة مرتبطة

¹ في رسالة بعث بها قائد أزموور البرتغالي إلى الملك جان الثالث سنة 1529، أخبره فيها أنه إذا شاء القضاء على مملكة فاس فإن النجاح مضمون شريطة القيام بالسيطرة على سلا. انظر: Les S. I. H. M - 1^o, série Portugal, p 475.

² يقول الوزان: "اختار المنصور بناء الرباط حتى تسهل عليه عملية تجميع الجيوش في حالة هجوم مسيحي على الأندلس، واختارها على الشاطئ لهذا الغرض. وقد اقترح عليه البعض اختيار سبتة كنقطة تجمع، ولكنه رأى عدم صلاحيتها لهاته المهمة لكونها غير منتجة لتفي بسد حاجيات الجند الذي يظل مجتمعاً طوال الصيف نتيجة جذب تربتها". انظر: L'Africain - Op. cit - T I - p 164.

³ Dan - Op. cit - p 208.

⁴ Dan - Op. cit - p 208.

⁵ L'Africain - Op. cit - p 170.

بالمادتين، وصارت حياكتهما حرفة للسكان¹. وعلى العموم لم يكن النشاط الفلاحي مقتصرًا على الحقول الواقعة خارج أسوار المدينتين، بل كان امتدادها يتسرب حتى داخل الحارات والمنازل من خلال انتشار السواني والبساتين الشاهدة على ازدهار المغارس²، والذي زاد رسوخا مع ورود الجالية الأندلسية وتجربتها المتميزة في هذا المضمار.

أما على مستوى الموارد الطبيعية التي تزخر بها المنطقة، فقد كانت تمتاز بالتنوع وبالأهمية، حيث يوفر النهر جزءا منها في شكل ثروات سمكية مهمة خاصة سمك الشابل الموجود فيه بكثرة³؛ زيادة على كون اتساع مجرى النهر جعل الماء عند المد ينتشر عبر قنوات حتى مستوى الملاح الحالي بملا ليفذي ملاحه واقعة شرق باب المريسة⁴. ومن جهة أخرى نجد الراهب بيبير دان يشير إلى وجود منجم مهم للقصدير بالقرب من سلا " يدر مداخيل هامة"⁵.

لكن أهم مورد طبيعي كانت منطقة المصب تستفيد منه، وبصفة خاصة في نشاطها الملاحي، كان اشتغال ضواحيها على موارد خشبية هامة جدا تقدر بأكثر من ثلاثمائة ألف هكتارا من الغابة شمالا وشرقا⁶، مع ما يمثل ذلك من نشاط صناعي متخصص في أوراش بناء القوارب والمراكب، والصناعات التعدينية الخفيفة المرتبطة بها.

3- التطور التاريخي للمنطقة

لخصوصيتها الاستراتيجية عرفت المنطقة وعلى امتداد التاريخ اهتماما خاصا من لدن كل القوات التي كانت لها مطامح سياسية واقتصادية بالمغرب، محلية كانت أم أجنبية، بالرغم من كونها ظلت وحتى مشارف العهد الموحدى ترى كحدود نهائية مثل باقي مناطق الساحل الأطلنטיكي، ولا تعدو أن تحسب ما وراءها من عوالم بحر الظلمات في عداد الغيب.

¹ للدكالي - نفسه - ص 39.

² Loc cit.

³ Brunot Op cit p 135.

⁴ Dan Op cit p 207.

⁵ Comdreaux Op cit - p 103.

⁶ مؤلف مراكشي - نفسه - ص 141.

فلا يستبعد أن يكون مصب أبي رقراق قبل الفتح الإسلامي قد حظي باهتمام فينيقي باعتباره كان يرى آنذاك أحد الأطراف الجنوبية للعالم المعمور، ويفترض أيضا أن تكون الضفة اليمنى للمصب قد احتضنت تمركزا فينيقيا بغاية الانفتاح التجاري على المغرب الأطلنטיكي¹. وما يدعم هذا الافتراض هو تأسيس مركز شالة الروماني داخليا على ضفة النهر بعد الاندحار القرطاجي²، خاصة إذا ما ربطنا ذلك بالسياسة الرومانية المتبعة في وراثه مناطق خصمها؛ من حيث سعيها إلى العمل من أجل بسط سيادتها على ممتلكات العنصر المهزوم، وتخريب مواقع كمرحلة أولى تتلوها مراحل توسعية في المناطق الخلفية لمختلف المراكز القرطاجية المحتلة.

وقد أتى الاستقرار الروماني داخل المصب كضرورة لتطويع المنطقة بريا، بهدف تيسير سبل الاتصال بالمركز الشمالي الرئيسي وليلي؛ في الوقت الذي فرض فيه الوضع الجديد إنشاء حصن دفاعي مباشرة على المصب، يقوم بتأمين المنفذ النهري لمركز شالة، وبالإشراف على المساحة الممتدة ما بين الشاطئ البحري والمركز. ويعتقد أن موقع القصبه الحالي كان موزعا لهذا الحصن القديم³.

وإلى حين دخول الإسلام إلى المغرب استمر موقع المصب في دوره كواجهة دفاعية لمركز شالة، بعيدا عن أي تأثير حضاري، ليدخل في مرحلة من اللامبالاة بسبب تركيز التطورات السياسية والحركات العسكرية في المناطق الوسطى، ساهم بعده عن المناطق الجبلية - التي كانت تشكل آنذاك عنصر جذب وحماية لإقامة الحواضر في سفوحها - في ضعف الاستقرار به، ولبقى كمنطقة تنقل وبدواة إلى حين انتدابه كقاعدة جهادية خلال الحروب البرغواطية⁴، مما سيؤدي إلى ظهور نواة القصبه وتطورها الحضري بعد ذلك.

إن تراجع السيطرة البرغواطية على الساحل الأطلنטיكي الشمالي إلى حدود تامسنا قد دفع المصب للعودة إلى سابق أهميته مع استرجاع شالة لدورها السياسي، وهذه المرة كمركز إسلامي مشرف على حدود التماس مع الخصم، حيث استقر أمراء زناتة بها تحت تأثير الخلافة الأموية بالأندلس. وسوف يتمكن الأمير تميم اليفراني من

19 et 24. - Hatier - Paris 1967 - p 19 et 24.

¹ Jean Brignon et Autres: "Histoire du Maroc" - Hatier - Paris 1967 - p 19 et 24.

² Ibid - p 32.

³ عبد الله السويسي: "تاريخ رباط الفتح" - دار المغرب للتأليف والنشر - الرباط 1979 - ص 51.

⁴ أحمد الناصري: "الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى" - تحقيق جعفر ومحمد الناصري - دار الكتاب - البيضاء 1955 - الجزء الثاني - ص 17-18.

توسيع مدينة سلا وتشييدها كحاضرة المنطقة سنة 1006م¹، لتصبح أقصى مركز إسلامي ساحلي. وباعتبار متاخمتها لبلاد تستقر بها قوات منلونة تم تأسيس " رباط سلا " على الضفة المقابلة بهدف الجهاد، حيث أضحي آخر معقل يقيم به المسلمون من أجل المراقبة والغزو ضد قبائل برغواطية²، ولتأخذ المنطقة بذلك صبغة دينية وعسكرية لن تتوقف إلا في بداية العهد المرابطي.

لقد كان نجاح أبي بكر اللمتوني في وضع حد نهائي للوجود البرغواطية سنة 1060م³ بمثابة إنهاء لدور سلا ك بوابة مفتوحة نحو الجنوب الغربي، ويحول اتجاهها صوب الشمال بعد انتهاء التأثيرات السياسية الأندلسية التي كانت تتحكم نسبيا في توجه منطقة المغرب؛ إذ منذ الظهور المرابطي ستأخذ العلاقات بين العدوتين منحى معكوسا من الجنوب إلى الشمال.

وكان على المرابطين - استمرارا لمدهم الطبيعي المنطلق من الجنوب - بسط نفوذهم على شمال إفريقيا، بالسيطرة على أهم الحواضر بغية توحيد الغرب الإسلامي، مستغلين تخبط القوى السياسية التي كانت تتحكم في المنطقة - وأساسا حكام الأندلس - في وضعية اضطراب وفوضى، نجم عنها تفكك وظهور الإمارات المتنافرة، وزيادة الضغط المسيحي على الأطراف الشمالية للأندلس، مما لزم على المرابطين مواصلة الامتداد حتى هذه المنطقة، محدثين بذلك انقلابا سياسيا في الغرب الإسلامي، وصار ضروريا على المراكز الإسلامية ذات المهام العسكرية والسياسية أن تواكب نفس الاتجاه الجديد، كما استوجب تغيير مراكز الاستقبال المالي (مداخل الدولة، مغانم...) لتأخذ توجهها يسير على عكس الاتجاه السياسي الجديد، وهذا ما سيخضع له مصب أبي رقرق الذي أضحي أحد أهم مناطق العبور نحو الشمال بالنسبة للجيش المرابطي الراحل إلى سبتة شرفة المغرب الأساسية على الأندلس، هاصلا بذلك على فرصة التوسع عمرانيا في الضفة اليسرى بموازاة سلا، بتأسيس تاشفين بن علي قصبة أقر بها رهطا من صنهاجة، عرفت بـ "قصبة تاشفين" أو "قصر بني تاركا"⁴.

¹ Coindreau - Op. cit - p 30.

² L'Africain - Op. cit - p 165.

³ الناصري - نفسه - ص 19-20.

⁴ السويسي - نفسه - ص 65.

ولن يبلغ المصب عصره الذهبي إلا في العهد الموحي مع ترسيخ دوره الجهادي ضد مسيحيي إسبانيا، الشيء الذي دفع عبد المؤمن بن علي إلى تحصين مدينة سلا وتجديد أسوارها، كما اهتم بقصبة الضفة اليسرى موسعا قلعتها فوق الجرف الشاطئي لتطل في آن واحد على البحر والنهر¹، ومحدثا بها منشآت اجتماعية عديدة ومرافق لضرورة، أثرا اتخاذها من بين مراكز استقراره الأساسية نظرا لمميزاتها الطبيعية والمناخية، وشجع على تعميرها في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي بعدما أسبغ عليها لقب "المهية" تيما بشيخه المهدي بن تومرت².

وقد رأى الموحدون في منطقة المصب أوفق محل لتدبير الاستعدادات العسكرية والسياسية التي يتطلبها الجهاد في الأندلس، بالنظر لقربه من الثغور التي يمر منها المجاهدون³، مما جعل قصبة الضفة اليسرى تظل محتفظة برعاية خلفاء عبد المؤمن، حيث عمد ابنه أبو يعقوب يوسف إلى تأسيس مدينة متصلة بالقصبة⁴، والتي لم تأخذ تخطيطها وتشيدتها النهائي إلا في عهد ابنه وخليفته أبي يوسف يعقوب المنصور بعد سنتين من معركة الأرك (1197م)، وبتمويل من غنائمها وعمل اليد الرخيصة التي وفرها أسرى المعركة⁵.

لقد شرع العاهل المذكور في إنشاء مدينة عظيمة سماها "رباط الفتح" عاملا على توفير المنشآت الاجتماعية المطلوبة بها، بدءا بمسجد حسان العظيم إلى مختلف المرافق الضرورية لحياة الجند الوافد على المنطقة⁶. ولإتمام شروطها العسكرية أحاطها بسور ضخ من الناحية البرية، حيث أنتت المدينة لتلعب الدور الاجتماعي والاقتصادي، في مقابل استئثار القصبة بالدور الديني والسياسي⁷.

يفهم من ذلك أن رغبة المنصور في إحداث مركز تجمع قادر على سد الحاجيات المختلفة للعساكر، وإنجاز عمل أثري رائع في الوقت ذاته كانت جد قوية؛ حيث أن وجود القصبة وعمليات التوسيع التي لحقتها قبالا أو أثناء عهده، كباب القصبة

¹ مؤلف مراكشي - نفسه - ص 140.
² الموسوي - نفسه - ص 52.

⁴ نفسه - ص 51.

⁶ مؤلف مراكشي - نفسه - ص 140.

³ L'Africain - Op. cit - p 164.

⁵ Les S. J. H. M - 1^{re} série - Pays-Bas - T V - intro. p III.

⁷ L'Africain - Op. cit - p 165.

² بشير السويدي

الجسر انطلاقا من

³ بقول الناصري

وددت لم أفتلها

من بيت المال

الجزء الثاني

والحصون الدفاعية (192م)¹، لم يكن من شأنه تلبية حاجيات الجند على مدار السنة، مما حتم عليه ضرورة توسيع العمران خارج نطاقها، مفضلاً ذلك على الاهتمام بسببته كنقطة تجمع، خاصة وأن المنطقة تتوفر على مزايا اقتصادية، زيادة على سهولة التكامل بين ضفتيها بعد إنشاء قنطرة مركبة لعبور الجيش والدواب². بيد أن رغبته هذه لم تبلغ نهايتها حيث عاقه الموت عن إتمام بنائها من جهة، ولم تحظ من جهة ثانية باستقرار سكني مأمول رغم تشجيعه للناس على تعميرها، فظل الجزء الأكبر منها فارغاً، تاركاً نوعاً من الحسرة في نفس الخليفة المحتضر³.

إن الازدهار السريع الذي عرفته المنطقة كان ظرفياً ويفتقد لعنصر الاستمرارية بشرياً، حيث كان دورها محصوراً في الظهور كمركز استقبال مؤقت لمتطوعين قادمين من مختلف الجهات ولهدف محدد، وينتهي الاستقبال بمجرد انتهاء المهمة جاعلاً عملية الجذب التي تمارسها المناطق الأصلية أقوى من فرص البقاء التي توفرها منطقة المصب، زيادة عن كون المداخل الأساسية التي مولت ازدهارها ليست محلية ولا وليدة بنية اقتصادية مستقرة، بل تخضع في حركتها لظرفية الجهاد ونجاح العمليات الحربية في الأندلس، مما سيؤدي إلى شل الحياة المتطورة للمدينة بمجرد وفاة يعقوب المنصور، ثم الانحدار الناجم عن بداية انقلاب موازين القوى في الحدود الشمالية للإمبراطورية الموحدية مع هزيمة العقاب (1212م)، التي سوف تسدي ضربة وخيمة لسياسة الجهاد الموحدية مع ما رافقها من انعكاسات على كل الميادين المرتبطة بها، وأساساً مدينة رباط الفتح، لا في تطورها فحسب، بل وأيضاً لدورها الذي سيصاب بنكسة ملموسة⁴ لن تخرج منها إلا بعد ذلك بأربعة قرون.

وقد ثبت في العهد المريني ابتعاد المغرب عن الأحداث الأندلسية تدرجياً لفائدة سياسة الحفاظ على متانة القسم الغربي من إفريقيا الشمالية⁵ بعد انفصال تونس بقيادة

¹ Burlot Op cit p 53.

² يشير السويدي إلى أن إنشاء هذه القنطرة كان أولاً على يد والده يوسف. وينقل عن عبد الهادي التازي اعتداد موقع الجسر انطلاقاً من منحدر سيدي مخلوف. انظر: "تاريخ رباط الفتح" - نفسه - ص 57.

³ يقول الناصري في ذلك: "لما حضرت المنصور الوفاة قال: ما ندمت على شيء فعلت في خلافتي إلا على ثلاث وددت لم أفعلها. الأولى: إدخال العرب من إفريقية مع أنني أعلم أنهم أهل فساد والثانية: بناء رباط الفتح لئلا يفتت فيه من بيت المال وهو بعد لا يعمر والثالثة: إطلاق أسرى الأراك ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم". انظر: "الأسعفا" الجزء الثاني - ص 205.

⁴ Burlot Op cit p 13.

⁵ Brignon Op cit p 151.

الحفصيين عن المركزية المغربية، وأضحت الاهتمامات المحلية متجهة صوب الشروق وبمحافظة و احتلال البرتغال والتراب المغربي الجنوبية للأندلس¹. في هاته الظروف صارت الأقاليم الغربية من المغرب لا تحظر بنفس الأهمية السابقة بانتهاء عهد الامتداد المغربي الجنوبي نحو الشمال بمقابل امتداد أفقي جديد، وهو ما دفع المصعب إلى الابتعاد عن المشاركة في الأحداث، والدخول في نوع من التهميش السياسي، باستثناء قيامه كقاعدة اقتصادية في إطار التبادل التجاري الخارجي.

لقد أعاد المرينيون لشالة أهميتها القديمة، باتخاذهم إياها كمركز ديني، في وقت تحللت فيه الصبغة العسكرية للصفة اليسرى، واحتفظت سلا بأهميتها الاقتصادية كنقطة عبور وميناء تجاري يربط المغرب بأوروبا، الأمر الذي فرض على الحكام الاهتمام بها بدرجة عالية، خاصة عقب تعرضها لمحاولة احتلال إسباني سنة 1260/هـ 658م². وبذلك استرجعت سلا رئاستها لحواضر المصعب من يد رباط الفتح، التي كانت تعيش آنذاك تهميشا راح ينمو بشكل سريع، إلى درجة أنها صارت عبارة عن حزام فارغ³.

وكان لزاما على السلطان المريني والرواج التجاري المزدهر في مدينة سلا قد جذب تجار أوروبا ومنافستهم على السوق المغربية الاهتمام بها وإعطائها بعدا اقتصاديا وسياسيا أكثر فاعلية، فأنشأ يعقوب بن عبد الحق دارا للصناعة البحرية بشكل أهلها لتصبح من المراكز الرئيسية في المغرب المريني، إلى درجة انفرادها بدور الربط بين المغرب وأوروبا تجاريا، والذي سيتضاعف منذ مطلع القرن الخامس عشر الميلادي، وبداية الحركة الاستعمارية الإيبيرية للسواحل الإفريقية الغربية، وخصوصا منذ احتلال سبتة حيث سيفرض على فاس اتخاذ مركز سلا ميناء أساسيا في التجارة الخارجية⁴، ستزداد أهميتها مع توالي سقوط القواعد البحرية الأخرى الموجودة شمالها.

¹ عبد الرحمن ابن خلدون: "العبر ونيران المبدأ والخبر" - المجلد السابع - دار الكتاب اللبناني - بيروت 1959 - ص 431-32.
² ابن خلدون - نفسه - ص 466-67.

³ Henri Terrasse: "A travers Rabat" Office Cherifienne du Tourisme, Rabat, 1938, p. 10-11.
⁴ الكالي - نفسه - ص 64.

⁵ De Castries - Op. cit - p 839.

وبمحافظة المصّب على استقلاله عند مطلع القرن السادس عشر الميلادي، واحتلال البرتغاليين لما عداه من ثغور أطلنتيكية، أضحى المنفذ البحري الوحيد لكافة التراب المغربي، والمركز الإسلامي الأقرب إلى المضيق، في الفترة التي انضاف فيها إلى الضغوط الإيبيرية تهديد قاري شرقي مع بلوغ القوات العثمانية للنهائيات الغربية للمغرب الأوسط. فتعرضت بذلك التجارة المغربية للمزيد من التضيق، مما أفاد سلا في مضاعفة قيمتها كمتنفس بعيد عن أية مضايقة مباشرة، وسمح لها بفرصة تحقيق تطور معاكس لما عرفته جل المناطق - باستثناء مركز فاس - من تدهور عام جراء الأوضاع المتأزمة التي شهدتها مرحلة انتقال الحكم من البيت المريني إلى نظيره السعدي.

وقد كان من أهم أسباب نجاح السعديين عملهم الجهادي ضد مناطق النفوذ الإيبيري، وهو ما حتم عليهم مواصلته بعد فرض سلطانهم على المغرب (1554م)؛ زيادة عن كون وعيهم بالخطر الذي يتهدد البلاد من الشرق قد جعلهم منذ البداية يقفون بحزم ضد الطموح العثماني. وأمام احتياجهم للأدوات العسكرية المتطورة رأى السعديون إضافة الدور الجهادي لمنطقة مصب أبي رقراق إلى دورها التجاري، متخذين الضفة اليسرى قاعدة للأسطول البحري الذي جاهدوا طوال دولتهم في سبيل إنجازه¹، الأمر الذي حاوله عبد المالك السعدي من خلال استصلاحه لدار الصناعة القديمة، وأوامره بإنشاء قطع بحرية عديدة بغية إعدادهما لدعم حصار الثغور المحتلة من طرف مجاهديه عن طريق البحر أيضا².

وإذا كانت معركة واد المخازن (1578) قد مكنت المغرب من سحق إحدى القوتين الإيبيريتين، فإنها بالمقابل رسخت وضعية الثغور المحتلة مع انتقالها إلى الإشراف الإسباني القوي آنذاك، في فترة اضطر خلالها أحمد المنصور تبني سياسة متقلبة الاتجاهات، تتأرجح بين التحالف مع المعسكر البروتستانتي، والاتفاقيات السرية مع إسبانيا الكاثوليكية، والمواجهة أو السياسة الدبلوماسية مع السلطان العثماني، هدفه في ذلك الحفاظ على استقلالية المغرب، وبروزه في مصاف القوى العالمية المعاصرة. وقد جعلته هذه الرغبة الملحة يسعى للبحث عن خلفية استراتيجية سياسية واقتصادية

¹ Les S. I. H. M. - 1^{re} série - Pays-Bas - T V - intro. p V.

² Ernest Leroux "Rabat et sa région" - éd. Leroux - Paris 1918 - p 32.

تزكي لدولته حظوتها بين الدول، وستكون بلاد السودان الغربي قبلته، حيث بمجر تحقيق ذلك اشتد طموحه إلى تأسيس أسطول بحري على غرار ما يتوفر عليه الملوك المعاصرون، مستعينا في سبيل إنجازه بعلاقاته الدبلوماسية وبشروطه المفروضة على التجار الأوربيين¹، رغم أن هذه التدابير لم تقض إلى النتائج المرجوة، نظرا للظروف السياسية والطبيعية التي عرفتتها نهاية حكمه، وفي وقت صار فيها المصعب يتطلع إلى الدور البحري الذي سيضطلع به بقوة رياس الرباط وسلا.

حتى
توازنها السكان
شبه تام برباط
برزت سلا
يؤثر في المنع
عنصريا من
الحضرية التي
الشديد جامعة
به، وعناصر ذ
عربية وأخرى
والأندلس، الشر
قوي من شأنه
وإذا كان
مصالحتها، فإن
المطرودون من
استقبالها لعدد
(حوالي 80 %
استقرارهم بها
الاجتماعي والدا
سلا، وبين مظ
صدور قرار الد

أثرنا اعتماد تسمية
بغير ذلك، في حين
في المصادر المغربية
الكافرين "تحقيق من
القاهرة 1966، ص
ص 167-168؛ السوي
cit, 36-37; etc...

¹ Les S. I. H. M - le série - Angleterre - T I - p 449-50.

الفصل الثاني: الشبيج البشري للمنطقة

حتى حدود سنة 1608م كانت منطقة مصب أبي رقراق متميزة بانعدام توازنها السكاني وشبه أحادية توزيع المستقرين بها، حيث كان يقابل تعمير سلا فراغ شبه تام برباط الفتح كنتاج للظروف السياسية والاقتصادية والتاريخية المذكورة؛ كما برزت سلا اعتبارا لتوسطها لمناطق شبه قروية شاسعة بمثابة مركز حضري رئيسي يؤثر في المنطقة عموما بحركيته التنظيمية إداريا واقتصاديا ودينيا، ويتأثر بها عنصريا من حيث انفتاحه على قبائل المنطقة واجتذابه لعناصرها بفعل المغريات الحضرية التي يمنحها أكثر من غيره. وهذا ما جعل تشكيلته البشرية تتميز بالتنوع الشديد جامعة بين العناصر قديمة الاستقرار منذ تأسيس المدينة وأخرى حديثة العهد به، وعناصر ذات تراث حضري عميق إلى جانب أخرى في بداية الاندماج، وعناصر عربية وأخرى بربرية، وهجرات من داخل المغرب إلى جانب أخرى من تونس والأندلس، الشيء الذي وصم المركز السلاوي بتعدد أصوله وبغياب أي تماسك دموي قوي من شأنه أن يجعل إحدى الفئات تتحكم في توجيه المنطقة.

وإذا كان هذا التعدد قد فرض التعايش بين مختلف هذه الفئات ووجد بين مصالحها، فإن بداية وفود الأندلسيين - الحرناسيون انطلاقا من سنة 1608، ثم المطرودون منذ سنة 1609 - قد خلخل التركيبة البشرية لمنطقة المصب، من حيث استقبالها لعدد مهم بشكل فجائي وسريع، جعل العنصر الجديد يصبح أكبر فئة سكانية (حوالي 80 % من المجموع العام)، كما جعل فراغ الضفة اليسرى يتقلص عند استقرارهم بها، الأمر الذي أحدث تعارضا بين هؤلاء وسكان سلا بفعل الاختلاف الاجتماعي والديني الذي كان بارزا بين المجتمع الإسلامي التقليدي الذي يمثلته مجتمع سلا، وبين مظاهر حياة من عاشوا المحنة الأندلسية منذ سقوط غرناطة إلى حين صدور قرار الطرد سنة 1609، أي الأندلسيون المضطهدون (المورسكيون)¹، والذي

¹ ألفوا اعتماد تسمية " الأندلسيين " عوض المورسكيين لكون الأولى أحق بالاستعمال، حيث لم يعرف هؤلاء في المصادر الإسلامية بغير ذلك، في حين استعملت الثانية مسيحيا كلفظ تحقيري. وحتى لفظة " المنحسين " المستعملة في المصادر البربرية لم يتم تداولها في المصادر المغربية. وللمزيد من المعلومات حول تلك الانقلاب أنظر المؤلفات التالية: الشهاب المجري " ناصر الدين على العموم الكافرين " تحقيق محمد رزوق، البيضاء 1987، ص 1213، عبد الله حلال " نهاية الأندلس - تاريخ العرب المنحسين " ط 1، القاهرة 1966، ص 1311 محمد حجي: " النزاهة اللائحة، وبعدها الديني والطمعي والسياسي " المطبعة الوطنية، الرباط 1964، ص 167-168 الموسوي، مرجع سابق، ص 167 وأبضا.

سيزيده تضارب المصالح الاقتصادية استفحالا من جراء المتغيرات الذي ولد للحقبة المسلمة الحضور الجديد، وما أحدثه من ضرر بمصالح أهالي الضفة الشمالية لقاعدة السكك الجدد المتعاطين للجهاد البحري، واستقطابهم - من وراء ذلك - للتبادل التجاري للأندلسيين للعرش.

إن هذا الاختلاف سيعضد الدوافع النفسية والدينية التي حملها المستقرون مع ليجعلوا من مصب أبي رقران إحدى القواعد الأساسية الموجهة ضد المصالح المسيحية، والإسبانية على وجه الخصوص، انتقاما لمعاناتهم بالأندلس المتوجة بقرى التهجير القسري.

1 - ظروف التهجير الأندلسي

ظلت التقلبات البشرية بين العدوتين محافظة على توازنها منذ فتح الأندلس بانفتاح كليهما على الأخرى، ووحدتهما الدينية المؤثرة في التوجه السياسي؛ واتخذ ذلك توجهها عاما قاعدته الجنوب بدافع الجهاد، لا سيما في العهدين المرابطي والموحدي الأول. بيد أن هزيمة العقاب وما أفرزته من تغيير ميزان القوة لقائد المسيحيين قد فرض على هذه التقلبات أن تأخذ صبغة مدنية وفي اتجاه مغاير، وتمثل ذلك في بداية الهجرات الأندلسية الاضطرابية إلى المغرب، ومن بينها إقرار عبد الواحد الرشيد الموحدي لبعض عناصرها برباط الفتح في بداية القرن الثالث عشر الميلادي¹.

ومع توالي الضغط المسيحي ونجاحه في انتزاع المزيد من الأراضي من الأندلسيين أضحى المغرب ملاذا مستمرا للوافدين منهم بصورة متقطعة، إلى حين أقول التواجد الإسلامي بمملكة غرناطة في نهاية القرن الخامس عشر، حيث ارتفعت أعداد المهاجرين قبيل وبعد سقوط غرناطة (1492م)، مجبرة الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط على استقبالهم، وأساسا مناطق المغرب وضمنها منطقة مصب أبي رقران².

إن التعصب الديني للإسبان ضد الأندلسيين قد جعلهم يبادرون إلى خرق شروط التسليم المصادق عليها مع حكام غرناطة، التي كانت قد كفلت بعض الحقوق المدنية

¹ السريسي - نفسه - ص 165.
² عنان - نفسه - ص 311.

والأقلية المسلمة في الأندلس¹، تحت إبحاح الكنيسة وكرد فعل منها ضد التوسع العثماني في شرق أوروبا على حساب المسيحية الأرثوذكسية؛ فانطلقت بذلك محاولات التنصير القسرية أو الترحيل، بتبني فكرة استحالة ضمان الولاء الحقيقي للأندلسيين للعرش المسيحي ما داموا مسلمين². وكان مرسوم الملك فرديناند (فبراير 1502م) أول قرار طرد في حق المسلمين على بعد عقد واحد من سقوط غرناطة³، وفتاحة لعهد متسم بالعسف والاضطهاد، دافعا بمن لم يتمكن من الهجرة الطوعية أو الفرار إلى بلاد الإسلام الرضوخ للتنصير على مضض، باعتبار المراقبة الشديدة التي كان الإسبان يمارسونها ضد تحركاتهم في الأطراف الساحلية من الأندلس، وأيضا انطلاقا من مراكز الاحتلال على شواطئ شمال إفريقيا للحيلولة دون لجونهم إلى بلدان المغرب⁴.

وقد ولد نشاط محاكم التفتيش وشدة الاضطهاد المسلط على رقاب بقايا المسلمين عقب قرارات التنصير ردود فعل قوية تعبر عن رفض الأندلسيين لسياسة الإدماج القسري التي تبنتها السلطات الإسبانية، جوبهت بالمزيد من التعتن والتكيد الذي لم يؤد إلا إلى التحكم النسبي في الأجساد دون الضمان؛ إذ ظلت تصرفات المنصرين كلها تتم عن استمرار لأشكال الحياة الإسلامية بعاداتها وتقاليدها باطنيا، وترتقي إلى المستوى الظاهري بوضوح في الحالات اللاشعورية⁵، وهو شيء لم يستسغه لا العرش ولا الكنيسة الإسبانيين.

لقد حاولت إسبانيا إخضاع الأندلسيين المضطهدين للنظام الاجتماعي العام بمختلف الوسائل المتعارضة أحيانا، دون تحقيق طموح إبحاجهم أو تذويبهم داخل المجتمع، فلا تجميعهم في أحياء مختلطة مع النصاري شجعهم على الانخراط في الحياة الكاثوليكية، ولا تهميشهم في أحياء (Moreira) الخاصة بهم مكن من طمس خصوصياتهم كأقلية⁶، وإنما دفعهم ذلك إلى اتباع نمطي حياة: أحدهما عام ويستجيب

¹ إبراهيم حركات: "المغرب عبر التاريخ" - الجزء الثاني - ط 2 - دار الرشاد الحديثة - البيضاء 1984 - ص 284.

² طان - نفسه - ص 313.

³ Brunot - Op. cit - p 153.

⁴ العجري - نفسه - ص 37.

⁵ Louis Cardaillac: "Morisques et Chrétiens" - Klincksieck - Paris 1970 - p 15-16.

⁶ يذكر برويل أن الأحياء السكنية الخاصة بالأندلسيين بإسبانيا كانت على شاكلة أحياء اليهود بالمدين الإسلامية. وقد كانت مدريد لوحدها تحتضن حين من هذه الأحياء. انظر: Fernand Braudel "La Méditerranée et le monde méditerranéen au Temps de Philippe II", T II, éd. A. Colin, Paris 1966, p 120.

لانشغال العنف
المستعمرات
بأنهم شعب ينفذ
كل نشاطهم لل
وقد ولد
في ذلك سياس
تقرير إلى الم
إلى أكثر من
الحكومة تزيد
لها ارتكاب مد
وأمام ص
عنفه تترجم
مسلمين وغير
الملاح، وإثقة
اليومية. وقد
أمني واقتصاد
أثولة منتظمة
المسافرين و
المزيفة، إلى
إلى إجبارهم

لحاجة استمرارهم في العيش وسط مجتمع متعصب يراقب حركاتهم وسكناتهم الدينية والاجتماعية؛ وثانيهما خاص يتوافق وتقاليدهم وعاداتهم الموروثة عن السلف، رء ما أفرزته هذه الضغوط من تشكيك وحذر حتى بين ظهرانيهم خشية السقوط بين أيدي المحققين الذين لم يكونوا يتورعون عن إرسالهم إلى مواكب الإحراق بكل بساطة². وصحيح أن مواقف محاكم التفتيش لم تكن لتبلغ هذا الحد لولا فشل محاولات رجال الدين في إجبار الأندلسيين على قبول التنصير، إذ كان البابوات يسارعون إلى إصدار صكوك البراءة في كل مرة يعلن فيها أندلسي عن ارتداده عن الإسلام ثانية دون أن يمكن ذلك من تضيق الهوة بين الأندلسيين والعقيدة الكاثوليكية، ولا من أمل تحقيق الوحدة الدينية.

وعلى غرار ما توصل إليه المطران ريبييرا (Rebeira) أتى اعتراف فيليب الثالث بفشل سياسته في هذا المضمار، حسبما جاء في ديباجة قرار الطرد، كاتباً إلى حاكمه على بلنسية: "قد علمت ما صنع وعمل مع النصارى الجدد بالأندلس، أهل تلك السلطنة وقشتالة على طول السنين الكثيرة الماضية، من التحريض والإرشاد لإثباتهم في ديننا المجيد وإيماننا، ولا نفع معهم قليلاً ولا كثيراً؛ لأنه لم يوجد فيهم واحد نصراني حقيقة"⁴. ووصول فيليب الثالث إلى هذه القناعة تم لتظافر عوامل أخرى عديدة، ذلك أن الهجرات المستمرة، والإعدامات التي تعرض لها الأندلسيون لم ينجم عنها خفض أعدادهم ولا توازن نسبة نموهم الديمغرافي العام، بل ظلت متسارعة في وتيرتها بناء على تقاليد اجتماعية ودينية، وكان الفارق العام بين نسبتي التطور الديمغرافي لدى الأندلسيين والإسبان إيجابية لفائدة الأوائل⁵، وبلغت نسبتهم ببلنسية ثلث مجموع الساكنة⁶.

ومن جهة ثانية، يتضح أن ابتعادهم عن المجال السياسي والعسكري سمح لهم بنصب كل اهتمامهم صوب المجال الاقتصادي، مستغلين خبراتهم في الأنشطة المختلفة، ومستفيدين من توفر الأمن الداخلي العام ومن ضعف المنافسة المحلية كنتاج

¹ الحجري، نفسه، ص 18.

² نفسه، ص 29.

⁴ الحجري نفسه - ص 111.

⁵ محمد رزوق: "الأندلسيون ومجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و 17" - إفريقيا الشرق - البيضاء 1989 -

⁶ ص 121.

Braudel - Op. cit - p 121.

لانتشغال العنصر الإسباني المسيحي عموما بالجبهات العسكرية والإدارية قاريا وفي المستعمرات البعيدة، الشيء الذي جعل القنصل البندقي بمدريد يصفهم سنة 1595م بأنهم شعب ينمو باطراد في العدد والثروة، وأنهم لا يذهبون إلى الحرب، بل يكرسون كل نشاطهم للتجارة واجتناء الربح¹.

وقد ولد هذا النجاح الاقتصادي حافزا جديدا للنقمة والحقد لدى الإسبان، متهمين في ذلك سياسة التسامح التي سلكتها الحكومة حيال الأندلسيين المنصرين. وقد رفع تقرير إلى الملك (في فبراير 1596م) يستعرض نمو ثرواتهم التي تصل لدى البعض إلى أكثر من عشرين ألف دوكا²، رغم الحيف الضريبي المسلط عليهم، والذي كانت الحكومة تزيد من وطأته كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وأحيانا باختلاق دواعي تبيع لها ارتكاب مذابح منظمة ضد أعيان الأندلس للاستيلاء على ثرواتهم³.

وأمام صنوف الاضطهاد كان التذمر الأندلسي لا يلبث أن يتحول إلى ربود أفعال عنيفة تترجم في انتفاضات أندلسية صرفة أحيانا، أو بالتنسيق مع خصوم إسبانيا من مسلمين وغيرهم، رغم التدابير الوقائية التي اتخذها الملوك الإسبان كتجريدهم من السلاح، وإتقال كاهلهم بالضرائب والأتاوات⁴، والرقابة المتواصلة على حياتهم اليومية. وقد تعددت هذه الانتفاضات من حيث أساليبها، منها ما اتخذ دور تخريب أمني واقتصادي على يد أندلسيي حرناشو الذين تمكنوا من الحفاظ على أسلحتهم لقاء أتاوة منتظمة قدرها ثلاثون ألف دوكا، والذين دأبوا على تنظيم عمليات نهب المسافرين وعرقلة المواصلات الداخلية، فضلا عن إغراقهم السوق المالية بالنقد المزيفة، إلى حين نجاح القائد خورخي لوبيز مادير (J. L. Madere) في التوصل إلى إجبارهم على الرحيل إلى المغرب في أكتوبر 1608م⁵.

¹ طان - نفسه - ص 381.

² Ibid p 128.

³ وصف الحجري ما تعرض له تجار بلنسية: "حين قاموا على السلطان جاء إليها وقبض من أعيان الأندلس بهذه المدينة مائة وأربعين رجلا وقتلهم، كل ذلك لياخذ أموالهم، وكان الحق أن يتركهم لأنهم ما كانوا من القوام". انظر: الحجري، نفسه، ص 34.

⁴ Dan - Op cit - p 204.

⁵ Les S I H M - le série - France - T III - p 188.

على أن الانتفاضة المسلحة الرئيسية التي عرفها عهد الملك فيليب الثالث نظمت في الفترة الأخيرة لوجودهم بإسبانيا، وكانت مشابهة إلى حد ما بسابقتها الشهيرتين. من حيث اندلاعها في منطقة جبلية وبمشاركة أعداد هامة من المتمردين، وهذه المرة بناحية موكلادي كورتيس (*Mucla de Cortes*) في ضاحية بلنسية². وإذا كانت هذه الثورة لم تحل دون تنفيذ قرار الطرد، فإنها كشفت على الأقل قوة الحضور الأندلسي بخصوصياته من جهة، وفضاعة الموقف الرسمي حيال الثوار من جهة أخرى، حيث فقدوا من بين صفوفهم حوالي أربعين ألف رجل ما بين قتيل وأسير³. إن الفشل الذي منيت به الانتفاضة السابقة ليوضح افتقارها إلى الدعم اللازم لها من طرف حكام المغرب والعالم الإسلامي، وأحياناً نتيجة استغلال بعضهم للورقة الأندلسية كوسيلة ضغط في السياسة الدولية⁴؛ وربما هذا ما دفع الأندلسيين المنصرين إلى تقديم مشروع انتفاضتهم المذكورة إلى مولاي زيدان (بعد سنة 1608)، محاولين فضح ثغرات إسبانيا وضعفها العسكري الناجم عن تعدد حروبها القارية، مقترحين عليه التنسيق مع الأقاليم المتحدة وباقي خصوم إسبانيا، في الوقت الذي التزموا فيه بقيام مائتي ألف مسلح بالأندلس⁵. إلا أن هذا المشروع لم يرق إلى مستوى التنفيذ نظراً لانشغالات مولاي زيدان بمواجهة منافسيه على السلطة، وبالتالي كان عجزه آنذاك على السيطرة على الحكم إجابة سلبية لمحاولة غزو إسبانيا، زيادة على أن لجوء أخيه المأمون لدي فيليب الثالث وعرض الثوار الأمر عليه قد عجل باقتضاح الانتفاضة. ومن ثم صدور قرار الطرد كنتيجة لذلك.

لقد بدأ التفكير في إصدار القرار منذ سنة 1582م، حينما دفعت ثورة البشراة فيليب الثاني إلى وضع مشروع ينهي المعضلة الأندلسية بنفي أفرادها كلية. ورغماً

¹ نقصد بذلك ثورة جبال إسبانيان (*Sierra Espadan*) سنة 1526 في عهد شارل الخامس، وثورة البشراة (*Alpujarras*) في عهد نجله فيليب الثاني سنة 1570م.

Braudel - Op. cit - p 121.
Ernest Lavisse et Alfred Rambaud " : *Histoire générale* " TV, éd. A. Colin, Paris 1905, p 653.

⁴ يذكر بروديل اكتشاف مؤامرة كبرى بإسبيلية خلال صيف 1580 تتمثل في اعتزام الأندلسيين المنصرين تدبير انتفاضة عارمة بتنسيق مع المغرب، وأن اقتضاجها لدى البلاط الأندلسي تم على يد مبعوثي أحمد المنصور السعدي المهتم آنذاك بربط علاقات طيبة مع فيليب الثاني لمواجهة الضغط العثماني. انظر: Braudel - Op. cit, p. 127.

⁵ مؤلف مجهول: "تاريخ الدولة السعوية التاكدارية"، نشر جورج كولان، المطبعة الجديدة، الرباط 1934، ص 96.

مباشرة تنفيذ التدابير الأولى الرامية إلى حصر أعدادهم¹، لم يتم تطبيقه بناء على انشغالاته الأوربية. ولا يعني هذا أن الإسبان قد تراجعوا عن المشروع، بل استمر بعض المتشددون في استحضاره كلما زادت الضغوط الخارجية استتفحالا، خاصة وأن اتصالات الأندلسيين بخصوم إسبانيا، وعلى رأسهم رياس الجزائر الذين تفاقت عملياتهم الجهادية على الشواطئ الجنوبية أضحت غير خافية على أحد صناعات قرار الطرد: المطران ريبيرا، الذي يقول في ذلك: " هناك تسعون ألف رجل مستعدون لحمل السلاح (ضدنا)؛ وإذا ما استطاع خصومنا تدبير محاولة غزونا ستكون وضعيتنا محرجة"².

ويبرز هذا بالملحوس زيادة مخاوف البلاط الإسباني من استثمار خصومه للعنصر الأندلسي كغيره من العناصر الداخلية المعارضة، والقابلة للانتفاضة بمجرد منوح الفرصة، وهذا ما جعل آراء الساسة ورجال الدين تجتمع حول ضرورة القضاء على هذا الوجود إما بالاسترقاق، أو بالإبادة عن طريق استخدامهم في سخرة المجاذيف ومناجم المستعمرات، وأحيانا إلى اقتراح إفنائهم بالقتل المجرى³. وهكذا بدأت فكرة الطرد تتبلور من جديد، خاصة لدى الوزير الدوق دي ليرما (Duc de Llerma) بنقله السياسي، والمطران ريبيرا بنقله الديني، الذين سعيا إلى ترسيخه داخل مجلس الدولة منذ سنة 1599م بالاعتماد على مشروع فيليب الثاني سالف الذكر⁴.

ومنذ ذلك ظلت الكنيسة - وحتى إبان فترة انفراج العلاقات الأسبانية مع باقي الدول الأوربية - ترتب مسألة الطرد في أولى اهتماماتها، ولم يتوان المطران المذكور عن المطالبة بتنفيذه كلما واثته الظروف⁵، ولم يتمكن مع ذلك من التعجيل بتحقيقه إلا بعد رجحان كفة مولاي زيدان في صراعه ضد أخيه المأمون في ربيع سنة 1609م، واكتشاف اتصالات أندلسية جديدة به، وتشكك البلاط الإسباني - فضلا عن ذلك - في وجود علاقات مريبة بين هؤلاء والسultan العثماني من جهة، وبينهم وبين فرنسا

¹ كتب البحري قائلا: " هذا فيليب الثاني أمر في بلاده كلها أن يزعموا جميع الأندلس صفرا وكهرا، حتى الذين في رحم النساء بظهور الحمل ". انظر: البحري - نفسه - ص 111.

² Lavisce - Op. cit - p 652.

³ غنان - نفسه - ص 394.

⁴ Braudel - Op. cit - p 128.

⁵ تكررت مطالبة المطران ريبيرا بطرد الأندلسيين خلال اجتماعات مجلس الدولة ولا سيما سني 1602 و 1605م. باعتباره الحل الأوحده للقضاء على الخطر المادي والمعنوي الذي يشكله عندهم. انظر: Lavisce, Op. cit, p 652.

وانجلترا من جهة أخرى، مما ساعد المتحمسين للحل الجذري على التعجيل بإيجاد الصيغة الختامية لقرار الطرد واقتلاع العنصر الأندلسي نهائيا من البلاد¹. وتقدم صيغة القرار الصادر في شتبر 1609 مبررات اتخاذها، والمتمثلة في فشل سياسة الإدماج الديني، والتأكد من المؤامرات المدبرة مع الخصوم المسلمين والبروتستانتين، وما يشكله ذلك من خطورة قصوى على وضعية البلاد. وقد نص القرار على خروج كافة الأندلسيين من إسبانيا في مهلة محددة في ثلاثة أيام عن صدوره، مع نهب وقتل كل من لم يمثل لذلك، واستثنى القرار نسبة 6 % من الأسر الأندلسية الخبيرة بالمجال الفلاحي والمشهود لعناصرها بحسن السلوك الاجتماعي والديني، وأيضا الإبقاء على الأطفال إسباني الأب أو الأم، وعلى زوجات المسيحيين من الأندلسيات؛ أمرا الإسبان بعدم التعرض للمطرودين لا في أموالهم ولا في عيالهم تحت طائلة العقاب الشديد². ولم يلبث فيليب الثالث أن أرفق القرار باستدراك يقضي بأخذ جميع الأطفال الأندلسيين الذين تقل أعمارهم عن سبع سنوات، وهو الاستدراك الذي أدى تأخر صدوره إلى تنفيذه حتى على متن السفن، وفي مراكز الإرساء الإسبانية بشمال إفريقيا مثل سبتة وطنجة³.

والملاحظ أن القرار وجد استحسانا على العموم في صفوف الأندلسيين، حيث أن القليل منهم من ود البقاء⁴، ومعظمهم أثر الرحيل على ظهر سفن مأجورة من طرفهم، خاصة في أوساط الميسورين منهم، لما يوفره ذلك من عودة آمنة إلى ديار الإسلام التي ألفوا المجازفة بحياتهم من أجل الفرار إليها⁵. على أنه كان من بين المطرودين من لم يستغفر القرار، الذي نص على طرد كل من كان قد دخل في دين الإسلام " لسبب أو لعهد ما " ⁶، فكان أن تعرض للطرد أندلسيون تنصروا طوعا لا سيما في أوساط المناطق الشمالية، وأيضا أعقاب إسبان قدامى أسلموا طوعا أو كرها سلفا إبان تحكم الإسلام بالأندلس⁷، وهذا ما يفسر مطالبة العديد منهم بمراجعة هذا القرار لما لمسوا فيه من جور وحيف في حقهم.

¹ Braudel - Op. cit - p 129.

⁴ Penz - Op. cit - p 10.

⁶ Coindreau - Op. cit - p 29.

⁷ Penz - Op. cit - p 10.

² الحجري - نفسه - ص 111-13.

³ نفسه - ص 113.

⁵ عنان - نفسه - ص 398.

وقد تم تن
واسترامادورة
كاطالونيا في
القرار على
منهم إلى تونس
مراسي الجنوب
أبنائه بالتوجه
كاطالونيا ليطمس
تشبههم بالمسيح
شروط الولاء
الأندلسيين نحو
اضيق فترة ز
ورغم أن
الأحداث تؤكد
وزاد من حدة
خاصة الفرنسي
الركاب قبل
رداءتها، مما
عموما، وعلى
وبلورتها في

¹ تختلف التواريخ
اعتمادا ما ذكره
من 147 ع
-P.U.F.-Paris

² يختلف المؤرخون
ومليون، حسب
من 126-127

³ عنان - نفسه -

⁴ نفسه - ص 398

⁵ رزوق - نفسه -

⁶ الحجري - نفسه

وقد تم تنفيذ القرار بدءاً بأندلسي بلنسية في شتبر 1609، ثم في قشتالة وإسترامادورة في أواخر تلك السنة، وغرناطة في يناير 1610، وأراغون في ماي، ثم كاتالونيا في مارس 1611؛ وتأخر تنفيذه في مورسية إلى بداية سنة 1614¹. وشمل القرار على العموم ما بين ثلاثمائة ألف وستمائة ألف أندلسي²، توجه القسم الأعظم منهم إلى تونس، وانتقلت جماعات منهم إلى مناطق الجزائر والمغرب قادمين من مراسي الجنوب الإسباني؛ ولم يتورع البعض منهم عن القيام بمحاولة الحفاظ على أبنائه بالتوجه نحو الشمال بحجة الرحيل إلى الأراضي النصرانية صوب فرنسا وإقليم كاتالونيا ليتسرب بعد ذلك نحو الثغور الإفريقية³، وربما كان هؤلاء ممن أظهروا تشبثهم بالمسيحية، وطالبوا بمراجعة القرار، وسمح الأساقفة بالبقاء لمن توفرت فيهم شروط الولاء والإخلاص⁴، وإلا سيطرح السؤال كيف سمح الإسبان بتنقل بعض الأندلسيين نحو الشمال في وقت شددوا فيه التدابير لتنفيذ الطرد عن طريق الجنوب في أضيق فترة زمنية (مهلة ثلاثة أيام)، وتحت إجراءات زجرية تصل حد الإعدام؟

ورغم أن القرار قد سن على توفير ظروف أمنية لرحيل المطرودين، فإن الأحداث تؤكد تعدد الانتهاكات فوق التراب الإسباني نهبا وتنكيلا من طرف العامة⁵، وزاد من حدة الظروف السيئة ما تعرض له المطرودون فوق ظهر السفن أيضا، خاصة الفرنسية المأجورة من طرفهم، إذ استغل بعض ربابنتها ذلك للقيام بنهب الركاب قبل إنزالهم على السواحل الإسلامية⁶، لتكون ظروف الهجرة قد تفاقمت ردائها، مما سيكون له الأثر الكبير على حنق الأندلسيين المطرودين على المسيحية عموما، وعلى الكاثوليكية بوجه خاص، وميساهم في توجيه أنشطتهم المستقبلية وبلورتها في الجهاد ضد النصارى بشكل متجدد وأمثل.

¹ تختلف التواريخ المضبوطة لصعود قرارات الطرد في المناطق الأندلسية بتعدد المؤرخين المشاركون للموضوع. وقد اعتمدنا ما ذكرناه انطلاقا من المقارنات بين ما ذكر لدى: المويبي - نفسه - ص 104؛ الشاذلي - نفسه - ص 147؛ عنان - نفسه - ص 398-401؛ حركات - نفسه - ص 286؛ ولها: Brignon-Op cit-p230; Edmond Préclin et Victor Tapié : "Le XVII^e siècle"-P.U.F.-Paris 1949 p 4; etc...

² يختلف المؤرخون في ما يخص أعداد الأندلسيين الذين تعرضوا للقرار، ويراوح الرقم بين ثلاثمائة ألف مطرود ومليون، حسبما جاء لدى: الحجري، نفسه، ص 155 رزوق (ويضم لرقما متوعدة لمؤرخين معاصرين)، نفسه، ص 126-127؛ وأيضا: Dan, Op cit, p 204; Lavissee, Op. cit, p 653; Préclin, Op. cit, p 4; etc...

³ عنان - نفسه - ص 401.

⁴ نفسه - ص 398.

⁵ رزوق - نفسه - ص 125.

⁶ الحجري - نفسه - ص 17.

2 - الاستقرار الأندلسي بمصر أبي رقراق

رغم تشبههم بالأرض، كان الأندلسيون يرون في التهجير إلى شمال إفريقيا خلاصا من اضطهاد دام أزيد من قرن، مع ما يشكله من توفير حياة أمنة عقانديا واجتماعيا وبعيدة عما ألفوه من مراقبة يومية ومتابعات قضائية وتمييزين عنصري وديني؛ بيد أن ما أعطى لهجرتهم طابع التغريب وهم يغادرون أرض الأندلس هو ما تعرضوا له من نهب وتكيد في مختلف الأقاليم الإسبانية، وأيضا أثناء عبورهم البحر على يد البحارة الفرنسيين. ولم تكن مأسيتهم لتنتهي عند بلوغهم البر الإفريقي، وإنما تعرضت مجموعات منهم بمناطق الاستقبال لعسف جديد هذه المرة على يد بعض الأهالي من المسلمين، خاصة وأن مناطق المغرب كانت تعيش اضطرابا سياسيا جعل تثبيت الاستقرار في المناطق البعيدة عن مركز السلطة غير فعلي. ويصف المقرري في كتابه ما تعرض له أولئك المهاجرون في أراضي الإسلام: "تسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله في الطرقات، ونهبوا أموالهم. وهكذا كان ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل منهم من هذه المضرة"¹.

ولا تترجم هذه الأحداث حقيقة الشعور العام تجاه مأساة الأندلسيين، إذ حاول مختلف الحكام المعاصرين تقديم العون للمطرودين تخفيفا من نكبتهم منذ صدور القرار؛ حيث أوصى العاهل العثماني - عند تيقنه من الشروع في تنفيذه - نظيره الفرنسي لويس الثالث عشر بمنح التسهيلات اللازمة لرحيل الأندلسيين²، الأمر الذي مكّنهم من الحصول على السفن الفرنسية لتحقيق الجلاء في المواعيد المحددة؛ وسعى مولاي زيدان من جهته إلى حمايتهم والدفاع عن مصالحهم بالتدخل لدى الملك الفرنسي للمطالبة برد ما نهب لبعضهم من طرف بحارة فرنسا بتكليف الشهاب الحجري بجزء من هذه المهمة³.

بل نجد أن الحس الديني والشعور بالمآل البنيس للأندلس قد ولد لدى أهالي الغرب الإسلامي تعاطفا وغيره على هؤلاء الوافدين، مبادرين إلى تقديم يد العون لهم⁴، وتمثل ذلك في التآزر والتعااض الذي أبداه الحكام والرعايا إزاءهم، وفق ما تشهد به

¹ أحمد المقرري: "نفع الطبيب من غصن الأندلس الرطيب" - تحقيق إحسان عباس - الجزء الرابع - دار صادر - بيروت 1968 - ص 528.
² الحجري - نفسه - ص 49.
³ نفسه - ص 68.
⁴ نفسه - ص 17.

ذلك في التآزر والتعاوض الذي أبداه الحكام والرعايا إزاءهم، وفق ما تشهد به المصادر عما لقوه بتونس، حيث تكلف أميرها الداوي عثمان قارة بإقرارهم بالمدينة وغيرها من القرى، والإحسان بهم؛ وكذلك الشيخ الفقيه سيدي أبو الغيث القشاش الذي كان يمنحهم كل يوم نحو ألف وخمسمائة قرصة من الخبز¹.

لقد انطلقت حركة التهجير من الموانئ الجنوبية لإسبانيا أساسا، وتفرعت خطوط اتجاهها نحو مختلف الثغور المتوسطية الإسلامية، وانتشر الأندلسيون على طول الشريط الساحلي الممتد من الإسكندرية شرقا إلى ما وراء مصب أبي رقران غربا²، وكان نصيب المغرب منهم مهما جدا، جعله المؤرخون يتبوأ المرتبة الثانية بعد تونس³، حيث قدر عدد الوافدين عليه بما يناهز الخمسين ألفا، ومنهم من يجعله أكثر من ذلك⁴. وتوزع جمهورهم في المراكز التي ضمنت لهم استقرارا آمنا، خصوصا تلك التي كانت تضم جاليات أندلسية سابقة، وعلى رأسها المدينتان المحوريتان فاس ومراكش والمناطق التابعة لهما وغير المتأثرة بالأحداث المضطربة، مثل حواضر الهوامش البعيدة: تطوان ومصب أبي رقران⁵.

وقد كان هذا الأخير - وعلى فترات متباعدة - نقطة استقبال مألوفة للهجرات الأندلسية كلما اشتد الضغط الإيبيري على المناطق الإسلامية بالأندلس قبل سقوط غرناطة⁶، وبعد ذلك أيضا باتضمام النازحين إليه خلال سنتي 1501 و1502م⁷، مما سيكون له انعكاس جانبي للاجني بداية القرن السابع عشر الميلادي، حيث سيمثل ذلك عامل استقطاب أساسي لبعضهم، وقبلهم الحرناشيون ومن رافقهم من أندلسيي بعض المناطق قبيل قرار الطرد، حيث ظل الأندلسيون المستقرون بمنطقة المصب على علاقة مستمرة بإخوانهم الموجودين بإسبانيا، لن تنتهي إلا باستقدام ثلثة مهمة منهم⁸.

¹ نفسه - ص 55.

² Jean Monlau - "Les Etats Barbaresques" - P. U. F. - Paris 1964 - p 72.

³ المقرئ - نفسه - ص 528.

⁴ يختلف المؤرخون حول ذلك، حيث تتراوح الأرقام المقدمة ما بين أربعين ألفا ومئة ألف واحد. انظر: أربعين ألفا لدى الشاذلي - نفسه - ص 1147 وما بين ستين ألفا ومئة ألف لدى رزوق - نفسه - ص 130 ومئة ألف لدى عباس نفسه - ص 401.

⁵ المقرئ - نفسه - ص 528.

⁶ المبريسي - نفسه - ص 165.

⁷ Leroux - Op cit - pp 18 et 66.

⁸ Brunot - Op cit - p 153.

المهاجر العربي

مكونات المهاجرين تونسيين في فترة ساد أحمد بن عبد الإسماعيلين و سلا قد استقرت إسبانيا سنة

إن هذا التعدد والتوحد ملانم لكافة خصوصيات كتنجبة لوح واستقرارهم من جراء العنصري.

إن الع المصوب خ والأعلى بالانتباه إلى الطرد، أي وليرنا، و

وبإزاء الاستقرار الأندلسي المبكر بالمنطقة تميزت ضفتا المصوب بغياب قوة إثنية أو تماسك عنصري من شأنه جعل المنطقة تخضع لتوجهات مصالح ضيقة لإحدى الفئات المشكلة لجزء من وحدات نسيجها العرقي، حيث بمقابل فراغ رباط الفتح كانت سلا عند مطلع القرن السابع عشر تتمتع بتعدد أصولها البشرية عرقيا وتاريخيا. ومدينة حضرية فعليا سعت إلى إذابة خصائص مقوماتها العنصرية، دافعة إلى الانسجام بين المستقرين القدامى والعناصر الوافدة عليها عبر مختلف الحقب، وعامل على اندماجهم.

لقد ظهرت مدينة سلا كفضاء مفتوح على مختلف التأثيرات البشرية المتاخمة له باعتبار توسعها لمنطقة بدوية شاسعة تمتد من إقليم الغرب إلى إقليم دكالة، بما في ذلك منطقة الشاوية، مع ما تشمله من قبائل متحركة، وخاصة القبائل العربية من بني هلال التي كانت سلا تضطلع إزاء عناصرها بدور المرفق الأساسي في النواحي الاقتصادية والإدارية والدينية والفكرية حتى خلال فترات الاضطراب، ولذلك أمدت هذه القبائل المدينة بأفراد من المنتسبين إليها، مثل آل عواد النازحين من دكالة، وآل معينو من عرب الشاوية، وآل الصبيحي من قبيلة بني مالك الهلالية، وآل فنيش من عرب سفيل النازحين من الغرب¹، فاندمج هؤلاء مع من تبقى من العناصر قديمة الاستقرار مثل آل مسطاس الذين استقروا بها منذ النشأة نازحين من مركز شالة²، وأيضا مع العناصر الأخرى المنحدرة من مناطق التماس بين المجالين الحضري والبدوي، مثل بعض المجموعات من قبائل عامر وبني حسين، وهي كلها قبائل كانت متاخمة للإشعاع الحضري للمدينة، وتتفاعل معها على المستويات المذكورة، إلى درجة اجتذاب فئات منها للانخراط في حياة الاستقرار والمدينة.

وحركة القبائل بعيدة المدى واستفادتها من غياب أية حواجز معرقة سياسيا أو طبيعيا تعيقها عن حرية الامتداد والتنقل قد جعلت سلا تستقبل حتى بعض العناصر من القبائل النائية عنها، مثل آل بنسعيد المنتمين لصنهاجة سوس، وآل المريني المنتسبين لـقبائل الزناتية، وذلك خلال القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين³، وكلها عناصر بربرية الأصل، لتصبح حاضرة المصوب عبارة عن تجمع لنسيج مكون من مزيج من

1. بقلم عشاش.

2. عشاش - نفس - ص 52، 53، 60؛ وأيضا: Leroux - Op. cit - p 205-06.

3. عشاش - نفس - ص 52، 53، 60؛ وأيضا: Leroux - Op. cit - p 205-06.

4. انظر في ذلك

ns - p 14.

cit - p 301.)

مكونات المجتمع المغربي، انضافت إليه عناصر نازحة من خارج المغرب، مثل مهاجري تونس خلال العهد الموحد¹، والعناصر الأندلسية النازحة قبل قرار الطرد في فترة سابقة عن سقوط غرناطة وعلى رأسهم آل عمار المنتسبين لسيدي الحاج أحمد بن عاشر، أو عند وبعيد هذا الحدث مثل آل زنيبر الغرناطيين وآل ابن عطية الإشبيليين وآل خالص الرونديين وآل حمون القرطبيين². ولا يستبعد لورو أن تكون سلا قد استقطبت ضمن هؤلاء اللاجئين الأندلسيين نصيبها من اليهود المطرودين من إسبانيا سنة 1492 م³.

إن هذا التنوع العنصري كان من شأنه أن يوصم التشكيلة البشرية للمنطقة بطابع التعدد والتوازن بين طوائفها المختلفة، مما أهلها لتبرز كمرکز استقبال واحتضان ملانم لكافة الشرائح العرقية، بفضل ما تمنحه لكل شريحة من إمكانية الحفاظ على خصوصياتها الذاتية في إطار التفاعل على مستوى الانسجام الظاهري المفروض، كنتيجة لوحدة المصالح والغايات التي لن يعكر صفوها عند ورود الوافدين الجدد واستقرارهم بالصفة اليسرى إلا ظهور الاختلالات المتضاربة في مصالح الضفتين، من جراء المتغيرات التي واكبت هذا الاستقرار، خاصة على مستوى التوازن العنصري.

إن العدد الذي يقدره المؤرخون في ما يخص الأندلسيين النازحين إلى ضفتي المصب خلال القرن السابع عشر الميلادي يتباين بشكل كبير بين الرقمين الأدنى والأعلى (من ثلاثة آلاف إلى ثمانية آلاف نازح أندلسي)⁴. ولا يمكن فهم ذلك إلا بالانتباه إلى أن عددا من المؤرخين قد أغفلوا عدد الوافدين من إسبانيا قبيل قرار الطرد، أي من يعرف بالحرناشيين ومن رافقهم من أندلسيي سان لوكار وقاديس وليرنات، وهم جموع نزحوا سنة 1608، يقدر كايي عددهم بما بين ألفين وثلاثة آلاف

¹ جعفر الناصري: "سلا ورباط الفتوح، واسطولهما القرصاني المهادي"، مخطوط بالخزانة الصليبية، الجزء الأول، ص 114.

² عشاش - نفسه - صص 25، 33، 62 و 63.

³ Leroux Op. cit p 18.

⁴ انظر في ذلك: ثمانية آلاف أندلسي (Caillé - Op. cit - p 249) وسبعة إلى ثمانية آلاف (Caillé "La petite histoire de Rabat" - Office Chérifienne d'éditions - p 14. وثلاثة إلى أربعة آلاف (Leroux - Brunot - Op. cit - pp 22 et 135 Op. cit - p 301.)

⁵ Les S I H M, 1^{re} série - France - T III - p 188.

وبإزاء الاستقرار الأندلسي المبكر بالمنطقة تميزت ضعفًا المصعب بغياب قوة إني أو تماسك عنصر من شأنه جعل المنطقة تخضع لتوجهات مصالح ضيقة لإحدى الفئات المشكلة لجزء من وحدات نسيجها العرقي، حيث بمقابل فراغ رباط الفتح كانت سلا عند مطلع القرن السابع عشر تتمتع بتعدد أصولها البشرية عرقيا وتاريخيا. وكمدينة حضرية فعليا سعت إلى إذابة خصائص مقوماتها العنصرية، دافعة إلى الانسجام بين المستقرين القادمين والعناصر الوافدة عليها عبر مختلف الحقب، وعاملة على اندماجهم.

لقد ظهرت مدينة سلا كفضاء مفتوح على مختلف التأثيرات البشرية المتاخمة له باعتبار توسطها لمنطقة بدوية شاسعة تمتد من إقليم الغرب إلى إقليم دكالة، بما في ذلك منطقة الشاوية، مع ما تشمله من قبائل متحركة، وخاصة القبائل العربية من بني هلال التي كانت سلا تضطلع بإزاء عناصرها بدور المرفق الأساسي في النواحي الاقتصادية والإدارية والدينية والفكرية حتى خلال فترات الاضطراب، ولذلك أمدت هذه القبائل المدينة بأفراد من المنتسبين إليها، مثل آل عواد النازحين من دكالة، وآل معينو من عرب الشاوية، وآل الصبيحي من قبيلة بني مالك الهلالية، وآل فنيش من عرب سفيار النازحين من الغرب¹؛ فاندماج هؤلاء مع من تبقى من العناصر قديمة الاستقرار مثل آل مسطاس الذين استقروا بها منذ النشأة نازحين من مركز شالة²، وأيضا مع العناصر الأخرى المنحدرة من مناطق التماس بين المجالين الحضري والبدوي، مثل بعض المجموعات من قبائل عامر وبني حسين، وهي كلها قبائل كانت متاخمة للإشعاع الحضري للمدينة، وتتفاعل معها على المستويات المذكورة، إلى درجة اجتذاب فئات منها للانخراط في حياة الاستقرار والمدينة.

وحركة القبائل بعيدة المدى واستفادتها من غياب أية حواجز معرقة سياسيا أو طبيعيا تعيقها عن حرية الامتداد والتنقل قد جعلت سلا تستقبل حتى بعض العناصر من القبائل النائية عنها، مثل آل بنسعيد المنتمين لصنهاجة سوس، وآل المريني المنتسبين للقبائل الزناتية، وذلك خلال القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين³، وكلها عناصر بربرية الأصل، لتصبح حاضرة المصعب عبارة عن تجمع لنسيج مكون من مزيج من

¹ بلقاسم عشاش: "تاريخ عائلات سلا" - مخطوط بالخزانة الصليبية - رقم 2/146 - من 37، 41، 42، 48، 56 و 57
² عشاش - نفسه - ص 52، 53 و 60 وأيضا: 205-06 - p - cit - Leroux - Op. cit - p 204-05.
³ عشاش - نفسه - ص 52، 53 و 60 وأيضا: 205-06 - p - cit - Leroux - Op. cit - p 204-05.

مكونات المجتمع المغربي، انضافت إليه عناصر نازحة من خارج المغرب، مثل مهاجري تونس خلال العهد الموحي¹، والعناصر الأندلسية النازحة قبل قرار الطرد في فترة سابقة عن سقوط غرناطة وعلى رأسهم آل عمار المنتسبين لسبيدي الحاج أحمد بن عاشر، أو عند وبعد هذا الحدث مثل آل زنيير الغرناطيين وآل ابن عطية الإشبيليين وآل خالص الرونديين وآل حمدون القرطبيين². ولا يستبعد لورو أن تكون سلا قد استقطبت ضمن هؤلاء اللاجئين الأندلسيين نصيبها من اليهود المطرودين من إسبانيا سنة 1492م³.

إن هذا التنوع العنصري كان من شأنه أن يوصم التشكيلة البشرية للمنطقة بطابع التعدد والتوازن بين طوائفها المختلفة، مما أهلها لتبرز كمركز استقبال واحتضان ملائم لكافة الشرائح العرقية، بفضل ما تمنحه لكل شريحة من إمكانية الحفاظ على خصوصياتها الذاتية في إطار التفاعل على مستوى الانسجام الظاهري المفروض، كنتيجة لوحدة المصالح والغايات التي لن يعكر صفوها عند ورود الوافدين الجدد واستقرارهم بالصفة اليسرى إلا ظهور الاختلالات المتضاربة في مصالح الضفتين، من جراء المتغيرات التي واكبت هذا الاستقرار، خاصة على مستوى التوازن العنصري.

إن العدد الذي يقدره المؤرخون في ما يخص الأندلسيين النازحين إلى ضفتي المصب خلال القرن السابع عشر الميلادي يتباين بشكل كبير بين الرقمين الأدنى والأعلى (من ثلاثة آلاف إلى ثمانية آلاف نازح أندلسي)⁴. ولا يمكن فهم ذلك إلا بالانتباه إلى أن عددا من المؤرخين قد أغفلوا عدد الوافدين من إسبانيا قبيل قرار الطرد، أي من يعرف بالحرناشيين ومن رافقهم من أندلسيي سان لوكار وقاديس وليرنا⁵، وهم جموع نزحوا سنة 1608، يقدر كايي عددهم بما بين ألفين وثلاثة آلاف

¹ جعفر الناصري: "سلا ورباط الفتح، واسطولهما القرصاني المهادي"، مخطوط بالخزانة الصبيحية، الجزء الأول، ص 114.

² عثمان - نفسه - صص 25، 33، 62 و 63.

³ Leroux Op cit p 18.

⁴ انظر في ذلك: ثمانية آلاف أندلسي (Caillé - Op. cit - p 249) وسبعة إلى ثمانية آلاف (Caillé "La petite histoire de Rabat" - Office Chérifienne d'éditions - p 14).

(Leroux - Brunot - Op. cit - pp 22 et 135 Op. cit - p 301).

⁵ Les S I H. M. - 1^{re} série - France - T III - p 188.

مهاجر¹، في حين يرفعه لورو إلى أربعة آلاف². وبالنظر إلى ذلك، واعتبارا لسعر هؤلاء إلى جميع أفواج من المطرودين الجدد بمجرد انتشارهم في مناطق المغرب حيث عملوا على استقطابهم للاستقرار بإزائهم في الضفة اليسرى للمصب، فإن تقدير العدد الإجمالي للأندلسيين المستقرين به عموما في حدود سبعة أو ثمانية آلاف أندلسي³ يصبح أكثر منطقيا واعتقادا.

وقد كان الاستقرار الحرناسي بناء على مميزات المصب المذكورة، خاصة وقد سبق استقرار جالية أندلسية سابقة بمدينة سلا⁴؛ بيد أن رغبتهم في الإبقاء على تكتلهم واندماجهم جعلهم يفضلون التمرکز بعيدا عن باقي عناصر المنطقة، وعن أي تأثير عنصري من شأنه أن يخضعهم لسلطوته الاجتماعية⁵، فوجدوا في فراغ مدينة يعقوب المنصور ضالتهم المنشودة، معمرين القصة⁶ ومشكلين بها أغلبية كبرى من مجموع السكان، متميزة فضلا عن قوتها العددية بتفوقها الحضاري وحنكتها العسكرية وثرانها الواسع⁷.

وقد بادر هؤلاء إلى توفير الشروط الضرورية للعيش، موسعين النطاق العمراني للقصة ومشيدين الدور بها والقصور والحمامات⁸؛ كما اهتموا من جانب آخر بتوفير عنصر الأمن بها، خاصة وأن الحالة السياسية بالمغرب آنذاك كانت تتطلب الحيلة والحذر، وأساسا لدى الأندلسيين، فدعموها بتحصينات مهمة، ورمموا أسوارها وجعلوها بفجوات المدافع⁹، بشكل جعل القصة مؤهلة للعب دور طليعي في حماية المصب.

¹ Caillé: "La ville de Rabat..." - Op. cit - p 249.

² Leroux - Op. cit - p 130.

³ Caillé: "La petite histoire..." - Op. cit - p 14.

⁴ Brunot - Op. cit - p 286.

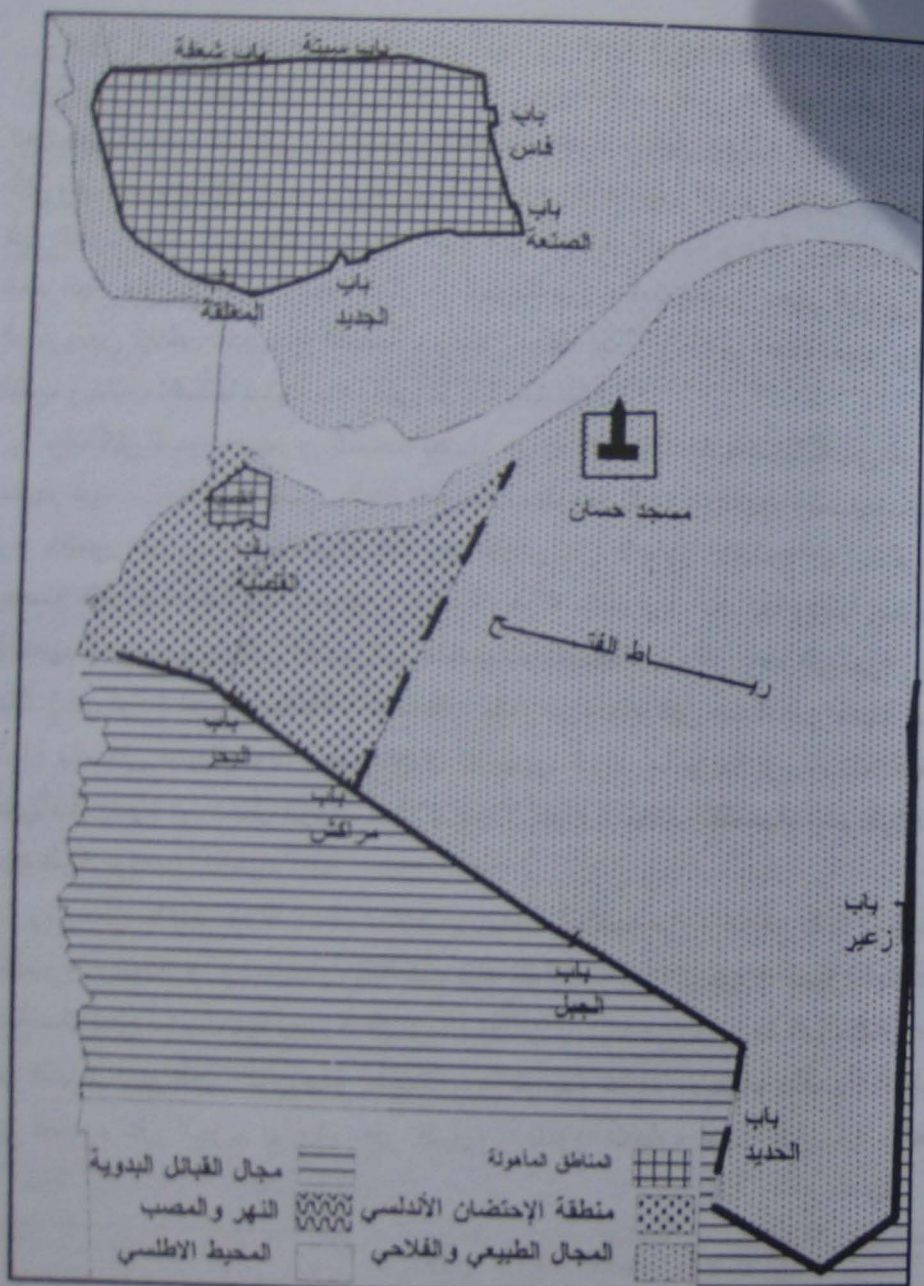
⁵ Les S. I. H. M - 1^{re} série - Pays-Bas - T VI - intro. p VI.

⁶ Coindreau - Op. cit - p 36.

⁷ Brunot - Op. cit - p 287.

⁸ حمى - نفسه - ص 172.

⁹ Caillé: "La ville de Rabat..." - Op. cit - p 214.



خريطة مراكز مصب أبي رقراق

وضفة النهار، لا س
عليهم اتخاذ احتياطات
العناصر المحيطة به
الوقت ذاته عملوا
مخلوف² الذي أنشأوا
مكامل.

3- الخلاصة

لم يشكل الاستق
يرون في ذلك مجرد
الإسلامية ونفعها إلى
تجاه هذه المسألة،
بعونتهم لاحقا بمسا
في اعتقادهم مدة
تسليمهم بالأمر الواقع
وقد ساهم هذا
عاملين على إضفاء
التقليدي الذي ظل
وتقاليدهم المختلفة
المغربية الأخرى
كمدينة فاس⁴. ويعود
رقراق وإلى انعكاسه

إن ظروف الا
إحساسهم بالاغتراب
من هؤلاء لم يكونوا

وإذا كان نزوحهم من إسبانيا قد أتى في غمرة الاستعداد الكاثوليكي لطرد
إخوانهم، فإتهم ظلوا مرتبطين بوقائع الأمور، محافظين على علاقاتهم بالرازي
تحت نير العنف الإسباني، ومؤسسين بذلك خط هجرة مستقبلي نهايته المصعب؛ ورث
كان وجودهم بالمنطقة قد سعى بهم إلى تنشيط هجرة أندلسيين آخرين لاجئين بالمغرب
قبل الطرد¹. وقد أدى هذا الحضور الهام إلى اكتظاظ القسبة وبداية انتعاش الحياة
العمرائية خارجها، إذ توسع استقرار الحرناشيين والمتعاشين معهم قبل ورور
المطرودين لينتشر عند سفح القسبة²، ويكون بذلك إيذانا بانطلاق إعادة تعمير رباط
الفتح، وبداية منافستها لمدينة سلا على الريادة بالمنطقة.

وقد كان شعور معمرى القسبة بضالة قوتهم العددية داخل المنطقة من دوافع
سعيهم إلى استجلاب عناصر جديدة خاضعة لسلطوتهم تدعم موقعهم، وتضاعف من
قوة حضورهم. وسيتيح وصول الأفواج الأولى من لاجئي الأندلس إلى المغرب
العنصر المرغوب فيه لهذا الغرض، خاصة وهم أضعف قوة اقتصادية ودينية ولغوية،
فشجعهم الحرناشيون على القدوم إلى المصعب³، باستقطابهم وإقرارهم إلى جوارهم،
حيث شكل فراغ الرباط منطقة ملائمة تفي بالغرض، مفضلين إياها على مدينة سلا
الآهلة بالسكان نسبيا⁴. وقد بلغت أعداد اللاجئين الجدد ما يزيد عن الثلاثة آلاف
لاجئ⁵، توزعوا في شمال الرباط انطلاقا من الأحياء المتاخمة للقسبة، وشرعوا في
تشديد الديار وتعمير الأحياء⁶.

وسرعان ما بدت رباط الفتح عبارة عن مدينة أندلسية مزروعة في قلب المغرب
بعناصرها ومعمارها وعاداتها، ملقبة منذ ذلك الوقت "سلا الجديد" تميزا لها عن
مدينة سلا التي أضيف لها نعت "البالي"؛ إلا أن المدينة في حدودها الموحدية بدت
أكثر اتساعا أمام العدد الذي يبدو ضئيلا، مما فرض عليهم الاكتفاء بالقسم الشمالي
الذي فصلوه عن الجزء الأعظم غير المعمور بسور أحدثوه ممتدا بين باب الأحد

¹ Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 192.

² Coindreau - Op. cit - p 38.

³ Caillé: "La ville de Rabat..." - Op. cit - p 214.

⁴ الشاذلي - نفسه - ص 147.

⁵ وتبين الأرقام حسب المؤرخين: ثلاثة آلاف إلى أربعة (Brunot.-Op. cit - p 287.t) خمسة آلاف إلى ستة (Caillé: "La ville de Rabat..." - Op. cit - p 249 et Leroux - Op. cit - p 29-30.)

⁶ Brunot - Op. cit - p 153.

³ زروق - نفسه - ص 25

المبادیء لمصری مصباحی رفران

وضفة النهر، لا سيما وأن الظروف التي قاساها بعضهم على يد الأعراب فرضت عليهم اتخاذ احتياطاتهم الأمنية، وتكتلهم في وحدة سكنية منسجمة، خشية من مختلف العناصر المحيطة بهم، وأساسا قبائل زعير المتحركة خلف أسوار رباط الفتح. وفي الوقت ذاته عملوا على ضمان متنفس على النهر بحماية الضفة بواسطة برج سيدي مخلوف² الذي أنشأه في نهاية السور المذكور، متمما مع أبراج القصبة هزاما دفاعيا متكاملا.

3- الخلاف الاجتماعي بالمنطقة

لم يشكل الاستقرار الجديد بالمصّب بديلا للأندلسيين عن وطنهم السليب، وكانوا يرون في ذلك مجرد استقرار مرحلي وانسحاب تكتيكي يهدف إلى اللجوء لدى القوات الإسلامية ونفعها إلى المساهمة في استرجاع ما ضاع. ولم يكن شعورهم متارجحا تجاه هذه المسألة، بل ثبت ذلك حتى إبان نزوحهم، حيث كانوا يهدنون الإسبان بعونتهم لاحقا بمساعدة المسلمين لإعادة الأندلس إلى الدين الحنيف، وظل ذلك راسخا في اعتقادهم مدة طويلة، ومتجسدا في احتفاظهم بمفاتيح ديارهم³ دليلا عن عدم تسليمهم بالأمر الواقع.

وقد ساهم هذا الشعور في تجمعهم في وحدات منسجمة في الضفة الجنوبية، عاملين على إضفاء طابع الحياة الأندلسية عليها بالنظر إلى الصراع الحضاري التقليدي الذي ظل سائدا بين أهل الأندلس وأهل المغرب، محافظين على مميزاتهم وتقاليدهم المختلفة عما هو متداول بالمنطقة، بخلاف ما تعرض له إخوانهم بالمناطق المغربية الأخرى من انصهار واندماج داخل تجمعاتهم الحضرية بصورة سريعة كمدينة فاس⁴. ويعود نجاحهم بالدرجة الأولى إلى ضعف التأثير البشري بمصّب أبي رقرق وإلى انعدامه شبه كلياً بالضفة اليسرى.

إن ظروف الاستقرار التي بيننا بعض مظاهرها السلبية ما كانت إلا لتزيد من إحساسهم بالاغتراب عن الأهالي، وسلوكهم سبل الحيلة تجاههم، لا سيما وأن بعضا من هؤلاء لم يكونوا أقل قسوة من المسيحيين وأقل عدوانية إزاء العنصر الأندلسي.

¹ Terrasse Op. cit - p 11.

² Comdreaux Op. cit - p 39.

⁴ Brunot Op. cit - p 153.

³ رزوق - نفسه - ص 125.

ومنذ ثورة البشرا التي دفعت بالعديد من الأندلسيين إلى الفرار إلى المغرب وباقي المناطق الإسلامية، اكتشف هؤلاء استحالة العيش في كنف الأهلالي الذين ضيق عليهم، والذين لولا تقيتهم من إسلامهم لسبوهم رقيقاً؛ ولأجل ذلك كانوا يجدون أنفسهم مضطرين للعودة إلى الأندلس¹ مختارين ذلك أهون الشرين.

وقد ظلت هذه الوقائع ماثلة في ذهنية الأندلسيين، لا سيما وأنهم قد لمسوا بمرور بلوغهم منطقة المصب اختلاف الأوضاع الاجتماعية عما ألفوه بإسبانيا، فضلاً عن إحساسهم بصعوبة التأقلم مع المتشبهين بمظاهر الحياة التقليدية، وهو ما بدت آثاره متجلية في كثير من العادات الاجتماعية والدينية التي برزت تباعدها، واتجهت نحو الاستفحال تدريجياً بظهور تناقضات مصلحة كنتاج للوضعية المستحدثة التي ولدت الاستقرار الجديد².

كان أهل سلا يتابعون بحذر بالغ التحولات الطارئة مع العناصر الجديدة وظروف الحياة التي تختلف مظاهرها عن المألوف الأصيل، وأساساً على المستوى الديني وما يمت إليه من تقاليد وأعراف؛ إذ بدت تصرفات الأندلسيين مريبة وتدعو إلى الشك في صدق طوبيتهم العقائدية. فقد عرف اللاجئين بالأندلس ظروفًا سياسية واجتماعية ودينية جعلتهم يطبقون الشعائر بطقوس تختلف عن المعمول به مما جعلها مشوبة بأكثر من شائبة³؛ في حين كان حظر استعمال اللغة العربية واعتبارها جريمة يعاقب عليها بالإحراق قد جعل تعلمها في أبسط مستوياتها حكرًا على أقلية نادرة منهم، وكان الشائع في أوساطهم هو استعمال لهجة "ألخميادو"، وأرغموا على كتابة القشتالية بأحرف عربية⁴. أما على مستوى المظاهر الاجتماعية فقد فرضت عليهم ظروف الحياة مظاهر متجددة وغير متداولة في العالم الإسلامي مثل خروج النساء سافرات⁵. وقد كان من شأن هذه المظاهر أن تدفع بالأهلالي إلى النظر إليهم نظرة ملوًا الشك في إيمانهم وتخلفهم الإسلامي، لما يعلمون عنهم من تغييرهم لعقيدتهم مرات عديدة، فأصبحوا يعتقدون بقتور معتقداتهم وتشويهمهم للدين الإسلامي؛ إلى درجة أن قبائل المنطقة ما كانت ترى فيهم أكثر من نصارى قشتالة⁶.

¹ Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T I - p 318-19.

² الشاذلي - نفسه - ص 147.

³ غنان - نفسه - ص 44-342.

⁴ السويسي - نفسه - ص 167.

⁵ Lavissee - Op. cit - p 59.

⁶ Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T V - intro. p VIII-IX.

ورغم وحدة هؤلاء وكراهيتهم الخضوع للغير، لوحظ نوع من التمايز بين مختلف العناصر المكونة للمجتمع الأندلسي بسلا الجديدة والقسبة، منهم من كانوا يحظون بتقارب مع أهالي سلا البالي باعتبارهم ظلوا مخلصين للعقيدة ومحافظين على لغتهم الأصلية، إلى درجة أن البعض منهم كان يجهل اللغة القشتالية¹، ولم يخضعوا قط للتعميد المسيحي، ونعني بذلك الحرناشيين² الذين كانوا على رأس الهرم الاجتماعي بالضفة اليسرى.

ويأتى بعدهم من نصروا وأجبروا طوعا أو كرها على معانقة جملة من الفروض الإسبانية الرامية إلى كئلتهم، وهم من أطلق عليهم الإسبان لقب "المورسكيين"، وفرضوا عليهم التحدث بالقشتالية واستبدال أسمائهم الأصلية باللقاب لاتينية³، وقد كانوا يشكلون السواد الأعظم من سكان سلا الجديد محافظين على الخصوصيات التي ورثوها عن ظروف عيشهم بإسبانيا، نتيجة اضطرارهم إلى نهج حياة إسلامية مغلقة بمظاهر كاثوليكية إسبانية، فظلت انعكاساتها راسخة بوجهيها المتناقضين حتى في وسطهم الجديد، الشيء الذي كان يلاحظه الأهالي بارتياح في أولئك المتشبهين بأخلاق العجم⁴.

وإذا ما انتبهنا إلى مجموعة من الخصوصيات التي أوردها المؤرخون، يمكن الحديث عن وجود فئة صغيرة أكثر تباعدا مع غيرها تميزت بفقدانها تماما لمقومات الشخصية الإسلامية، وهي من أطلق عليها لقب المدجنين (*Mudijares*)⁵، رغم أنها أدمجت إسميا في عداد الأندلسيين؛ وإذ نحاول تمييزها فذلك لأن قرار الطرد - كما سبق الذكر - قد طال كل من كان مسلما لسبب أو لعهد ما، ومن ثم كان ضمن المطرودين إسبان أصليون أسلم أسلافهم في حقبة سابقة، وأيضا مسلمون تنصروا طوعا تشبثا بما لهم من ضياع ومتاع⁶، وحفظوا في البداية بتسامح إسباني ثم ضيق عليهم الخناق وألزموا بالمقام في أحياء منعزلة خاصة بهم، ومع توالي السنين انتهى بهم الأمر إلى فقدان دينهم ولغتهم⁷، وكانوا هم الأشد معارضة لقرار الطرد، وغالبيتهم

¹ Coindreau Op. cit - p 36.

² Brunot Op. cit - p 157.

³ Coindreau Op. cit - p 36.

⁴ الناصري " الاستقصا " - الجزء السادس - ص 11.

⁵ حجي - نفسه - ص 167.

⁶ خان - نفسه - ص 398.

⁷ حجي - نفسه - ص 168.

من المناطق الوسطى والشمالية لإسبانيا، ولم يكن غريبا أن يساهموا بعبادتهم وأعرافهم الموروثة مسيحيا في توسيع الهوية بين الأهالي وأندلسي سلا الجديد. وهذا الاستقرار بما خلقه من تباينات اجتماعية كان أشبه بخلية انتزعت قسرا من محيطها الأصلي الذي نسجت فيه جذورا صارت تشكل قنوات حياة واستمرار، وتمتد عملية زرعها في محيط ترفض خلاياه الأصلية استقبال الدخيل عليها من جهة، ومن جهة ثانية نتيجة محافظة الأولى على خصوصياتها الغالبة؛ إذ انتقلت إلى المنطقة مستقرة فيها بشروط أندلسية، لا على مستوى العلاقات الاجتماعية والأخلاقية وحتى المعمارية التي تتعارض جزءا أو كلا مع المحيط وعناصره، الأمر الذي سيدفع بها إلى إدارة ظهرها للمناطق الداخلية بعيدا عن نقط التماس، واستبدال ذلك بالانفتاح شبه الكلي على المجال الذي ستعمل على احتكاره - المجال الملاحي - دليلا على فشل وتبخر كل إمكانيات الاندماج آنذاك.

والملاحظ أن هذه الحالة لم تكن قاصرة على المغرب، إذ لوحظ أن إحساس الأندلسيين بعسر التأقلم مع ساكنة شمال إفريقيا هو ما جعلهم يفضلون الاستقرار بالمدن الساحلية، ثم التوغل انطلاقا منها قدما نحو الداخل ونحو المراكز الرئيسية إذا كانت الشروط ملائمة، أو الانكفاء في المراكز الشاطئية في غيبتها. وقد وجد أندلسيو سلا الجديد أنفسهم مجبرين على المكوث بمنطقة استقرارهم، حيث أصبحت الحدود القارية منغلقة في وجه امتدادهم الداخلي بقوة الاختلاف مع السكان الأصليين، وبالتالي جعلت الفعل الاقتصادي يضيق في المنطقة نتاج امتداع الأرض من ورانهم دافعا بهم إلى رؤية المجال البحري كحقل اقتصادي يمنحهم وضعية ممتازة، خاصة وأن رغبتهم الدفينة في الثأر من الإسبان وحنينهم الشديد إلى الأندلس والوضعية غير المريحة التي كانوا يكابدون آثارها نفسيا واجتماعيا، ستجعلهم يبادرون إلى استلهاهم حياة بعض القراصنة النشيطين بمصب أبي رقراق كمثال يحتذى به² لتوجيه خططهم ضد الملاحة التجارية الإسبانية المتحركة على مرأى أبصارهم، ليكون بذلك إيذانا بانطلاق المواسم الجهادية، وبداية تطور النشاط البحري بالمصب.

¹ Monlau - Op. cit - p 43.

² De Castries - Op. cit - p 822.

الفصل الثالث: مسألة الجهاد البحري

تجدر الإشارة إلى أن موضوع الجهاد البحري لم يحظ باهتمام المؤرخين المسلمين عموماً، والمغاربة على وجه الخصوص، وبروزه غريباً عن وسط اعتاد الانكباب على الأحداث البرية على كافة المستويات، معرضاً بالتالي عن كل ما له صلة بالمجال البحري نتيجة انسياقه نحو الامتدادات القارية، بشكل جعل الإنسان المغربي ينجذب نحو الداخل ويحقق اكتفائه الاقتصادي حتى خلال فترات الخصائص الحرجة باستفادته من الوحدة الدينية التي عمت منطقة شمال إفريقيا، وكذا ضعف تأثيرات الحدود السياسية على التنقلات البشرية الباحثة عن الارتقاء المعيشي والاجتماعي، مما فرض على البحر أن يأخذ شكل الحدود الفعلية الطبيعية للعنصر الإسلامي، كما أخذت مناطق التماس مع المجتمعات غير الإسلامية أو غير الخاضعة للنموذج الإسلامي هيئة حدود سياسية نهائية في أواسط إفريقيا وآسيا وأوروبا.

وقد عرفت أوروبا عكس هذه الخاصية حيث أن التكتلات الإثنية والتحالفات السياسية قد فرضت نوعاً من التركيز السياسي للسلط المسيطرة، وصارت الحدود حواجز حقيقية في وجه التسربات البشرية من أجل الحفاظ على خصوصيات البنيات القابضة خلفها، وسوف يؤدي ذلك إلى الدفع بالقارة إلى الانغماس في حروب دموية من جراء رغبة بعض القوى في التوسع على حساب جاراتها من جهة، كما دفعت بالدول المطلة على المحيط الأطلنטיكي إلى البحث عن امتداد اقتصادي فيه كمتنافس جديد، علماً بأن الرنة المتوسطية قد فقدت دورها أوروبا بسيطرة العثمانيين على الخطوط التجارية الأساسية، ولم تعد الواجهة الممكنة لتوفير المجالات الحيوية للكيانات الأوروبية سوى توسع بعضها على حساب البعض الآخر، أو بالتوسع خارج القارة بالنسبة للدول المطلة على المحيط.

لذا، كان الاهتمام الإسلامي منصبا على الأحداث القارية عموماً باستثناء بعض الإشارات إلى وقائع بحرية في هذا العصر أو ذاك منذ انطلاق الفتح الإسلامي إلى حدود نهاية القرن الخامس عشر، حيث برزت القوات العثمانية في الحوض المتوسطي الغربي بالأساس مع ظهور الأخوين بارباروس على مسرح الأحداث، والتي فرضت نفسها بكثافة عملياتها الجهادية وبنائهما على تأليف المؤرخين

للصوصية
المجاهد البحري
وكمحارب قاتل
التجارية للخصم
كمهدد لطرق
ويستعمل
وذلك لأنه ينفذ
أية سلطة؛
على العموم
المخادع وال
كلها بالخدع
ولا يفسد
والطرق وال
الدوافع أولاً
منظمون في
هو الاغتنام
مشوهة حد

المسلمين، وإن لم يرق هذا الاهتمام إلى حجم الأحداث. وفي الوقت ذاته ولدت لدى المسيحيين هواجس متعددة من جراء ما الحقته بالمسيحية من أضرار على مختلف واجهات الحياة، دافعة بمؤرخيها إلى محاولة تقديم توضيحات وتفسيرات عن هذه القوات الجهادية من حيث ظروف نشأتها وكفاءتها البشرية وسبل تنظيمها، مقارنة إياها بعمليات قراصنتها أو لصوصها البحريين.

فليس غريباً إذن أن يحظى الجهاد البحري بمصّب أبي رقرق باهتمام ضئيل من لدن المؤرخين المغاربة للاعتبارات سابقة الذكر، وأيضاً لكونه لم يبرز بإيعاز من السلطات المركزية وإنما نتيجة مبادرات شعبية جعلت أسطوله يتقوى على انقراض أسطول الدولة، وجعلت عملياته ونجاحاته المحققة تستمد قوتها من ضعف تأثير السلطات على مساره، كما أن احتكاره من طرف عناصر أثبتت انعزالها عن الأهالي وذات دوافع أكثر حماسة لاختيار هذه الوسيلة في الحرب المقدسة، كل هذا ما كان ليجعل التاريخ المحلي يولي أهمية إلى هذا المضممار إلا لماماً، خاصة في حالة انخراطه في السياسة القارية بصورة مباشرة أو غيرها، في حين اضطر المؤرخون الأوروبيون - على العكس - إلى التفاعل معه منذ ذلك الوقت كمسألة أساسية خلال القرن السابع عشر، دون أن يتورعوا عن نسب الجهاد لعناصر غير مسلمة، بل وحتى المفهوم تآرجح لديهم ما بين أقلية نعتته بالجهاد المقدس، وأكثريّة لم ترى فيه إلا مجرد لصوصية بحرية سافلة.

1 - الجهاد البحري بين القرصنة واللصوصية

إذا كان المفهوم المتعارف عليه في التأليف التاريخية الإسلامية في ما يخص الحرب البحرية ضد السفن المسيحية هو مصطلح "الجهاد البحري"، فإن المصادر والمؤلفات الأوروبية استعملت وإلى يومنا هذا باختلاف قدر الموضوعية عدة مصطلحات تتفاوت من حيث مفاهيمها بين من يقر بقانونية هذه العمليات، ومن يدرجها في خانة الإجرام. بل إن هذه المصطلحات في حد ذاتها عرفت تفاوتاً لديهم، فاكتمسب لفظ "قرصنة" (Course) مثلاً صفة الحرب القانونية لدى البعض¹، وصفة

² يعتقد في أن
يزيد الاعتراف
لهذا اللفظ
أنظر: 9.

⁴ يقدم الراعي
يجعله (ps)
يقابله في

⁶ هذا اللفظ
صانع المص

¹ أنظر: عبد العزيز بن عبد الله: "البحرية المغربية والقرصنة" - مجلة تطوان - عدد مزدوج 3-4 - السنة 1958-59 - ص 61، 62: Hubert Des - Op. cit- p 17 et Des - Op. cit- p 826, Coindreau - Op. cit- p 826, De Castries - Op. cit- p 826, Champs: "Pirates et flibustiers" - P. U. F. - Paris 1952 - p 6.

للموصفية المرادفة للفظ (*Piraterie*) لدى البعض الآخر¹، ومن ثم تعددت صفات المجاهد البحري من قرصان (*Corsaire*)² شبيه بالمتطوع العسكري البحري، وكمحارب قانوني يعمل بترخيص من طرف إحدى القوات المتحاربة لمجابهة السفن التجارية للخصم³؛ وينعت أحيانا بـ " قاطع الطريق " (*Pirate*)⁴ من حيث النظر إليه كمهدد لطرق الاتصال البحرية بما يهدف إليه من الاحتيال والسرقة.

ويستعمل أيضا لفظ مقارب لذلك مرادف لصفة الخارج عن القانون (*Forhan*)⁵، وذلك لأنه ينظم حملات بحرية مسلحة ضد القوافل التجارية دون ترخيص قانوني من أية سلطة؛ ويسمى أيضا بـ " محصل المغنم " (*Flibustier*)⁶ لأن نشاطه موجه على العموم للسيطرة على خيرات الآخرين. ويستعمل فضلا عن ذلك مصطلح المخادع والمحتال (*Ecumeur*) لأن أساليبه في الانقضاض على تلك المغنم تنسم كلها بالخدع والحيل من أجل تحقيق الهدف بأقل كلفة ممكنة⁷.

ولا يفسر تعميم هذه التصنيفات وجعلها مرادفة بعضها للبعض إلا بتشابه الوسائل والطرق والأهداف المباشرة، وأيضا إعراض الباحثين وتهميشهم للتقريب في خلفيات الدوافع أولا، واعتبار هؤلاء الفاعلين البحريين بالسلب إنما هم مغامرون انفراديون أو منظمون في إطار عصابات إجرامية لا تعترف بقانون ولا تحترم ميثاقا، وغاية همها هو الاغتناء على حساب السفن التجارية وعلى حساب الأفراد، وهي صفة عامة مشوهة حاول الأوروبيون إلصاقها بالمجاهدين المسلمين، في الوقت الذي جعلوها

¹ Coindreau Op cit - p 13.

² يعتقد في اشتقاق هذا اللفظ من اسم (*Corse*) لقب الشعب المستقر بكورسيكا، الجزيرة المتوسطية التابعة لفرنسا. ويزيد الاعتقاد في ذلك لأن الكورسيكيين كانوا لا يحبون شيئا أكثر من أخذ ما بيد غيرهم. بيد أن التفسير الأكثر سطوحا لهذا اللفظ هو اشتقاقه من الفعل اللاتيني (*Currere*) الذي يقابله في اللغة الفرنسية فعل (*Courir*) في معنى المطاردة أنظر: Dan - Op. cit - p 9.

³ Des Champs Op. cit - p 6.

⁴ يقدم الراهب دان لفظ (*Pirate*) مشتقا من الكلمة اللاتينية (*Pyra*) التي تعيد معنى مشابهة للمش والعداء وفي المغنم يجعله (*Des Champs*) مشتقا من اللفظ اللاتيني (*Pirata*) واليوناني (*Peirates*)، والأصل هو (*Peiran*) الذي يقابله في اللغة الفرنسية فعل (*Essayer*) أي حاول، وهو الأكثر منطقا أنظر: Dan Op cit p 9 et Des Champs - Op. cit - p 6.

⁵ Des Champs Op cit p 6.

⁶ هذا اللفظ مقتبس من الكلمة الإنجليزية (*Flibutor*) المأخوذة بدورها عن اللفظة الهولندية (*Frijhueter*)، ويعني صانع المغنم الحر. أنظر: Loc. cit.

⁷ Coindreau Op. cit - p 17.

ضربا من البطولة والشهامة الوطنيتين ووساما على صدر قراصنة دولهم¹، وعلى رأسهم فرسان مالطا.

إن التمايز بين مفهومي لصوصية البحر والقرصنة يبدو جليا لدى هؤلاء المؤرخين بالتدقيق، إذ أدرجوا الصفات المذكورة (Pirate) و(Flibustier) و(Forban) و(Ecumeur) في عداد المفهوم الأول باعتبار المتصفين بها يشكّلون أصنافا متشابهة من اللصوص وقطاع الطرق الذين يجوبون البحار لحسابهم الخاص ولا يعترفون بأية سلطة أو سيادة²، ولا هدف لهم إلا تحقيق أكبر عدد من العمليات واجتناء أكبر قدر من المغنم، ومن ثم فإن كافة السفن عرضة لهجماتهم بدون استثناء، وكل الشواطئ هدفا لغاراتهم الخاطفة. وفي ذلك يقدم فيبستر (Webster) تعريفا دقيقا للص البحر قائلا في حقه: "هو ذاك الذي بواسطة العنف الشديد يسيطر في البحار على ممتلكات فرد آخر. ولص البحر، خاصة ذاك الذي يجعل مهنته الاعتراض من أجل السرقة والنهب، إنه قاطع الطرق البحرية، وهو أيضا لص الميناء"³.

ومن هذا المفهوم لم يكن غريبا أن يرى في لص البحر مجرما خارجا عن القانون أبديا، وفردا من حثالة المجتمع يتميز حتى في المخيال بالفظاظة الإجرامية، وبالبشاعة في الخلقة، وبالفظاظة في الخلق "يقارب المنظر الشوكي بمجرد تصور نعته، إذ له مواصفات غير خافية، من شريط الرأس، والسيف، والشارب المعقوف، والعين المفقوءة، والحلقة الكبيرة في الأذن... إنه مكر جبار، ويتحلى بشهوانية جامحة"⁴.

وبالمقابل نجد تصنيف القرصنة في الوجه النقيض للصوصية، تتقارب معها في النتائج من حيث كونها وسيلة فعالة في عرقلة الخطوط التجارية وفي تهديد سفن الخصم وفي طموحها لتحقيق المغنم على حسابها، إلا أن القائمين بها يتمتعون بغطاء قانوني لكونهم في خدمة سلطة أو دولة ذات سيادة، وبمثابة محاربين منتظمين⁵ متخصصين في حروب عصابات استنزافية منظمة، ومرخص لها من طرف السلطة التي ياتمرون بأمرها، أو تجار شرفاء في المغنم، يحظون بشهرة وطنية في أوساط

¹ Des Champs - Op. cit - p 6.

² Coindreau - Op. cit - p 15.

³ Philip Gosse: "Histoire de la piraterie" - Traduction P. Teillac - Payot - Paris 1952 - p 6.

⁴ Coindreau - Op. cit - p 8.

⁵ Ibid - p 15.

مجتمعاتهم¹. وهذا ما يجعل النظرة إليهم ترقى إلى مستوى الاحترام والتقدير، فالقرصان " يتشوف إلى الابتكار، ويثير الاختراع، ويخضع للأسطورة... إنه شخصية تبحث عن الحدث، وتغذي الروايات. إنه يتوفر على نوعية ترفعية ليصبح اتفاقيا بسرعة، ولتحول إلى حالة النوع الجاذب للأنظار، فهو يعادل الخيال ويستفز الانتظار الممل²."

إذن، فالتمايز بين القرصان ولص البحر هو تمايز بين شكل قانوني من أشكال الالتحامات البحرية الدائرة بين قوات متنازعة من جهة، وشكل من الأعمال الإجرامية بحريا من تنفيذ الخارجين عن القانون ضد سفن مختلف الدول من أجل الإثراء غير المشروع لا أقل ولا أكثر، وفي ذلك يعترف بعضهم بأنه " صديق الإله وعدو العالم أجمع³."

لذلك فإننا نجد أن مفهوم القرصنة بهذا المعنى لا يأتي من باب القدر حينما اصطلاح على المجاهدين البحريين، ومن ضمنهم بحارة مصب أبي رقراق، لأنه يتوافق والدوافع المشروعة التي ولدت لديهم الاهتمام بهذا النوع من أشكال المواجهة مع الخصم، وهو ما توصل إليه الكونت دو كاستري بعمق أكثر من غيره من المؤرخين الأوروبيين، حيث يقول: " إن الاختلاف بين القرصان واللص، بين القرصنة كوسيلة مشروعة في الحرب البحرية، والأعمال اللصوصية في البحر المباشرة في كل وقت وضد أية دولة، لم يعترف به أبدا للمسلمين، إذ بالنسبة لهم يعتبر المسيحي عدوا بسبب اختلافه الديني، لذلك كانوا يرون أنفسهم في وضعية قانونية مستمرة لنصبه العداء⁴."

2- خصوصيات العمل القرصاني

ليست الأعمال العدائية البحرية وليدة العصور الحديثة، وإنما كان انطلاقها مع ما خلقه استقرار الإنسان من تمركز اجتماعي فرض عليه نسج العلاقات الاقتصادية بين مراكز الإنتاج والتسويق، بعدما نجح في استغلال المجال البحري لتحقيق التبادل التجاري بين مناطق الوفرة ومناطق الخصائص. وقد كان من شأن هذا أن يحدث

¹ Des Champs Op. cit p 6.

² Coindreau Op. cit p 7-8.

³ Les S I H M 1^{re} série Pays-Bas - T I - p 175.

⁴ De Castries Op. cit - p 826.

مصالح متناقضة بين مجتمعات إنتاجية تملك بنيات الإنتاج أو على الأقل وسائل النقل. وخاصة البحرية منها، وأخرى مفتقرة إليها تمنعها من شروط منافسة الأولى. وتركز ذلك حتى على مستوى تباعد مصالح الأفراد، مما كان يشكل بواعث كافية لقيام رجال وجدوا ضالتهم في عرقلة تنقل البضائع.

وإذا كانت التجارة قد تلت قيام المراكز الحضرية، فإن النهب برا وبحرا قد تلا ازدهار هذا النشاط، وتمركز في الممرات الأساسية إيدانا ببداية طبيعية للصوصية التي تطورت مع نمو العلاقات السياسية بين القوى، ليصبح النشاط القرصني واقع فعليا، مسرحه الأول الحوض المتوسطي² ملتقى التأثيرات الثقافية لمختلف مجتمعات العالم القديم.

لقد أنت القرصنة كنوع من الحروب الاضطرابية لدى المجتمعات الساحلية المحرومة أو الأقل كفاية اقتصادية، والمحتاجة لتحقيق تطور معيشي من خارج البنيات الإنتاجية التي تتوفر عليها؛ في الوقت الذي تتابع فيه بنوع من التذمر حركة السفن الأجنبية المحملة بالبضائع المرغوب فيها لذاتها أو لقيمتها. كما أنه قد يكون دافعها العداء ومناوءة المجتمع التجاري، فتأتي حملاتها كشكل من أشكال حروب الاستنزاف الاقتصادي، أو ما يماثل حملات قبائل الصحاري ضد القوافل والواحات الخاضعة لسطوة القبائل المعادية. إنها " حرب بكل قوانينها، وبكل ما تمثله هاته من أعراف الشرف وقواعده"³.

إن الصراع هنا قائم حول احتكار المجال البحري بين مجتمع يسعى إلى تأمين سطوته التجارية، وآخر منافس يحاول عرقلة تلك السيطرة بقطع طرق المواصلات الرابطة بين مراكز الأول ونهاياته الاقتصادية، أو بالأحرى خلق منفذ حيوي في وسط مجال الامتداد الاقتصادي والسياسي للخصم المتفوق، وذلك بمحاولة تأمين السيادة على البحار بكل الوسائل الممكنة، بالقوات النظامية التي تشكلها الأساطيل الحربية، أو بالقوات غير النظامية المتمثلة في السفن القرصانية.

وقد زامن ازدهار النشاط القرصاني عهد الإمبراطورية الرومانية وخلافتها للسيطرة الفينيقية-القرطاجية على الحوض المتوسطي، رغم الجهود اليائسة المبذولة

¹ Gosse - Op. cit - p 13.

² Coindreau - Op. cit - p 13.

³ Pierre Hubac: " Les Barbaresques " - éd. Berger-Levrault - Paris 1949 - p 17.

من طرف الأباطرة لتأمين الخطوط البحرية، حيث حاولوا تركيز النفوذ الروماني على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط لجعل الشعوب البربرية أبعد ما تكون عن المجال البحري. وقد اتخذوا في سبيل ذلك تدابير زجرية في حق الرعايا الرومانيين تصل إلى حد الحكم بالإعدام على كل من يساهم في إمداد الشعوب المغلوبة بملكات ومعلومات حول المادة البحرية¹، إلا أن ذلك لم يؤد إلى النتائج المتوخاة.

ومع بداية انهيار الإمبراطورية وما رافقها من اضطراب سياسي واجتماعي ساد العالم المتوسطي، أصبح النشاط القرصاني أكثر قوة وفاعلية بما توفرت لديه من دوافع مساعدة على تنامي الأنشطة الهامشية كنتاج لاختلال الأنظمة، لا سيما وأن التنافس القائم بين مختلف الكيانات المتفككة عن السلطة القائمة سمح باحتلال القرصنة واللصوصية مراكز متقدمة سواء في البر أو في البحر، وأساسا على يد المجاهدين المسلمين (*Les Sarrazins*)². واستمر ذلك طوال القرون التالية متغذيا بالصراعات السياسية بين مختلف القوى الطامحة إلى الاستحواذ على الطرق المتوسطية، بما تقدمه إفرازاتها من تناقضات تسمح بهوامش جيدة للعمل القرصني في ظل سيادة الدول المتناحرة³، والتي كانت أساطيلها النظامية الضعيفة مقابل كفاءة وفعالية السفن القرصانية غالبا ما تدفعها إلى اللجوء لطلب خدمات ربابنتها لحاجيات الحروب البحرية، إلى درجة صار معها العديد منهم قوادا بحريين في خدمة أمير أو دولة. وتتحدث الحوليات البريطانية في هذا الصدد عن "قراصنة الملك" غيوم الثاني المكلفين بخفر المياه الإقليمية⁴، فأصبح من ثم هذا النشاط الحربي الذي تمثله القرصنة متعارفا عليه دوليا، وكأمثل مدرسة لتخريج الأبطال والمغامرين⁵.

وعلى العكس من ذلك كانت التجارة هي الخاسر الأكبر من هذا الوضع، إذ أصبح تضررها عالميا. فبالى حدود القرن الرابع عشر الميلادي لم تكن هناك أية سلطة في مستوى تأمين الشرطة على البحار، وأصبح مفروضا على المتضررين الأساسيين من تجار وممولين الاقتصاد لأنفسهم بوسائلهم الخاصة، وكان التفكير الجدي في تطبيق إجراءات انتقامية يتعاضم دون استطاعتهم تلبية جانب القراصنة، ويمد هؤلاء

¹ Ibid p 31

² Comdreau Op. cit - p 13.

³ Hubac Op cit p 46.

⁴ Comdreau Op cit p 14.

⁵ Hubac Op. cit Preface - p VIII.

الأخيرين بحوافز كبرى لتطوير وسائلهم العملية وتنظيماتهم الفعلية¹، بشكل يضمن تطور قوتهم ونجاحهم.

وهكذا لم تعد القرصنة حكرا على القوات الهامشية، بل تقدمت لتصير ذات أهمية حتى لدى السلطات القوية بحكم الرغبة الأكيدة في التحكم في المنافذ وفي المجالات البحرية، وأضحت كل الوسائل مقبولة، بما في ذلك الحيل والتدابير الأقل كلفة من استخدام الأساطيل الحربية المكلفة، وبما في ذلك الدعم العلني أو السري للتنظيمات القرصانية العاملة ضد الخصم، بما تمتاز به من تأهب متواصل، ومن استعداد للقتال²، فرارا من مجابهة بحرية مباشرة. ويقول هوباك معللا ذلك: "في كل مرة يرتكب فيه ذو النفوذ الخطأ الفادح المتمثل في التخلي عن الحرب الكبرى والحقيقية، أي حرب الأساطيل، تكون اللصوصية أو القرصنة بمثابة حرب صغرى بمقابل الحرب الكبرى أو الحقيقية"³.

ظهرت النصوص الأولى المتعلقة بالقرصنة في سنة 1288م حينما أمر ملك أراغون قراصنته بأداء يمين احترامهم لمواطنيهم، واحترام اتفاقيات ومعاهدات السلم المبرمة مع الدول الأخرى، وسن أيضا ضرورة وضع مغانمهم تحت مراقبته القانونية بإحضارها إلى الموانئ التابعة لدولته⁴. وزاد تأكيد الشرعية القانونية للقرصنة على يد المدن التجارية الإيطالية، حيث سنت بيزا (1298م)، وجنوة (1313م)، ثم فلورنسا، اللاتي كانت تدعم التنظيمات القرصانية الموالية لها قوانين من ضمنها: أخذ ضمانات مالية (Cautions) منها كتعويض عن الخسائر التي يمكن أن تلحقها هذه التنظيمات بسفن محايدة، والتي تتحمل هذه المدن إزاءها كافة المسؤوليات. ثم انتقل ذلك إلى إنجلترا حيث سار برلمانها على نفس النهج (1414م)، مانحا بذلك بعدا رسميا للقرصنة بصيرورتها قضية دولة⁵.

وقد كان من شأن التنافس الدولي هذا ليعزز موقع النشاط القرصاني إلى درجة الانهيار، فأصبحت تحركات القراصنة وضرباتهم تدخل في عداد الاندفاعات الجنونية

¹ Coindreau - Op. cit - p 14.

² Hubac - Op. cit - p 46.

³ Ibid - p 196.

⁴ Ibid - p 18.

⁵ Ibid - p 19.

أو ردود الفعل اليائسة واللامعقولة¹، وبخطط جريئة متعارف عليها لدى رجال هذا القطاع " فكل واحد يحارب حسب إلهامه مجتهدا في تحقيق القدر الأكبر من الضرر بتجارة الخصم المتفوق. إذ المطلوب هو قطع طرق الاتصال، ومفاجأة التائهين، والاستحواذ على الأقوات وعلى الذخائر، والإحراق الفجائي للبعثات البحرية ضعيفة الحراسة، وإتقان الانقضاض على الخصم اللامبالي... كما يتطلب منه المعرفة بخطط الإفلات، والاختفاء دون وجل الاشتهار بالجبن، واتقاء مواجهة أساطيل الخصم بأي ثمن²."

وما كان لهذا التقدم العملي إلا أن يواكبه تطور تنظيمي عرف نواته مع انطلاق العمليات القرصانية، وحقق تقدما مطردا عبر التاريخ. فما يتطلبه هذا العمل من استقلالية فرض على أفرادها خلق تجمعات خاصة بهم مناخمة للساحل، اتخذت على العموم هيئة مراكز شاطئية ناشئة تضاريسيا فوق صخرة كبيرة أو على جرف ساحلي، ظهرها مدار للقارة وكل واجهاتها وطموحاتها منصبة على البحر³، قاطعة في مسيرتها التاريخية ثلاث مراحل لتبلغ قمة التنظيم مع بروزها بمظهر دولة مستقلة. ويحدد كورص هذه المراحل على النحو التالي:

أ - مرحلة تجمع بعض الأفراد المنتسبين إلى المناطق الساحلية الأكثر فقرا في مجموعات مستقلة بعضها عن بعض، يكون نشاطها موجها لمهاجمة السفن التجارية الضعيفة.

ب - مرحلة التنظيم التي خلالها لن يعود بمقدور أي أسطول تجاري أن يكون في مأمن من هجماته، ويصير كل شكل من أشكال مجابهتها دون جدوى، وكل محاولة لتطويعها من طرف أية سلطة بدون أية قوة عملية.

ج - مرحلة تطور التنظيم ليلبغ أوجه بإمكانية تشكيله لدولة مستقلة تجعله في موقع يسمح له بعقد التحالفات مع دول أخرى ضد الخصم المشترك⁴. وقد بلغت عدة مراكز متوسطة هذه المرحلة خلال فترات متلاحقة، بظهور جمهوريات قرصانية أخذت عبر التاريخ أسماء عديدة، ولكنها عرفت عند الضرورة

¹ Ibid p 2

² Hubac Op. cit p 17.

³ Ibid p 11.

⁴ Gosse Op. cit p 13-14.

بسياستها المتبعة استمراريًا، مثل قراصنة كريت في القرن الرابع عشر، أو فرسار مالطا في القرنين السادس والسابع عشر، ومجاهدي شمال إفريقيا (طرابلس، تونس والجزائر) منذ القرن السادس عشر، وكاستمرار لهم - وهذه المرة على الوجه الأطلنטיكي - مجاهدو مصب أبي رقرق في القرن 17.

3- الجهاد البحري المتوسطي

يقول كواندرو في معرض حديثه عن الجهاد البحري الإسلامي: "لم يكر المسلمون ليلعبوا دورا طليعيا في البحر لولا تلقيهم مساندة فعلية من طرف العناصر الأجنبية"²، وتشاطره هذا الرأي مجموعة من المؤرخين الأوروبيين، مؤسسة ذلك على ضعف اهتمام المسلمين بالمجال الملاحي وتوجههم كلية إلى الأنشطة القارية، ودعم ذلك بأحكام إسلامية تاريخية تنحو في هذا المنحى³. وحسب اعتقادنا فإن سبب هذا الإعراض/الاهتمام يعود إلى كون استغلال المجالات المائية ليس من طبائع المستقر الأمن نظرا لصعوبة المهنة الملاحية واتسامها بالترحال المتواصل.

وانخراط أوائل ممارسيها - وأساسا اليونانيون - إنما تم لأن أراضيهم لم تتركهم تسامح لهم بتحقيق كفايتهم من حاجيات العيش بالشكل الأمثل، فصاروا بحارة بالضرورة⁴. وهو الشيء الملحوظ ذاته بالنسبة لتطور الملاحة الأوربية الحديثة وم أعقبه من كشوفات كبرى، حيث أن ضيق المجال القاري وتقلص خيراته أمام النمر الديموغرافي المطرد كان أحد أسباب التحركات الأوربية المتحفزة لتأسيس مجال حيوي جديد خارج القارة.

في حين نجد أن هذه الحوافز تنعدم في المناطق الإسلامية، أو لم تكن على الأقل ملحة بنفس الحدة، نتيجة اتساع رقعة الأراضي الإسلامية والتكامل الحاصل بين وحداتها، إذ لا توجد حواجز فعلية تحول دون تبادل مختلف التأثيرات الاقتصادية

¹ يقول ابن خلدون: "لما ملك المسلمون مصر، كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، رضي الله عنهما، ل

² Coindreau - Op. cit - p 20-21.

³ روكوبه، ولم يركبه أحد من العرب إلا من اقتات على عمر في روكوبه، ونال من عقابه... والسبب في ذلك أن العرب كانوا ليدأوتهم لم يكونوا مهرة في ثقافته وركوبه". انظر: "المقدمة" - ط 2 - مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني بيروت 1961 - ص 448.

⁴ Brunot - Op. cit - p 245.

والثقافية عموماً، وبالتالي لم تقف الأنظمة السياسية المختلفة والمتصارعة أحياناً دون مختلف التقلبات، لكون العامل الديني كان وحده تأشيرة مقبولة ومتعارف عليها. أما على مستوى حدود العالم الإسلامي، فهي الأخرى وحتى حدود القرن السادس عشر كانت المناطق الواقعة خلفها توفر لها مجالات حيوية هامة، تغذيه بأكثر مما يرغب فيه من الحاجيات، مدعماً ذلك بإشرافه على الخطوط التجارية الكبرى القادمة من آسيا وإفريقيا، بشكل جعل منه المؤسسة المنشطة للتجارة وللإقتصاد العالميين بحكم اضطراره بدور الوسيط بين بدايات ونهايات هذه الخطوط. وحتى أثناء حدوث الانقلابات الناجمة عن انتقال الخطوط التجارية إلى يد القوات المسيحية بتحويلها من خطوط قارية إلى بحرية، ما كان المسلمون ليغامروا في البحر إلا في ظل هدف واضح المعالم، ومغذى أساساً بالمجاهبة الإسلامية-المسيحية التقليدية، كقطاع شرعي لنشاطهم الملاحي، وهو ما أضفى عليه بعداً مقدساً لدى القوات الإسلامية العاملة في البحر الأبيض المتوسط قبل نزوعها إلى المحيط الأطلنטיكي.

لقد اكتسبت البحرية الإسلامية تاريخياً موقعا هاما في الصراع ضد المسيحية منذ عهد معاوية بن أبي سفيان¹، وتطور ذلك مع اكتساح المد الإسلامي لكافة السواحل الشرقية والجنوبية للبحر الأبيض المتوسط وشواطئ الأندلس؛ حيث يشير ابن خلدون إلى أن أسطول الأندلس قد بلغ أيام عبد الرحمن الناصر (القرن الرابع الهجري/10م) مائتي مركب تقريبا، ومثل ذلك لدى الفاطميين، مما مكن المسلمين من السيطرة على الملاحة المتوسطية، ودعموا ذلك بامتلاكهم لسانر الجزر الواقعة فيه².

بيد أن التطور السياسي الذي أصاب المناطق الإسلامية، وما نجم عنه من تفكك وانحلال، قد فرض على مختلف السلطات المتعاقبة الاهتمام بتثبيت نفوذها في المناطق القارية، وكان من تجليات ذلك تراجع قيمة المجال البحري لفائدة القوى المناوئة³، رغم استمرار بعض المجموعات الإسلامية في النشاط الملاحي الإسلامي، ولا سيما في الجزر المتوسطية الوسطى⁴ وساكنة بعض المراكز الساحلية، في محاولة

¹ ابن خلدون - نفسه - ص 448.

² نفسه - ص 450.

³ يقول ابن خلدون في هذا الصدد: "تراجعت قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدولة، ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الأندلسية، ورجع النصر فيهم المعروف من البرية هي والبحر عليه والبصر بأحواله، وغلب الأمم في لجهته وعلى أعواده، وصار المسلمون فيه كالأجنبي إلا قليلا من أهل البلاد الساحلية". نفسه - ص 454.

⁴ Monlau Op. cit - p 19.

الحفاظ على الوجود الإسلامي بالبحر الأبيض المتوسط إبان التحكم الصليبي في حوضه الشرقي، علما بأن الحوض الغربي قد ظل منطقة نفوذ إسلامي نتيجة تماسك الوحدة السياسية بين العدوتين وسطوتها المزدوجة برا وبحرا أيام الموحدين. وببداية تدهور السلطة المركزية في الغرب الإسلامي واستفادة القوى المسيحية من ذلك، في وقت برزت فيه بالشرق قوة إسلامية ناهضة راحت تكتسح مناطق الشرق الأوربي، أصبح الأسطول الرسمي المغربي يتعرض للاندثار أمام تركيز الثقل الأوربي المسيحي على مناطق شمال غرب إفريقيا، واختياره لها كميدان للمواجهة الدينية التقليدية لعدم رغبة أوربا المسيحية في مواجهة مباشرة مع القوات العثمانية الصاعدة. وما كان لهذه الظرفية سوى أن تسمح بنشوء تأثيرات دينية بهذه المناطق تحول معها شيوخ الزوايا إلى أسس إلهامية، والمجاهدون إلى أبطال قوميين، موجّهين ذلك إلى بروز الجهاد المقدس البحري على قواعد شعبية، الذي أصبح في غيبة مبادرة رسمية الوسيلة الوحيدة لنقل النزاع إلى البحر، وتأدية المسيحي ثمن تدنيسه لأراضي الإسلام¹.

وسوف يوجج الزحف المسيحي على ما تبقى من ممالك الأندلس، وما واكبه من تعسف وتهجير لمسلميها إلى مناطق شمال إفريقيا الشعور الديني ضد المسيحية جمعاء، وضد الكاثوليكية بالتحديد، زاد من حدته إفراغ البحر الأبيض المتوسط من دوره كرنة اقتصادية عالمية، مع ما ولده ذلك من خلفيات سلبية على السواحل المتوسطية الجنوبية وعلى أراضيها الداخلية، الشيء الذي سوف يرتقي معه رجال الجهاد البحري إلى درجة الرغبة في إدراج كافة المجالات المتوسطية تحت النفوذ العثماني، وعقبت العمل على ملاحقة الخصوم حتى في أماكن نفوذهم خارجها، وكلما زاد ركوب البحر الأبيض المتوسط كلما قويت رغبة البحارة المسلمين في التنقل والتحرك خارج نطاق الركود، الأمر الذي سيؤدي في الأخير إلى ظهور الصراع البحري بين الإسلام والمسيحية في مناحي المحيط الأطلنטיكي، خريطة الخطوط التجارية الرئيسية آنذاك.

لقد فرض التطور السياسي على الدولة العثمانية الطامحة للتوسع نحو الغرب أوربيا وإفريقيا تشجيع النشاط البحري الإسلامي رسميا وشعبيا، خاصة ووحدة الهدف الرامي إلى إلحاق الضرر بالقوات المسيحية في غرب المتوسط كان عاما. وقد انطلق

¹ Ibid - p 45.

ذلك مع بروز نجم الأخوين بارباروس: عروج وخير الدين، انطلاقا من قاعدة الجزائر، ومن بعدهما طائفة من الرياس المغاوير التي ينعته كواندروب¹ "المجموعة الرائعة من القراصنة الممتازين في العالم".² واستطاع هذان الأخوان ألا يجعلوا من الجهاد البحري نشاطا موجها من قبل سياسة قارية، وإنما قوة بحرية متحركة في سياسة كيان قاري، بعدما خلقا من التنظيم الجهادي قوة في أوج عنفوانها، كمؤسسة حقيقية لمجاهدين بحريين قادرة على تحدي أية سلطة أخرى، وهو ما جعل عروج يحظى باهتمام الأوربيين كشخصية جديدة بالاحترام، وكمثال لتحدي الأقدار³ في الوقت الذي نجح فيه أخوه وخليفته خير الدين في تحويل تنظيمه الجهادي إلى إمارة ذات سيادة، متمثلة في ولاية الجزائر كنموذج لمؤسسات الشمال-إفريقي الجهادية⁴.

وقد أضاف خير الدين إلى كفاءته القتالية والعسكرية حنكة سياسية بدت في سعيه إلى الحصول على سند دولي قوي بإعلان تبعية الجزائر للإمبراطورية العثمانية، مع الاحتفاظ بالاستقلال الذاتي لتوجهاته الجهادية. وبتركية من السلطان سليمان القانوني الذي نصبه أمير أمراء البحرية العثمانية سارع خير الدين إلى الاستفادة من هذه الوضعية الجديدة والجيدة محققا نجاحات باهرة استحق عليها لقب "بهاء المسيحية"⁵، خاصة بعد هزمه للأميرال الإسباني الشهير أندريا دوريا في معركة بريغنز سنة 1538، التي كانت آنذاك حاسمة في التسابق القائم بين شارل الخامس وسليمان القانوني من أجل السيطرة على البحر الأبيض المتوسط، والذي لم ينته أصلا إلا في عهد خليفتهما.

إلا أن فترة التنظيم الجهادي هذه قد أضحت أكثر خضوعا للمركزية العثمانية، مما أفقده الكثير من الخصوصيات لفائدة التوجه السياسي. ولم يشرع الرياس في استرداد استقلاليتهم إلا بعد انتكاسة الأسطول العثماني في معركة ليبانطو (أكتوبر 1570)⁶، حيث استغلها هؤلاء للانسلاخ تدريجيا عن سلطة القسطنطينية كضباط رسميين⁷، مشكلين تمركزا متكونا من مختلف الجنسيات في قواعد الإيالات التركية

¹ Condreau Op. cit p 22.

² Hubac Op cit Préface - p VII.

³ Condreau Op. cit p 24.

⁴ Ibid p 23.

⁵ Paul Chack " Deux batailles navales" - 53° éd-éditions de France-Paris 1935 - p121-51.

⁶ Condreau Op. cit p 25.

المتوسطة من طرابلس إلى الجزائر، جعل اختلافهم الطبائعي والعنصري عر الأتراك وعن العناصر المحيطة بهم يخلق نوعا من التنافر، وبالأساس مع الأهالي الأصليين¹؛ وفي الوقت ذاته كانوا يعملون بجد من أجل تلطيف حدة التأثيرات السياسية التي كانت تكبح جماح توجهاتهم وتخضعهم لإرادتها، وتجول أجزاء مهمة من نشاطهم لخدمة المراكز.

وقد كان من شأن هذه المتغيرات أن تفتح للجهاد البحري بشمال إفريقيا مجالا واسعا وأكثر استقلالية، وبالتالي منحه دفعة إضافية لتطوره؛ إذ استطول عمليات المجاهدين مجالات بحرية ظلت مغمورة إلى ذلك الحين قصد القيام بتسديد ضربات قوية لعمق المجال الحيوي الإسباني، كان أهمها هجوم مراد راييس على جزر الخالدات عام 1585، والذي يقول عنه كواندرو: "إنه يمثل بنوعية خط الالتحام بين مجاهدي الجزائر العاملين في البحر الأبيض المتوسط، وتلك المجموعة الجديدة من مجاهدي المحيط الذين سيجملون بحق خلال الفترة التالية شهرة خطيرة تحت لقب قراصنة سلا"².

¹ Hubac - Op. cit - p 2.

² Coindreau - Op. cit - p 25.

الفصل الرابع: الجهاد البحري بالأطلنטיكي

(حتى نهاية القرن السادس عشر)

لم تنطلق استفادة العنصر المغربي من الساحل الأطلنטיكي مبكرا لاعتقاده آنذاك بأنه يشكل نهاية العالم المعمور، وما تلاه عد في حكم المجهول انطلاقا من تسميته بـ "بحر الظلمات"، فكان انكباب المغرب وانفتاحه على الساحل المتوسطي الذي كان يلعب دور الربط بينه وبين العالم القديم، حيث كانت سببة تقوم بدور البوابة التجارية الرئيسية بين العدوتين خصوصا، والقارتين عموما.

وإذا كانت البحريات الأوربية قد راحت منذ الفترات الأخيرة للعصور الوسطى تسعى إلى استغلال النواحي المجهولة من المجال الملاحي الأطلنטיكي، فإن ذلك قد مكنها من الاكتشاف التدريجي لمياه المحيط خلف جبل طارق، وما تولد عنه من بداية توسيع شبكة الخطوط الملاحية التي أضحت تزام الخطوط القارية غربا، إلى حين بداية التغلغل الأوربي في سواحل إفريقيا خلال القرن الخامس عشر كخطوة أولى لتلتها خطوات أهم تمثلت في الكشوفات الجغرافية الكبرى، التي سيكون لها الأثر الحاسم في التخلي الاضطرابي للمغرب عن موقعه كنهاية غربية جنوبية للعالم المعروف، ليصير مركزا وسطا مشرفا على مجال بحري نابض بحركة المرور الموازية لساحله من وإلى أوروبا، ويجر أهاليه - وقد تغيرت أهمية الموقع - إلى الاهتمام بالنشاط البحري، وإلى محاولة الاستفادة بشكل من الأشكال من الرواج الاقتصادي المتحرك على مرأى أعينهم، محفزين برغبات دينية ونفسية قوية.

وإن كان الاهتمام بالملاحة المحيطية قد ترسخ كاسلوب جهادي رسمي اضطلعت به السلطة السعدية، وتأسس على بقايا جهاد شعبي منطور بدءا من انهيار السلطة السعدية وطوال القرن السابع عشر، فإن السلطات المتعاقبة على حكم المغرب قد عملت قبل ذلك الوقت على استغلال هذا المجال لترسيخ نفوذها، أو لتحقيق قوة بحرية سلطانية تفي بالغرض العسكري أو التجاري تجاه القارة الأوربية.

1 - تطور البحرية المغربية بالأطلنטיكية

إن تأخر تحكم السلطات الإسلامية في مناطق المغرب الأطلنטיكية بفعل سيطر الإمارة البرغواطية على الشريط الساحلي حتى حدود القرن الحادي عشر الميلادي، كون عائقا وجبها أمام استثمار هذا المجال بشكل بارز المعالم، رغم أن البرغواطيين قد تمكنوا من تأسيس نواة أسطول مغربي صرف لدواعي التحكم في مضيق جibraltar طارق وللقيام بأعمال قرصانية ضد السفن الأندلسية العابرة لذلك المجال¹؛ وهذا يجعلنا نفترض قيام ملاحية أطلنטיكية ساحلية انطلاقا من الثغور الغربية باعتبارها مركز التحكم البرغواطي في الثغور المتوسطية التي حرص الأندلسيون على تبعيةها لتأمين التواصل بين العدوتين.

ولا يمكن إغراء الانطلاقة الفعلية للأسطول المغربي الإسلامي في المياه الأطلنטיكية إلا إلى العهد الموحي، حيث بادر عبد المؤمن بن علي إلى اتخاذ مرسى المعمورة قاعدة أساسية للصناعة الملاحية، وورشها مهما للسفانة بلغ إنتاجه ربع محصول قواعد الإمبراطورية الموحدية عموما²، نظرا لموقعها القريب من المياه الأولية بوجودها على مشارف منطقة غابوية مهمة وفرت لها احتياجاتها من الخشب وأيضا لابتعادها نسبيا عن عمليات القرصنة الأوربيين واللصوص النشيطين في المياه المتاخمة للسواحل الشمالية للإمبراطورية، فكانت قاعدة المعمورة بذلك ثمة الثغور الأخرى بالسفن تنفيذا لسياسة الملوك الموحدين الرامية إلى إنشاء ميليشيات بحرية لغرض الخفر الملاحية³، ومن ثم استفادة مصب أبي رقراق كغيره من الثغور لانطلاق نشاط ملاحية عسكري اعتبارا لاهتمام الموحدين به من جهة، ولقربه من المضيق من جهة أخرى.

وقد عرف الأسطول المغربي في هذا العهد ازدهارا كبيرا على يد يعقوب المنصور أساسا، إلى درجة صار معها مضرب المثل لدى المؤرخين⁴. بيد أن التفكك السياسي الذي شهدته مناطق الغرب الإسلامي في القرن الثالث عشر قد أثر بالسلب

¹ السيد عبد العزيز سالم وأحمد المختار العبادي: "تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس" - دار النهضة العربية - بيروت 1969 - ص 238.
² بلغ حجم المساهمة المطلوبة من دار السفانة بالمعمورة سنة 1160م قصد إعداد الأسطول الموحي، مائة وعشرون وحدة من أصل أربع مائة سفينة. انظر: Brunot - Op. cit - p 291.
³ بنعيد الله - نفسه - ص 63.
⁴ ابن خلدون - نفسه - ص 453.

على الأسطول المتماثل للوحدات، ليتفقت بدوره بين المغرب والإمارات الأنطلمية، ولن يتوقف ذلك إلا مع ظهور المرينيين وشعورهم بالخطر الأوربي الذي أضحي يتهدد المغرب انطلاقاً من البحر، كمحاولة الإسبان السيطرة على مدينة سلا سنة 1260م¹، والتي لم توقف السلطان أبا يوسف عند مستوى استعادة المدينة وتحصينها فقط، وإنما دفعته إلى إنشاء دار صناعة بحرية حقيقية في واجهتها الشرقية على يد المعلم المهندس أبي عبد الله محمد بن علي الإشبيلي²، سرعان ما برزت كأهم قاعدة بحرية مرينية بعد سبتة، في عهد بلغ فيه الأسطول عظمة توازي عظمة الأساطيل للأوربية إبان فترة حكم السلطان أبي الحسن المريني (1331-1351م)³.

ويعود هذا الاهتمام إلى رغبة القوات الإسلامية في الحفاظ على نفوذها في المغرب المتوسطي، وفي تحقيق مجابهة ناجحة عند الضرورة ضد المسيحيين المهمين بمحاولات التحكم في الخطوط البحرية التي يشكل المضيق أحد منافذها الرئيسية⁴. ولذلك تعددت أورايش السفانة على الساحل للأطلنتيكي من طنجة إلى مصب أبي رقران، مع مساهمة لأورايش داخلية مثل دار السفانة الكبرى بفاس⁵، من أجل تأمين وتنشيط المبادلات التجارية مع أوروبا التي أصبح مصب أبي رقران يضطلع بدور هام في مضمارها، بظهور خطوط منتظمة بين البحر الأبيض المتوسط والساحل الأطلنتيكي المغربي، تشكل سلا من جهة وساحل شمال إفريقيا حتى الإسكندرية ولجنا المدن الإيطالية من جهة أخرى حدودها البحرية، والتي بمقابلها جرت تنظيمات بحرية مسلّية إلى محاولة حرقلتها ببداية ظهور القراصنة على الساحل المغربي، انطلاقاً من مصب سبو⁶.

ومع بداية اندحار الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية منذ منتصف القرن الرابع عشر، والتطور السياسي الناشئ في القسم الغربي منها ب بروز مملكة البرتغال، أخذ الصراع التقليدي ينقل مواقعه من أوروبا إلى شمال إفريقيا في مرحلة عرفت فيها

فعل سيطر
الميلادي
بر غواطي
مضيق ج
!؛ وهذا
اعتبار بد
يتها لتأمر
في المي
فاز مرسي
تواجه ريب
من المد
الخشب
يطين في
بذلك تد
ميليشيا
من الثغور
قربه من

د يعقوب
من التفكك
بالسلب

دار النهضة
ة وعشرو

¹ ابن خلدون: "المعبر وديوان المبتدأ والخبر" - المجلد السابع - دار الكتاب اللبناني - بيروت 1959 - ص 366-67.
² انظر ترجمته لدى ابن علي الكالي في "الإتحاف للوجوه" - نفسه - ص 64.
³ حركات: "المغرب عبر التاريخ" - الجزء الثاني - نفسه - ص 117.
⁴ ابن خلدون: "المعبر..." - نفسه - ص 431-32.
⁵ يقول السيد عبد الحفيظ سالم: "كانت توجد دار صناعة كبرى في الموضوع المعروف باسم الحبالات شرق فاس عند حلقى ولد فاس مولد سبو، وكانت تشابه القوارب والسفن، ثم تنساب إلى ولد سبو وتصب فيه حتى مصب في المحيط الأطلسي". تاريخ البحرية... - نفسه - ص 256.
⁶ محوي: "الزواجر للدلائل..." - نفسه - ص 174.

الأوضاع المغربية هشاشة في البنية السياسية المرينية، سامحة للبرتغاليين مع بداية القرن الموالي بمحاصرة القواعد الإسلامية الغربية، معتبرين أن أحسن وسيلة للدفاع عن المجتمع المسيحي تكمن في خنق الشواطئ المغربية بدءا بسبّنة سنة 1415م المركز التجاري الرئيسي، وعقبه كافة المنافذ الأخرى باستغلال تفهقر الأسطول المريني كجزء من الضعف العام للدولة. وهكذا وفي ظرف قرن واحد أفلح هؤلاء إلى جانب جيرانهم الإسبان في السيطرة على كافة المراكز الأطلنטיكية والمتوسطة (آخرها المعمورة سنة 1515م) باستثناء مصب أبي رقراق¹.

وقد لعبت هذه المراكز دورا حيويا في السياسة الاقتصادية البرتغالية باتخاذها قواعد حماية وتموين للأسطول التجاري - قناة الاتصال الوحيدة مع المستعمرات -، خاصة وأن الخصوم الأوربيين قد طوروا وسائل مجابهتهم للاحتكار الاقتصادي الإيبيري باتباع أسلوب الحرب الاستنزافية التي راحت مسارحها تتمدد باتجاه الجنوب رويدا رويدا حتى بلوغ قراصنتهم نواحي الساحل المغربي بين المضيق وجزر الأصور والخالدات، متحدّين في الهدف مع الجهاد السعدي المنطلق من الجنوب المغربي براء، والذي سيولد انتباه زعمائه إلى فعالية القوة البحرية كأحدى الوسائل العصرية، ويبرز كهاجس يدعوهم إلى بذل الجهود الكبيرة من أجل إعادة بناء أسطول مغربي قوي بإمكانه إكساب دولتهم تقلا عالميا² وكلمة مسموعة في المجال الممتد غرب البلاد، الذي أصبح رنة التنفّس لأعدائهم الدينيين، والشرّيان الأساسيين للاقتصاد العالمي.

2 - الجهاد البحري بالأطلنטיكي خلال القرن 16

إذا كان العمل الجهادي بغرب البحر الأبيض المتوسط قد مكن الرياس من تأسيس ولاية الجزائر التركية، فإن القوات الإيبيرية قد أجبرت بفعل ذلك على الابتعاد التدريجي نحو الأطلنטיكي، وعلى جعل القوات المعادية لها مضطرة إلى تعقبها في المجال الجديد وعلى طول الساحل المغربي، باعتبار قربه من الخط التجاري الرئيسي

¹ Brignon - Op. cit - p 176-77.

² Les S. I. H. M. - 1^o série - Angleterre - T I - p 3.

بين إيبيريا ومختلف بقاع المعمور¹، لا سيما وأن هذا الساحل يقدم مراسي ملائمة للنشاط الجهادي أو القرصني.

وتقر مختلف التأليف باستفادة قوات غير محلية من هذه المراكز البحرية لممارسة نشاطها المنائي للمصالح الإيبيرية، سواء قوات أوربية أو إسلامية. وأول إشارة عن ظهور الجهاد البحري التركي في عرض المحيط تعود إلى سنة 1531م انطلاقاً من مرسى العرائش كقاعدة للتحرك². وبداية من هذه السنة سيوسع الرياس الجزائريون قواعدهم على امتداد الساحل المغربي في غمرة ارتداد مختلف قراصنة أوروبا لمراسيه، من أمثال الجنوبيين والفرنسيين والكاطالانيين والهولنديين³، ومن بعدهم الإنجليز، مستفيدين من تعدد القواعد المفتوحة أمام سفنهم، كالعرائش والمعمورة وأنفا وأسفي وموگادور وسلا⁴.

وقد واكب هذا النشاط الاهتمام الجدي الذي راحت السلطات السعدية توليه للأسطول كوسيلة جهادية بحرية توازر سياسة الجهاد التي تحملت مسؤوليتها ضد الاحتلال الإيبيري منذ انطلاق دولتها، ولم تتأخر أخبار الجهاد الرسمي في الظهور مع بروز أولى العمليات بتدبير من قائد تافطنة⁵ سنة 1537 الذي حاول التضييق بمراكب شراعية بسيطة على سفن الصيد الإسبانية والبرتغالية العاملة بالقرب من مراكز الاحتلال⁶. على أن هذا الاهتمام لم يرق إلى مستوى التنفيذ إلا مع لجوء محمد الشيخ إلى الاعتماد على التجربة العثمانية في المادة الملاحية باستقطابه لأعداد مهمة من الرياس الأتراك والعلوج، لا سيما وأنه قد نجح في انتزاع عدة منافذ أطلنتيكية من يد البرتغال، الأمر الذي مكّنه من التوفر على قواعده متعددة لتجميع السفن التي بمقتوره ضمان إنشائها بفاس واستقدامها إلى المعمورة عبر نهر سيو، بالاعتماد إلى الدعم المنتظر من فرنسا استغلالاً لعلاقة الصداقة والمودة التي تربطه بعاهلها⁷.

¹ Coindreau - Op. cit - p 34.

² Les S I H M. 1^{re} série - Espagne - T I - p 3.

³ Ibid - Pays-Bas - T V - Intro. p X..

⁴ Coindreau - Op. cit - p 34.

⁵ تافطنة: ميناء ساحلي ثاقوي، يقع على بعد 45 كلم جنوب الصويرة.
⁶ ورد في رسالة برتغالية وجهت إلى الملك جان الثالث بتاريخ 10 شتنبر 1537 قيام القائد المذكور بهجومه سعيته
صيد قرب موگادور، كما هاجم بعد ذلك عدة مراكب صيد قشتالية بالقرب من تلك النواحي. انظر - Les S I H M.

⁷ Ibid - Espagne - T I - p 229.

- 1^{re} série - France - T I - p 105-06.

ومن الواضح أن هذا المشروع لم يبلغ مده نظرا لتدهور العلاقات المغربية العثمانية من جراء تضارب مصالح الطرفين، والذي سيكون من نتائجه انحياز الأتراك إلى البيت الوطاسي بقيادة أبي حسون سنة 1554م، وتدبيرهم عملية اغتيال محمد الشيخ بعد ذلك بثلاث سنوات (1557)، ليكون ذلك نهاية للمشروع الجري الذي أثار مخاوف الإيبيريين، ودفعهم إلى مراقبة تطور الأسطول السعدي باهتمام دقيق، وإلى استقراء نتائجه المستقبلية وانعكاساتها الوخيمة على وضعية مراكز الاحتلال عموما، ووضعية مازكان بصورة خاصة.

وبموازاة سياسة التقارب مع العرش الإسباني التي سلكها عبد الله الغالب كدرع واق ضد التهديد العثماني الراغب في إلحاق المغرب بباقي مناطق الإمبراطورية الإسلامية الموحدة، كان السلطان السعدي يكشف بين الفينة والأخرى عن نواياه في ميدان الجهاد البحري، إما بغض الطرف عن استعمال الرياس العثمانيين لمراسي دولته كتواعد متقدمة، سامحا لهم بالاقتراب من الخطوط التجارية وبتحقيق المغنم المهمة؛ إذ في سنة 1566، استطاع هؤلاء الرياس انطلاقا من العرائش من الاستحواذ على ما يتبع عن خمسين سفينة أغلبها إسباني الجنسية². ومن جهة أخرى اتخذ إجراءات عملية لتنظيم الجهاد البحري رسميا³ رغبة منه في الظهور بمظهر المدافع عن حقوق المسلمين في هذا الجزء الغربي الذي ينازعه السلطان العثماني في مشروعية إمارته.

وأمام هذا الاهتمام المتصاعد الذي أبداه كل من الرياس العثمانيين وقواد إسبانيا إزاء مراقي المغرب، كان البلد يعيش فترة حروب أهلية سمحت لعبد المالك المعتمد بتولي السلطة بمساهمة عثمانية، الأمر الذي شجع باشا الجزائر حسن أغا بالكتابة إليه بعد ذلك سنة 1577، مبتدئا له رغبة الباب العالي في وضع ميناء في العرائش وسلا تحت تصرف بحارته في حال توقيع الهدنة بين القسطنطينية ومريد، واعدة إياه بأن

¹ تضمنت رسالة موجهة من قائد مازكان إلى الملك البرتغالي في 13 ماي 1556 معلومات عن أوامر محمد الشيخ بإنشاء مركبين بسلا ليرتفع عدد الوحدات بها إلى ثلاث، بنية محاصرة ميناء مازكان، مذكرة بخطورة ذلك على هذا الميناء، والتهديد الذي يشكله توفر السعديين على أسطول بحري. أنظر: *Les S. I. H. M. - 1^o série - Portugal - p44*.

² *Ibid - France - T I - p 283-84.*

³ تشير رسالة برتغالية موجهة من طنجة إلى أن قاضي فاس قد عين قائدا على سلا، وأنه ينوي إنشاء عدد من السفن بها لرسم تنظيم للجهاد البحري. أنظر: *Ibid - Portugal - p 109.*

ذلك من شأنه أن يسهل عملية تحرير طنجة وسبتة من يد البرتغال، وأن يدر على المغرب مداخل مهمة من مغنم المجاهدين ضد الأسطول الإسباني. لكن حضور المبعوث الإسباني في بلاط السعديين جعله لا ينصح عبد المالك بإغلاق مراسي المغرب في وجه البحرية العثمانية فحسب، بل وأشار عليه بالحنر من الأتراك الذين يشكلون حرسه الخاص، وبن حضور المجاهدين البحريين في المياه المغربية سيؤدي إلى إفلاس الخزينة بدل إثرائها بعرقلتهم للتجارة الأوروبية¹. ويظهر في الغالب أن وجهة النظر الإسبانية كانت هي الراجحة، إذ لم يستطع الأتراك تطوير حضورهم في المحيط الأطلسيكي، وسعى السلطان السعدي إلى التقدّم بمقترحات إلى إسبانيا ترمي إلى تأمين سلامة سفنها وعدم تعرضها لأي هجوم انطلاقاً من سواحل المغرب، والسماح باستغلال مراسيه من طرفها².

وإذا كان السعي الإسباني إلى تحقيق بعض الامتيازات قد التزم بالوسائل الدبلوماسية، فإن البرتغاليين في غمرة تحريضهم لاحتلال المغرب لنيل قصب السبق أمام القوات العثمانية، كانوا يرون في العمل العسكري ضماناً كبيراً لتنفيذ الهدف؛ حيث صار يرى في احتلال العرائش الخطوة الأنسب لتأمين الملاحة وللوقوف حيال مطامع الأتراك³. غير أن لجوء محمد المتوكل إلى استقطاب الدعم البرتغالي شجع دون سيامستيان على استعجال تحقيق الاحتلال العام، ومن ثم دخوله في معركة وادي المخازن التي ستقضي على مستقبل بلاده، بمقابل النجاحين المادي والمعنوي المدعمين لوضعية المغرب المستقل.

إن نجاح أحمد المنصور السعدي بعد ذلك في تثبيت سلطانه داخلها، ونزوعه نحو لعب دور طليعي على الساحة الدولية بانتهاج سياسة التحالفات المتقلبة، قد جعله

¹ Ibid - Angleterre - T I - p 266-67.

² هناك مشروعاً اتفاقية مغربية-إسبانية، لولها اقتراح مغربي مؤرخ بـ 16 أبريل 1577، يلتزم فيه عبد المالك بامتناعه عن تأسيس أسطول بحري قابل للقيام بغارات على شواطئ إيبيروا، وشنق الأتراك القادمين إلى المغرب بمعقم إسبانية، مع إعادة هذه الأخيرة إلى أصحابها، ورغبته في الإبقاء على الحرب ضد مناطق الاحتلال بالمغرب برا وبحرا. أما الثاني فهو اقتراح إسباني مؤرخ بماي 1577، ويسمى إلى تلزيم السلطان المغربي بفتح موانئ البلد عن الأتراك، وإرجاع مقاصد السفن الإسبانية الجانحة على السواحل، وضمان ولوج مرفأ المغرب لسفن إسبانيا وحلفائها، ومنع هذه المرافئ في وجه القراصنة وأعداء إسبانيا دون التزام هذه الأخيرة بالعمل، وأيضاً بامتناع عبد المالك عن تأسيس بحرية صكرية. انظر: 15-214 - Angleterre - 1° série - Les S I H M. - p 207 et 214-15. إلى أحد قواده، أن الوسيلة الوحيدة للتصدي للخطوة العثمانية في السيطرة على موانئ المغرب، تقتضي سيادة البرتغال على العرائش. ذلك أن نجاح الأتراك في التمرکز بها سيؤدي إلى استحالة الملاحة قبالة سواحل المغرب، ولن طردهم منها سيتطلب تكاليف جبرة. انظر: Ibid - p 163.

يتشوف إلى تنفيذ حلم أسلافه المتمثل في تمكين الدولة من أسطول بحري قوي مدفوعا بالدور الهام الذي كانت القوات الملاحية تلعبه في ترجيح الثقل السياسي لمختلف القوات المعاصرة. فاجتهد في البحث عن المواد المطلوبة لهذا الغرض. مستغلا تقرب القوات الطامحة إلى الاستحواذ على السوق المغربية تصديرا واستيرادا، رابطا مثلا تصدير ملح البارود المحلي بمقايضته بخشب الإنشاء. وقد وجد في الحليف الإنجليزي الطرف الأكثر تقبلا لهذه الشروط¹، والذي كان يبذل الجهود المكثفة لإرضاء احتياجات السلطان، إلى درجة أنه لحظة الإحساس بالعجز عن تسديدها انفراديا كان يسعى إلى طلب المساعدة الهولندية في هذا الصدد².

لذلك، ورغم كد البابوات في الحيلولة دون تمكين القوات الإسلامية عموما والمغربية على وجه الخصوص، من المواد المتعلقة بالملاحة باعتبارها عتادا استراتيجيا يحظر الاتجار فيه³، أفلح أحمد المنصور في فك طوق العزلة المفروض على المغرب في هذا المجال، وذلك بتحكمه في السوق المغربية سياسيا، مما حتم على التجار الأوربيين حفاظا على مصالحهم اللجوء إلى تهريب المواد المحظورة كوسيلة وحيدة لتصرف بضائع أخرى، بيد أن الملاحظ هو أن هذه السياسة لم تكن لتؤدي إلى نشأة أسطول سعدي حقيقي.

والسبب في ذلك أن المساعدة البروتستانتية لم تكن فعالة إلا بالقدر الذي يمكنها من خلق قوة جديدة مضادة للنشاط الملاحى الإيبيري، وليس تأسيس قوة بحرية مستقلة وفعالة بمقدورها أن تشكل مستقبلا عنصرا منافسا ومعرقلا لتطور نفوذها، بل إن هذا العون لم يقدم من باب المبادرة، وإنما أتى نتيجة ضغوط اقتصادية فرضتها السلطات الحاكمة، وأيضا ضغوط سياسية فرضتها إمكانية استغلال المغرب كقاعدة استراتيجية خلفية في الصراع البروتستانتي-الكاثوليكي. ولذلك نلاحظ استثمار القوات الأولى لمراسي المغرب لشن هجمات ضد سفن الثانية دون تنسيق مع السلطات المغربية، وهو ما خلق تناقضات مصلحة بينها⁴. ونلاحظ قيام قراصنتها أيضا بعمليات في المياه

¹ Ibid - T I - p 449.

² Ibid - p 391.

³ Ibid - p 2.

⁴ De Castries - Op. cit - p 812-13.

المغربية ضدًا عن مصالح المغرب، مجبرين سلطاته على القيام بربود أفعال ضد مواطنيهم من التجار المستقرين بالمغرب¹.

لقد انطلق الجهاد البحري الرسمي عقبذاك لتجريب فعالية الأسطول السعدي بقيامه بغارات على شواطئ إسبانيا، والتي أبان من خلالها عن ضعف تقائنه وبطء حركيته²؛ وارتأى المنصور ضرورة الاستفادة من الخبرات الأجنبية تصنيعا وتسييرا، ساعيا لدى الملكة الإنجليزية إليزابيث الأولى سنة 1589 من أجل السماح له باستيراد المجانيق، وباستقطاب النجارين وصناع السفن، وكافة المواد الأخرى التي يحتاجها في ذلك من إنجلترا³.

ومن الطبيعي أن تزداد رغبة المنصور تأججا أمام العمليات الناجحة لقراصنة الإنجليز ضد المصالح الإيبيرية، وأيضا مع الظهور المتواصل للبحرية العثمانية في المحيط كفاعلية لا ينقص من قدرها إزاء باقي البحريات العاملة في هذا المجال؛ إذ قبل ذلك أقدم مراد راييس الجزائري في سنة 1585 على الاستفادة من مرسى سلا للقيام بعملية جريئة بجزر الخالدات، نهب خلالها مدينة لانزروت وأسر بها ثلاثمائة شخص، ونجح في الإفلات من أسطول حربي إسباني كان يتعقبه بلجونه إلى العرائش قبل أن يجتاز المضيق تحت أنظار ذات الأسطول⁴، واعتبر ذلك أول فعل جهادي هام بالأطلنטיكي، ونقطة تأسيس الجهاد المنتظم الذي سيضطلع به على امتداد القرن السابع عشر مجاهدو سلا الجديد⁵.

3- التاريخ البحري لمصطفى رقران

يتميز موقع المصعب بعدم ابتعاده عن المضيق، متمكنا بالتالي من استقبال التأثيرات الاقتصادية والسياسية الواردة منه، باعتباره نقطة التلاقي بين نهائتي الخططين البحريين المتوسطيين الذين يمثلان امتدادا مائليا للخطوط القارية القادمة من

¹ في رسالة إسبانية وجهت إلى فليبي الثاني بتاريخ 30 يناير 1588، تمت الإشارة إلى سقوط سفينتين فرنسيتين تحملان ألقبة لأحمد المنصور في يد قراصنة إنجليز، وأن السلطان المغربي قد اتخذ إجراءات انتقامية ضد مواطنيهم من التجار المستقرين بالمغرب لتعويض ما ضاع منه. انظر: *Les S I I M - 1^{re} série - T II France - p 139*

² تشير رسالة إسبانية موجهة من حاكم سبتة إلى فليبي الثاني في 16 غشت 1588 إلى بلوغ لسطول أحمد المنصور إلى سبع غلوصلات أو ثمان، وإلى قيامها بين القننة والأخرى بغارات على شواطئ إسبانيا، مشيرة في الوقت ذاته إلى سهولة التخلص منها نظرا لتميزها بالبطء وبرداءة التسيير. انظر: *Ibid - Angleterre - T I - p 503*

³ *Ibid* - p 520.

⁴ *Ibid* - France - T II - p 125.

⁵ *Coindreau Op cit - p 66-67.*

أقصى الشرق وأواسط إفريقيا من جهة، ومن جهة ثانية بتوسطه للساحل المغربى الشيء الذي جعله يحتل مرتبة ثانوية في اهتمام القوات المعادية للمغرب، وبالتالى بقاؤه مستقلا في فترة عودة احتلال أغلب المراسى، واستنزاف مناطقها الداخلية من أجل دعم وتموين الأساطيل الإيبيرية بالمحيط الأطلنטיكي، حتى أضحي المنفذ المحلي الأواحد لتصريف المنتوجات المحلية، والقاعدة البحرية الوحيدة المطلة على حركة الملاحة التجارية لمدة هامة من الزمن.

ولا يعني هذا أن الأوربيين لم يبالوا بأهميته، بل انتبه الإسبان إلى ذلك منذ منتصف القرن الثالث عشر، ونظموا محاولة الاستيلاء عليه لولا حيلولة السلطان المريني دون مخططهم، لما كان يشكله مركز سلا من ثقل تجاري هام جعله قاعدة للأسطول التجاري المغربى ونقطة أساسية في المبادلات بين جنوب-غرب أوروبا والعالم المتوسطي والمغرب¹، وفرض في الوقت ذاته على المرينيين إنشاء أسطول حربي للذود عن النفوذ في غرب المتوسط، وتدعيم مواقعهم بالمناطق الأندلسية. ولهذا الغرض اهتم السلطان أبو يوسف يعقوب بجعل المصب قاعدة بحرية تدعم القواعد الأخرى²، منشئا على الضفة اليمنى دارا للصناعة البحرية³ التي ستصبح ثاني أهم ترسانة مرينية بعد سبتة، متخصصة في بناء سفن على شاكلة الصنف المتداول في البحر الأبيض المتوسط، وأساسا القوارص (*Galères*)⁴، وسرعان ما باشرت مهمتها، حيث يذكر برينو أنها ساهمت في تجهيز المراكب منذ سنة 1279م⁵، أثناء استعداد السلطان أبي يوسف لمواجهة هجمات المسيحيين على الأطراف الجنوبية للأندلس.

وقد استمر الاهتمام الرسمي بدور المصب الملاحي على عهد السلطان أبي سعيد خلال بداية القرن 13م، بنهج أسلوب سلفه لتدعيم الوجود الإسلامي في جنوب الأندلس⁶؛ بيد أن دخول المغرب في عهد اضطراب سياسي قد أدى إلى ركود قاعدة

¹ ابن علي الدكالي - نفسه - ص 39-40.

² القواعد البحرية الأخرى التي ورثها المرينيون عن الموحدون بالمغرب، هي: سبتة وطنجة وبامس والمعمورة. انظر: ابن خلدون: "العبر..." - الجزء السابع - نفسه - ص 418-19 و 431-32.

³ يصنفها الدكالي بقوله: "دار الصناعة بناء حقل قبلي سلا من جهة وادبها، له بلبان كان الوادي يدخل من أحدهما، ويخرج من الآخر بصناعة هندسية وقواعد علمية، وذلك أنه جلب الماء من الوادي إلى الباب المسامت لجامع حسن من العوة الأخرى في ترعة عميقة، فإذا صنعت سفينة جديدة بهذا المحل، وأريد إرسالها في الوادي فتحت التربة المنكورة، فيدخل الماء وتعمد فيه السفينة، فتخرج من الباب القبلي سابعة على وجه الماء إلى أن تقع في الوادي، ولذلك ارتفع قوس الباب القبلي نحو المائة قدم، ليخرج المركب منشور القلاع". انظر: الدكالي - نفسه - ص 63.

⁴ Brunot - Op. cit - p 293.

⁵ Ibid - p 292.

⁶ ابن خلدون - نفسه - ص 503.

أبي رقراق، رغم احتفاظها بالدور التجاري كمنفذ اقتصادي للشمال المغربي، خاصة خلال مرحلة المد الإيبيري طوال القرن الخامس عشر ومطلع القرن الموالي. وسيكون من نتيجة ذلك أن بدأ مصب أبي رقراق يتجه ليصير أحد الأوكار النشيطة للقراصنة الأوربيين بعد العرائش والمعمورة¹، كقاعدة انطلاق لعملياتهم ضد السفن الإيبيرية؛ وإن ظل النشاط الملاحي يتسم فيه بالضعف وقلة الفاعلية على امتداد العهد السعدي²، رغم المجهودات المبذولة من طرف السلاطين.

إن أهمية مصب أبي رقراق لم تظهر للسعديين فحسب، وإنما للإيبيريين أيضا العاملين على محاولة استغلال الحرب الداخلية للحصول على تنازلات سياسية تدعم موقعهم في المغرب، بمؤازرتهم لآخر ملوك بني وطاس. إذ يلتجئ قائد سلا الوطاسي إلى بادس سنة 1549 ليقدم للقوات الإسبانية معلومات عن سلا وعن تحصيناتها الدفاعية الهشة، مشجعا على مهاجمتها باعتبارها القاعدة الأكثر ملاءمة لحملة منظمة على فاس³. إلا أن النجاح السعدي آنذاك قد جعل الإيبيريين عموما في موقف دفاعي بمراكز الاحتلال، تاركين لمحمد الشيخ فرصة الانطلاق في تكوين الأسطول المغربي، وفي اتخاذ مصب أبي رقراق مركزا له بنية التضيق على الثغور المستعمرة وعلى رأسها مازگان، الأمر الذي دفع حاكمها البرتغالي إلى دق ناقوس الخطر، لما يشكله ذلك من عرقلة في وجه الملاحة، ومن تشجيع السلطان على تطوير نواة الأسطول⁴.

ويدل هذا الوضع على أن المصب قد أضحي مركزا لصناعة السفن، وبدون شك توفره على أورايش جديدة اعتبارا لعدم صلاحية الأولى نتيجة الإرسابات الرملية التي عرفتھا الضفة اليمنى، مبعدة دار الصناعة القديمة عن مياه النهر تماما، ومن ثم استحالة استغلالها. ويمكن أن يكون موقع الأورايش الجديدة في المنجرة المذكورة خلال القرن السابع عشر، والموجودة على الضفة اليسرى عند قدم صومعة حسان⁵. وقد دام اهتمام السعديين بمصب أبي رقراق كقاعدة لصناعة السفن حتى في عهد عبد الله الغالب الذي نجده في سنة 1566 يعين أحد قواده على سلا بمهمة محددة في

¹ Les S I H M - 1^{re} série - Pays-Bas - T V - intro. p X.

² Caillé "La ville de Rabat..." - Op. cit - p 223.

³ Les S I H M - 1^{re} série - Espagne - T I - p 187.

⁴ Ibid - Portugal - T V - p 44.

⁵ Coindreau - Op. cit - p 103.

إنشاء السفانة وفي الاستعداد لتنظيم الجهاد البحري¹، رغم الضغوط الشديدة التي دبرها المغرب عرضة لها في عهده، والتي ستؤدي إلى انحسار الصراع بين عناصر البيعة السعدية بعد ذلك داخلها، وتدخلات خارجية لموازرة المتنافسين لن تنتهي إلا بانتهاء معركة وادي المخازن وبانتهاء التنافس على الحكم بتولية أحمد المنصور سنة 1578. وقد كان طبيعيا في هاته الأثناء أن يعرف الاهتمام السعدي بالأنشطة الملاحية فتور وتوقفا استفاد منه بالأساس قراصنة أوربا الذين استغلوا هذا الوضع لتكثيف نشاطهم على امتداد الساحل الأطلسي المغربي، وزاد من حدة ذلك التزام الدولة بالعلاقة الخارجية التي فرضت على المجاهدين المحليين الانصياع لسياسة السلاطين².

ولن يهتم المنصور بالمجال الملاحى بصورة فعلية ورسمية إلا عقب تراجع الضغط الإسباني عقب هزيمة الأرمادا سنة 1588، حيث سيرتقي عدد السفن المغربية التي يحتضنها مصب أبي رقرق إلى سبع أو ثمان غليونيات، رخص لها السلطان بالقيام بهجمات على شواطئ إيبيريا بين الفينة والأخرى³، خاصة وأن النشاط البحري قد تدعم لديه استفادة من العون الذي كانت القوات البروتستانتية تبادر إلى تقديمه. وأساسا الإنجليز الذين أمدوه بمختلف المواد الأساسية للسفانة.

¹ Les S. I. H. M. - 1^o série - Portugal - T V - p 109.

² Penz - Op. cit - p 3.

³ Les S. I. H. M. - 1^o série - Angleterre - T I - p 503.



تصميم للمرسى الخارجية للرباط

عن : Les SIHM-2^e série- France- TII

وإذا كانت النتائج المحصل عليها لم ترق إلى المستوى المطلوب، فإنها تركت من جهة أخرى منطلقاً لرسوخ قاعدة بحرية سوف تعرف أوجها عقب وفاته ولمدة تزيد عن قرن، بالاستعانة بعناصر جديدة وافدة على المنطقة، وجدت في انحباس ما وراء المدينة الساحلية برا أمامها - بفعل اغترابها عن العناصر المحيطة بها ومن ثم ضيق السوق أمامها - دوافع لتوجيه كل أنظارها صوب البحر، متخذة من الجهاد أسلوباً للانتقام ووسيلة إنتاجية في نفس الوقت، سهل تنظيمها باستعدادتها الضرورية المستمرة جزء من الملاحة الخاصة لرؤوس أموالها أو أجرتها، ومستفيدة في آن واحد من غياب قوة سياسية قد توجه مسار الجهاد لينطلق كنشاط شعبي مشع.

¹ Monlaü - Op. cit - p 42-43.

¹ Les S. I. I.

² Penz - O

³ Les S. I. I.

الباب الثاني

مقومات الجهاز
البحري وتنظيماته

بطبيعته كنشاط ذي توجهين: عسكري واقتصادي، تطلب الجهاد البحري بمنطقة مصب أبي رقرق اتباع طرق عملية ووسائل تنظيمية متعددة ومتجانسة، تمثلت في مجموعة قوانين وأعراف متداولة في عموم مراكز الجهاد الإسلامي، خاصة لدى الرواد الجزائريين الذين بحكم سبقهم شكلوا مرجعا أساسيا للسلاويين في هذا المضمار، رغم الاستثناء الذي تميز به مركز سلا الجديد من غلبة عنصر بشري مختلف عن العنصر المكون لقواعد الجهاد الأخرى: الجزائر وتونس وطرابلس، ولو اتحدا معا في كونهما طارئين على كافة المراكز بقدمهما من أطراف أوربا الجنوبية، ومن جهة ثانية نتيجة الموقع المتميز لسلا الجديد كقاعدة جهادية متركزة على الساحل الأطلنטיكي بصفة منفردة، خلافا لوجود باقي الأخريات على الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط.

وإذا كان هذا الاختلاف قد حتم إدخال تغييرات محلية على مستوى بعض التنظيمات، فإن التشابه الكبير بين المراكز الأربع قد جعلها تحظى عموما باهتمامات موحدة من طرف المؤرخين الأوروبيين، اعتبارا لوحدة الدوافع النفسية والمادية، ولتقارب التقنيات والتخطيطات المتبعة على الصعيدين الملاحي والعسكري، ولتشابه مناهج العمل التي تترقي في بعض الأحيان إلى مستوى التنسيق المشترك¹، وأيضا لوحدة نمط حياة العاملين والعلاقات السائدة بين مختلف الأفراد وتوازي قوة النتائج وطرق الاستغلال والاستثمار، بشكل جعل أوربا وقواتها المتضررة ترى فيها عموما جبهة موحدة موزعة جغرافيا، تفرص عليها نهج سياسات متشابهة تجاه مراكزها جمعاء. ذلك أن كل نجاح سياسي أو عسكري لإحدى القوات ضد أحد هذه المراكز يشجعها على إعادة استعمال وسائله إزاء المراكز الثلاثة الأخرى².

لذلك، فإن تناولنا لمقومات نشاط الجهاد البحري بمصّب أبي رقرق ليس من شأنه أن يساهم في كشف جوانب من حياة مجاهدي سلا الجديد فحسب، ولكنه سيتيح أيضا تكوين صورة عن الفعل الجهادي الإسلامي في عموم شمال إفريقيا، سواء تعلق الأمر بكفاءته البشرية أو ببنيته المالية أو بتجهيزاته التقنية أو بمردوديته الاقتصادية، مثلما

¹ Comdreaux Op cit - p 178.

² لدى نجاح فرنسا في تحقيق اتفاقيتي هدنة مع الجزائر سنة 1666م وتونس سنة 1672م إلى إصدارها الأمر إلى أسطولها سنة 1680م بالتضييق على السفن السلاوية من أجل إجبار سلطاتها على التفاوض حول السلم. انظر Les S I H M - 2^e série - France - T I - p 474-75.

بامتداده بالدرجة الأولى من جملة تنظيمات جديدة فرضت عليها طبيعته الانتصار بالمركز الساحلي دون التغلغل إلى الداخل أو الانفتاح عنه إلا قليلاً، باعتبار تباعد الجهاد البحري عن صنوه البري المألوف على مستوى التلقائية والجماهيرية. ذلك أن الجهاد البري الشعبي إن حتمت عليه تقاليد و عاداته الانفتاح على تطور ومساهمة جميع الكفاءات البشرية الراغبة في الانخراط في صفوفه بغض النظر عن الاختلافات العنصرية والاجتماعية من جهة، والاعتماد في تمويله المادي على المشاركة الشعبية الواسعة وعلى مختلف الشرائع، ودعمه المعنوي أساساً على الفقه والشيوخ والزوايا، فإن الجهاد البحري الشعبي، وعلى النقيض من ذلك، قد جُعل أنشطته - بحكم انحسار مواقعه في مراكز حضرية ساحلية - لا يشع إلا بشكل ضئيل على المناطق المجاورة، ولا يسمح بورود أية تأثيرات شعبية أخرى إلا رسمياً، أو لتغطية خصائص ملموسة؛ حيث أنه رغم طابعه التطوعي خضع لتنظيمات مقننة ومتعارف عليها بشكل واسع، تشمل تنظيم الجوانب المالية والبشرية والعسكرية والتجارية، بصورة بدا معها أشبه بمؤسسة قائمة الذات، قوامها الإنتاج وهدفه المردودية.

الفصل الأول: البنية المالية والبشرية

فرض نشاط الجهاد البحري على صعيد البنية المالية مقاييس محددة تقوم مسألة التكاليف وشروط تمويلها من جهة، وتنظم طريقة توزيع المداخل من جهة أخرى، الشيء الذي جعله يبدو كمجال إنتاجي يتعاون في سبيل ازدهاره صاحب الرأسمال ومسير الأشغال وباقي العناصر الفاعلة، بدافعين متكاملين: أحدهما معنوي مندرج في إطار الصراع التقليدي الإسلامي-المسيحي، وثانيهما مادي متمثل في تحقيق القسط الأوفر من المغنم.

وعن هذه القاعدة تولد هاجس استقطاب كل من من شأنه أن يكسب مؤسسة الجهاد قوتها الضاربة الضرورية، بتغذيتها بالطاقة البشرية اللازمة من كفاءات تقنية يتم تطعيم نواتها الأندلسية من مكونات المغنم في هيئة علوج أو أسرى متخصصين ملاحيا، أو كفاءات عسكرية عديدة مؤلفة من نسيج مختلط: أندلسيون، أوربيون، أهالي مغاربة، أو طاقات محركة للسفن تدعم طاقات الرياح يضطلع بتغذيتها أسرى المجاذيف، الشيء الذي جعل الجهاد البحري قائما على تعدد جنسيات عناصره، وعلى ازدواجية ديانتهم، وتساوي درجاتهم من حيث الخضوع للعنصر الأندلسي المستثمر والممول شبه الأوحد لحركته.

لقد كان الجهاد البحري يتطلب باستمرار موارد مالية وإمكانات بشرية خاصة به، مكنته ظروف العصر من التوفر عليها في صورة تتقارب مع باقي قواعد الجهاد الإسلامي في إفريقيا الشمالية من حيث مصادرهما وسبل استثمارهما وفرص تطورها. حيث إذا كان التباعد الاجتماعي في منطقة المصب الحاصل بين الأهالي والعناصر الطارئة قد فرض على هذه الأخيرة الاستقرار بالصفة اليسرى (سلا الجديد)، وجعل نطاق قناة التواصل يضيق إلى أبعد حد، مبدئا قيام مجتمعين مختلفي النظرة إلى مصالحهما، فإن اتساع مدار الاختلاف سيفرض نمطين اقتصاديين، ظل تجذر القاري منهما من اختصاص الصفة اليمنى (سلا البالي)، مؤدبا بذلك بالصفة المقابلة وبغناصرها إلى البحث عن مجال جديد آمن ومستقل عن كل التأثيرات القارية

الأخرى، خاصة المباشرة منها التي كانت ضغوطها الاجتماعية والدينية تشعر هذه العناصر بانسداد كل أفق للاندماج القاري، وللاستثمار الاقتصادي في البعد الخلفي لمركز الاستقرار، في الوقت الذي كانت فيه الأبعاد الاقتصادية للمنطقة حكرًا على الأهالي: أعراب زعير خلف أسوار رباط الفتاح، وأهالي سلا البالي انطلاقًا من الساحل الشمالي للنهر.

لذلك كان الاستقرار البشري الجديد بما حمله معه من رؤوس أموال لم تعرفها المنطقة من قبل يضغط بتقل لفتح منافذ استثمار جديدة لن تتمكن المدينة وأنشطتها الحضرية من احتوائها، مع انسداد آفاق التوظيف القاري، الأمر الذي جعل المجال المائي ترتفع قيمته ويبرز كمدى امتداد اقتصادي ممتاز باعتبار انكفاء العناصر الأصلية عنه، ومن ثم أصبح لزامًا على المستقرين الجدد الاستئثار بالهامش الأوحـد المتروك لهم.

وبمجرد بداية الدورة الاقتصادية ونتائجها المشجعة كان من الطبيعي أن يستقطب العنصر الأندلسي - كفاعل محوري في هذا النشاط - جميع الكفاءات المهمة بهذا المجال، والتميزة على غرار عموما بغربتها عن المنطقة وباختلافها الاجتماعي عن الأهالي، لما يقدمه لها الجهاد البحري من فرصة للبروز، ومن مداخل اقتصادية جديدة، ومن مستوى اجتماعي وسياسي أفضل. ولذلك ستمتزج كل تلك التجارب والجهود من أجل تكوين وتطوير الوسائل القمينة ببلوغ الهدف، في إطار منافسة إيجابية، لن تعرف مسيرة معاكسة إلا مع بداية المساس بالأعراف والتقاليد المتداولة في أوساط رجال الجهاد والقرصنة.

1 - تمويل الجهاد البحري

أفرز الاستقرار الأندلسي في القصبة وسلا الجديد ظهور فئتين مختلفتين ومتكاملتين، استقرت إحداها بالقصبة وامتازت بقوتها الاقتصادية وبنفوذها السياسي، وتمركزت الثانية بسلا الجديد متمسة من جهتها بقوتها العددية وبغلبتها البشرية. وقد كان التواصل آنذاك حادثًا بين الطرفين مادامت الفئـة الأولى التي يشكلها الحرناشيون

هي نواة الاستقرار بالضفة اليسرى والمنشطة للحياة الاقتصادية والسياسية، والتي ما كان حيال اللاجئين الجدد عقب صدور قرار الطرد سوى الامتثال لتوجيهاتها ولاختياراتها، لا سيما وأنها أفلحت في بلوغ المنطقة محملة بثرواتها المنقولة معها من الأندلس، ظاهرة عناصرها بمظهر الأثرياء. وبواسطة هذه الثروات أصبحوا هم موجهو النشاط الاقتصادي بالضفة اليسرى، والمؤسسون والمحتكرون للعمل الجهادي البحري في مرحلته الأولى، عاملين على تجهيز السفن وعلى إرسالها للنشاط خارج المرمى¹.

ورغم اختلاف حجم الثروات بين سكان القصبه، كان مجال الاستثمار مفتوحا أمام الجميع دون استثناء قصد المساهمة في تكاليف السفن العاملة، مكونين نوعا من الشركات والتعاضديات المالية التي كانت تضم حتى أكثرهم فقرا، الذين قد لا يساهمون إلا بمبالغ هزيلة² حسب إمكانات كل واحد منهم، بعضهم بمائة وآخرون بخمسين أو عشرين أو عشرة أو أقل من الدوكات، ويتركون بذلك في أرباح المغامم حسب مساهماتهم³. ومقابل ذلك كان ممنوعا على غير الحرناشيين من الأندلسيين المشاركة في تمويل الحملات، في حين ظل الأهالي المغاربة وعلى رأسهم سكان سلا البالي غرباء عن النشاط الملاحي⁴، تاركين المجال للعنصر الحرناشي للتحكم فيه بصورة كلية.

ولا يمكننا الوقوف على حجم الاستثمارات المعتمدة موسميا في مجال الجهاد البحري إلا إذا ما انتبهنا إلى حجم المتطلبات المالية الكافية لصيانة وتجهيز سفينة معاصرة سنويا، والذي لا نشك في كونه لم يكن - بالنسبة لمجاهدي سلا الجديد - يقل عن تقويم السفن العاملة في البحر الأبيض المتوسط خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، حيث كان ذلك يصل إلى معدل مئة ألف دوكا عن كل وحدة⁵. وإذا ما اعتبرنا أن معدل الأسطول حتى سنة 1625م كان يصل في حده الأدنى إلى عشر سفن

¹ Les S I H M - 1^{re} série - France - T III - p 190.

² Caillé " La ville de Rabat ... " Op. cit - p 226.

³ Les S I H M - 1^{re} série - Pays-Bas - T III - p 272.

⁴ Caillé Op cit - p 224.

⁵ Braudel Op cit - p 168.

موسمياً، اتضحت لنا قيمة المبالغ الموظفة (ستون ألف دوكا على الأقل) في مجال الاستثمار في الجهاد البحري، واحتوانه لجل الأموال المدخرة في المجتمع السلأوي. إما في شكل مساهمة مباشرة أو في شكل قروض سعى اليهود بالدرجة الأولى إلى توفيرها لرياس السفن المحتاجين.¹

يفهم من هذا المنطلق الارتفاع المطرد لحجم الأسطول موسماً عقب آخر خلال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي، بفضل النجاح المهم الذي كان يعود بالأرباح الجيدة على المساهمين، مشجعة إياهم على المزيد من الاستثمارات وبمبالغ متطورة عما سبق من جهة، ودافعة بالفلسين منهم إلى البحث في سبل الإبقاء على مشاركتهم في أرباح المواسم. واقتصار هذه الوضعية على فئة دون أخرى أدى بالمجبرين على الابتعاد عن المساهمة في هذا المجال الخصب إلى التنقيب في كيفية الاستفادة بدورهم من النتائج، الشيء الذي سيكون له الأثر الحاسم في اندلاع الحرب الأهلية بين سكان الضفة اليسرى بعضهم ضد البعض أولاً، ثم إلى قيام حرب دموية بين سكان الضفتين ثانياً.

إن توصل الحرناسيين والأندلسيين إلى اتفاق ماي 1630م قد أنهى احتكار الأوائل لأرباح مؤسسة الجهاد البحري، وسمح للآخرين برفع الحظر المفروض عليهم رغم أنهم كانوا يشكلون العنصر الغالب في الكفاءات الفاعلة على متن السفن. فشكل دخولهم مجال التمويل دفعة قوية للنشاط الذي شهد آنذاك أرقى فترات أوجه وازدهاره لا على مستوى المردودية، وإنما أيضاً على مستوى كفاءة الأسطول بفعل وفرة الاستثمارات التي راحت تطول مختلف أحياء المدينة انطلاقاً من كسر قاعدة احتكار سكان القصبة، وعمت بنفس الأسلوب وغالبا بشراكة في رؤوس الأموال، مقابل نسب محددة في الأرباح للمساهمين حسب قيمة مشاركتهم²، والذين لم يعودوا مهتمين بالتجهيز والصيانة فحسب، وإنما صاروا معنيين بالمشاركة في دعم إنتاج أورايش السفانة المحلية التي كانت كلفتها تفرض استثمارات إضافية بحسب مشاريع الوحدات المبرمجة، لا سيما وأن الكلفة التقريبية لبناء السفينة الواحدة لم تكن تقل عن كلفة تجهيزها وصيانتها الموسمية، أي حوالي ستة آلاف دوكا³.

¹ Coindreau - Op. cit - p 56.

² Dan - Op. cit - p 298.

³ Braudel - Op. cit - p 168 note.

ورغم أن مختلف المؤلفات تتحدث عن كون النشاط الجهادي ظل لصيقا بالصفة اليسرى وبعناصرها، إلا أننا نعتقد بأن نهاية حالة اللاسلم السائدة بين سكان الضفتين بدخول المنطقة جمعاء تحت نفوذ الإمارة الدلانية منذ سنة 1641 قد زاد من توسيع قاعدة التمويل، لما كان للوضع الأول من تأثير اقتصادي سلبي على ساكنة سلا البالي، بحيث استحوذت الضفة اليسرى على أغلب المعاملات مع أوروبا ودفعت بنظيرتها اليمنى إلى الركون في الظل، بعدما كانت وإلى وقت قريب عاصمة المنطقة وإحدى أهم نافذتين للتجارة الخارجية للمغرب؛ وثانيا لما خلفته الحروب بين الضفتين إبان عهد المجاهد العياشي من تقارب بين سكان سلا البالي والحرناشيين، لا سيما وقد لجأ الكثير منهم إليها بين سنتي 1636 و1637م، وهي فرصة تكفي على الأقل عند عودتهم إلى سلا الجديد لترسيخ جزء من اهتمام أهالي سلا البالي بالمشاركة في مجال الجهاد البحري، وتحين فرصة اضطلاعهم بدورهم بمجرد حدوث التواصل بين الضفتين، والذي سوف يتم بعد انتفاء وضعية التنافر المياسي، خصوصا وأن سلا البالي قد تمتعت بالحظوة لدى الدلانيين باحتضانها لمقر الحاكم سعيد الجنوبي.

وإذا كانت الدواعي التمويلية قد كرست الجهاد البحري في أيدي أرسقراطية تجارية كان الأندلسيون واليهود المؤثرين والفاعلين فيها بصفة أساسية، فإن دخول المنطقة تحت سلطة العلويين سوف يلحق بالبنية المالية لمؤسسة الجهاد تغيرا ملحوظا راحت معالمه تتضح مع رغبة مولاي الرشيد في التحكم في الأسطول وإخضاعه لخدمة المصلحة الاقتصادية والسياسية للدولة، وفي الاستفادة القصوى من المداخل الهامة للمواسم الجهادية.

فقد بادر السلطان - ومن بعده خليفته مولاي إسماعيل - إلى الإسهام المباشر في تمويل المواسم الجهادية بتملك عدد من السفن راح يرتفع على حساب سفن الخواص سنة بعد أخرى²، خالقا بذلك منافسة غير عادلة واجهت فيها الاستثمارات الخاصة قوة الدولة وسلطتها، سرعان ما مالت كفتها لفائدة الأخيرة؛ إذ في غضون خمس سنوات ارتفعت ملكية السلطة إلى نسبة 60% من مجموع وحدات الأسطول (7/4 سفن سنة 1671)³. ويعزى ذلك إلى أن بداية العهد العلوي بالمنطقة قد زامن توفقا للجهاد

¹ Montlau Op cit - p 78.

² Coindreau Op cit - p 59.

³ Les S I H M - 2^e série - France - T I - p 379.

البحري من جراء الاضطراب السياسي الذي غمرها عند تدهور السلطة الدلانية. فأنهك رجال الجهاد البحري، وجعل الأسطول يتقلص إلى سفينة واحدة عاملة قبل سنة 1668م¹.

وقد أتى دور السلطة ليؤثر في تطور نسبة سفن الخواص بممارستها لرقابة مشددة على أرباح الجهاد، وإخضاعها لاقطاعات غير مألوفة؛ في وقت ارتفعت قيمة التكاليف ونفقات التجهيز من جراء الحصار الاقتصادي الممارس من قبل الأساطيل الأوربية، التي جعلت الحصول على المتطلبات الملاحية والعسكرية للسفن صعب التحقيق، وخصوصا بتصديدها الشديد لمكافحة تجارة التهريب.

هكذا أضحي تجار المصب وممولو المواسم الجهادية - الذين كانوا يجهزون خلال المواسم العادية عددا من السفن يتراوح بين عشر اتنثي عشر وحدث- يبتعدون بالتدريج عن مجال عملهم التقليدي هذا، نافرين منه بسبب الكساد الذي بدأ يعرفه، وغلبة مصاريفه الباهظة على أرباحه المقللة التي أفرزتها السياسة الضريبية للدولة من جهة²، والمجابهة غير المتكافئة مع القوى الملاحية الأوربية من جهة ثانية، فتركوا للسلطان فرصة توسيع نفوذه في هذا المضمار، وتخلوا في الوقت ذاته اختياريا عن تزويد قطع الأسطول بسبل بقاءه وقوته بفعل غياب الطموح الفعلي الذي انبنى عليه ازدهاره وتطوره.

لقد أسندت مسؤولية تجهيز سفن الدولة إلى مكلف رسمي يضطلع بقيادة مرسى سلا، وباستقطاب البحارة المتطوعين للعمل وفق شروط جديدة تتحدد في أجور قارة ضعيفة كرواتب مؤقتة تقطع من حقوقهم الهزيلة عند العودة بالمغانم³؛ وكان عليه من جهة ثانية السهر على تجهيز السفن وتمويلها من حقوق الدخول والخروج المفروضة على البضائع التي يبحر بها التجار المسيحيون من وإلى المرسى. وكما يصف القنصل الفرنسي إيستيل، فإن قيامه بتلك المهمة كان يتم بشكل يرثى له، حتى أن تلك السفن كانت تنفق إلى كل شيء رغم توفر التمويل الضروري⁴، من جراء ضعف الاستفادة الشخصية من الجهود المفروضة بذلها.

¹ Ibid - p 280.

² Ibid - T IV - p 707.

³ Ibid - p 705-06.

⁴ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T I V - p 706.

وفضلا عن ذلك كانت الميزانية المخصصة لرجال الجهاد البحري العاملين على متن السفن السلطانية تتطور بالسلب مع ارتفاع نسبة الاقطاعات التي مست مجال الجهاد؛ فقد كان السلطان يحصل على خمس الغنيمة (1/5) كحق شرعي، أي بزيادة 100% عن الوضع السابق، ثم بضيف نصف الباقي كحق تمويل وملكية السفينة، ويحتكر كافة الأسرى مقابل هبة هزيلة¹، الأمر الذي جعل المداخل المتبقية تتضاءل بقوة وتزداد تقلصا مع الاقطاعات الأخرى التي يبشرها قائد المرسى ورايس السفينة، بحيث لا يبقى للعموم البحارة إلا مبلغا ضئيلا للتوزيع في ما بينهم، راح ينشر في صفوفهم الضجر والنفور من مواصلة حياتهم المهنية، إلى درجة أن القنصل الفرنسي المذكور أكد أنهم لو لم يكونوا مجبرين على العمل على متن سفن السلطان لكان من الصعوبة إيجاد ولو بحار واحد راغب في العمل، لأنهم كانوا يرون في ذلك مخاطرة بحياتهم وحريتهم مقابل لا شيء².

ولهذا ظهر أن المنافسة بين الدولة ورجال البحر العاملين لحسابهم قد انتهت بخضوع الأسطول لملكية السلطة، ورافق ذلك ركود في الدوافع النفسية والاقتصادية التي كانت أساس تطور المواسم الجهادية وعاملا مركزيا في استمراريتها بقوة، وأفقد التمويل الرسمي - بفعل إقصائه للمساهمة الخاصة - نشاط الجهاد البحري فوته المعنوية المرتكزة على المسند الشعبي، ومبادرته المدعمة لمغامرات الرياس ورجال البحر والمعبرة عن طموحات المنطقة وعناصرها، بعدما صار مجرد نشاط اقتصادي رسمي يوظفهم كأجراء يتحملون المخاطر والصعب مقابل القليل من النتائج الملموسة.

2- الكفافات البشرية للجهاد البحري

ما كان لهذا الميدان أن يستقطب أولئك الرجال المحنكين الذين منحوا لمصعب أبي رزاق شهرته الكبرى التي بواته مصاف القواعد الجهادية الرئيسية، لولا التمجيد الشعبي والمردودية الاقتصادية للذين كانوا يعودان على كل من انضم إلى الجهاد كفاعل؛ إذ لا أحد كان يحظى في أوساط العامة بالتقدير والإعجاب قدر ما كان يحظى به هؤلاء المجاهدون المحافظون على فرض الجهاد ضد النصارى وخصوم الدين

¹ Coindreau Op. cit p 64.

² Les S I H M. - 2^e série - France - T IV - p 706.

(المهاو والبحري مصب)

الإسلامي¹، في وقت كانت تعاني خلاله مناطق الاحتلال من جبروتهم. وقد سمح هذا الشعور بنشوء ظرفية عمل مساعدة وعنصر جذب مؤثر في مختلف رجال البحر من شتى الجنسيات الإسلامية، إما في شكل مسلمين قدامى رأوا في مقارعة أعداء الدين واجبا مقدسا؛ أو في شكل مسلمين عانوا من ويلات التضييق المسيحي قبل لجونهم إلى أراضي الإسلام فانساقوا في الجهاد رغبة في القصاص والانتقام؛ أو في صورة مسلمين محدثين فضلوا الانخراط في الإسلام لما كان يمنحهم ذلك من حرية وانعقاد على معانقة بؤس الأسر وحياته التعسة؛ وهؤلاء وأولئك اجتمعوا كلهم في مزيج خبرتهم للمران الملاحى والدرية العسكرية، ممكنين بذلك الجهاد من كفاءة وفعالية مرغوب فيهما.

وقد شكل الأندلسيون نواة هذه المجموعة سامحين بورود طائفة من البحارة والرياس المتميزة بحنكتها القوية، ومحققين تكاملا ضروريا في ما بينهم على مستوى التقنيات، ومستفيدين طوال الجزء الأعظم من القرن السابع عشر الميلادي من الوضعية المستقلة للمصب التي جعلتهم لا يعترفون بأية سلطة غير سلطة الممولين² التي فتحت لهم مجالا أرحب لتنفيذ الارتجال والإبداع الحر، تولد عنه تطور مدهر للمواسم على كافة مستوياتها الجغرافية والعسكرية والاقتصادية، وبروز قوي للرياس السلاويين الذين أصبحوا مدعاة للرعب في نفوس بحارة مختلف الأساطيل التجارية، إلى درجة ارتقاء بعضهم إلى مصاف أمراء البحر كترقية مبنية على أساس العبقرية والجرأة والشراسة والتوجيه الناجح للرجال³، سواء في المراحل الأولى للجهاد السلاوي في شخص موراطو رايس، أو خلال الفترات الأخيرة منه في شخص عبد الله ابن عائشة.

ويعزى هذا البروز إلى أن البحرية السلاوية على العموم كانت - مقارنة بقوات المراكز الجهادية الأخرى - دون المستوى تقنيا وعسكريا، وغير متكافئة مع حجم النتائج المحققة؛ فالنجاح والشهرة اللذان عرفهما مصب أبي رقران دان بهما للتكتيك المعتاد لرجاله ومهارة تسييرهم لنشاطهم أكثر من قوة الأسطول وتجهيزاته الحربية⁴.

¹ Dan - Op. cit - p 92.

² Coindreau - Op. cit - p 58.

³ Hubac - Op. cit - p 22.

⁴ Leroux - Op. cit - p 133.

ومن هنا كان اختيار رياس السفن يحظى منذ البداية بعناية فائقة من قبل الساهرين على مؤسسة الجهاد البحري، ويتم تعيينهم وفقا لمداركهم التقنية وكفاءتهم التسييرية؛ فهم الذين كانوا يوجهون الملاحه وينظمون المعارك، وهم الذين كانوا يفرضون النظام على متن السفن؛ ومقابل ذلك كان عليهم مجابهة التحديات بقدراتهم الشخصية، وكان عليهم الفرض الشجاع للكفاءة التكتيكية التي تتجاوز كفاءة السلاح والتقنيات¹، والتي بمقدورها قهر الظروف العادية والاستثنائية للعمل. ومن ثم كان الاختيار يخضع لمقاييس التجربة والإقدام، حيث ينتقى الرياس من بين من يلمس فيهم الإخلاص بشرف للمهمة الموكولة إليه، ونادرا ما يتم تكليف بعضهم بالمهمة المذكورة عقابا له² لتسديد قرض، أو لتصحيح أخطاء أحد المواسم السابقة.

ولتيسير مهمة الرياس وتمتيعه بطاقم منسجم يتماشى وأسلوب تسييره، كانت مأمورية اختيار البحارة من بين المتطوعين موكولة إليه حسب القواعد والأعراف المتمثلة في الامتثال الطوعي له³، والقناعة بتسبيق أولي من المال وصدرية وسروالين قبل انطلاق الحملة، على أمل تحقيق غنيمة جيدة بإمكان توزيعها أن يترك لكل مشارك قسطا مرضيا⁴. وقد كان من شأن هذا أن يخلق حوافز قوية للعمل وإنجاز الباهر من العمليات كشعور عام كان على متن كل سفينة مبحرة، الشيء الذي يفسر قوة المواسم الجهادية حتى حدود سنة 1660م، وبداية انطفاء جذوتها في ما تلا ذلك بفعل انتفاء تلك الشروط، التي يقدم القنصل إيستيل نظرة عنها سنة 1690، متحدثا عن سفن الدولة: "ليس لهذه السفن إلا ثلاثة ضباط قارين: الرياس ونائبه وكبير البحرية، لكنهم بدون مرتب ولا رعاية. وحينما يراد استخدامها في الجهاد يرفع علم السلطان، وانذاك يقدم من يود امتطاءها من البحارة بسلاحه حيث ينفق عليه القائد. فإذا ما حققت مغنم يأخذ السلطان نصف قيمتها، ويقسم النصف الثاني بين الضباط والطاقم؛ كما يأخذ السلطان النصف الثاني من قيمة الأسرى مقابل خمسين إيكوس (150 ليرة) عن كل رأس، ويبادر القائد والرياس وبقية الطاقم إلى توزيع المغنم وحمولاتها"⁵.

¹ Des Champs Op cit p 80.

² Brunot Op cit p 340.

³ Condreau Op cit p 63.

⁴ Brunot Op cit p 340.

⁵ Les S I H M - 2^e serie France - T III - p 318.

وقد كان الطاقم العادي لسفينة الجهاد السلاوية يتراوح ما بين مائة وخمسين ومائتي بحار بالنسبة للمراكب الكبيرة¹، وأقل من ذلك لما دونها (حوالي ثمانين بحار)². وقد تقلصت كثافة الطاقم في العهد العلوي حتى بالنسبة للسفن السلطانية إلى ما بين الثمانين والمائة رجل، باستثناء السفينة الخصوصية الوحيدة التي كان يملكها عبد الله ابن عائشة المحافظة على نفس القوة البشرية المألوفة لدى الرياس السلاويين. وكان رجال البحر يصنفون على عهد مولاي إسماعيل إلى مراتب وفقا لاختصاصاتهم في سجل يشمل أسماءهم، وموزعين على تسع درجات: 1- الرياس. 2- الباش ريّاس. 3- ريّاس عسة. 4- يكانجية (رؤساء طاقم الأشرعة). 5- دمانجية (ربابنة). 6- ورديات (بحارة تقنيون). 7- بحرية (وعددهم كبير). 8- وصفان سيدنا (البواخرة). 9- المقعدون من البحرية⁴.

وقد تفرعت عن الإطار البشري للسفينة الجهادية أربع وحدات متخصصة تنظيميا، تفصل بينها مهام محددة، وتشترك كلها في خدمة السفينة وتتعاون في ما بينها في اللحظات المصيرية، أثناء مواجهة خطر ما أو لدى مهاجمة الغنيمة. وهذه الوحدات هي:

- أ - رجال البحرية: بمختلف مراتبهم، من خليفة الرياس إلى رجال المجاذيف.
- ب - التقنيون: ويضطلعون بالمهام التقنية للسفينة قبل وأثناء وبعد الموسم، وتختلف مراتبهم من رئيس العمال إلى المتعلمين.
- ج - طاقم الانقضاض: ويتألف من رجال لا يعرفون في الغالب إلا استعمال الأسلحة.

د - وحدة الخدم: وتتألف من الطباخ ومساعديه وصبيانته⁵. وهذه الوحدات تؤتمر كلها بأوامر ريّاس السفينة أولا، ثم بأمر المشرف المباشر على التخصص المحدد. ويقدم كواندرو الهيكلية النموذجية لهذا الإطار على النحو التالي:

¹ Coindreau - Op. cit - p 63.

² Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 200-01.

³ Ibid - 2^o série - France - T IV - pp 705 et 707.

⁴ عبد الهادي التازي: "الأسطول المغربي عبر التاريخ" - مجلة البحث العلمي - عدد 33 - السنة 18 - نونبر 1983 - ص 31.

⁵ Brunot - Op. cit - p 276.

1- قيادة السفينة: تتألف من الرأيس ومساعديه من رجال البحر المحترفين: الباش رايس (الخليفة) ونائب الخليفة وكبير البحرية (الكونطر امشيترو). ويتميز هذا الفريق بأهمية نسبة الطول فيه إلى جانب الأندلسيين، وبدوره الرئيسي على متن السفينة، إذ هو مسيرها والمساير على تطبيق النظام على متنها، ويتخذ القرارات الحاسمة أثناء الحملة. والرأيس هو المسؤول الأول والأخير أمام الممولين والسلطات البحرية بالمرسى.

2- الفريق التقني: كانت كل سفينة تتوفر على ديمتجي، وبكاتجي، ومعلم قلعاط ومعلم بناء، وبلش طبجي، وجراح، وكاتب، ومعلم تقني (مشترو نلماكينه)، ونائبه (سكوندو)؛ وكانت غالبيتهم من الطولج نظرا لخبرتهم الكبيرة في هذا المضمار باعتبارهم بحارة أسروا من على متن السفن.

3- طاقم البحارة: تتألف غالبية من الأسرى المسيحيين، ويشكلون وحدات عملية موزعة حسب المهام التخصصية التي تنتهي رأسا إلى أحد أعضاء الفريق التقني؛ فمنهم موجهو الأشرعة، والدهاتون، والطبجيون وغيرهم، إلا أن العدد الأكبر منهم كان يشكل القوة العضلية الملتصقة بمقاعد المجاذيف.

4- طاقم الانقضاض: حيث كانت سفن الجهاد تحمل فريقا عسكريا قوي العدد، تراوح كثافته حجم السفينة وتأطيرها البشري العام، وكانوا مدججين بالأسلحة ولا يتخلون البتة في الشؤون العادية للمركب إلا عند لحظة مهاجمة السفينة المنتقاة من طرف الرأيس كطريدة. وكان هذا الفريق يتألف من العناصر الأندلسية والمغربية لما لهم من دوافع جهادية تزيدهم دعما عند الاقتتال والالتحام العسكري².

ولا يمكن بأي حال من الأحوال نفي الدور الرئيسي الذي لعبه الأندلسيون في نشاط الجهاد البحري على مستوى التأطير كما على مستوى التمويل، وهو ما حاول المؤرخون الأوروبيون تجاهله معتبرين أن الفعل الجهادي كان كله صنيع غرباء وحادثا ناجما عن أسباب خارجية³، اللهم إذا كانوا يدرجون العنصر الأندلسي في عداد هؤلاء الغرباء كما جاء على لسان لورو (Leroux) الذي يشهد بأن التوسع الكبير الذي عرفته المواسم الجهادية يعود الفضل فيه إلى الكفاءات البحرية المتنوعة التي

¹ استقينا الألفاظ العلمية من: لفتزي - نفسه - ص 31، وأيضا: Brunot - Loc. cit.

² Comdreaux Op cit - p 60-62.

³ Ibid pp 55 et 206.

شاركت فيه، وعلى رأسها عناصر الأندلسيين الذين بمداركهم التقنية الكافية وطموحهم الجريء تمكنوا من اكتساب تجربة كبيرة في شؤون البحر¹؛ فقد كانوا يشكلون قوة ضاربة على متن السفن، مضطلعين بالأدوار القيادية في الحملات. فحسب لائحة الرياس التي استطعنا جمعها من مختلف المؤلفات نجد ذكرا لست وثلاثين رياسا من بينهم ثمانية رياس علوج محققين فقط، مما يجعل نسبة الرياس من الأندلسيين من بين المجموع العام مهمة جدا.

ولا يعني هذا انتقاصا من قدر الدور الذي لعبه العلوج، والذي شكل وجودهم بسلا الجديد منذ سقوط المعمورة سندا قويا للجهاد البحري، وعزز من قوة الرياس الأندلسيين وجعل المرسى في حيز زمني قصير تبلغ مصاف المراكز الجهادية والقرصانية الشهيرة؛ إذ وجدوا فيهم المستشارين التقنيين الضروريين لتطوير مؤسسة الجهاد، فأشركوهم معهم في حقل بناء السفن وفي تجهيزها وتسييرها، حتى بلغ العلج المراتب العليا في النظام الملاحي².

وقد كان هذا البروز منذ انطلاق المواسم الجهادية نتيجة عملية الانجذاب الذاتي نحو المركز الجديد، حيث راحت طلائع العلوج تفارق المراكز القرصانية والجهادية السابقة من المدن المتوسطية، أو لاجئة من ثغر المعمورة بعد سقوطه في يد الإسبان، لا سيما وأن النجاحات الأولى وما درته من مغنم بشرية قد وفرت للرياس مصدرا تمويليا مستمرا بالكفاءات الملاحية. ففي سنة 1626م احتضنت مراكز الجهاد الإسلامي أزيد من ثمانية آلاف أسير من خيرة بحارة أوربا³، شكلت نسبة مهمة منهم مجموعة من المسلمين الجدد بفعل تفضيلها معانقة الإسلام والتمتع بالحرية على البقاء قيد الأسر⁴. وأتى انخراطها في مؤسسة الجهاد البحري ليقدم دعما فنيا وعسكريا بينا، فكان منها العمال والصناع المتمكنون من أحدث التقنيات الأوروبية المعاصرة، كما كان منهم قواد المدفعية وصناع الأسلحة والسباكون والنجارون والدهانون، فضلا عن المهندسين، وأيضا فئة من الرياس المحنكين⁵.

¹ Leroux - Op. cit - p 133.

² Hubac - Op. cit - p 206.

³ Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 116.

⁴ Ibid - p 146-47.

⁵ Monlau - Op. cit - p 83.

إن تنوع المواسم الجهادية وتنوع الأسرى قد جعل الأسطول يتمتع بتنوع جنسيات العاملين فيه، ما بين إنجليز، وهولنديين، وإسبان، وبرتغاليين، وفرنسيين وغيرهم، منضمين إلى العنصر الأندلسي المتراس للنشاط، وجعل ذلك من مصب أبي رقرق ملتقى عالميا للتجارب والخبرات الملاحية المختلفة، وبلغ عدد العلوج المنخرطين في الجهاد السلوي سنة 1635م ثلاثمائة عالج (300)¹، بيد أن ذلك لا يعني أن الأندلسيين قد تعاملوا مع هذا الواقع بثقة عمياء، بل إن شبهة الحذر من خلفية إسلام العناصر المسيحية الأصل جعلتهم يتخذون احتياطات عديدة من المشكوك في صحة إيمانهم، ولم يكن يتم إشراك العلوج في العمل الجهادي إلا بعد إخضاعهم لعملية انتقاء فائقة الغاية من بين المشهود لهم بالإخلاص والاستقامة، وغالبا بإشراف عدد أقل من عدد المسلمين الأصليين على متن السفينة الواحدة تقاديا لارتدادهم وللثورة على منها².

* ورغم انفتاح هذا الأفق أمام أوربي مصب أبي رقرق لم يتقلص عدد الأسرى الذين كانت تمتلئ بهم المطامير، ولم يؤد تثبيت أغلبهم بالمسيحية إلى جعلهم في منأى عن المساهمة في المواسم الجهادية، وعن المشاركة في إلحاق الخسائر بحرياتهم الأصلية؛ إذ كان هؤلاء - وكما كان متداولاً على الصعيد العالمي - يشكلون قوة عضلية بدون مقابل تقريبا، خاضعة في حياتها لمالكها ومؤتمرة بأوامرهم، ومجبرة على نظام السخرة في مختلف الميادين، وعلى رأس ذلك المجالان الملاحى والفلاحى. ومتى ظلوا على حالهم دون التحول إلى علوج أو استعادة حريتهم بالافتداء، أو استقطابهم وفقا لكفائهم من قبل حرفة مدنية أو عجزهم وافتقارهم لقدرة السواعد، كان مآلهم العمل على متن السفن في الأسلاك المختلفة حسب قدراتهم التقنية، على أن المهمة الأكثر التصاقا بهم، والتي كان الطلب عليها مستحيلا من غيرهم، كانت هي مهمة التجذيف الشاقة. وقد كان الراس أو مجهز السفينة يسهر على تأمين العدد اللازم منهم تبعا لمجاذيفها، إما باشتراك المساهمين بأسراهم أو باكتراء الخصاص من ملاك آخرين³.

وتبدأ الاستعدادات الأولى على عاتق الأسرى قبل انطلاقة الموسم، منفذين أشغال التجهيز والتسليح وتنظيم المتاع؛ وعند إقلاع السفينة يشكلون إلى جانب الرياح القوة

¹ Leroux Op cit p 133.

² Savine Op cit p 11.

³ Montlau Op cit p 138.

المحركة من خلال ظروف عمل قاسية جدا. ويحكي أحدهم هذه التجربة قائلا: "تصوروا ستة رجال مغلولين إلى المقعد عراة كما خلقتهم أمهاتهم، بقدّم على أرضية المركب وأخرى على المقعد المقابل ممسكين بمجذاف ثقيل طوله خمسة عشر قدما، مائلين إلى الأمام في حركة واحدة صوب الجوّج بأذرع متوترة لتمريره من فوق ظهور جذافي المقعد الأمامي المائلين بنفس الطريقة، ثم ملقين بأجسادهم إلى الخلف. ويظل هؤلاء على ذلك النحو عشر ساعات وأيضاً عشرين دون أية فترة راحة؛ وفي ظروف مثل هذه يدس رئيس الطاقم أو أي بحار آخر في فم الجذافين البؤساء الذين على حافة الإغماء كسرة خبز مبللة في الخمر، في حين يصرخ الرايس بمضاعفة ضربات السوط، وحينما يسقط أحد الأسرى على مقعده كجثة هامدة - وهو ما يقع أحيانا - يعرض للجلد حتى الموت الفعلي، ثم يلقي به إلى البحر دون طقوس"¹.

ونظرا للدور الهام الذي لعبه الأسرى كقاعدة عضلية محركة للمراكب الجهادية، وأيضاً للشروط القاسية لحياتهم القريبة من اليأس، كان المجاهدون خشية قيامهم بالتمرد خلال عمليات اقتحام السفن الطريفة أو مجابعتها يعمدون إلى اتخاذ كافة الاحتياطات للحفاظ على أمن وسلامة المركب الجهادي، عاملين على تكبيل الأسرى من أيديهم وأرجلهم بقضبان حديدية تشل حركاتهم أثناء انشغال بقية الطاقم²، ولا يتم فك البعض منهم إلا بعد نهاية الالتحام؛ علما بأن النظام داخل السفينة كان يحتم القيام بالحراسة المتواصلة لهؤلاء طوال فترة الحملة.

أما بالنسبة للعناصر القديمة في المنطقة، فإن ضعف اهتمامهم بالنشاط الملاحي قد أدى إلى كون مشاركتهم في الجهاد البحري ظلت مرتبطة تخصصيا بالعمل العسكري المحض على متن السفن خلال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي؛ حيث منهم كانت تتكون النسبة الهامة من طاقم الانقضاض، منجذبين بما تدره عليهم العمليات من مداخل إضافية مهمة تساهم في الرفع من مستواهم المعيشي. وأصبح إشعاع ذلك بغري سكان المناطق البعيدة بالمشاركة، وحتى رجال الجبال الذين لم يمتطوا قبلا مراكب البحر لم يجدوا صعوبة في التأقلم مع حياة الجهاد البحري

¹ Gosse - Op. cit - p 93.² Caillé: "La ville de Rabat..." - Op. cit - p 301-02.

معتدين على اعتقادهم في رعاية الله ورسوله، لما كانوا يرون في إسهامهم من قيام بفرض الجهاد المقدس ضد أعداء العقيدة¹.
وخلاصة ذلك أن هذا التجمع البشري المتنوع على متن المركب الجهادي عوض أن يؤدي بخصوصياته المختلفة إلى بروز التناقضات بفعل موروثات عناصره النفسية والعاداتية، حقق وحدات منسجمة نجحت في تأسيس قوة بحرية طوال قرن من الزمن بمصعب أبي رقرق، نتيجة التكامل الحاصل بين هذه العناصر كإفراز طبيعى لوحدة الهدف ووحدة الطقوس المتبعة من أجل بلوغه.

3- الحقوق والتعويضات

أدى بروز الجهاد البحري كواجهة اقتصادية منتجة إلى عونه على الفاعلين فيه بقيم مادية تقابل جهودهم المبذولة، لما تقدمه هذه المردودية حسب القوة أو الضعف من صورة بينة عن أهمية هذا المجال ومن تفسير جلي لدواعي وتطورات بنياته. واتسم توزيع مداخيل المواسم طيلة القرن السابع عشر بفترتين مختلفتين، زامت إحداهما فترة الازدهار الاقتصادي بإسهام سياسي تمثل في محافظة رياس سلا الجديد على استقلال مرساهم بصورة شبه تامة، فكانت تعويضات العاملين وحقوقهم مهمة من جراء قوة الدوافع والمردودية المبنية على خصوصية هذه الفترة؛ في حين ابتدأت ثلثيتهما مع تبخر هذا الاستقلال وخضوع المنطقة للسلطة العلوية، مع ما رافق ذلك من رقابة على المداخل، ومن توجيه للنشاط ليصير تحت إشراف الدولة كأداة من أدواتها السياسية والاقتصادية، فتحول البحارة بذلك من موقع المؤطرين المستقلين للجهاد إلى موقع الأجراء والمجندين في إطار جيش الدولة، وبالتالي أحدث هذا تقلصا في حجم الاستفادة، وجر معه تضائلا في مستوى الاهتمام والفعالية.

فحسب خصوصيات الفترة الأولى انطلقت العمليات الجهادية تحت إشراف ضمني للسلطة السعدية من خلال قوادها على المنطقة، وكان القانون الشرعي يحتم ضرورة إخضاع الغنائم المحصلة لاقطاع نسبة محددة في خمس القيمة (1/5)، مع اتباع نظام توزيع متعارف عليه بين رجال البحر حسب مساهماتهم ومراتبهم؛ لكن السلاطين نتيجة ضعف تحكمهم في المنطقة، وبغية عدم إثارة المستقرين الجدد بها،

¹ Savine - Op. cit - p 11.

وربما نتيجة بروز مداخل الجهاد البحري بمثابة ريع جديدة لم تكن منتظرة اكتفوا بنصف الحق الشرعية (1/10). ورغم هذا الموقف، أدى تطور العمليات وارتفاع مداخل الدولة منها إلى اتهام رجال البحر السلاطين السعديين بالابتزاز¹، الأمر الذي ترتب عنه قيام جمهورية مستقلة عن السلطة سنة 1627م، ظلت مرتبطة مع ذلك بها لا سيما كلما ارتفعت حدة الضغوط المحلية والأجنبية، واكتفى رجالها بتقديم بضعة أسرى للسلطان عقب كل موسم جهادي²، في حين حول العشر الشرعي المقطوع من المغنم لفائدة السلطة المحلية الناشئة التي يمثلها الديوان.

وقد كان ممولو الجهاد لا يقدمون أية أجور محددة لجنود المركب وبحارته، بل كان كل مقدم حقوقهم يتلخص في تسبيق أولي من المال وألبسة مكونة من صدرية وسروالين لكل فرد³، وتبقى كل الأمانى معلقة على جودة الموسم الجهادي، وعلى الحلم بتحقيق غنيمة مرفعة القيمة من شأن توزيعها أن يوفر لكل مشارك قسطا مهما من المردودية، الشيء الذي كان يمثل أحد الحوافز الأساسية، ودافعا مشجعا على مباشرة الحملة بمعنويات تفاضلية عالية، لا سيما وأن نظام التوزيع القار كان يبدو منصفًا ومشجعًا، حيث كان عرفا متداولًا في عموم قواعد الجهاد البحري⁴. وكان أثناء فترة الجمهورية على النحو التالي:

1- نسبة العشر (10 %) من قيمة المغنم تقطع لفائدة سلطة الجمهورية تحت إشراف الديوان.

2- نصف الباقي (45 %) لفائدة ممول السفينة أو الرأيس صاحبها تعويضا عن تكاليف تموينه وتجهيزه للمركب؛ وقد تقل هذه النسبة أحيانا حسب الاتفاق الحاصل بين الرأيس والممول.

3- النصف الثاني (45 %) يوزع بين البحارة حسب نظام التوزيع الثابت المؤسس على مراتب البحرية للرجال المشاركين في الحملة:

* لكل من الضابط والربان والباش طبجي والكاتب والجراح ثلاثة أقساط.
* لليكانجي والطبجيين والعناصر الأخرى التقنية قسطن للفرد.

¹ Monlati - Op. cit - p 77.

² Brunot - Op. cit - p 164.

³ Ibid - p 340.

⁴ Dan - Op. cit - p 289.

* لباقي عناصر المراتب الدنيا في الطاقم وللجنود قسط واحد للفرد.¹
 * لا ينال الأسرى (رجال المجاذيف) أي قسط باستثناء ما يحصل عليه ملاكهم من تعويضات مسبقة عن خدماتهم كثمن لكراء قوتهم العضلية.
 وقد كانت هذه الحقوق مهمة جدا حتى بالنسبة لأسفل الهرم إذا ما راعينا الازدهار الكبير والمتواصل الوتيرة الذي زامن مواسم الجهاد البحري في ما بين سنتي 1625 و1659م، والذي جعل بعض المؤرخين يعتبر أن سنة واحدة من سنواته النشطة كانت تمد جمارك سلا الجديد بأكثر مما كانت تدره سنة ضريبية في المغرب بأسره على عهد أحمد المنصور السعدي²، بالرغم من أن مداخيل الجمارك هذه لم تكن تشكل إلا الأعمار المسجلة في سجلات الديوانة، وبالتالي فإن قيمة المغنم هي أكثر أهمية من تلك بعشرة أضعاف.

وقد من تدخل الدولة في الجهاد البحري نظام التعويضات، حيث منذ المواسم الأولى في ظل العهد العلوي تضررت مصالح رجال البحر من جراء إعادة السلاطين العمل بقانون الشريعة الذي يخول لهم حق الاستفادة من خمس المغنم (1/5)³، وبالتالي تضاعفت اقتطاعات السلطة على حساب المساهمين والعاملين؛ كما أن سعيها إلى وضع الجهاد تحت مسؤوليتها وإشرافها جعل السفن الرسمية تكتسح المجال على حساب سفن الخواص بفعل المراقبة الشديدة التي أصبح قواد المرسى يفرضونها على المغنم، وإخضاعهم إياها للاقتطاعات⁴، في الوقت الذي صار فيه السلطان يستأثر - إلى جانب الحق الشرعي - بنصف الباقي من قيمة المغنم بوصفه صاحب السفينة، وأيضا كافة الأسرى بوصفه عاهل البلد⁵، وهو ما جعل النفور من المشاركة يتعاظم من جراء تقلص عائدات العاملين.

وأمام هزلة الأجور المتراوحة ما بين أربع نوكات إلى ست لم يعد هؤلاء براغبين في مواصلة مساهمتهم في النشاط الجهادي، إلى درجة صاروا معها لا يمتطون السفن إلا مكرهين⁶. فقد أصبحت ظروف العاملين على متن سفن الدولة غير

¹ Comdreaux Op cit p 64.

² Brignon Op cit p 229.

³ Comdreaux Op cit p 64.

⁴ Brignon Op cit p 247.

⁵ Brunot Op cit p 164.

⁶ Comdreaux Op cit - p 65.

مرضية في إطار الوضعية السلبية العامة التي أضحت عليها أسطول الجهاد، حيث كان الضباط القارون لا يتلقون أية أجور، ولا يحظون بأية رعاية؛ كما أن البحارة لا يتم الاهتمام بهم إلا عند حلول موسم الحملات، وعليهم الحضور بأسلحتهم وتجهيزاتهم¹.

وكان من أثر ذلك ابتعاد الكفاءات المجربة واتساع المجال في غيابها للبحارة غير والمتخصصين الذين أطلق عليهم القنصل الفرنسي إيستيل لقب " الطائفة الشرسة"²، والتي كانت معيشتها الضنكة ومرتباتها البخسة تجعلها قابلة للعمل رغم ضالة المردودية، لأن الرايس وقائد المرسى يستأثر كلاهما بالجزء الأعظم مما تخلفه اقتطاعات السلطة المركزية³، زيادة على أنه لم يكن مسموحا لهم بتملك أي شيء من حمولة السفن ولا أسراها باستثناء أمتعة الأفراد وحقائبهم وأكياس نقودهم وملابسهم⁴. وكانت هذه الامتيازات البسيطة يعول عليها في صفوفهم ما دام مسؤولو الجمارك يقومون بتدقيق كبير في حسابات المغنم بشكل لا يدع إلا النزر اليسير للاقتسام، وهو ما كان يشعر العاملين بالإحباط أمام نشاط يفرض عليهم مجازفة كبيرة بحريتهم وحياتهم مقابل القليل من المردودية⁵.

إن التطور السلبي الذي عرفه مقياس حقوق العاملين وتعويضاتهم في المجال الجهادي قد أفرغ النشاط من جل حوافزه ودعائمه المادية التي كانت أساس قوته وازدهاره، انطلاقا من ضعف المردودية ومقارنتها سلبيا بما كانت عليه خلال النصف الأول من القرن السابع عشر. ولتوضيح ذلك نقدم نموذجا لمقاييس التوزيع قبل العهد العلوي وأثناءه للغنيمة النموذجية التي حققها الرايس علي بن علي (العامل لفائدة القائد الزعروري) في أكتوبر 1622م، والتي بلغت قيمتها مائة وستين ألف فلورين هولندي⁶:

¹ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T III - p 318.

² Ibid - T IV - p 405.

³ Penz - Op. cit - p 276.

⁴ Savine - Op. cit - p 12.

⁵ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T IV - p 406.

⁶ Ibid. - 1° série - Pays-Bas - T III - p 269-70.

المقاييس المختلفة لتوزيع الغنيمة خلال القرن 17م (بألف فلورين هولندي)

مقياس قبل 1666	مقياس قبل 1666	مقياس ما بعد 1666	مقياس ما بعد 1666	مقياس ما بعد 1666	مقياس ما بعد 1666	المستفيد من التوزيع
النسبة	المبلغ	النسبة	المبلغ	النسبة	المبلغ	سفن الدولة
10 %	16	20 %	32	20 %	32	سفن الحواشي
45 %	72	40 %	64	40 %	64	سفن الحواشي
-	-	-	-	-	-	سفن الحواشي
45 %	72	40 %	64	40 %	64	سفن الحواشي
100 %	160	100 %	160	100 %	160	سفن الحواشي

ورغم أن المقياس الثاني يعطي للسلطات في شقه العمومي نسبة 60 % من مجموع قيمة الغنيمة، ونسبة 20 % في شقه الخصوصي، فإن النسبة الفعلية أعلى من ذلك بكثير إذا ما راعينا أن قيمة الأسرى التي كانت تخضع هي الأخرى للتوزيع بين مختلف الفئات المستفيدة قد أضحت من حق السلطان بمفرده مقابل مبلغ زهيد لا يتعدى الخمسين قرشا تمنح للرايس عن كل أسير⁶.

وبصرف النظر عن ذلك فإن 40 % الباقية في الشق العمومي من المقياس الثاني والتي خصصت للرايس وقائد المرسى والبحارة يستأثر الأولان منها بقسط وافر، مما لا يترك للعدد الأكبر من رجال السفينة البالغ ثمانين رجلا في أضعف الأحوال سوى

¹ تضاعف هذه النسبة إلى الاقتطاع الأول.

² تتدرج حقوقه داخل النسبة الأولى.

³ يستفيد من جزء مهم من النسبة الواردة لئده.

⁴ تتدرج حقوقه داخل النسبة الأولى.

⁵ يستفيد من جزء مهم منه الرايس وقائد المرسى.

نصيباً ضئيلاً. وإذا ما قورن بالمقياس الأول يمكن القول بأن نسبة تعويضاتهم قد تقلصت إلى أدنى من النصف، وحتى بمقارنتها بنسبة حقوقهم في الشق الخصوصي من المقياس الثاني نجدها أعلى من حقوقهم بصفة ملموسة عنها في الشق العمومي، باعتبار اقتصار نسبة 40 % من القيمة على طاقم البحارة.

وإذا كان العمل الجهادي الخصوصي قد حاول الحفاظ على تقاليده وأعرافه¹، فإن تنامي قوة تدخل الدولة في مراقبة أرباحه وفرض الاقتطاعات عليه قد دفعت بمصولي الجهاد من تجار مصب أبي رقرق ورياسه إلى العدول عنه، لا سيما وأن ممثلي السلطة كانوا يجدون دائماً الوسيلة التي تمكنهم من تبخيس قيمة المغنم بالنسبة لنتائج سفن الدولة، أو رفع مردوديتها بالنسبة لسفن الخواص وبمختلف التبريرات²، الشيء الذي جعل المستثمرين لا يرون في مجال الجهاد البحري سوى ميدان نفقات وتكاليف باهظة دون أرباح. ويقدم لنا القنصل إيستيل شهادة حول ذلك سنة 1698 قائلا: "حينما يحققون مغنم، كان السلطان يجد مبررات للاستحواذ عليها، وغالبا ما يخضعها للتحكيم الذي يضطلع أثناءه بدور الخصم والحكم، نظرا لحقوقه في أرباحها بواسطة الخمس الشرعية، ويتم ذلك بشكل أنه إذا ما حصلت سفينة على غنيمة بقيمة ثلاثة آلاف إيكوس فإن العاهل لا يقدرها إلا بعشرين فقط... وبهذا الأسلوب يستحوذ على الغنيمة وعلى المزيد من النقود أيضا، وهذا شيء جيد للعالم المسيحي وضرر كبير لأسطول ملك المغرب"³.

¹ Ibid - p 319.

² Coindreau - Op. cit - p 59.

³ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T IV - p 707.

الفصل الثاني: السفانة والتجهيزات العسكرية

بمثل ما أحدثه اكتساح الأتراك العلوح المرتبطين بهم من تطور ملاحى فى عموم المراكز الساحلية لشمال إفريقيا إلى درجة ارتقائها لتصبح مواقع متقدمة فى استثمار المجال الملاحى، أتى تمرکز اللاجئين الأتليسيين على الشواطىء الأطلنتيكية للمغرب، وتحديدًا بمصب أبى رقراق، ليلحق مرسى سلا الجديد بركب التقدم الذى بلغته موانئ الجزائر وتونس وطرابلس، بمحاكمتهم لمجاهديها على مستوى العمل الملاحى والياته وتقنياته، وبعلمهم على إخضاع هذه الوسائل وملاءمتها لخصوصيات المصب وطبيعته.

وقد جعل هذا أساطيل الجهاد فى المراكز الإسلامية الأربع تتشابه فى ما بينها بتشابه ظروف العمل التى كانت تفرض على رجالها الامتناع عن استعمال الكبير من السفن المتممة بالنقل وبالصعوبة فى الانقياد، وهو ما لا يتماشى وعمليات المطاردة والانحساب، وفرضت عليهم بالمقابل التقيد بالسفن الخفيفة والسريعة والمجهزة بالمعدات القتالية الضاربة، مثل الدعومة والطريدة والكرافيل التى لا تتعدى حمولتها المائة وخمسين طنة، والمسلحة بدزينة من المدافع وعدد أكبر من المنجانيقات، وبطاقم يصل إلى المائة رجل؛ أو سفنًا متوسطة الحجم ذات حمولة تتراوح بين المائتى طنة والثلاثمائة مثل السنبك والبينك والبولاكرا¹.

ونظرًا للانطلاقة المتأخرة للأسطول السلاوى عن أساطيل الجهاد الأخرى، وتركز جولاته فى مياه المحيط الأطلنتيكي، إلى جانب الصعوبة الطبيعية التى يتسم بها مدخل مرسى سلا الجديد، فرضت على وحداته الاستفادة من الريادة الجزائرية فى ميدان السفانة، وتحليها من جهة بمواصفات ملاحية تمكن من مجابهة مخاطر المحيط وعواصفه الهوجاء، ومن جهة أخرى التقيد بأحجام محددة يسهل عليها اجتياز أقاصير المصب، وهى شروط لم تكن متوفرة فى القوانس شائعة الاستعمال فى بداية القرن السابع عشر التى تعتمد بالأساس على قوة المجانيق، بحيث لم تكن تستغل الريح إلا فى الظروف المواتية، مما جعل وضعيتها الملاحية معقدة وانسيابها محدود السرعة أثناء الهيجان، ومن ثم اتضح عدم ملاءمتها للقيام برحلات طويلة داخل المحيط بعيدا

¹ Monlau - Op. cit - p 80-81.

نصيباً ضئيلاً. وإذا ما قورن بالمقياس الأول يمكن القول بأن نسبة تعويضاتهم قد تقلصت إلى أدنى من النصف، وحتى بمقارنتها بنسبة حقوقهم في الشق الخصوصي من المقياس الثاني نجدها أعلى من حقوقهم بصفة ملموسة عنها في الشق العمومي، باعتبار اقتصار نسبة 40% من القيمة على طاقم البحارة. وإذا كان العمل الجهادي الخصوصي قد حاول الحفاظ على تقاليده وأعرافه¹، فإن تنامي قوة تدخل الدولة في مراقبة أرباحه وفرض الاقطاعات عليه قد دفعت بموالي الجهاد من تجار مصب أبي رقرق ورياسه إلى العدول عنه، لا سيما وأن ممثلي السلطة كانوا يجدون دائما الوسيلة التي تمكنهم من تبخيس قيمة المغنم بالنسبة لنتائج سفن الدولة، أو رفع مردوديتها بالنسبة لسفن الخواص وبمختلف التبريرات²، الشيء الذي جعل المستثمرين لا يرون في مجال الجهاد البحري سوى ميدان نفقات وتكاليف باهظة دون أرباح. ويقدم لنا القنصل إيستيل شهادة حول ذلك سنة 1698 قائلا: "حينما يحققون مغنم، كان السلطان يجد مبررات للاستحواذ عليها، وغالبا ما يخضعها للتحكيم الذي يضطلع أثناءه بدور الخصم والحكم، نظرا لحقوقه في أرباحها بواسطة الخمس الشرعية، ويتم ذلك بشكل أنه إذا ما حصلت سفينة على غنيمة بقيمة ثلاثة آلاف إيكوس فإن العاهل لا يقدرها إلا بعشرين فقط... وبهذا الأسلوب يستحوذ على الغنيمة وعلى المزيد من النقود أيضا، وهذا شيء جيد للعالم المسيحي وضرر كبير لأسطول ملك المغرب"³.

¹ Ibid - p 319.

² Coindreau - Op. cit - p 59.

³ Les S. I. H. M. - 2^e série - France - T IV - p 707.

الفصل الثاني: السفانة والتجهيزات العسكرية

يمثل ما أحدثه اكتساح الأتراك العلوح المرتبطين بهم من تطور ملاحى فى عموم المراكز الساحلية لشمال إفريقيا إلى درجة ارتقائها لتصبح مواقع متقدمة فى استثمار المجال الملاحى، أتى تمرکز اللاجئين الأندلسيين على الشواطئ الأطلننتيكية للمغرب، وتحديدًا بمصب أبى رقرق، ليلحق مرسى سلا الجديد بركب التقدم الذى بلغته موانئ الجزائر وتونس وطرابلس، بمحاكاتهم لمجاهديها على مستوى العمل الملاحى وآلياته وتقنياته، وبعملهم على إخضاع هذه الوسائل وملاءمتها لخصوصيات المصب وطبيعته.

وقد جعل هذا أساطيل الجهاد فى المراكز الإسلامية الأربع تتشابه فى ما بينها بتشابه ظروف العمل التى كانت تفرض على رجالها الامتناع عن استعمال الكبير من السفن المنسمة بالثقل وبالصعوبة فى الانقياد، وهو ما لا يتماشى وعمليات المطاردة والانسحاب، وفرضت عليهم بالمقابل التقيد بالسفن الخفيفة والسريعة والمجهزة بالمعدات القتالية الضاربة، مثل الدعومة والطريدة والكرافيل التى لا تتعدى حمولتها المائة وخمسين طنّة، والمسلحة بدزينة من المدافع وعدد أكبر من المنجانيقات، وبطاقم يصل إلى المائة رجل؛ أو سفنًا متوسطة الحجم ذات حمولة تتراوح بين المائتي طنّة والثلاثمائة مثل السنبك والبينك والبولاكر¹.

ونظرًا للانطلاقة المتأخرة للأسطول السلاوى عن أساطيل الجهاد الأخرى، وتركز جولاته فى مياه المحيط الأطلننتيكي، إلى جانب الصعوبة الطبيعية التى يتسم بها مدخل مرسى سلا الجديد، فرضت على وحداته الاستفادة من الريادة الجزائرية فى ميدان السفانة، وتحليها من جهة بمواصفات ملاحية تمكن من مجابهة مخاطر المحيط وعواصفه الهوجاء، ومن جهة أخرى التقيد بأحجام محدّدة يسهل عليها اجتياز أقاصير المصب، وهى شروط لم تكن متوفرة فى القوادم شائعة الاستعمال فى بداية القرن السابع عشر التى تعتمد بالأساس على قوة المجاذيف، بحيث لم تكن تستغل الرياح إلا فى الظروف المواتية، مما يجعل وضعيتها الملاحية معقدة وانسيابها محدود السرعة أثناء الهيجان، ومن ثم اتضح عدم ملاءمتها للقيام برحلات طويلة داخل المحيط بعيدًا

¹ Monlau - Op. cit - p 80-81.

عن الشواطئ¹! وقد نتج عن هذا أنه في الوقت الذي كانت فيه السفن المجذافية تشكل العمود الفقري لأساطيل الجهاد في مراكز البحر الأبيض المتوسط كانت السفن الشراعية أساس البحرية السلاوية باستفادتها من تطور السفانة وصناعتها، وبداية انتشار الأشرعة في وحدات الأسطول الجزائري منذ سنة 1606م².

وإذا كانت الوثائق تؤكد أن بداية نشأة للأسطول الجهادي بمصعب أبي ررقاق تعود إلى مطلع القرن قبيل ورود المهاجرين على يد أحد للجنين الغرناطيين السابقين المدعو "الدغالي"³، فإن تكون الأسطول لم يشذ عن القاعدة المتبعة في المراكز الجهادية والقرصانية، ويتمثل ذلك في مباشرة الرئيس لعمله على متن سفينة رديئة الصنع والتجهيز إلى حين قيامه باستبدالها بسفينة أفضل بناء وتجهيز⁴، ويستمر على هذا المنوال مستحوذاً على ما يتناسب وعمله قوة وفعالية. ويكون للعمليات دور حاسم في تنفيذ هذا التسلسل، مثلما في توسيع حجم الأسطول بما تدره المواسم من إمكانيات مادية وتجهيزية.

وهكذا كان على السلاويين استثمار السفن المأسورة والعمل على إعادة ترميمها واقلمتها للملاحة الجهادية، وأيضاً محاكاتها واتخاذها نماذج ينقل عنها في أوراش البناء المحلية استعانة بالخبرات العالية التي يوفرها العلوج والأسرى المسيحيون، وبالإمدادات التجهيزية التي كانت الدول الأوربية تجبر على تقديمها حفاظاً على مصالحها، إما كعمل وقائي ضد تعرض سفنها التجارية لنقمة رجال الجهاد البحري، أو كفعل استثماري غير مباشر لاحتكار التجارة مع المغرب، بما في ذلك الاستفادة من تجارة المغانم.

ولهذا السبب لم تتورع الأقاليم المتحدة عن الظهور بمظهر الحليف المدعم لأسطول الجهاد السلاوي طيلة القرن⁵، دون أن يعني هذا استتكاك العناصر الأوربية الأخرى عن إمداد رياس سلا الجديد بمتطلباتهم التقنية والعسكرية رغماً عن قرارات

¹ Coindreau - Op. cit - p 87.

² أشار كوص إلى أن سيمون دانسير العالج الهولندي الذي استقر بالجزائر هو من طور مدارك الجزائريين في الصناعة الملاحية المصرية سنة 1606م، وعلمهم فن استعمال الأشرعة على أوسع نطاق، وأدخل إلى أوراش الجزائر بداية الاعتماد على السفن الدائرية الهياكل التي يقوم فيها التنسيق بين الطول والعرض (3/4) بدل السفن الطويلة (القواس) التي تنفلت أبعادها بنسبة (5/9). أنظر: Gosse - Op. cit - p 67.

³ Brunot - Op. cit - p 154.

⁴ Gosse - Op. cit - p 15.

⁵ Burlot - Op. cit - p 20.

حظر تهريب الأسلحة والتقانة الملاحية، والتدابير الزجرية القاسية المتخذة في حق المتلبسين بذلك، والتي كانت تبلغ أحيانا عقوبة الإعدام¹. وقد أدت رغبة هؤلاء الرياس وظروف الدعم المواتية إلى احتلال الأسطول المحلي مكانة متميزة سنة 1635م حيث بلغ مجموع وحداته ثلاثين سفينة من بين مائة واثنى وعشرين في مجموع قواعد الجهاد الأربع حسب شهادة الأب دان، أي ما نسبته 24.5 %، والمرتبة الثانية بعد الجزائر (70 سفينة)، متقما على الأسطولين التونسي (14 سفينة) والطرابلسي (8 سفن)².

والملاحظ أن الأسطول السلاوي رغم تنوع سفنه المستعملة وتغير حجمه باستمرار لم يكن بأي حال من الأحوال بحجم قوة عملياته ومواسمه، ولا في مستوى النتائج التي حققها رجاله؛ إذ ظل على العموم يفتقر إلى التقنيات الملاحية ووسائل القتال المتطورة، فلم يكن في حد ذاته مدعاة لتخوفات الأساطيل الأوروبية واهل بحارتها وتجارها، قدر ما كان السلاويون يدينون بالدرجة الأولى لخططهم الناجحة وشجاعتهم الجريئة وبديهيتهم السريعة³.

1- السفانة المستعملة

في هذا الجانب تبرز صعوبة أولى تتجلى في المظاهر الأساسية لسفن الجهاد السلاوي، حيث يكاد يستحيل توضيحها بشكل دقيق نتيجة تداخل أسماء السفن المعتمدة وأنواعها، وأيضا نتيجة عدم اهتمام المؤرخين المحليين بالتقانة الملاحية السائدة آنذاك في ظل تهميشهم للحديث عن الجهاد البحري والتاريخ الملاحى عموما، بل وحتى المؤلفين الأوروبيين المعاصرين لم يدونوا مميزات السفانة الجهادية إلا لماما وبصورة عارضة، إذ بمقابل اعتبار الأوائل هذا المجال هامشا ثانويا للجهاد البري الشائع ضد مراكز الاحتلال، كان الآخرون مشغولين بدرجة رئيسية إلى النتائج السلبية التي تعرضت لها البحريات الأوروبية، ولا يلتفتون إلى التقنيات والوسائل المعتمدة إلا نادرا. لقد كانت الظروف الملاحية السائدة في مصب أبي رقران تحتم على الرياس اعتماد نوعية خاصة من السفن تمتاز بتسطحها وبخفة حمولتها وقوة سرعتها في أن

¹ في ماي 1679 أصدر الإسبان حكم الإعدام في حق أحد التجار الفرنسيين من جراء تلبسه بهرمة الاتجار في مواد محظورة مع المغرب. انظر: Les S. I. H. M. - 2° série - France - T I - p 472.

² Dan - Op. cit - p 135.

³ Leroux - Op. cit - p 153.

واحد مقارنة بسرعة السفن المسيحية؛ كما كان مفروضا عليها بالامتياز باليسر في الانسحاب حتى في المداخل المائية ذات الأعماق الضعيفة، أو تلك المتضمنة للأقاصير. ولهذا السبب برزت السفن الشراعية بشكل ضارب لمناسبتها للعمل الجهادي، لا سيما وأن الرياس طعموها بالمجاذيف التي مثلت عنصر القوة في القوادس بما توفره من إمكانية التقدم والتراجع حتى في ظروف الرياح غير المواتية. وقد مكنتها هذه الشروط من الحركية المستمرة بدل الارتهاق للعامل الطبيعي¹، مما كان يساعدها على تنفيذ الملاحظات الناجحة من جهة، والانسحاب اليسير من وجه البوارج العسكرية من جهة أخرى بامتياز مضاعف.

وقد كانت هذه السفن تتمتع بانخفاض ارتفاعها وبضعف غاطسها، متوفرة على أشعة وصواري متفاوتة العدد، ومدعمة بقوة بشرية وبكفاءة قتالية جريئة. ولم تكن تضم إلا الأشياء والأشخاص الذين لهم دور في إنجاح العمليات مطاردة وفراراً، فلا صناديق ولا أية أمتعة أخرى زائدة كانت تجد مكانها على متنها؛ بل إن الحمولة الخفيفة المتوفرة كانت تحجز لقطع المدفعية ومؤونة البارود والذخيرة وأقوات الرجال². وقد استأثر نوعان من السفن باختيار الرياس السلاويين:

* سفن ذات مجاذيف : وهي من فصيلة القادس ونصف القادس، وكانت تجهز للعمليات الموجهة على طول الشاطئ، وأساس في منطقة جبل طارق³. وتأتي في الدرجة الثانية من حيث الاهتمام، ولا تبدو إلا لماما في العمليات المهمة.

* سفن شراعية: وهي المجهزة بالصواري، والمتسمة بشكلها الدائري، مثل السنبك والقرقورة والبينك والبولاكر؛ وكانت هي المراكب الأساسية في العمل داخل المحيط الأطلنتيكي وبحار شمال غرب أوربا، وبها اكتسب السلاويون صيتهم وشهرتهم العالمية. وحسب الأب دان فإن هذه الأنواع بمقابل افتقارها إلى نفس قوة سفن رياس الجزائر، مكنت نظرائهم السلاويين من سرعة أكبر وخفة أكثر⁴.

وحسب الوثائق نجد ذكراً لعدة أنواع كونت وحدات الأسطول تفوق العشرين، تختلف خصوصياتها بين سفن تتوفر على صارواحد إلى أخرى ذات خمس صواري،

¹ Dan - Op. cit - p 306.

² Coindreau - Op. cit - p 101.

³ Ibid - p 99.

⁴ Dan - Op. cit - p 209.

وحمولة تتراوح بين الخمسين طنة والثلاثمائة، وغاطس بين المترين وثلاثة أمتار، وطواقم تتراوح بين الخمسين والثلاثمائة رجل، ومن مدفعين إلى مائة مدفع، تحت التسميات المتعددة الواردة في الدليل التقريبي أدناه.

وقد كانت أول وحدة في الأسطول السلاوي عبارة عن طريدة مجهزة للحرب حوالي سنة 1617م¹، وهو زورق كبير بهينة طويلة، حامل لصارمثلث الشراع. وكان معروفا استخدامه في البحر الأبيض المتوسط، مما يجعل أسطول الجهاد السلاوي - باعتبار تأثره بالأسطول الجزائري - يتكون أصلا من سفن النوع المتوسطي²، قبل أن يجذبه التطور السريع الذي لحقه منذ عشرينات القرن السابع عشر من جراء تنوع المغنم وحصول المجاهدين على سفن من مختلف الجنسيات إلى جعله مفتوحا على كل مظاهر السفانة الأوربية الحديثة، وتأثره بها ومحاكاته لها، خاصة السفن الهولندية والإنجليزية. وسوف يستمر الاعتماد على السفانة الأوربية وتجهيزاته الملاحية المستوردة حتى خلال المراحل الأخيرة للقرن على عهد مولاي إسماعيل.

¹ Coindreau - Op. cit - p 89.

² Ibid p 98.

دليل تقريبي لسفن الجهاد 17.

المتجنين	المدافع	الطاقم	الحمولة	الفاطس	الصواري	البعد	المصطلح	النوع
36-26	100	300	300	3-2.5م	5-3	-9/35	Vaisseau	بارجة
-	24-14	200-60	200	2.5م	3-2	18م	Chebec	بوكراخ
-	20	200	200	2.5م	3-2	متوسط	Pinque	بينك
-	22-16	200	300-200	3-2.5م	3-2	متوسط	Polacre	مربع
-	24-8	140-100	100	2.5-2م	2-1	متوسط	Flûte	الأشعة
-	20	100	100-70	2م	3-1	متوسط	Patache	حاملة
-	24-12	120	150-100	2.5م	2-1	متوسط	Pinasse	خفارة
-	10-4	100-70	150-100	2.5م	2-1	12/20م	Brigantin	خفاف
-	4-1	50-30	30-20	0.5م	1	متوسط	Barque	دعومة
-	10-4	100	50	2.5-2م	1	متوسط	Saitie	زورق
-	24-14	100	100-50	2م	2-1	متوسط	Senneau	خيطية
-	6-4	150	150-80	2.5م	3-1	متوسط	Galère	سينو
-	6-2	100	100-80	2م	2-1	6/45م	Gabarre	قانس
-	12-8	100	150-100	2.5م	3-1	متوسط	Goëlette	صندل
-	20-12	200-140	300-200	2.5م	2	متوسط	Tartane	صيادة
-	10-2	130-50	150-100	2.5م	2	متوسط	Galiote	طريدة
-	10-6	100-80	100	2.5م	1	متوسط	Balancelle	غليوطة
-	24-14	300-150	200-100	2م	3-1	متوسط	Frégate	فالوشي
-	10-6	100	100	2.5-2م	1	متوسط	Flibot	فرقاطة
-	20	150	300-200	2م	2-1	متوسط	Fuste	فليبو
-	20-10	100	100-80	2م	2-1	متوسط	Trapu	فيست
-	20	50-30	30	0.5م	1	متوسط	Barcasse	قالباق
-	10-8	120-70	100	2.5-2م	2-1	متوسط	Caraque	قارب
-	25-20	200-100	200-150	3-2.5م	5-2	متوسط	Caravelle	قرقورة
-	6-2	100-50	100-50	2م	1	8/25م	D. Galère	كارافيل
-						متوسط		نصف قانس

اعتمدنا في كتابة هذا الدليل على المؤلفات التالية: عبد العزيز بن عبد الله: "معاجم في السفانة والسفن" - المنظمة العربية للترجمة والثقافة والعلوم - الرباط 1400/1399 هـ. السيد عبد العزيز سالم - نفسه - ص 252، بشير الكافي: "قاموس المصطلحات البحرية" - المؤسسة العربية للبحث والنشر - بيروت 1981، أنور عبد المليم: "الملاح وعلوم البحار عند العرب" - ص 110-12، محمد رزق - نفسه - ص 336، وايضا: Les S. I. H. M - 1^o série - France - T III - p 669-70, Pays-Bas - T IV - p 251, T V - pp 171, 290, 442, 536, 537, 2^o série France - T I - pp 279, 280, 407, Des Champs - Op. cit - p 26, Penz - Op. cit - p 67, Dan - Op. cit - p 209, Monlat - Op. cit - pp 79, 80, 81, Coindreau - Op. cit - pp 35, 86, 89-98, Brunot - Op. cit - pp 249, 250, Brignon - Op. cit - p 231, Savine - Op. cit - p11 et « Musée de la marine » - Palais de Cahailot - Paris XVI - 1970.

إن الخاصية الأساسية التي تطبع حجم الأسطول تتمثل في تذبذبه الواضح على امتداد فترات القرن، إذ تحكمت فيه خلال النصف الأول منه الأحداث المحلية بالدرجة الأولى، في حين انضافت إلى التأثيرات المحلية الضغوط الأجنبية أثناء النصف الثاني. وتوضح لنا البيانات الإحصائية الواردة أدناه قوة الأسطول البحري وتساعد حجمه البين منذ سنة 1622م، ليبلغ قمته بعد ذلك بأربع سنوات (ستون قطعة رئيسية)¹. لكن انتفاضة المجاهدين على السلطة السعدية وما نجم عنها من تناحر بين الحرناشيين والاندلسيين، ثم الصراع الذي دار بين ضفتي مصب أبي رقرق، كل ذلك أدى إلى تراجع الأسطول إلى نصف العدد خلال الفترة الممتدة من سنة 1630 إلى سنة 1635م. ومع عودة الاستقرار السياسي إلى المنطقة مؤقتاً واستفادة النشاط الجهادي وأسطوله من ذلك، ارتقى مجدداً لتتراوح أعداد قطعه بين الأربعين والخمسين وخمسين سفينة².

وقد نجم عن تجدد النزاع المحلي وعودته إلى واجهة الأحداث توقف النشاط الجهادي، مع ما رافقه من أعمال عدائية ضد وحدات الأسطول، بسعي من العياشي المستفيد من تنسيقه مع الأسطول الإنجليزي سنة 1637، وظل هذا الوضع المتأزم قائماً إلى حين تحكم الدلانيون في المنطقة (1641م)، إيذاناً بعودة المجاهدين إلى سابق عهدهم بانتظام أفضل مشوب بقوة أقل مما كانوا عليها. وبلغ متوسط وحدات الأسطول حتى حدود منتصف القرن ما بين العشرين قطعة والخمسين والعشرين³، ليعرف بعد ذلك مرحلة جديدة اتسمت بتقلص قوته، حيث لم تتجاوز حسبما توفر من إحصائيات طوال الخمسين سنة التالية خمس عشرة سفينة، نتاج تظافر عراقيل متعددة، منها فترة الانتقال الطويلة ما بين العهدين الدلاني والعلوي، التي عرفت تراجع الأسطول في إحدى سنواتها إلى أقل من خمس قطع. فقد ذكرت بعض الوثائق إلى أن عدد القطع العاملة سنة 1668م لم يكن يتعد السفينتين⁴.

ومن جهة أخرى حالت الضغوط الأوربية المتفاقمة خلال النصف الثاني من القرن دون جهود الدولة في إعادة هيكلة الأسطول المتضعع، ولا في تطوير حجمه،

¹ Les S. I. H. M. - 1^{re} série - France - T III - p 115-17.

² Ibid - Angleterre - T III - p 309.

³ Ibid - Pays-Bas - T V - p 175.

⁴ Ibid - 2^e série - France - T I - p 280.

وإن ساهمت هذه الجهود من جهتها في الوقوف حيال مساهمة مصادر الاستثمار التقليدية، الشيء الذي ترتب عنه عجز الأسطول الجهادي على عهد مولاي إسماعيل عن تجاوز ثلاث عشرة قطعة عاملة في أحسن الأحوال (1672، و1692م)، بل ولم يصل في بعض السنوات إلى تجاوز حاجز الخمس سفن (1685، 1691، و1697م)، إما نتيجة اشتداد الحصار، أو لعدم التمكن من تغطية النقص في الوحدات الذي لم يكن بالإمكان تحقيقه إلا بالإمدادات الهولندية.

وللحفاظ على خصوصياته وميزاته مقارنة بتطور البحرية الأوربية، كان من الضروري على أسطول الجهاد بطبيعته العسكرية ومتطلباته التقنية أن يسعى دوماً إلى مواكبة التقدم، والتمكن من آخر التقنيات الطارئة على ميدان الملاحة، حيث أن الرغبة الشديدة في الحصول على سفن أكثر سرعة وتسليحا جعلته يعرف اجتهدات محلية من أجل تحديثه وتطويره، كما دفعت به إلى الاستفادة من الكفاءات المتجددة التي ينتشلها من بين الأسرى؛ بل إن الرياس قد عملوا من جهتهم على استمرار اتصالاتهم بمختلف المراسي الأوربية الكبرى، والهولندية بالخصوص التي تعرف اطرادا في تقدم التقنية الملاحية وفي إنشاء السفن الأكثر تطورا¹، مستفيدين في ذلك من التقارب التقليدي الذي خلقته عداوتهما المشتركة للإمبراطورية الإسبانية، والذي تعزز بحلقة الاتصال القوية بين مصب أبي رقرق والأقاليم المتحدة، بفضل الدور الهام الذي لعبه العلوج، وبصورة أكبر يهود المنطقتين.

وقد مكن تواصل الدعم الأسطول السلاوي من اكتساح المياه المتاخمة للشواطئ منذ بداية الجهاد، قبل أن يمتد نطاقه إلى المناطق المحيطية البعيدة في الشمال، لاسيما وأنه في الفترة التي ظلت البحرية الإيبيرية السائدة آنذاك مرتبطة بمعطيات ملاحية قديمة ومتجاوزة، كان التجهيز الجهادي يتعاظم ويتضح في عدة مناسبات²، نتاج تنوع أساليب الدعم المذكور، وتجديدا على يد الرياس ذوي الأصول الهولندية والإنجليزية الذين نجحوا في إدخال تعديلات مهمة على بعض الأنواع، وفي تطوير بعض الوسائل الملاحية.

السنة

1614
1616
1617
1622
1625
1626
1630
1631
1635
1637
1647

فمع تص
إفريقيا - و
للاستعمال
غاطسها وتم
الأشعة الط
أكثر نجاحا و
ومع ارتد
خضع توجيه

¹ اعتمدنا في وضعنا
pp 140, 175,
309; France
6-07, 431-32,
05; Caillé : »
194.

Monlati - Op. cit - p 78.

Gosse - Op. cit - p 71.

إحصائيات تقريبية للسفن العاملة في الأسطول السلاوي طوال القرن 17¹

السنة	عدد السفن	السنة	عدد السفن	السنة	عدد السفن
1614	سفينة واحدة	1648	24 سفينة	1680	9 سفن
1616	" "	1649	20-19 سفينة	1682	13 سفينة
1617	4 سفن	1651	6 سفن	1685	3 سفن
1622	13 سفينة	1652	10 سفن	1687	10-8 سفن
1625	40-30 سفينة	1653	4 سفن	1690	6 سفن
1626	60 سفينة	1656	9 سفن	1691	5 سفن
1630	30 سفينة	1668	سفينة واحدة	1692	13 سفينة
1631	31 سفينة	1669	9 سفن	1693	12 سفينة
1635	30 سفينة	1670	8 سفن	1694	6 سفن
1637	55-40 سفينة	1671	7 سفن	1697	4 سفن
1647	20 سفينة	1672	14-12 سفينة	1698	7 سفن

فمع تصاعد وتيرة العمليات الجهادية منذ سنة 1620، استطاع مجاهدو شمال إفريقيا - وعلى رأسهم السلاويون - تحسين هياكل ومقومات السفن المؤهلة للاستعمال الجهادي، مثل الغليظة، بتقليص حجمها وحمولتها من أجل تخفيض غاطسها وتمكينها من الانسياب بصورة أفضل، كما أهلوها بشكل أنسب للاستفادة من الأشرعة الطارئة عليها، وعد ذلك لدى المؤرخين المختصين بمجال السفانة تجديدا أكثر نجاحا وأهمية في مجهودات رجال الجهاد².

ومع ارتفاع حجم العاملين من العلوج واهتمام المجاهدين باختراق أعالي البحار، خضع توجيه الأسطول للتقانة الملاحية الضرورية لضبط المسارات البحرية

¹ اعتمدنا في وضع هذه الإحصائيات على المصادر والمراجع التالية:

Lex S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T II - p 462, T III - pp 64, 271, T V - pp 140, 175, 290, 332, 352, T VI - p 284; Angleterre - T II - p 558-63, T III - pp 100-02, 309; France - T III - pp 115-17, 637; 2^e série - France - T I - pp 279, 280, 302, 379, 406-07, 431-32, 516, T II - p 543, T III - pp 23, 318, 371, 528, T IV - pp 36-37, 291, 567, 705; Caillé : » La ville de Rabat... « - p 225; Dan - p 209; Coindreau - pp 102, 144, 147 et 194.

² Monlaü - Op. cit - p 79.

واتجاهات الرياح، واستعين في تحقيق اتجاه السفن بالبوصلة والبركار وبيت الإبرة، واهتدي في معرفة الاتجاهات بالنجوم وبمراقبة بروزها وأقولها بواسطة الوسائل المعتمدة في ذلك مثل المقراب والأصطرلاب؛ ولتحديد المسافات كان الاعتماد على مسجلات السرعة (Lech)¹. وحتى يتم التمكن من استغلال الرياح المواتية بصورة قصوى، تم المجاهدون حركة الأشربة الكبرى بحركة الأشربة الأمامية المتعددة وأشرعة الدعم؛ وأضافوا إلى ذلك تجديدا مهما أدخلوه على الشراع اللاتيني السائد آنذاك، حيث استلهموا ذلك من التفكير في التقليل من المساحة الكبيرة للشراع باستعمال الشراع العربي الذي يوفر إمكانية التحكم في القدرات من الأسفل بيسر وبسرعة أفضل من وضعيتها التقليدية على شكل مروحة في الشراع اللاتيني². لقد استطاعت البحرية السلاوية بفعل مواكبتها للتطورات الملاحية، ومجهودات رجالها الخاصة، من مجابهة قوة الأساطيل الأوربية وتحديها لها حتى حدود أواسط العهد الدلاني، حيث عرفت منذ ذلك الوقت بداية تباعدها مع الأقاليم المتحدة كآخر قوة بحرية كانت تتمتعها بخصائصها من التجهيزات الملاحية ومن الدعم اللازم؛ فاضحى الأسطول يفتقر حتى إلى التجهيزات العادية الضرورية فبالأحرى حصوله على التقنية المتجددة، خاصة وأن جهود الدولة العلوية لإجبار الأقاليم المتحدة على إتمام دورها كمموم مستمر للسفن المغربية قد قابلتها مراقبة شديدة للأساطيل الحربية الفرنسية والإنجليزية بالأساس ضد السفن الناقلة لمواد التجهيز البحري والعسكري، الأمر الذي يفسر جانباً من التقهقر الواضح الذي انتاب الأسطول، في الوقت الذي عرفت فيه السفانة تطورا كبيرا في أوروبا.

2- مصادر السفانة السلاوية

كان المجاهدون السلاويون يطعمون الأسطول من ثلاثة مصادر متفاوتة من حيث الأهمية، ومتشابهة في ما بينها، وهي إما مستوردة، أو محولة عن المغام، أو مصنفة محليا:

¹ التازي: "الأسطول المغربي..." - نفسه - ص 27-28.

² بفعل التجديد المذكور أصبح الشراع اللاتيني - المثلث الشكل والمتسع على القرن - ممددا نحو الجانب العمودي بعرض معين، مشكلا رباطا من قذاته، الأمر الذي وفر إمكانية شدها من الأسفل كتدبير يسهل مأمورية الشراع في حركة وصرعته. انظر: Coindreau - Op. cit - p 100.

1- السفن المستوردة: سعى المجاهدون إلى الحصول على آخر الإنجازات الملاحية من أوروبا، وكانت هولندا مصدرها الرئيسي. لقد زامن استقرار الأندلسيين - العناصر الأساسية في الجهاد البحري - بمصعب أبي رقراق فترة التعاون المثمر بين السلطة السعدية والأقاليم المتحدة على كافة الأصعدة، وعلى رأسها مجال الملاحة البحرية. ففي سنة 1609م نجد مولاي زيدان في غمرة اهتمامه بإنشاء أسطول سلطاني يطالب السلطات الهولندية بمده بثلاث سفن، حيث تمت الاستجابة له في ذلك بإيفاد سفينتين حربيين إلى مرسى أسفي، كما صدرت الأوامر في السنة الموالية بإنشاء ثلاث أو أربع وحدات لفائدته في أوراشها¹.

ولذلك، وجدت انطلاقة الجهاد البحري أرضية قائمة للتعاون المغربي-الهولندي مؤسسة بصورة إيجابية، وربما ساعدت وضعية المجاهدين في البداية كراعيا الدولة السعدية على تسهيل بروز تعاون وطيد بين منطقة المصعب وبين الأقاليم المتحدة، زيادة عن تحقيقهم لأهداف مرغوب فيها من لدن الهولنديين باعتبار مهاجمتهم للسفن الإسبانية بصورة رئيسية. ولهذا تأسس هذا الدعم بمئانة خلال عهد مولاي زيدان، وتواصل أثناء فترة استقلال المجاهدين وحرصهم على سفن كاملة التجهيز بتكليف العلوج الهولنديين المنخرطين في صفوفهم، وباستغلال الروابط التجارية القائمة بين يهود سلا ويهود أمستردام. لكن هذه المساعي لم تحقق ورود عدد كبير من القطع المنشأة في أوروبا، ولم يتم إلا نادرا².

وبمقابل ذلك عملت الأقاليم المتحدة وتجار التهريب من مختلف دول أوروبا الغربية على تمكين المجاهدين من بناء السفن وتجهيزها، عن طريق تصدير مختلف المواد والأدوات من مادة الخشب حتى آخر قطعة من قطع السلاح، الأمر الذي جعلنا نخلص إلى أن منطقة مصعب أبي رقراق كانت تتلقى قطع السفانة مفككة لتقوم بتركيبها في الأوراش المحلية.

2 - الغنائم المعادة الاستغلال: لحاجتهم إلى امتلاك التقنيات الأوربية المتطورة، عمد المجاهدون إلى تطعيم الأسطول بالقطع الصالحة من السفن التي يغنمونها، خاصة منها السفن الشراعية عالية السطح، والمؤهلة للعمل في أعالي

¹ Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T I - pp 309, 314 et 519.

² Coindreau Op. cit - p 105.

والمهاوي البحري مصب أبي رقرق. ولهذه الغاية كانوا يبذلون قصارى جهودهم خلال العمليات لغنم السفن وهي في حالة جيدة؛ فكانت سفنهم الأصلية تجهز بالعديد من الرجال وبكمية كبيرة من المدافع والذخيرة الحربية بهدف الامتياز بعامل القوة على السفن المطاردة، وإحباط عزائم رجالها على المقاومة وحثهم على الاستسلام دون أدنى مجابهة، وكان مرماهم الأساسي هو الحصول عليها سليمة بكل الوسائل. وحتى في حال امتناع السفينة التجارية عن الانصياع لهم واتباع نصائحهم ووعودهم كانوا يعمدون إلى نهج خطط تؤدي إلى إتهاك الخصم وترهيبه، بقصفها عن بعد بالمدافع وبرشقات البنادق، دون أن ترتفع شراسة القصف إلا إذا اشتد عناد المقاومين، إذ آنذاك ترتقي درجة اليأس لدى المجاهدين في الحصول على السفينة بنجاح، الأمر الذي يجبرهم على إحراقها وإغراقها في الأخير¹. ولم يكن يلجأ إلى هذه الصيغة المتطرفة إلا نادراً، نظراً لجراء السلاويين وشراستهم من جهة، ولميزان القوة الذي كان غالباً لفائدتهم، الأمر الذي كان يجعل السفن المطاردة تحيد عن أية مقاومة محكوم عليها بالفشل منذ البداية.

وهذا الأسلوب مكن السلاويين من الحصول في كل موسم ناجح على عدد من السفن شكل طوال مراحل الجهاد نسبة هامة في الأسطول السلاوي، ممكناً إياهم من تدارك الخصاص الملاحي على هذا المستوى، كما على مستوى التجهيز والتقنيات. فمن جهة كانت هذه السفن تستغل بذاتها في العمليات اللاحقة، ومن جهة أخرى كانت تقدم نماذج متطورة تنسخ عنها أورش البناء المحلية²، ومن جهة ثالثة كان بعضها يوفر مواد وتجهيزات أولية لسفن أخرى، خاصة تلك المنشأة حديثاً³. وقد مثلت نسبة السفن المستغلة منها مباشرة في عداد الأسطول أكثر من نصف الوحدات المستعملة، إذ في سنة 1669 مثلاً كانت خمس سفن غنيمة ضمن وحدات الأسطول التسع، أي أزيد من 50% من المجموع⁴.

3- السفن المصنعة محلياً: باعتبار غلبته في منطقة مصب أبي رقرق كنشاط اقتصادي عسكري، فرض الجهاد البحري وجوداً لصناعة محلية مرتبطة به بغاية تغذيته بالسفن الضرورية، وإصلاح الوحدات المتداعية منها. ولهذا الغرض

¹ Dan - Op. cit - p 301.

² Monlaü - Op. cit - p 80.

³ Les S. I. H. M. - 1^o série - Angleterre - T III - p 489.

⁴ Ibid - 2^o série - France - T I - p 279-80.

كانت السلطات الواسعة المخولة للرئيس تبيح له الحق في تطبيق العقوبات والزواج المتنوعة ضد الخارقين للنظام، إما جلدا أو بترأ لعضو من الجسد أو اعتقالا أو سخرة. وكان تطبيقها سريع التنفيذ باستثناء حكم الإعدام الذي كان من اختصاص السلطة المشرفة على المرسى¹. ولم يكن اللجوء إلى هذه العقوبات إلا في حالات نادرة، ذلك أن وحدة الهدف التي تجمع بين أفراد السفينة الجهادية كانت تجعل النظام محافظا عليه من طرف الجميع بصورة تلقائية².

وقد كانت الحياة اليومية في عرض البحر تعرف تقسيما للعمل بين مجموع أفراد الطاقم، كل مجموعة حسب اختصاصها ومهمتها، وكانت حراسة المركب والأسرى تتم بالتناوب بين مجموعة من الحراس كل ست ساعات طوال الرحلة³، وكانت الحراسة الليلية ذات أهمية قصوى يضطلع بها المراقبون من ذوي التجربة وهم مستقرون بأعلى الصواري لاستكشاف المجالات البحرية الممتدة على مدى البصر، والإعلان حسب أبعد نقطة ممكنة عن المراكب البادية في الأفاق البعيدة. وتتضاعف الحراسة في الأوقات العصيبة، خاصة خلال فترات الشروق التي كانت تفرض حذرا استثنائيا⁴ باعتبارها نقطة زمنية للانتقال من الظلام إلى النور، أو من السترة الطبيعية إلى الانكشاف الظاهري.

وكان وجود الأسرى المسيحيين كقوة ضرورية لحركة المجاذيف يتطلب من جهته تسييرا خاصا ورقابة مشددة، لاحتياج السفن الجهادية الماس إليهم من جهة، ولخشية المجاهدين من القلاقل التي بإمكانهم إحداثها بعددهم المهم من جانب آخر؛ ولذلك كان الرئيس لا يتقون فيهم لكونهم ما أن تتاح لهم الفرصة حتى يحاولوا التخلص من أسرهم، وجعل المركب تحت سلطانهم⁵. فكانوا عند استعدادهم لمهاجمة إحدى السفن يبادرون إلى تقييد الأسرى وتكبيلمهم من أيديهم وأرجلهم أربعا أربعا بقضبان حديدية تتدلى منها القيود، كوسيلة أكثر يسرا من تخوف قيامهم باستغلال حالة

¹ Coindreau - Op. cit - p 63.

² Hubac - Op. cit - p 21.

³ Coindreau - Op. cit - p 63.

⁴ Ibid - p 163-67.

⁵ خلال سنة 1625م قام أسرى إنجليز بانتفاضة على متن سفينة جهاد سلاوية، فغتمين فرصة وجود العدد الأكبر من المجاهدين في قمرها، وانقضوا على حراسهم وقتلهم وأسروا من بقي منهم على قيد الحياة بعدد اثني وعشرين رجلا. انظر: 7: p III - T 1° série - Angleterre - Les S. I. H. M.

الاختلاط أثناء الاقتتال، وتنظيم ثورة داخل السفينة الجهادية¹. والملاحظ أن هذه الوضعية لم تكن حكرا على السفينة الجهادية، وإنما كانت مشاعة يتعرض لها أسرى المجانيف في أساطيل الدول المعادية عموما². المجانيف في أساطيل الدول المعادية يتقاسمون الأقوات، التي كانت ودون تمييز، كان بحارة وضباط السفن الجهادية يتقاسمون الأقوات، التي كانت عادة ما تتألف من جملة من المواد الأكثر مقاومة للتلف مثل الفواكه الجافة وبعض الأنواع من الخضر، حيث يتم إعطاء كل واحد نصيبه الشخصي يوميا³، ويتمثل ذلك نمونجيا في توزيع الخبز والزيتون عند الإفطار، والخليع أثناء وجبة الغذاء، والكسكس والحمص عند العشاء. أما بالنسبة للشرب فلم يكن مسموحا إلا باحتساء الماء⁴، والذي كان لدى تعرضه للتلف يجبر البحارة على تناول السوائل الأخرى مثل الخمر وماء الحياة (الماحيا)⁵، خاصة بعد تحقيق المغنم التي كانت تمدهم بأقوات جديدة وغير متداولة غالبا في مجتمع إسلامي.

وكان المظهر الطبيعي لألبسة المجاهدين يتمثل في سراويل قصيرة من الأجوخ والصوفية، وحل قصيرة جدا بحزام فوقها، تعلوها برانس صغيرة في العادة⁶، إلا أنها لم تكن تشمل إلا جزءا من مرتدياتهم التي كانت شروط العمل تفرض عليهم اختيارا مدققا لأنواعها حسب الظرف، فكانوا لذلك يحملون معهم كميات كبيرة ومتنوعة من الألبسة الأوربية لتسهيل عليهم التكر حسب جنسية السفن المصادفة بالبحر، مستفيدين في طريقة ارتدائها للتصويه من خبرة العلوج ودرابته بالشكل الأنسب⁷ لكسب ثقة السفينة التي يودون مهاجمتها.

وعند انتهاء المرحلة تأخذ السفينة اتجاهها نحو مصب أبي رزوق، وبمجرد لمح المراقب لصومعة حسان - التي كانت تستخدم كمنارة للتعريف - يعلن عن رؤية اليابسة، ليستعد البحارة لارتداد المرسى. وعلى بعد مرحلة من المدينة يفرغون كل

¹ Dan - Op. cit - p 301-02.

² Gosse - Op. cit - p 93-94.

³ Dan - Op. cit - p 298.

⁴ Brunot - Op. cit - p 341.

ولإعطاء صورة تقريبية عن كلفة التغذية لموسم واحد لسفينة مكونة من 150 إلى 200 رجلا، نورد كلفتها خلال سنة 1573 التي تراوحت بين 1100 و1500 دوكا. انظر: Braudel - Op. cit - p 169.

⁵ رزوق - نفسه - ص 338.

⁶ Les S. I. H. M. - 1^e série - Pays-Bas - T V - intro. p XII-XIII et Hardy : « Histoire des Etats barbaresques » - T I - Op. cit - p 134.

⁷ Dan - Op. cit - p 203.

نخائر مدفعيتهم علامة على نجاح الرحلة وسرورهم بالعودة المظفرة، وفي الوقت نفسه لاجتذاب السكان لمعاينة ولوجهم إلى المرسى، فيصير الميناء آنذاك عجا بالجمهور، وفي مقدمتهم رجال السلطة والممولون والتجار المهتمون بحضور عملية إفراغ الغنيمة، حيث توضع البضائع أمام محلات الجمارك، ويحصى عدد الأسرى قبل تشكيلهم لصف استعراضى بنيس في أزقة المدينة، وهم متوجهين إلى المطامير أو إلى ساحة المزاد العلني¹.

وهذه المظاهر تحدث كلما حقق الrais رحلة إيجابية، إذ يغمر بالمديح ويعامل كبطل مغوار في جو من الحمدة والصلاة على النبي، ولا يفوته في هذا السياق تجديد الزيارة للأولياء والصلحاء، حاملا إليهم هدايا من المغنم تيمنا ببركتهم²، قبل أن يفسح المجال لاحتفالاته الخاصة صحبة رجال الطاقم في الدور والمنازل. أما إذا كان الrais ممن لم يحالفه الحظ وعاد دون تحقيق أي مغنم فإنه يرتاد المرسى مكسور خاطر وفي غاية من الأسى والحزن، ويرسي سفينته بالميناء دون إطلاق أية قذيفة من مدفعيته³، ويدخل إلى أزقة المدينة دون أدنى مظاهر متميزة إلا ما كان من بعض أعراف الموساة.

2- مواقع ومواسم الجهاد

منذ بداية العمل الجهادي كان المسرح العادي لعمليات رجال البحر السلاويين ممتدا في مياه المحيط الأطلنטיكي، حيث كانت سفنهم تتحكم في ساحة بحرية تغطي خمسمائة إلى ستمائة ميل انطلاقا من مصب أبي رقرق، جاعلة الشريط الماني الموازي للساحلين الأطلنטיكيين المغربي والإيبيري تحت رحمتهم⁴؛ علما بأن هذا الموقع ظل يشكل إحدى النهايات المركزية للملاحة التجارية العالمية، نتيجة اشتماله على المضيق، وتركز نقطتي الاستقبال الإيبيريتين الرئيسيتين: قاديس واشبيلية به، اللتين استمرتتا في لعب دور هام في تنشيط خطي الشرق الأقصى عبر جزر الخالدات، والعالم الجديد مرورا بجزر الأصور.

¹ Coindreau - Op. cit - p 140.

² Dan - Op. cit - p 299.

³ Ibid - p 312-13.

⁴ Brignon - Op. cit - p 231.

ولهذا السبب كان الموقع الاستراتيجي للمصب في متاخمته لهذه الخطوط يقدم لرجال الجهاد وضعية ملائمة لمهاجمة السفن الإسبانية التي كانت هي الطرائد المفضلة في البداية، وملاحقتها في المجال البحري الواقع بين غرب إفريقيا ومضيق جبل طارق إلى جزر الأصور، ومحدودة في الشمال بالخط الأفقي الموازي لرأس فينيستير (Finisterre)، وفي الجنوب بنواحي جزر الخالدات، لقطع الطريق على أسطول الخطين المذكورين¹، وأحيانا حتى لمهاجمة السواحل الإيبيرية حيث تعمل الغليوطات في المضيق وعلى شواطئ البرتغال الجنوبية؛ في حين تنشط السفن الشراعية الأخرى في خليج غاسكونيا (Gascogne). بيد أن المكان المفضل للمجاهدين عموما والملائم لخصوصيات نشاطهم كان حوالي نواحي الجزر الواقعة داخل المحيط: الخالدات، وماديرا، والأصور، وطيرسير².

وكانت هذه الحملات تنظم غالبا حسب ثلاث رحلات رئيسية:
 ١ - هجمات خاطفة على السواحل الإيبيرية، وتمتد أحيانا لتشمل سواحل فرنسا وإنجلترا وإيرلندا كلما سنحت الفرصة.

ب - رحلات أعالي البحار في مسافات قصيرة أو متوسطة ضمن المجال التقليدي لتحركات الرياس السلاويين.

ج - بعثات بعيدة خارج النطاق العادي باتجاه الأطلنטיكي الشمالي³، وكانت المياه الفاصلة بين القارة الأوربية والجزر الإنجليزية من جهة، وبين إنجلترا وإيرلندا من جهة ثانية، وأيضا المجال المقابل لإيرلندا باتجاه الأرض الجديدة (Terre-Neuve) أساس هذه البعثات لفترة طويلة، بنفس مقياس أهمية نواحي الأصور.

وقد كان الاهتمام في بداية الموسم الجهادي منصبا على النواحي الشمالية للمجال العادي أمام لشبونة بين رأس القديسة ماري (C. Ste Marie) ورأس روكا (C. Roca)، حيث تكون الرياح وحركات البحر أقل عنفا قياسا بنواحي رأس فينيستير خلال شهر أبريل حتى متمه؛ ثم تتقدم السفن الجهادية إلى أبعد من ذلك متوجهة للبحث عن السفن التجارية حتى رأس أورتيغال (C. Ortegal) ورأس بيناس (C. Penas)، وتمكث في التجوال طوال الصيف على مقربة من شواطئ الغرب الأوربي وشواطئ

¹ Les S. I. H. M. - 1° série - France - T III - p 503-04.

² Coindreau - Op. cit - p 115-18.

³ Ibid - p 113.

الجزر انتظارا لتحقيق مغنم على الأسطول القادم من البرازيل، رغم حراسته بقوات عالية التسليح.

وحيثما تدنو نهاية فصل الصيف تتمركز بعض من هذه السفن قرب السواحل المذكورة مبتعدة عن اليابسة بحوالي ثلاثين إلى أربعين فرسخا خشية تعرضها لهبات الرياح العنيفة الناجمة عن بداية رداءة أحوال الطقس التي تدفع بالبعض الآخر منها إلى التوجه جنوبا صوب جزر الخالدات لاعتراض السفن المحملة بالخمور¹، والسفن المتخلفة عن أسطول الفضة القادم من أمريكا اللاتينية.

وقد كان هذا المجال البحري خاضعا للتوسع كلما ارتفعت كفاءة وقوة أسطول الجهاد، لاسيما وأن طبيعة العمل الطموحة كانت تدفع الرياس إلى تنفيذ عمليات متطورة سنة عقب أخرى، كما تفرض عليهم من جهة ثانية - لمدارة الرقابة المتشددة لمناطق أنشطتهم التقليدية من طرف البوارج الحربية - ارتيادا فجائيا لعوالم جديدة بالاستفادة من خبرات العلوج. وهكذا نجد أنه منذ سنة 1622 اكتسح السلاويون المجالات البحرية الواقعة خلف مناطق تحركهم العادي بتأسيس من العليج الهولندي الأصل "موراطو رايس" الذي نجح آنذاك في فتح معالم الرحلات البعيدة إلى بحر المانش وما وراءه.

وقد صارت السفن منذ ذلك الوقت تجول في عرض شواطئ إنجلترا الشرقية وبلاد الغال، وتفرض سطوتها على الخطوط البحرية الرابطة بين غرب إنجلترا وجزيرة إيرلندة، محصلة خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1625 و1631 آلاف المغنم تحت قيادة موراطو رايس الذي لم يتورع خلال سنة 1627 على الإقدام بمغامرة جريئة أوصلته إلى سواحل إيسلندة في أقصى شمال الأطلنطيك، حيث انتهب مدينتها الرئيسية ريكجافيك (Reykjavik)²، كأقصى نقطة بلغتها السفن السلاوية خلال فترة تآلق الجهاد البحري. كما قادت النجاحات المحققة على الشواطئ الإيرلندية المجاهدين للوقوف على حجم نشاط الصيد بالأرض الجديدة في شرق كندا، وبالتالي تنظيم مطاردات موسمية كل سنة لسفن الصيد القادمة من هذه المنطقة باتجاه أوربا،

¹ Les S. I. H. M. - 2^e série - France - T I - p 516-17.

² Coindreau - Op. cit - p 122.

محققين اعظم إنجازاتهم باعتراض عودتها، أو بالقيام بهجمات فجائية على الصيادين حتى قرب شواطئها وشواطئ إيقوسيا الجديدة¹.

ومع التقهر الذي أصاب نشاط الجهاد راحت المساحة الشاسعة لمجال العمل وتنقلص تدريجيا، لتعود إلى الاقتصار على المجال التقليدي، واختفت معالم الحملات البعيدة باستثناء بعض الهجمات الخاطفة والمتفرقة ضد السفن المبحرة في المانش²؛ بل إن المسرح العادي نفسه راح يتضاءل بفعل ضعف الأسطول من جهة، وشدة المراقبة الأوربية لسواحلها الأطلنטיكية من جهة أخرى، الأمر الذي جعل جزر الأصور ويطرسير تحظى باهتمام أكبر من لدن الرياس، خصوصا خلال المرحلة الأخيرة من الجهاد السلاوي³، والتي لم يعد الرياس أثناءها يرتادون البحر الأبيض المتوسط لبلوغ قاعدة الجزائر بهدف اللجوء أو تصريف المغنم فقط كما كان دأبهم في السابق، وإنما أضحي البعض منهم متخصصا في القيام بعمليات منتظمة داخله، وعلى رأسهم الرياس قنديل⁴، دليلا على ضيق المجال البحري الملثم لخصوصيات الجهاد.

أما بالنسبة للعامل الزمني، فقد كان دوره كبيرا في تحديد فترات المواسم ومراحلها؛ فخلال فصل الشتاء تجعل عواصف المحيط الملاحية على جانب كبير من الخطورة، خاصة وأن الأقاصير الموجودة عند مدخل المرسى تمنع ارتيادها أو مغادرتها لمدة خمسة عشر يوما إلى عشرين في الشهر⁵، وما كانت خارجها من السفن أثناء ذلك من زوات الحمولة الكبيرة تظل راسية قبالة ساحل الرباط نظرا للانفتاح الواضح للمرسى وتأثرها الشديد بحركات البحر. ولذلك كان الأسطول يظل قابعا داخل النهر خلال فصل الشتاء إلى حين تحسن أحوال الطقس أثناء الفترة الممتدة من بداية فصل الربيع إلى حلول فصل الخريف (من نهاية مارس إلى منتصف أكتوبر)⁶، وعدا هذه الفترة كان المجاهدون يعمدون إلى تجريد السفن من تجهيزاتها، ويتوقفون عن العمل لأنها ليست بالقوة التي تسمح بمجابهة العواصف بنجاح. والملاحظ أن هذه

¹ Ibid - p 123.

² Penz - Op. cit - p 64.

³ Les S. I. H. M. - 2^e série - France - T IV - p 221-23.

⁴ Coindreau - Op. cit - p 79-80.

⁵ Ibid - p 119.

⁶ Brunot - Op. cit - p 77.

القاعدة لم تكن ثابتة، إذ ما فتى الرياس يشذون عنها خاصة عند ضعف نتائج المواسم العادية أثناء الربع الأخير من القرن، فكانت السفن الجهادية تتحدى صعوبة الطقس وتصبح نشيطة حتى خلال فصل الشتاء، لا سيما على يد أمير البحر عبد الله بن عائشة، جاعلة من الجهاد البحري حركة نشيطة على مدار السنة.

وعلى العموم كان الموسم الجهادي يقسم إلى عدة رحلات بمتوسط خمسين يوما للواحدة، يشارك فيها الرياس ضمن مجموعات صغيرة متألفة من سفينتين إلى ثلاث تتعاون في ما بينها²، ويباشر كل رياس نشاطه بمعدل ثلاث رحلات موسميا³. وتتمثل محطات الموسم الرئيسية في التقسيم الزمني الذي تفرزه أحوال الطقس والملاحة كالتالي:

1- رحلات الربيع: وتبتدى مع مطلع أبريل حيث تغادر السفن السلاوية المازونة مرسى أبي رقران في مجموعتين رئيسيتين غالبا، تتجه إحداهما صوب الشمال، والثانية باتجاه الجنوب.

2- رحلات أول الصيف: تنطلق في شهر يونيو الذي يصادف الفترة الانتقالية ما بين فصلي الربيع والصيف، وخلالها يتجه الرياس للتجوال ومراقبة مختلف الطرق الملاحية والممرات البحرية بالقرب من جزر الأطلنטיكي قصد استكشاف السفن التجارية.

3- رحلات منتصف الصيف: تبتدى عند منتصف شهر يوليو حتى أواخر شهر غشت، حيث تكون الظروف الملاحية ملائمة جدا، ومعها يبلغ النشاط الجهادي أوجه، ويحقق أثناءه الرياس أفضل عملياتهم في الموسم بأكمله⁴.

4- رحلات مطلع الخريف: يشرع فيها خلال شهر شتنبر مع فترة الانتقال من فصل الصيف إلى الخريف، والتي معها تبدأ أحوال الملاحة في المناطق البحرية الشمالية تعرف نوعا من الخطورة، تضطر معها غالبية السفن الجهادية إلى النزوح باتجاه الجنوب، وللعمل في النواحي البحرية لجزر الخالدات⁵؛ ولا ينتهي الموسم عادة إلا قرب نهاية شهر أكتوبر.

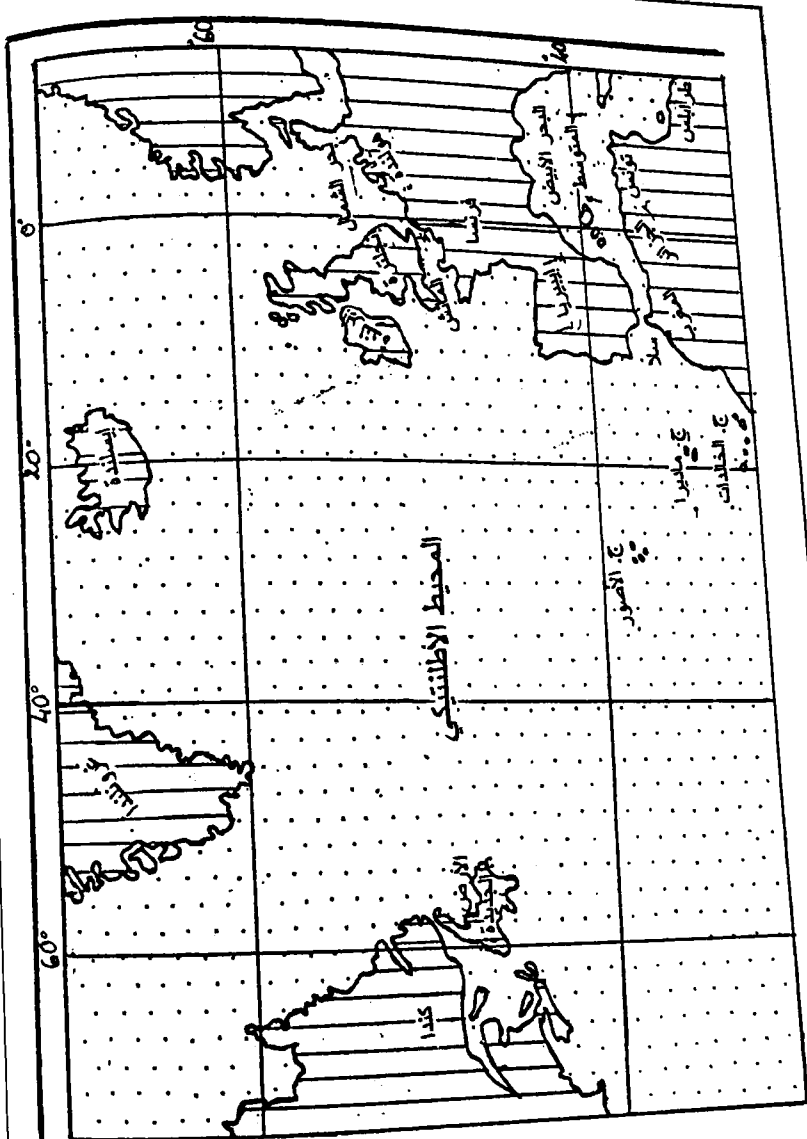
¹ Les S. I. H. M. - 2^e série - France - T III - p 461 et T IV - p 317-22.

² Brignon - Op. cit - p 231.

³ Les S. I. H. M. - 2^e série - France - T IV - p 706.

⁴ Coindreau - Op. cit - p 117-18.

⁵ Les S. I. H. M. - 1^e série - France - T III - p 502-03.



المجال الواسع لسفن رياس سلا

ونظرا لما يتطلبه العمل الجهادي من إمكانات التناور والتوقف، والتوفر أيضا على نقط برية مؤقتة لتخزين المغنم قبل العودة إلى مصب أبي ررقاق مع انتهاء الرحلة، وضع الرياس تحت تصرفهم عدة مراكز للدعم عبارة عن ملاحى مستترة واقعة قرب أماكن العمل في الجزر الإسبانية الواقعة في الشمال الغربي لشبه الجزيرة الإيبيرية، مثل بايونا (Bayonne) وسيزار كاس (Sisarcasse)¹، في حين كان الساحل المغربي المطل على مساحة كبيرة من المحيط الأطلنטיكي يوفر لهم سلسلة مترابطة من القواعد والمراكز التي تسهل مأموريتهم الجهادية، إما تموينا بالماء والاتقوات الضرورية، أو لجوءا للفرار من وجه البوارج المضادة، أو مراكز رسو قريبة أثناء فترة الطقس الرديئة، أو لمجابهة حالات مفاجئة أخرى.

وقد اضطلعت خمس قواعد رئيسية بهذه الأدوار كمراكز بديلة مؤقتة لمصب أبي ررقاق، حيث تشير المصادر إلى أن مرفأ الوليدية كان المكان المفضل لدى رياس البحر لا سيما عند إشعارهم بتمركز السفن الأوربية لحصار مدخل سلا. وتأتي مرسى أسفي في الدرجة الثانية من حيث الأهمية، وكانت مرتادة كنقطة لتخزين محتويات المغنم عند تحقيق العمليات الناجحة بنواحي جزر الخالدات، وأيضا كملاذ لسفنهم عند هبوب الرياح العنيفة والمعاكسة لإبحارهم باتجاه الشمال. كما أن صغر حجم السفن السلاوية وتحكم رجالها في حركتها أهلهم لاستغلال المراسي الداخلية، مثل أزموور، وتاهدارت، وحتى تطوان أيضا².

وإضافة إلى المراكز المذكورة ساهمت قواعد أخرى في تدعيم العمليات الجهادية ولو بصورة ثانوية، مثل فضالة وأنفا³ منذ انطلاقة المواسم، أو في زمن متأخر مثل المعمورة والعراش بعد تحريرهما، حيث أصبحت الأولى من مراكز الدعم الرئيسية⁴ ومرسى لا تقل شأوا عن مرسى سلا ذاتها. لكن الملاحظ هو أن رقعة هذه القواعد كانت تتسع لتشمل في ظروف إجبارية كافة نواحي الساحل المغربي عند اضطرار المجاهد للجنوح بسفينته كخيار مفضل على السقوط في أيدي مطارديه، لما يشكله هذا الخيار من إمكانية الإفلات من الأسر، وأحيانا حتى بجزء مهم من غنائه⁵.

¹ Coindreau - Op. cit - p 100.

² Les S. I. H. M. - 2° série - France - T I - p 572.

³ Penz - Op. cit - p 11.

⁴ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T IV - p 611.

⁵ Penz - Op. cit - p 159-60.

ورغم تعدد وتباعد هذه المراكز كانت حركة الأساطيل الأوربية تضع ضمن خططها لمهاجمة السفانة الجهادية ضرورة محاصرة هذه القواعد حتى تكون لحصار مرسى سلا نتائج مضمونة¹؛ وزاد من حدة التضييق على رياس البحر ارتهان نشاط الجهاد بالعلاقات المغربية-الأوربية، وتحكمها بصورة مباشرة في العمليات والنتائج، فأصبح مفروضا على الرياس السلاويين اتخاذ مراكز أخرى خارج المغرب لتصريف كل ما يمكن أن تمنعه رقابة القناصل الأوربيين من عرضه محليا، ولذلك ارتقت أهمية مركز الجزائر كنقطة دعم بعيدة في البحر الأبيض المتوسط لدى السلاويين، على غرار استغلال رياس الجزائر لمرسى سلا لمجابهة نفس الظروف²، الأمر الذي جعل المراكز الإسلامية الممتدة من مرسى الجزائر غربا إلى مرسى أسفي جنوبا تبدو كأنها امتداد عملي لمرسى سلا ورياسها البحريرين.

3- الخطط المتبعة في العمليات الجهادية

اعتمد رياس مصب أبي ررقاق في تسيير مواسمهم على مجموعة من القواعد والأعراف التي لا تختلف عما كان سائدا في أوساط الرياس المسلمين عموما، والقراصنة الأوربيين أيضا، والتي تلعب فيها المناورات والخدع دورا أساسيا في إطار نظام مقبول ومتداول؛ إذ لم تكن كل العمليات مسموح بها، وكانت المظاهر المحبذة لدى أغلب هؤلاء العاملين تتمثل في الحيل الذكية، والمفاجآت الجريئة التي يندesh لها الخصم ويحييها كرجل بحر متخصص، وهناك الأشرعة السوداء المستخدمة ليلا، والرايات المزيفة، والكمائن الغربية، والمظاهر البريئة المصطنعة، والأدوار اللبقة التي تحظى بكل التقدير والإعجاب³.

وقد كانت هذه المظاهر من الركائز الأساسية في الجهاد البحري، لا سيما وأن عناصره استفادت منذ البداية من اطلاعها على أنماط الحياة الأوربية باعتبارها متألفة من مسلمين ذوي أصول أندلسية، أو علوج من جنسيات أوربية مختلفة، وهو ما مكّنه من التحكم في لغات وطبائع البلد الذي تنتمي إليه السفن المعرضة للملاحقة، ومفاجأتهم لها وهم متكرون على منوال أفرادها⁴. ولهذا كان الرياس يحرصون على

¹ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T IV - p 669.

² Ibid - 1° série - Pays-Bas - T V - p 304.

³ Hubac - Op. cit - p 22.

⁴ Dan - Op. cit - p 203.

وجود مجموعة من العلوج الممكنين من اللغات الأوربية، والأعلام غير المثيرة للشبهة - حسب علاقات الدول الأوربية في ما بينها - القمينة باكتساب الثقة الساذجة للسفن التجارية المصادفة¹. فضلا عن ذلك تمكن الرياس من التوفر على نظم مخابرات فعال وفر لهم شروطا إيجابية لإنجاح عملياتهم استنادا إلى المعلومات المستقاة من الأسرى الأوربيين أنفسهم، وأيضا من حلقات التجسس المنظمة بين مصب أبي رقرق وأوربا، خصوصا مع بقايا الأندلسيين بشبه جزيرة إيبيريا².

وقد كان الرياس يعملون في عرض البحر إلى خلع أعلامهم الأصلية وإخفاء كل ما من شأنه أن يفضح صفتهم، مرتدين لهذا الغرض ملابس تنكرية في هيئة تجار أو صيادين عاديين، واضعين الأمتعة في شكل مكشوف على سطح السفينة، ورافعين أعلاما فرنسية أو إسبانية أو من جنسية أخرى مقاربة لأعلام السفن التي اختاروها للمطاردة حتى يجعلوها تسقط في حبال خدعتهم³، فيبادرون إلى ملاحقتها معتمدين على خفة سفنهم، أو يبادرون إلى تقليص سرعة سفينتهم بوضع القذائف الثقيلة في كوتلها، وحينما تتقارب السفينتان بدون حذر يتمكن المجاهدون من إحداث المفاجأة بكل يسر، وغنم طريقتهم دون عناء⁴، يفسره سقوط العدد المهم من المغنم دون معركة ولا مقاومة، حيث كان الرياس يحرصون في اختيارهم على تجنب السفن الحربية أو عالية التسليح.

ومع شدة التأثير الأوربي على سياسة الجهاد لدى سلطات المصب من جهة، وتقلص مردودية النشاط من جهة أخرى بفعل حركات الأساطيل الأوربية المتشددة في مجال عملياتهم، لجأ السلاويون إلى استغلال مشترك لأعلامهم وأعلام نظرائهم الجزائريين⁵ بغية تحقيق مغنم حتى على حساب السفن التي يرتبطون مع دولها بمعاهدات مفروضة، وترهب بحارتها من أجل إخلانها للسيطرة عليها كمغنم قانوني لا أصحاب له⁶. كما لم يتورع بعض الرياس على مهاجمة سفن هذه الدول بأشكال أخرى مثل استغلال عدم توفرها على جوازات مرور قانونية، أو بتفتيشها وأسر

¹ Penz - Op. cit - p 11.

² Coindreau - Op. cit - p 137-38.

³ Dan - Op. cit - p 209.

⁴ Coindreau - Op. cit - p 137-38.

⁵ Brunot - Op. cit - p 159-60.

⁶ Les S. I. H. M. - 1° série - Pays-Bas - T V - p 391-92.

الركاب والبحارة غير المنتمين لجنسيتها؛ مع العلم أن هذه التجاوزات لم تكن حكرا على السلاويين فقط، وإنما كانت ظاهرة ملاحية عامة، إذ غالبا ما كانت السفن السلاوية بدورها ضحية لهذا السلوك، حيث هوجمت وغنمت بعضها من طرف بحارة الدول الصديقة، وأساسا القباطنة والقراصنة الهولنديون².

لقد أفلح الرياس السلاويون في تحقيق النجاح طوال القرن 17 لأنهم كانوا لا يختارون المواجهة ما لم يكن لهم امتياز قوة واضح باتتبع سلسلة من الاستعدادات الأولية على مستوى مراقبة السفينة المنتقاة بدقة وعناية، مقارنة قوتها وطاقتها وعدد مدافعها بما يتوفرون عليه، فإذا ما بدا لهم أن الظفر غير مؤكد يعرضون عنها مفضلين عدم الدخول في مغامرة غير محمودة العواقب؛ ولا يشرعون البتة في تنفيذ الهجوم إلا إذا كانت النتائج مضمونة، مستعنيين في ذلك بتقاليد عملهم التي كانت تضعهم في موقع قوة من حيث تعاون أكثر من سفينة جهادية في مهاجمة طريدة تجارية منفردة، فضلا على تمتع السفن السلاوية بعدة امتيازات تفتقر إليها غيرها، وأساسا بطء وثقل هذه الأخيرة بما تضمه من بضائع، واعتمادها كلية على قوة الرياح في تحركها، إلى جانب ضعفها القتالي الناجم عن صفتها المدنية³.

وقد افترض التنظيم المعقل للعمليات معرفة جيدة بالعلاقات التجارية الملاحية، وبالمسارات البحرية؛ وكانت جهود العلوج في هذا الإطار إيجابية جدا، خاصة الهولنديي الأصل منهم، مكنت الرياس من التحكم في حركة السفن التجارية. ويقدم لنا الأب دان وصفا نموذجيا لتعرض إحدى هذه السفن لعملية جهادية، حين كتب: "ذات صباح، عند مطلع الفجر تقريبا، اكتشف مراقب السفينة بضعة أشرعة عن بعد، وشك في الوقت ذاته أن تكون لسفن قرصانية. وبالفعل عرف أنها كذلك وأنها قادمة من سلا، لهذا وفي محاولة لتحاشي مصادفة سينة مثل هذه، عرض الربان سفينته في اتجاه هبوب الرياح، وضاعف من قوة الأشرعة، مجاهدا في سبيل خلاصه في الفرار. بيد أن هذا المجهود لم يمنع مطارديه من اللحاق به بسرعة أكبر، مكنهم من بلوغ مستواه

¹ Ibid - T III - pp 391 et 476.

² Ibid - T IV - pp 404 et 418-20.

³ Dan - Op. cit - p 301.

في النهاية؛ وهكذا، بعدما التحقوا به أجبروه على الاستسلام عنوة بعدما قاوم بشدة، لأنهم كانوا ببضعة مراكب ضد تلك السفينة¹. وردود فعل طواقم السفن التجارية كانت تختلف من سفينة لأخرى، فمنها ما كانت ترى استحالة إحراز أية نتيجة إيجابية من التصدي ومقاومة هجوم المجاهدين، مفضلة الاستسلام لهم منذ الوهلة الأولى، وكان هذا هو الأسلوب المتبنى حتى من طرف السفن عالية التسليح²، مما كان يحدث انعكاسا سلبيا واضحا على صعيد الرأي العام الأوربي³. ومن جهة أخرى كان بعض القباطنة يبذلون مستطاعهم بغاية النجاح في الإفلات من مطاردة سفن الجهاد، والحيلولة دون سقوط نواتهم في الأسر، مغامرین أحيانا بالجنوح بمراكبهم على أقرب شاطئ⁴. إلا أن عددا لا يستهان به من السفن كان قباطنتها يفرضون على رجالهم الدفاع عنها، والذود عن أنفسهم، ليس رغبة في التجديد، وإنما لأن مقاومتهم كانت هي الوسيلة الممكنة لإبعادهم عن شبح الأسر ومرارة الرق.

ففي هذه الحالة كان المنظر العام يوحي بنشوب معركة صغيرة تبدئ بتبادل الفريقين للقصف المدفعي، يجس من خلاله كل منهما كفاءة الآخر رغم ميلان ميزان القوة لفائدة المهاجم. وأثناء ذلك يحاول هذا الأخير إنهاك خصمه مقتربا بحذر إلى حين الاصطدام به بسفينته، ليفسح مجال الانقضاض لرجاله. ويتميز المظهر التقليدي لذلك ببروز المجاهدين على حافة المركب كعتاة منفعلين، مشمرين عن سواعدهم ومستعرضين صفائحهم وخناجرهم وفؤوسهم، مصدريين أصوات مرعبة لإحباط عزائم المدافعين⁵، ومثيرين للأعصاب على سطح السفينة بركضهم وانتشارهم في كل أرجائها، متحفزين لضرب البحارة والركاب، أو ملتحمين مع الجريء منهم في عراكات صغيرة بالأسلحة البيضاء أو النارية الخفيفة قد يفقد خلالها الطرفان عددا من القتلى والجرحى؛ ولا تتوقف هذه العمليات إلا عند اضطرار المدافعين إلى الاستسلام مع السقوط النهائي للغنيمة وارتهانها لقوة المنتصرين.

¹ Ibid - p 366-67.

² سيطر ابن عائشة على سفينة برتغالية سنة 1693 دون أدنى مقاومة رغم توفرها على عشرين قطعة مدفعية، وعلى عدد كبير من الأسلحة النارية، وعلى طاقم مكون من أربعة وثلاثين رجلا. انظر:

Les S. I. H. M. - 2° série - France - T IV - p 230

³ Hubac - Op. cit - p 200-01 et Savine - Op. cit - p 8-9.

⁴ Les S. I. H. M. - 1° série - Pays-Bas - T V - p 121.

⁵ Dan - Op. cit - p 301.

وعقب ذلك مباشرة يظهر المجاهدون جبروتا أكبر تجاه خصومهم كرد انفعالي على مقاومتهم، معرضين القبطان وبعض رجاله المميزين للتعذيب والتكيد القاسين انتقاما لخسائرهم المادية والبشرية، وبعد ذلك يتم اصطفاف الأسرى عراة لإخضاعهم للفحص وللبحث عن العلوج المرتدين من بينهم - الذين في حال وجود بعضهم تكون حياتهم معرضة للخطر حتى الموت -، ثم ينقلون إلى السفينة الجهادية والقيود في أرجلهم كل عشرة مجتمعين في نفس القيد في انتظار بلوغهم مرسى أبي رقرق للإلقاء بهم في الأقبية المحلية "المطمورات"². وبعد جرد لمحتويات الغنيمة الذي يقوم به الكاتب، يوكل الرئيس لجزء من طاقمه بمهمة تسيير الغنيمة نحو أحد الملاجئ ما لم تكن ذات أهمية كبرى، أو إذا تم ذلك في بداية الرحلة؛ وقد يعرضون عن هيك السفينة مقتصرين على حمل الأسرى والبضائع والتجهيزات³ إذا أصيبت بخسائر جسيمة أثناء الاقتتال، أو إذا ساءت أحوال الطقس، أو إذا كان عدد الأسرى يتطلب احتفاظا بعدد أكبر من المجاهدين.

وحينما يعز عنهم المغنم في البحر كان السلاويون لا يتورعون على استغلال عنصري الجراة والمفاجأة لتنظيم حملات مغامرة على براري الساحل الأوربي، وأساسا الإيبيرية منها التي يعرفون مساراتها، قصد القيام باختطاف كل من وجده عليها من أفراد ومواشي⁴، " فوسط المنتزهات والغذاء على العشب يرى ظهور فجائي لرجال بسر اويل حمراء قصيرة وبرانس بيضاء صارخين: أيها الكلاب سلموا أنفسكم لرجال سلا ! " كاستمرار لهجمات مجاهدي الجزائر وتطوان منذ القرن 16، التي يقول عنها سيرفانتيس: " كم من واحد شاهد غروب الشمس بإسبانيا ليرى شروقها في المغرب "⁵.

وبمقابل حالات النجاح الغالبة كان الرئيس يتعرضون لبعض حالات الفشل بسبب نجاح بعض السفن التجارية في إجبارهم - من خلال مقاومتها الشديدة - على التخلي عن مطاردتها، وغالبا ما يضطرون إلى ذلك بعد تكرار انقضاضهم عليها مرات

¹ Coindreau - Op. cit - p 142.

² Penz - Op. cit - p 187-88.

³ Ibid - p 229-30.

⁴ Dan - Op. cit - p 203.

⁵ Les S. I. H. M. - 1° série - Pays-Bas - T V - intro. p XII-XIII.

عديدة وقد اتهم لعدد مهم من رجالهم¹. كما كانت أحوال الطقس الرديئة تجعلهم يفشلون في اقتفاء أثر السفينة المهاجمة وفق ما تذكره شهادة فرنسية سنة 1654 حول ما تعرضت له سفينة تقل رجال دين مكلفين بافتكاك الأسرى: "دفع الخوف كل واحد إلى التفكير في خلاصه بجديّة، وقد أعطى المتدينون المثال وحثوا الآخرين على العبادة بالخصوص، والتي استمرت طول مدة المطاردة، أي إلى حين انسداد الليل.. وفجأة وجدوا أنفسهم ناجين، حيث صارت السفينة خارج طريقها متاخمة جزيرة فضالة ومدينة أنفا، متوجهة صوب أزموور مباشرة حيث تجمع سحاب كثيف غطاها كلية، الشيء الذي جعل القرصان وهو على مقربة منها لا يستطيع إبصارها، ويضيع في طريق مازغان، في حين استدارت السفينة في خط مستقيم أخذة طريقها بفرح نحو سلا"².

وتصبح وضعية السفن الجهادية متازمة أثناء تعرضها للمطاردة من طرف البوارج العربية أو القرصانية الأوربية، حيث يعتمد الرأيس إلى البحث في كل الوسائل الممكنة للإفلات من ذلك بدون خسائر، إما بمحاولة الاستفادة من عاملي السرعة والخفة اللذين تتميز بهما سفينته، ناهجا في ذلك خطة الفرار لا سيما إذا كان في المناطق البحرية القريبة من الساحل المغربي، لامسا نجاته في بلوغ إحدى المراسي المستعملة من طرفه.

وحينما تحول السفن المطاردة دون بلوغها مما يجعله في وضعية حرجة قد تصل حد اليأس من النجاة، يفضل الرأيس كل شيء عدا السقوط في يد مهاجميه، ولذلك لا يتورع على الجنوح بسفينته على الشاطئ³ محاولا الحفاظ على سلامته وسلامة رجاله، وعاملا في الوقت ذاته - وأساسا إذا تمت هذه المطاردة عقب تحقيقه لمغرم - على الاحتفاظ بالجزء الأكبر من محتويات السفينة وأسراها، والتوغل به داخل البر بعيدا عن مدى مدافع السفن المهاجمة⁴. وفي عرض البحر أحيانا يحاول الرأيس الاستفادة من أية ظرفية عابرة لاستغلالها كطوق نجاة، مثلما وقع سنة 1681 حين

¹ تمكنت سفينة برتغالية سنة 1691 من الإفلات من أحد الرأيس السلاويين بعدما نجحت في الصمود أمام قصفه الشديد وهجماته المتكررة ثلاث مرات بشجاعة، وقتل إثر ذلك عدد كبير من رجاله. انظر:

Ibid - 2^e série - France - T III - p 393

² *Ibid* - p 669-70.

³ Coindreau - Op. cit - p 114.

⁴ Penz - Op. cit - p 159-60.

أفصح أحد الرياس السلاويين في إفشال ملاحقة قرصان فرنسي عامل لفائدة الأسطول الرسمي بالندماجه ضمن وحدات أسطول إنجليزي، منتهزا في ذلك معاهدة السلم المنعقدة بين هذه الدولة والمغرب¹.

ومن جانب آخر، ولتأمين عودة السفن الجهادية إلى مرسى سلا الجديد، عمد الأندلسيون إلى إضفاء الطابع العسكري على القسبة لتهيئتها وإعدادها للعب الدور المنوط بها في حماية المدخل ومجابهة هجمات الأساطيل الحربية الأوروبية، فحصنوها وجعلوا جهتيها المشرقتين على النهر والبحر بمثابة قلعة منيعة، وأساسا من ناحية الشمال الغربي التي يقدمها جان أرماند مصطفى في مذكرته سنة 1630 تحت اسم " فلكاكر "2، ذكرا أنهم جهزوها بعدة قطع مدفعية حصلوا عليها من الأقاليم المتحدة، كما أسسوا في أسفل حصن المجاهدين بالجهة المتاخمة للمرسى بناء دائري الشكل " المدورة " استعمل لترسية السفن عند الحاجة³.

ويبدو أن السلطان مولاي الرشيد لم يكن يرى التحصينات التي أدخلها المجاهدون على القسبة كافية لحمايتها، ولذلك لم يفته عند توسيعه لنطاق القسبة باتجاه المدينة أن يطعم وجهتها النهرية بثلاثة أبراج مستطيلة أو نصف دائرية، مجهزا إياها بمدافع موجهة لحماية المدخل والمرسى⁴؛ كما أنشأ خارج القسبة قلعة جديدة تشرف من خلال موقعها في أعلى الربوة على ساحل البحر ومدخل النهر⁵ بغاية تعزيز البنية العسكرية للقسبة.

وقد كان من شأن هذه التحصينات الدفاعية المحدقة بالقسبة وبجوارها، ينضاف إليها سور أشبار المنشأ على ساحل البحر مباشرة، والتحصين الطبيعي الذي تقدمه أقاصير المصب، أن تجعل المرسى منيعة أمام التدخلات العنيفة للبوراج الحربية المعادية، لا سيما وأن المجاهدين قد حرصوا على توفير التجهيزات العسكرية الكافية لهذا الغرض، حيث بلغ عدد القطع المدفعية التي يتوفرون عليها في هذه الحصون سنة 1680 خمسين قطعة مختلفة الحجم، ركزوا جزءا منها على سور أشبار الساحلي، وتم

¹ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T I - p 556.

² Ibid - 1° série - France - T III - p 333.

³ Burlot - Op. cit - p 59.

⁴ Ibid - p 102.

⁵ محمد بوجندار: " مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح " - المطبعة الرسمية - الرباط 1345 هـ - ص 64-65.

كانت السلطات الواسعة المخولة للرئيس تبيح له الحق في تطبيق العقوبات والزواج المتنوعة ضد الخارجين للنظام، إما جلدا أو بترأ لعضو من الجسد أو اعتقالا أو سخرة. وكان تطبيقها سريع التنفيذ باستثناء حكم الإعدام الذي كان من اختصاص السلطة المشرفة على المرسى¹. ولم يكن اللجوء إلى هذه العقوبات إلا في حالات نادرة، ذلك أن وحدة الهدف التي تجمع بين أفراد السفينة الجهادية كانت تجعل النظام محافظا عليه من طرف الجميع بصورة تلقائية².

وقد كانت الحياة اليومية في عرض البحر تعرف تقسيما للعمل بين مجموع أفراد الطاقم، كل مجموعة حسب اختصاصها ومهمتها، وكانت حراسة المركب والأسرى تتم بالتناوب بين مجموعة من الحراس كل ست ساعات طوال الرحلة³، وكانت الحراسة الليلية ذات أهمية قصوى يضطلع بها المراقبون من ذوي التجربة وهم مستقرون بأعلى الصواري لاستكشاف المجالات البحرية الممتدة على مدى البصر، والإعلان حسب أبعد نقطة ممكنة عن المراكب البادية في الأفاق البعيدة. وتتضاعف الحراسة في الأوقات العصيبة، خاصة خلال فترات الشروق التي كانت تفرض حذرا استثنائيا⁴ باعتبارها نقطة زمنية للانتقال من الظلام إلى النور، أو من السترة الطبيعية إلى الانكشاف الظاهري.

وكان وجود الأسرى المسيحيين كقوة ضرورية لحركة المجاذيف يتطلب من جهته تسييرا خاصا ورقابة مشددة، لاحتياج السفن الجهادية الماس إليهم من جهة، ولخشية المجاهدين من القلاقل التي بإمكانهم إحداثها بعدهم المهم من جانب آخر، ولذلك كان الرئيس لا يتقون فيهم لكونهم ما أن تتاح لهم الفرصة حتى يحاولوا التخلص من أسرهم، وجعل المركب تحت سلطانهم⁵. فكانوا عند استعدادهم لمهاجمة إحدى السفن يبادرون إلى تقييد الأسرى وتكبيلهم من أيديهم وأرجلهم أربعا أربعا بقضبان حديدية تتدلى منها القيود، كوسيلة أكثر يسرا من تخوف قيامهم باستغلال حالة

¹ Coindreau - Op. cit - p 63.

² Hubac - Op. cit - p 21.

³ Coindreau - Op. cit - p 63.

⁴ Ibid - p 163-67.

1 خلال سنة 1625م قام أسرى الإنجليز بانتفاضة على متن سفينة جهاد سلاوية، مختلطين فرصة وجود العدد الأكبر من المجاهدين في قعرها، والقضوا على حراسهم وقتلهم وأسروا من بقي منهم على قيد الحياة بعدد اثني وعشرين رجلا. انظر: p 7 - T III - 1° série - Angleterre - Les S. I. H. M.

الاختلاط أثناء الاقتتال، وتنظيم ثورة داخل السفينة الجهادية¹. والملاحظ أن هذه الوضعية لم تكن حكرا على السفينة الجهادية، وإنما كانت مشاعة يتعرض لها أسرى

المجانيف في أساطيل الدول المعادية عموما².
و بدون تمييز، كان بحارة وضباط السفن الجهادية يتقاسمون الأقوات، التي كانت عادة ما تتألف من جملة من المواد الأكثر مقاومة للتلف مثل الفواكه الجافة وبعض الأنواع من الخضر، حيث يتم إعطاء كل واحد نصيبه الشخصي يوميا³، ويتمثل ذلك نمونجا في توزيع الخبز والزيتون عند الإفطار، والخليع أثناء وجبة الغذاء، والكسكس والحمص عند العشاء. أما بالنسبة للشرب فلم يكن مسموحا إلا باحتساء الماء⁴، والذي كان لدى تعرضه للتلف يجبر البحارة على تناول السوائل الأخرى مثل الخمر وماء الحياة (الماحيا)⁵، خاصة بعد تحقيق المغنم التي كانت تمدهم بأقوات جديدة وغير متداولة غالبا في مجتمع إسلامي.

وكان المظهر الطبيعي لألبسة المجاهدين يتمثل في سراويل قصيرة من الأوجاخ الصوفية، وحل قصيرة جدا بحزام فوقها، تعلوها برانس صغيرة في العادة⁶، إلا أنها لم تكن تشمل إلا جزءا من مرتدياتهم التي كانت شروط العمل تفرض عليهم اختيارا مدققا لأنواعها حسب الظرف، فكانوا لذلك يحملون معهم كميات كبيرة ومتنوعة من الألبسة الأوروبية لتسهيل عليهم التكر حسب جنسية السفن المصادفة بالبحر، مستفيدين في طريقة ارتدائها للتصويه من خبرة العلوج ودرائتهم بالشكل الأنسب⁷ لكسب ثقة السفينة التي يودون مهاجمتها.

وعند انتهاء المرحلة تأخذ السفينة اتجاهها نحو مصب أبي رقرق، وبمجرد لمح المراقب لصومعة حسان - التي كانت تستخدم كمنارة للتعريف - يعلن عن رؤية اليابسة، ليستعد البحارة لارتداد المرسى. وعلى بعد مرحلة من المدينة يفرغون كل

¹ Dan - Op. cit - p 301-02.

² Gosse - Op. cit - p 93-94.

³ Dan - Op. cit - p 298.

⁴ Brunot - Op. cit - p 341.

ولإعطاء صورة تقريبية عن كلفة التغذية لموسم واحد لسفينة متكونة من 150 إلى 200 رجلا، نورد كلفتها خلال سنة 1573 التي تراوحت بين 1100 و1500 دوكا. انظر: Braudel - Op. cit - p 169.

⁵ رزوق - نفسه - ص 338.

⁶ Les S. I. H. M. - 1^e série - Pays-Bas - T V - intro. p XII-XIII et Hardy : » Histoire des

Etats barbaresques « - T I - Op. cit - p 134.

⁷ Dan - Op. cit - p 203.

نخائر مدفعيتهم علامة على نجاح الرحلة وسرورهم بالعودة المضفرة، وفي الوقت نفسه لاجتذاب السكان لمعاينة ولوجهم إلى المرسى، فيصير الميناء آنذاك عاجا بالجمهور، وفي مقدمتهم رجال السلطة والممولون والتجار المهتمون بحضور عملية إفراغ الغنيمية، حيث توضع البضائع أمام محلات الجمارك، ويحصى عدد الأسرى قبل تشكيلهم لصف استعراضي بنيس في أزقة المدينة، وهم متوجهين إلى المطامير أو إلى ساحة المزاد العلني¹.

وهذه المظاهر تحدث كلما حقق الرايس رحلة إيجابية، إذ يغمر بالمديح ويعامل كبطل مغوار في جو من الحملة والصلاة على النبي، ولا يفوته في هذا السياق تجديد الزيارة للأولياء والصلحاء، حاملا إليهم هدايا من المغنم تيمنا ببركتهم²، قبل أن يفسح المجال لاحتفالاته الخاصة صحبة رجال الطاقم في الدور والمنازل. أما إذا كان الرايس ممن لم يحالفه الحظ وعاد دون تحقيق أي مغنم فإنه يرتاد المرسى مكسور الخاطر وفي غاية من الأسى والحزن، ويرسي سفينته بالميناء دون إطلاق أية قذيفة من مدفعيته³، ويدخل إلى أزقة المدينة دون أدنى مظاهر متميزة إلا ما كان من بعض أعراف المواساة.

2- مواقع ومواسم الجهاد

منذ بداية العمل الجهادي كان المسرح العادي لعمليات رجال البحر السلاويين ممتدا في مياه المحيط الأطلسيكي، حيث كانت سفنهم تتحكم في ساحة بحرية تغطي خمسمائة إلى ستمائة ميل انطلاقا من مصب أبي رقراق، جاعلة الشريط الماني الموازي للساحلين الأطلسيكيين المغربي والإيبيري تحت رحمتهم⁴، علما بأن هذا الموقع ظل يشكل إحدى النهايات المركزية للملاحة التجارية العالمية، نتيجة اشتماله على المضيق، وتركز نقطتي الاستقبال الإيبيريتين الرئيسيتين: قاديس واشبيلية به، اللتين استمرتتا في لعب دور هام في تنشيط خطي الشرق الأقصى عبر جزر الخالدات، والعالم الجديد مرورا بجزر الأصور.

¹ Coindreau - Op. cit - p 140.

² Dan - Op. cit - p 299.

³ Ibid - p 312-13.

⁴ Brignon - Op. cit - p 231.

ولهذا السبب كان الموقع الاستراتيجي للمصب في متاخمته لهذه الخطوط يقدم لرجال الجهاد وضعية ملائمة لمهاجمة السفن الإسبانية التي كانت هي الطرائد المفضلة في البداية، وملاحقتها في المجال البحري الواقع بين غرب إفريقيا ومضيق جبل طارق إلى جزر الأصور، ومحدودة في الشمال بالخط الأفقي الموازي لرأس فينيستير (Finisterre)، وفي الجنوب بنواحي جزر الخالدات، لقطع الطريق على أسطول الخطين المذكورين¹، وأحيانا حتى لمهاجمة السواحل الإيبيرية حيث تعمل الغلويطات في المضيق وعلى شواطئ البرتغال الجنوبية؛ في حين تنشط السفن الشراعية الأخرى في خليج غاسكونيا (Gascogne). بيد أن المكان المفضل للمجاهدين عموما والملائم لخصوصيات نشاطهم كان حوالي نواحي الجزر الواقعة داخل المحيط: الخالدات، وماديرا، والأصور، وطيرسير².

وكانت هذه الحملات تنظم غالبا حسب ثلاث رحلات رئيسية:

- أ - هجمات خاطفة على السواحل الإيبيرية، وتمتد أحيانا لتشمل سواحل فرنسا وإنجلترا وإيرلندا كلما سنحت الفرصة.
- ب - رحلات أعالي البحار في مسافات قصيرة أو متوسطة ضمن المجال التقليدي لتحركات الرياس السلاويين.

ج - بعثات بعيدة خارج النطاق العادي باتجاه الأطلنטיكي الشمالي³، وكانت المياه الفاصلة بين القارة الأوروبية والجزر الإنجليزية من جهة، وبين إنجلترا وإيرلندا من جهة ثانية، وأيضا المجال المقابل لإيرلندا باتجاه الأرض الجديدة (Terre-Neuve) أساس هذه البعثات لفترة طويلة، بنفس مقياس أهمية نواحي الأصور.

وقد كان الاهتمام في بداية الموسم الجهادي منصبا على النواحي الشمالية للمجال العادي أمام لشبونة بين رأس القديسة ماري (C. Ste Marie) ورأس روكا (C. Roca)، حيث تكون الرياح وحركات البحر أقل عنفا قياسا بنواحي رأس فينيستير خلال شهر أبريل حتى متمه، ثم تتقدم السفن الجهادية إلى أبعد من ذلك متوجهة للبحث عن السفن التجارية حتى رأس أورتيغال (C. Ortegal) ورأس بيناس (C. Penas)، وتمكث في التجوال طوال الصيف على مقربة من شواطئ الغرب الأوربي وشواطئ

¹ Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 503-04.

² Coindreau - Op. cit - p 115-18.

³ Ibid - p 113.

الجزر انتظارا لتحقيق مغنم على الأسطول القادم من البرازيل، رغم حراسته بقوات عالية التسليح.

وحينما تندو نهاية فصل الصيف تتمركز بعض من هذه السفن قرب السواحل المذكورة مبتعدة عن اليابسة بحوالي ثلاثين إلى أربعين فرسخا خشية تعرضها لهبات الرياح العنيفة الناجمة عن بداية رداءة أحوال الطقس التي تدفع بالبعض الآخر منها إلى التوجه جنوبا صوب جزر الخالدات لاعتراض السفن المحملة بالخمور¹، والسفن المتخلفة عن أسطول الفضة القادم من أمريكا اللاتينية.

وقد كان هذا المجال البحري خاضعا للتوسع كلما ارتفعت كفاءة وقوة أسطول الجهاد، لاسيما وأن طبيعة العمل الطموحة كانت تدفع الرياس إلى تنفيذ عمليات متطورة سنة عقب أخرى، كما تفرض عليهم من جهة ثانية - لمدارة الرقابة المتشددة لمناطق أنشطتهم التقليدية من طرف البوارج الحربية - ارتيادا فجائيا لعوالم جديدة بالاستفادة من خبرات العلوج. وهكذا نجد أنه منذ سنة 1622 اكتسح السلاويون المجالات البحرية الواقعة خلف مناطق تحركهم العادي بتأسيس من العليج الهولندي الأصل "موراطو رايس" الذي نجح آنذاك في فتح معالم الرحلات البعيدة إلى بحر المانش وما وراءه.

وقد صارت السفن منذ ذلك الوقت تجول في عرض شواطئ إنجلترا الشرقية وبلاد الغال، وتفرض سطوتها على الخطوط البحرية الرابطة بين غرب إنجلترا وجزيرة إيرلندة، محصلة خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1625 و1631 آلاف المغنم تحت قيادة موراطو رايس الذي لم يتورع خلال سنة 1627 على الإقدام بمغامرة جريئة أوصلته إلى سواحل إيسلندة في أقصى شمال الأطلنטיكي، حيث انتهت مدينتها الرئيسية ريكجافيك (Reykjavick)²، كأقصى نقطة بلغتتها السفن السلاوية خلال فترة تآلق الجهاد البحري. كما قادت النجاحات المحققة على الشواطئ الإيرلندية المجاهدين للوقوف على حجم نشاط الصيد بالأرض الجديدة في شرق كندا، وبالتالي تنظيم مطاردات موسمية كل سنة لسفن الصيد القادمة من هذه المنطقة باتجاه أوربا،

¹ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T I - p 516-17.

² Coindreau - Op. cit - p 122.

معقنين أعظم إنجازاتهم باعتراض عودتها، أو بالقيام بهجمات فجائية على الصيادين حتى قرب شواطئها وشواطئ إيقوسيا الجديدة¹. ومع التقهر الذي أصاب نشاط الجهاد راحت المساحة الشاسعة لمجال العمل وتقلص تدريجيا، لتعود إلى الاقتصار على المجال التقليدي، واختفت معالم الحملات البعيدة باستثناء بعض الهجمات الخاطفة والمتفرقة ضد السفن المبحرة في المانش²؛ بل إن المسرح العادي نفسه راح يتضاءل بفعل ضعف الأسطول من جهة، وشدة المراقبة الأوربية لسواحلها الأطلننتيكية من جهة أخرى، الأمر الذي جعل جزر الأصور وطريرسير تحظى باهتمام أكبر من لدن الرياس، خصوصا خلال المرحلة الأخيرة من الجهاد السلاوي³، والتي لم يعد الرياس أثناءها يرتادون البحر الأبيض المتوسط لبلوغ قاعدة الجزائر بهدف اللجوء أو تصريف المغانم فقط كما كان دأبهم ففي السابق، وإنما أضحى البعض منهم متخصصا في القيام بعمليات منتظمة داخله، وعلى رأسهم الرياس قنديل⁴، دليلا على ضيق المجال البحري الملائم لخصوصيات الجهاد.

أما بالنسبة للعامل الزمني، فقد كان دوره كبيرا في تحديد فترات المواسم ومراحلها؛ فخلال فصل الشتاء تجعل عواصف المحيط الملاحة على جانب كبير من الخطورة، خاصة وأن الأقاصير الموجودة عند مدخل المرسى تمنع ارتيادها أو مغادرتها لمدة خمسة عشر يوما إلى عشرين في الشهر⁵، وما كانت خارجها من السفن أثناء ذلك من ذوات الحمولة الكبيرة تظل راسية قبالة ساحل الرباط نظرا للانفتاح الواضح للمرسى وتأثرها الشديد بحركات البحر. ولذلك كان الأسطول يظل قابعا داخل النهر خلال فصل الشتاء إلى حين تحسن أحوال الطقس أثناء الفترة الممتدة من بداية فصل الربيع إلى حلول فصل الخريف (من نهاية مارس إلى منتصف أكتوبر)⁶، وعدا هذه الفترة كان المجاهدون يعمدون إلى تجريد السفن من تجهيزاتها، ويتوقفون عن العمل لأنها ليست بالقوة التي تسمح بمجابهة العواصف بنجاح. والملاحظ أن هذه

¹ Ibid - p 123.

² Penz - Op. cit - p 64.

³ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T IV - p 221-23.

⁴ Coindreau - Op. cit - p 79-80.

⁵ Ibid - p 119.

⁶ Brunot - Op. cit - p 77.

القاعدة لم تكن ثابتة، إذ ما فتى الرياس يشنون عنها خاصة عند ضعف نتائج المواسم العادية أثناء الربع الأخير من القرن، فكانت السفن الجهادية تتحدى صعوبة الطقس وتصبح نشيطة حتى خلال فصل الشتاء، لا سيما على يد أمير البحر عبد الله بن عائشة، جاعلة من الجهاد البحري حركة نشيطة على مدار السنة.

وعلى العموم كان الموسم الجهادي يقسم إلى عدة رحلات بمتوسط خمسين يوما للواحدة، يشارك فيها الرياس ضمن مجموعات صغيرة متألفة من سفينتين إلى ثلاث تتعاون في ما بينها²، ويباشر كل رايس نشاطه بمعدل ثلاث رحلات موسميا³. وتتمثل محطات الموسم الرئيسية في التقسيم الزمني الذي تفرزه أحوال الطقس والملاحة كالآتي:

1- رحلات الربيع: وتبتدى مع مطلع أبريل حيث تغادر السفن السلوية المأذونة مرسى أبي ررراق في مجموعتين رئيسيتين غالباً، تتجه إحداهما صوب الشمال، والثانية باتجاه الجنوب.

2- رحلات أول الصيف: تنطلق في شهر يونيو الذي يصادف الفترة الانتقالية ما بين فصلي الربيع والصيف، وخلالها يتجه الرياس للتجوال ومراقبة مختلف الطرق الملاحية والممرات البحرية بالقرب من جزر الأطلنטיكي قصد استكشاف السفن التجارية.

3- رحلات منتصف الصيف: تبتدى عند منتصف شهر يوليو حتى أواخر شهر غشت، حيث تكون الظروف الملاحية ملائمة جداً، ومعها يبلغ النشاط الجهادي أوجه، ويحقق أثناءه الرياس أفضل عملياتهم في الموسم بأكمله⁴.

4- رحلات مطلع الخريف: يشرع فيها خلال شهر شتنبر مع فترة الانتقال من فصل الصيف إلى الخريف، والتي معها تبدأ أحوال الملاحة في المناطق البحرية الشمالية تعرف نوعاً من الخطورة، تضطر معها غالبية السفن الجهادية إلى النزوح باتجاه الجنوب، وللعمل في النواحي البحرية لجزر الخالدات⁵، ولا ينتهي الموسم عادة إلا قرب نهاية شهر أكتوبر.

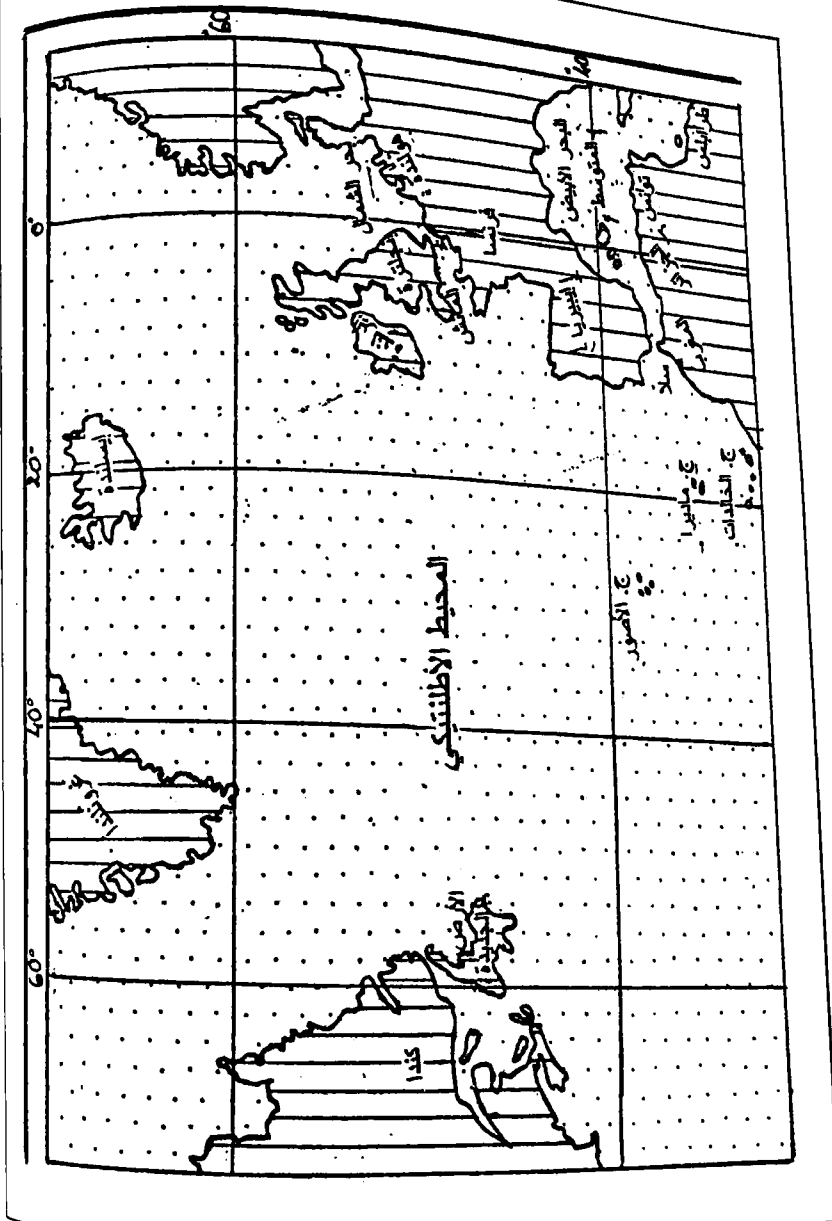
¹ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T III - p 461 et T IV - p 317-22.

² Brignon - Op. cit - p 231.

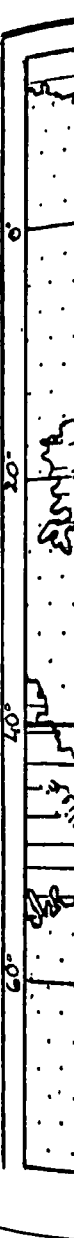
³ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T IV - p 706.

⁴ Coindreau - Op. cit - p 117-18.

⁵ Les S. I. H. M. - 1° série - France - T III - p 502-03.



المجال الواسع لسفن رياس سلا



ونظرا لما يتطلبه العمل الجهادي من إمكانيات التناور والتوقف، والتوفر أيضا على نقط برية مؤقتة لتخزين المغنم قبل العودة إلى مصعب أبي رقرق مع انتهاء الرحلة، وضع الرياس تحت تصرفهم عدة مراكز للدعم عبارة عن ملاجئ مستترة واقعة قرب أماكن العمل في الجزر الإسبانية الواقعة في الشمال الغربي لشبه الجزيرة الإيبيرية، مثل بايونا (Bayonne) وسيزار كاس (Sisarcasse)¹، في حين كان الساحل المغربي المطل على مساحة كبيرة من المحيط الأطلنטיكي يوفر لهم سلسلة مترابطة من القواعد والمراكز التي تسهل مأموريتهم الجهادية، إما تموينا بالماء والأقوات الضرورية، أو لجوءا للفرار من وجه البوارج المضادة، أو مراكز رسو قريبة أثناء فترة الطقس الرديئة، أو لمجابهة حالات مفاجئة أخرى.

وقد اضطلعت خمس قواعد رئيسية بهذه الأدوار كمراكز بديلة مؤقتة لمصعب أبي رقرق، حيث تشير المصادر إلى أن مرفأ الوليدية كان المكان المفضل لدى رياس البحر لا سيما عند إشعارهم بتمركز السفن الأوربية لحصار مدخل سلا. وتأتي مرسى أسفي في الدرجة الثانية من حيث الأهمية، وكانت مرتادة كنقطة لتخزين محتويات المغنم عند تحقيق العمليات الناجحة بنواحي جزر الخالدات، وأيضا كملاذ لسفنهم عند هبوب الرياح العنيفة والمعاكسة لإبحارهم باتجاه الشمال. كما أن صغر حجم السفن السلاوية وتحكم رجالها في حركتها أهلهم لاستغلال المراسي الداخلية، مثل أز مور، وتاهدارت، وحتى تطوان أيضا².

وإضافة إلى المراكز المذكورة ساهمت قواعد أخرى في تدعيم العمليات الجهادية ولو بصورة ثانوية، مثل فضالة وأنفا³ منذ انطلاقة المواسم، أو في زمن متأخر مثل المعمورة والعرائش بعد تحريرهما، حيث أصبحت الأولى من مراكز الدعم الرئيسية⁴ ومرسى لا تقل شأوا عن مرسى سلا ذاتها. لكن الملاحظ هو أن رقعة هذه القواعد كانت تتسع لتشمل في ظروف إجبارية كافة نواحي الساحل المغربي عند اضطراب المجاهد للجنوح بسفينته كخيار مفضل على السقوط في أيدي مطارديه، لما يشكله هذا الخيار من إمكانية الإفلات من الأسر، وأحيانا حتى بجزء مهم من غنائمه⁵.

¹ Coindreau - Op. cit - p 100.

² Les S. I. H. M. - 2° série - France - T I - p 572.

³ Penz - Op. cit - p 11.

⁴ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T IV - p 611.

⁵ Penz - Op. cit - p 159-60.

ورغم تعدد وتباعد هذه المراكز كانت حركة الأساطيل الأوربية تضع ضمن خططها لمهاجمة السفانة الجهادية ضرورية محاصرة هذه القواعد حتى تكون لحصار مرسى سلا نتائج مضمونة؛ وزاد من حدة التضيق على رياس البحر ارتهان نشاط الجهاد بالعلاقات المغربية-الأوربية، وتحكمها بصورة مباشرة في العمليات والنتائج، فأصبح مفروضا على الرياس السلاويين اتخاذ مراكز أخرى خارج المغرب لتصريف كل ما يمكن أن تمنعه رقابة القناصل الأوربيين من عرضه محليا، ولذلك ارتقت أهمية مركز الجزائر كنقطة دعم بعيدة في البحر الأبيض المتوسط لدى السلاويين، على غرار استغلال رياس الجزائر لمرسى سلا لمجابهة نفس الظروف²، الأمر الذي جعل المراكز الإسلامية الممتدة من مرسى الجزائر غربا إلى مرسى أسفي جنوبا تبدو كأنها امتداد عملي لمرسى سلا ورياسها البحريين.

3- الخط المتبعة في العمليات الجهادية

اعتمد رياس مصب أبي رقراق في تسيير مواسمهم على مجموعة من القواعد والأعراف التي لا تختلف عما كان سائدا في أوساط الرياس المسلمين عموما، والقرصنة الأوربيين أيضا، والتي تلعب فيها المناورات والخدع دورا أساسيا في إطار نظام مقبول ومتداول؛ إذ لم تكن كل العمليات مسموح بها، وكانت المظاهر المحبذة لدى أغلب هؤلاء العاملين تتمثل في الحيل الذكية، والمفاجآت الجريئة التي يندش لها الخصم ويحييها كرجل بحر متخصص، وهناك الأشربة السوداء المستخدمة ليلا، والرايات المزيفة، والكمائن الغريبة، والمظاهر البرينة المصطنعة، والأدوار اللبقة التي تحظى بكل التقدير والإعجاب³.

وقد كانت هذه المظاهر من الركائز الأساسية في الجهاد البحري، لا سيما وأن عناصره استفادت منذ البداية من اطلاعها على أنماط الحياة الأوربية باعتبارها مثالة من مسلمين نوي أصول أندلسية، أو علوج من جنسيات أوربية مختلفة، وهو ما مكّهم من التحكم في لغات وطبائع البلد الذي تنتمي إليه السفن المعرضة للملاحة، ومفاجأتهم لها وهم متنكرون على منوال أفرادها⁴. ولهذا كان الرياس يحرصون على

¹ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T IV - p 669.

² Ibid - 1° série - Pays-Bas - T V - p 304.

³ Hubac - Op. cit - p 22.

⁴ Dan - Op. cit - p 203.

وجود مجموعة من العلوج المتمكنين من اللغات الأوروبية، والأعلام غير المثيرة للشبهة - حسب علاقات الدول الأوروبية في ما بينها - القمينة باكتساب الثقة الساذجة للسفن التجارية المصادفة^١. فضلا عن ذلك تمكن الرياس من التوفر على نظام مخابرات فعال وفر لهم شروطا إيجابية لإنجاح عملياتهم استنادا إلى المعلومات المستقاة من الأمرى الأوروبيين أنفسهم، وأيضا من حلقات التجسس المنظمة بين مصب أبي رقران وأوروبا، خصوصا مع بقايا الأندلسيين بشبه جزيرة إيبيريا^٢. وقد كان الرياس يعملون في عرض البحر إلى خلع أعلامهم الأصلية وإخفاء كل ما من شأنه أن يفضح صفتهم، مرتدين لهذا الغرض ملابس تنكرية في هيئة تجار أو صيادين عاديين، واضعين الأمتعة في شكل مكشوف على سطح السفينة، ورافعين أعلاما فرنسية أو إسبانية أو من جنسية أخرى مقاربة لأعلام السفن التي اختاروها للمطاردة حتى يجعلوها تسقط في حبال خدعتهم^٣، فيبادرون إلى ملاحقتها معتمدين على خفة سفنهم، أو يبادرون إلى تقليص سرعة سفينتهم بوضع القذائف الثقيلة في كوثلها، وحينما تتقارب السفينتان بدون حذر يتمكن المجاهدون من إحداث المفاجأة بكل يسر، وغنم طريديتهم دون عناء^٤، يفسره سقوط العدد المهم من المغنم دون معركة ولا مقاومة، حيث كان الرياس يحرصون في اختيارهم على تجنب السفن الحربية أو عالية التسليح.

ومع شدة التأثير الأوربي على سياسة الجهاد لدى سلطات المصب من جهة، وتقلص مردودية النشاط من جهة أخرى بفعل حركات الأساطيل الأوروبية المتشددة في مجال عملياتهم، لجأ السلاويون إلى استغلال مشترك لأعلامهم وأعلام نظرائهم الجزائريين^٥ بغية تحقيق مغنم حتى على حساب السفن التي يرتبطون مع دولها بمعاهدات مفروضة، وترهيب بحارتها من أجل إخلائها للسيطرة عليها كمغنم قانوني لا أصحاب له^٦. كما لم يتورع بعض الرياس على مهاجمة سفن هذه الدول بأشكال أخرى مثل استغلال عدم توفرها على جوازات مرور قانونية، أو بتفتيشها وأسر

^١ Penz - Op. cit - p 11.

^٢ Coindreau - Op. cit - p 137-38.

^٣ Dan - Op. cit - p 209.

^٤ Coindreau - Op. cit - p 137-38.

^٥ Brunot - Op. cit - p 159-60.

^٦ Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T V - p 391-92.

الركاب والبحارة غير المنتمين لجنسيتها؛ مع العلم أن هذه التجاوزات لم تكن حكرًا على السلاويين فقط، وإنما كانت ظاهرة ملاحية عامة، إذ غالبًا ما كانت السفن السلاوية بدورها ضحية لهذا السلوك، حيث هوجمت وغنمت بعضها من طرف بحارة الدول الصديقة، وأساسا القباطنة والقراصنة الهولنديون.²

لقد أفلح الرياس السلاويون في تحقيق النجاح طوال القرن 17 لأنهم كانوا لا يختارون المواجهة ما لم يكن لهم امتياز قوة واضح باتباع سلسلة من الاستعدادات الأولية على مستوى مراقبة السفينة المنتقاة بدقة وعناية، مقارنين قوتها وطاقته وعدد مدافعيها بما يتوفرون عليه، فإذا ما بدا لهم أن الظفر غير مؤكد يعرضون عنها مفضلين عدم الدخول في مغامرة غير محمودة العواقب؛ ولا يشرعون البتة في تنفيذ الهجوم إلا إذا كانت النتائج مضمونة، مستعينين في ذلك بتقاليد عملهم التي كانت تضعهم في موقع قوة من حيث تعاون أكثر من سفينة جهادية في مهاجمة طريدة تجارية منفردة، فضلًا على تمتع السفن السلاوية بعدة امتيازات تقتقر إليها غيرها، وأساسا بطء وثقل هذه الأخيرة بما تضمه من بضائع، واعتمادها كلية على قوة الرياح في تحركها، إلى جانب ضعفها القتالي الناجم عن صفتها المدنية.³

وقد افترض التنظيم المعقلن للعمليات معرفة جيدة بالعلاقات التجارية الملاحية، وبالمسارات البحرية؛ وكانت جهود العلوج في هذا الإطار إيجابية جدًا، خاصة الهولنديي الأصل منهم، مكنت الرياس من التحكم في حركة السفن التجارية. ويقدم لنا الأب دان وصفا نموذجيا لتعرض إحدى هذه السفن لعملية جهادية، حين كتب: "ذات صباح، عند مطلع الفجر تقريبا، اكتشف مراقب السفينة بضعة أشرعة عن بعد، وشك في الوقت ذاته أن تكون لسفن قرصانية. وبالفعل عرف أنها كذلك وأنها قادمة من سلا، لهذا وفي محاولة لتحاشي مصادفة سيئة مثل هذه، عرض الربان سفينته في تجاه هبوب الرياح، وضاعف من قوة الأشرعة، مجاهدا في سبيل خلاصه في الفرار. بيد أن هذا المجهود لم يمنع مطارديه من اللحاق به بسرعة أكبر، مكنهم من بلوغ مستواه

¹ Ibid - T III - pp 391 et 476.

² Ibid - T IV - pp 404 et 418-20.

³ Dan - Op. cit - p 301.

في النهاية؛ وهكذا، بعدما التحقوا به أجبروه على الاستسلام عنوة بعدما قاوم بشدة، لأنهم كانوا ببضعة مراكب ضد تلك السفينة¹.

وردود فعل طواقم السفن التجارية كانت تختلف من سفينة لأخرى، فمنها ما كانت ترى استحالة إحراز أية نتيجة إيجابية من التصدي ومقاومة هجوم المجاهدين، مفضلة الاستسلام لهم منذ الوهلة الأولى، وكان هذا هو الأسلوب المتبنى حتى من طرف السفن عالية التسليح²، مما كان يحدث انعكاسا سلبيا واضحا على صعيد الراي العام الأوربي³. ومن جهة أخرى كان بعض القباطنة يبذلون مستطاعهم بغاية النجاح في الإفلات من مطاردة سفن الجهاد، والحيلولة دون سقوط ذواتهم في الأسر، مغامرين أحيانا بالجروح بمراكبهم على أقرب شاطئ⁴. إلا أن عددا لا يستهان به من السفن كان قباطنتها يفرضون على رجالهم الدفاع عنها، والذود عن أنفسهم، ليس رغبة في التمجد، وإنما لأن مقاومتهم كانت هي الوسيلة الممكنة لإبعادهم عن شبح الأسر ومرارة الرق.

ففي هذه الحالة كان المنظر العام يوحي بنشوب معركة صغيرة تبتدئ بتبادل الفريقتين للقصف المدفعي، يجس من خلاله كل منهما كفاءة الآخر رغم ميلان ميزان القوة لفائدة المهاجم. وأثناء ذلك يحاول هذا الأخير إنهاك خصمه مقتربا بحذر إلى حين الاصطدام به بسفينته، ليفسح مجال الانقضاض لرجاله. ويتميز المظهر التقليدي لذلك ببروز المجاهدين على حافة المركب كعتاة منفعلين، مشمرين عن سواعدهم ومستعرضين صفائحهم وخناجرهم وفؤوسهم، مصدرين أصوات مرعبة لإحباط عزائم المدافعين⁵، ومثيرين للأعصاب على سطح السفينة بركضهم وانتشارهم في كل أرجائها، متحفزين لضرب البحارة والركاب، أو ملتحمين مع الجريء منهم في عراكات صغيرة بالأسلحة البيضاء أو النارية الخفيفة قد يفقد خلالها الطرفان عددا من القتلى والجرحى؛ ولا تتوقف هذه العمليات إلا عند اضطرار المدافعين إلى الاستسلام مع السقوط النهائي للغنيمة وارتهانها لقوة المنتصرين.

¹ Ibid - p 366-67.

² سيطر ابن عائشة على سفينة برتغالية سنة 1693 دون أدنى مقاومة رغم توفرها على عشرين قطعة مدفعية، وعلى عدد كبير من الأسلحة النارية، وعلى طاقم مكون من أربعة وثلاثين رجلا. انظر:

Les S. I. H. M. - 2° série - France - T IV - p 230

³ Hubac - Op. cit - p 200-01 et Savine - Op. cit - p 8-9.

⁴ Les S. I. H. M. - 1° série - Pays-Bas - T V - p 121.

⁵ Dan - Op. cit - p 301.

وعقب ذلك مباشرة يظهر المجاهدون جبروتا أكبر تجاه خصومهم كرد انفعالي على مقاومتهم، معرضين القبطان وبعض رجاله المميزين للتعذيب والتفكيك القاسيين انتقاما لخصائهم المادية والبشرية¹، وبعد ذلك يتم اصطفااف الأسرى عراة لإخضاعهم للفحص وللبحث عن العلوج المرتدين من بينهم - الذين في حال وجود بعضهم تكون حياتهم معرضة للخطر حتى الموت -، ثم ينقلون إلى السفينة الجهادية والقيود في أرجلهم كل عشرة مجتمعين في نفس القيد في انتظار بلوغهم مرسى أبي رفران للإلقاء بهم في الأقبية المحلية "المطمورات"². وبعد جرد لمحتويات الغنيمة رفران يقوم به الكاتب، يوكل الرئيس لجزء من طاقمه بمهمة تسيير الغنيمة نحو أحد الملاجئ ما لم تكن ذات أهمية كبرى، أو إذا تم ذلك في بداية الرحلة؛ وقد يعرضون عن هيك السفينة مقتصرين على حمل الأسرى والبضائع والتجهيزات³ إذا أصيبت بخسائر جسيمة أثناء الاقتتال، أو إذا ساءت أحوال الطقس، أو إذا كان عدد الأسرى يتطلب احتفاظا بعدد أكبر من المجاهدين.

وحينما يعز عنهم المغنم في البحر كان السلاويون لا يتورعون على استغلال عنصري الجراة والمفاجأة لتنظيم حملات مغامرة على براري الساحل الأوربي، وأساسا الإيبيرية منها التي يعرفون مساراتها، قصد القيام باختطاف كل من وجوه عليها من أفراد ومواشي⁴، " فوسط المنتزهات والغذاء على العشب يرى ظهور فجائي لرجال بسر اوائل حمراء قصيرة وبرانس بيضاء صارخين: أيها الكلاب سلموا أنفسكم لرجال سلا !" كاستمرار لهجمات مجاهدي الجزائر وتطوان منذ القرن 16، التي يقول عنها سيرفانتيس: " كم من واحد شاهد غروب الشمس بإسبانيا ليرى شروقها في المغرب "⁵.

وبمقابل حالات النجاح الغالبة كان الرياس يتعرضون لبعض حالات الفشل بسبب نجاح بعض السفن التجارية في إجبارهم - من خلال مقاومتها الشديدة - على التخلي عن مطاردتها، وغالبا ما يضطرون إلى ذلك بعد تكرار انقضاضهم عليها مرات

¹ Coindreau - Op. cit - p 142.

² Penz - Op. cit - p 187-88.

³ Ibid - p 229-30.

⁴ Dan - Op. cit - p 203.

⁵ Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T V - intro. p XII-XIII.

عديدة وفقدانهم لعدد مهم من رجالهم¹. كما كانت أحوال الطقس الرديئة تجعلهم يفشلون في اقتفاء أثر السفينة المهاجمة وفق ما تذكره شهادة فرنسية سنة 1654 حول ما تعرضت له سفينة نقل رجال دين مكلفين بافتكاك الأسرى: "دفع الخوف كل واحد إلى التفكير في خلاصه بجديّة، وقد أعطى المتدينون المثال وحثوا الآخرين على العبادة بالخصوص، والتي استمرت طول مدة المطاردة، أي إلى حين انسداد الليل.. وفجأة وجدوا أنفسهم ناجين، حيث صارت السفينة خارج طريقها متاخمة جزيرة فضالة ومدينة أنفا، متوجهة صوب أزموور مباشرة حيث تجمع سحاب كثيف غطاها كلية، الشيء الذي جعل القرصان وهو على مقربة منها لا يستطيع إبطارها، ويضيع في طريق مازگان، في حين استدارت السفينة في خط مستقيم أخذة طريقها بفرح نحو سلا"².

وتصبح وضعية السفن الجهادية متأزمة أثناء تعرضها للمطاردة من طرف البوراج الحربية أو القرصانية الأوربية، حيث يعتمد الراس إلى البحث في كل الوسائل الممكنة للإفلات من ذلك بدون خسائر، إما بمحاولة الاستفادة من عاملي السرعة والخفة الذين تتميز بهما سفينته، ناهجا في ذلك خطة الفرار لا سيما إذا كان في المناطق البحرية القريبة من الساحل المغربي، لامسا نجاته في بلوغ إحدى المراسي المستعملة من طرفه.

وحينما تحول السفن المطاردة دون بلوغها مما يجعله في وضعية حرجة قد تصل حد اليأس من النجاة، يفضل الراس كل شيء عدا السقوط في يد مهاجميه؛ ولذلك لا يتورع على الجنوح بسفينته على الشاطئ³ محاولا الحفاظ على سلامته وسلامة رجاله، وعاملا في الوقت ذاته - وأساسا إذا تمت هذه المطاردة عقب تحقيقه لمغنم - على الاحتفاظ بالجزء الأكبر من محتويات السفينة وأسراها، والتوغل به داخل البر بعيدا عن مدى مدافع السفن المهاجمة⁴. وفي عرض البحر أحيانا يحاول الراس الاستفادة من أية ظرفية عابرة لاستغلالها كطوق نجاة، مثلما وقع سنة 1681 حين

¹ تمكنت سفينة برتغالية سنة 1691 من الإفلات من أحد الراس السلاويين بعدما نجحت في الصمود أمام قصفه الشديد ومهماته المتكررة ثلاث مرات بشجاعة، وقتل إثر ذلك عدد كبير من رجاله. أنظر:

Ibid - 2° série - France - T III - p 393

² *Ibid* p 669-70.

³ Coindreau - Op. cit - p 114.

⁴ Penz - Op. cit - p 159-60.

أفلق أحد الرياس السلاويين في إفشال ملاحقة قرصان فرنسي عامل لفائدة الأسطول الرسمي باندماجه ضمن وحدات أسطول إنجليزي، منتهزا في ذلك معاهدة السلم المنعقدة بين هذه الدولة والمغرب¹.

ومن جانب آخر، ولتأمين عودة السفن الجهادية إلى مرسى سلا الجديد، عمد الأندلسيون إلى إضفاء الطابع العسكري على القسبة لتهيئتها وإعدادها للعب الدور المنوط بها في حماية المدخل ومجابهة هجمات الأساطيل الحربية الأوربية، فحصنوها وجعلوا جهتيها المشرفتين على النهر والبحر بمثابة قلعة منيعة، وأساسا من ناحية الشمال الغربي التي يقدمها جان أرمائد مصطفى في مذكرته سنة 1630 تحت اسم "فلكاكر"²، ذكرا أنهم جهزوها بعدة قطع مدفعية حصلوا عليها من الأقاليم المتحدة، كما أسسوا في أسفل حصن المجاهدين بالجهة المتاخمة للمرسى بناء دائري الشكل "الدورة" استعمل لترسية السفن عند الحاجة³.

ويبدو أن السلطان مولاي الرشيد لم يكن يرى التحصينات التي أدخلها المجاهدون على القسبة كافية لحمايتها، ولذلك لم يفته عند توسيعه لنطاق القسبة باتجاه المدينة أن يطعم وجهتها النهرية بثلاثة أبراج مستطيلة أو نصف دائرية، مجهزا إياها بمدافع موجهة لحماية المدخل والمرسى⁴؛ كما أنشأ خارج القسبة قلعة جديدة تشرف من خلال موقعها في أعلى الربوة على ساحل البحر ومدخل النهر⁵ بغاية تعزيز البنية العسكرية للقسبة.

وقد كان من شأن هذه التحصينات الدفاعية المحدقة بالقسبة وبجوارها، يضاف إليها سور أشبار المنشأ على ساحل البحر مباشرة، والتحصين الطبيعي الذي تقدمه أقاصير المصب، أن تجعل المرسى منيعة أمام التدخلات العنيفة للبوارج الحربية المعادية، لا سيما وأن المجاهدين قد حرصوا على توفير التجهيزات العسكرية الكافية لهذا الغرض، حيث بلغ عدد القطع المدفعية التي يتوفرون عليها في هذه الحصون سنة 1680 خمسين قطعة مختلفة الحجم، ركزوا جزءا منها على سور أشبار الساحلي، وتم

¹ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T I - p 556.

² Ibid - 1° série - France - T III - p 333.

³ Burlet - Op. cit - p 59.

⁴ Ibid - p 102.

⁵ محمد بوجندار. "مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح" - المطبعة الرسمية - الرباط 1345 هـ - ص 64-65.

توزيع الباقي على حصون القصبية والقلعة الجديدة¹، وهو ما كان يشع نوعاً من الطمأنينة على المجاهدين وهم بالمدينة، وجعلهم لا يهابون الاستعراضات الأوربية في عرض البحر، ويكتسبون ثقة تدفعهم أحياناً إلى أخذ المبادرة للقيام بعمليات فدائية ضد السفن المتقدمة منها قصد إجبارها على فك الحصار². وعلى الرغم من مناعة المرسى كانت القوات الأوربية ترى أحياناً أن الحل الأوحده للقضاء على خطر العمليات الجهادية يكمن في إتلاف سفنهم بمهاجمتها في أماكن رسوها مباشرة؛ فكانت تسعى في ذلك جاهدة للقيام بإحراقها رغم الاحتياطات المختلفة التي كان السلاويون يتخذونها لحمايتها. فقد كانت مراقبة المرسى متواصلة، وخلال الليل تؤمن الحراسة على متن السفن الراسية بواسطة رجال مسلحين مرفوقين بالكلاب³؛ لهذا كانت الخطط الأوربية تقتضي التنسيق مع التجار الأوربيين المستقرين بالمصب. وقد منيت خطة فرنسية وفق هذا التصميم بفشل ذريع سنة 1671، حين حال هبوب الرياح دون تنفيذها، زيادة على أن المجاهدين قد نقلوا عدداً من سفنهم بعيداً عن المكان العادي للرسو إلى داخل النهر عند قدم صومعة حسان، تاركين بالمرسى سوى ثلاثاً منها⁴.

وعندما يصير الرياس هم ضحايا القرصنة المسيحية، فإن سكان المصب يلجأون عادة إلى الانتقام من التجار الأوربيين المستقرين بسلا، أو من السفن التجارية المتوقفة مؤقتاً بمرسى أبي رقران بحسب جنسية القرصان⁵. وإذا ما كانت دولهم ترتبط بمعاهدة أو باتفاقية مع السلاويين، فإن هؤلاء يحاولون فك هذا الإشكال وتصحيح الوضع بالطرق الدبلوماسية إن كانت سفينتهم المغتصبة تتوفر على جواز مرور قانوني⁶.

¹ Caillé - Op. cit - p 298.

² أثناء حصار القلعة الفرنسي دو رازولي للمصب سنة 1629، تقدم ضابطه دي شالار جهة المرسى على متن مركب من أجل التفاوض في مسألة الأسرى، وأصدر حاكم القصبية عبد القادر صيرون أمره إلى زورقين بمداهمة المركب على حين غرة. وقد كانت الخطة أن تنجح لولا انتباه فجائي للضابط الفرنسي. انظر: *Les S. I. H. M. 1^o série - France - T III - p 228-29*

³ Coindreau - Op. cit - p 158.

⁴ *Les S. I. H. M. - 2^o série - France - T I - p 386-87.*

⁵ *Ibid - 1^e série - Pays-Bas - T V - p 396.*

⁶ *Ibid - T VI - p 456-57.*

لكنه من المؤكد أنه لدى سقوط المجاهدين في يد البحارة الأوربيين كانوا يتعرضون لأشد أنواع التنكيل، تعذيباً أو جلداً انتقاماً للعمليات التي أنجزوها على حساب سفن دولهم، مثل ما تعرض له الرايس أمعيز سنة 1693¹، أو بتنفيذ حكم الإعدام فيهم بسرعة بالإلقاء بالعلاج إلى عرض البحر للموت غرقاً، ويرمي المسلمون بالرصاص²؛ بيد أن أغلبية الأسرى السلاويين كانوا يخضعون للبيع عبيداً في مختلف المناطق الأوربية، أو إلى العمل كطواقم سخرة في عمليات التجذيف المضنية على شاكلة ما كان يتعرض له أسرى سفن الجهاد³. وقد كان هذا يدفع السلطات المغربية، سواء رجال القنصة أو السلاطين، إلى العمل على افتكاك الأسرى المغاربة بكل الطرق الممكنة.

وفي هذا الصدد توجهت غالبية سفارات مولاي إسماعيل، مثل سفارة القائد أحمد بن حدو العطار إلى إنجلترا سنة 1681، وسفارة الوزير محمد الغساني إلى إسبانيا سنة 1690، وسفارتي الحاج محمد تميم التطواني سنة 1682 وأمير البحر عبد الله بن عائشة سنة 1698 لدى لويس الرابع عشر ملك فرنسا، وكانت مسألة افتكاك الأسرى إحدى المهام الأساسية الموكولة إليها، والتي إن نجح بعضها في تحقيق إنجازات ملموسة، فإنها عرفت فشلاً كبيراً في جهودها لتصلب موقف العاهل الفرنسي وحاجته إلى هذه القوة العضلية صعبة الاستبدال.

¹ Ibid – 2e série – France – T IV – p 221-22.

² Ibid – 1e série – Pays-Bas – T V – p 171.

³ Ibid – 2e série – France – T I – p 692-94.

الفصل الرابع: مردودية الجهاد البحري

إن حركة مغادرة سفن الجهاد لمرسى أبي رفراف وعودتها إليها عقب كل رحلة بغنائم ومصادر فديات طويلة القرن 17 كانت تظهر نشاط الرياس لدى مواطنيهم بمثابة ضرب من ضروب الإقدام وطلب الشهادة في سبيل إعلاء كلمة الدين، ولدى الخاصة من ممولين وتجار كمال إنتاجي يحقق كل موسم مولود مالية خاصة على صعيد الأفراد، وعامة على صعيد المؤسسات الإقليمية والمركزية. وكانت فئة الرياس تضطلع بدور المحرك الحقيقي في ازدهارها أو ركودها، والمؤثر الرئيسي في انتعاش الحياة الاقتصادية بالمجال الحضري المحيط بالمرسى، وعبره بنسب متفاوتة من حيث الإشعاع انفتاحا على المجال الداخلي باتجاه الأقاليم الأخرى ذات النقل الاقتصادي أو السياسي، المرتبط بمدى انفتاح علاقاتها بمركز الجهاد، وعلى المجال الخارجي باتجاه جنوب وغرب أوروبا بحجم مستوى العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية، واستمرار العناصر المؤثرة فيها.

وإذا كان الجهاد البحري قد أثرى ضفتي مصب أبي رفراف منذ بداية مواسمه، فإن ازدهارها - خاصة سلا الجديد - سيزداد قوة مع استمرار قوة التجارة، لتصبح سلا القاعدة الأساسية للتبادل المغربي مع الخارج¹، مفرزة بشكل واضح نمو فئة أرستقراطية محلية متمركزة بالضفة اليسرى، وراحت تخلص نفسها بالقسط الأوفر من آثار نشاط الجهاد ومردوديته وتبعاته التجارية، وتحقق في آن واحد تباعدا مع صنوتها الشمالية - سلا البالي - رغم جهود رجالها من أجل الظفر بجزء من هذا النجاح الاقتصادي طيلة فترة الديوان المستقلة؛ لا سيما وأن فئاتها الأهلية قد فقدت امتيازاتها التجارية من جراء التحول الناشئ مع ورود العناصر الجديدة ورؤوس أموالها المفاجئة لبنية المنطقة، الأمر الذي أفقد التنافس الممكن حدوثه بين الضفتين توازنه، نظرا لرجحان كفة الضفة اليسرى تبعا لاعتمادها على عنصر الجهاد المؤثر بقوة في جعل مرساها نقطة إفراغ البضائع و شحنها.

¹ Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T V - intro. p XV.

الجهاد بفعل تحولهم إلى عولج.
وتقابل هذه الجماعة فئة التجار التي كان يدخل في إطار أنشطتها استغلال
البضائع المتنوعة مقابل أسعار كفيفة بتحقيق أفضل الأرباح؛ وقد تكونت نواتها من
اليهود المحليين أولاً، ثم راحت شبكتها تتسع لتشمل نظرائهم من الهولنديين وباقي
تجار أوروبا. ويمكن إدراج رجال الدين ضمن هذه الجماعة اعتباراً لعمليات افتكاك
الأسرى التي كانت ترى كجزء من الإطار التجاري العام، إن لم تشكل القسط الأهم في
مدخول الجهاد²، وبالتالي لم يسء الجهاد البحري في سلا الجديد - على غرار باقي
المراكز الأخرى - إلى الازدهار التجاري، وإنما أبدى عكس ذلك من جراء بروزه
كعامل إيجابي قوي³، تشهد على ذلك قوة العلاقات التجارية بين سلا ودول الأقاليم
المتحدة وإنجلترا وفرنسا، مما جعل سلطات هذه الدول في محاولة للقضاء على الجهاد
تتخلى عن تعريض مركز المجاهدين للحصار الاقتصادي، لما في ذلك من إتاحة
الفرصة لتنافسها على استغلال الوضع لفائدة كل دولة منها⁴.

وقد كان التقويم المالي لمرودية الجهاد يتم بمجرد رسو المركب بمعينة غنيمة، حيث يعد كاتب المركب مرفوقاً بالرايس والضباط الرئيسيين ومن لهم دور أو نصيب أساسي في العملية، كقائد المرسى والممول، إلى وضع بيان بقائمة البضائع والمواد والألوات الأخرى الموجودة على متن الغنيمة وعدد الأسرى، ثم ينتقل الجمع إلى تصفية المغنم ببيعه جملة بثمن مناسب، وفي الغالب عن طريق تنظيم مزاد يتنافس فيه

² De Castries: "Le Maroc... " - Op. cit - p 831.

³ Coindreau – Op. cit – p 49.

⁴ عقب صدور قرار لويس الرابع عشر في 24 يوليو 1687 القاضي بحظر التجارة مع المغرب، بادى التجار الفرنسيون إلى الشكاية من كون ذلك لا يخدم إلا مصالح منافسهم الإنجليز، واستمروا في الوقت ذاته في مبادلتهم مع المغرب، الأمر الذي دفع بالملك الفرنسي إلى إصدار قرار جديد يلغى الأول في 25 أكتوبر 1688 بدافع المصلحة. انظر: Coindreau – Op. cit – p 49.

التجار، وبعد ذلك تتم عملية توزيع المبلغ الإجمالي وفق القياس المتعارف عليه. على أنه غالباً ما كان الأسرى يشكلون قسماً مهماً من الغنيمة، وكانت عملية التصرف فيهم تعرف أشكالاً متعددة تبدأ انطلاقاً من السيطرة على السفينة، حيث يخضعون لطقوس خاصة تجعل رجال الجهاد يصلون إلى تحديد خيار بيعهم عبيداً، أو الاحتفاظ بهم كاسرى متميزين طمعاً في فدياتهم.

ومن خلال هذا التحديد أصبح بقاء الفئة الأولى - وهي الأكثر عدداً - بمركز الاستقبال طويلاً زمنياً لا ينتهي إلا بإسلام الأسير أو بافتركاكه أو فراره أو وفاته، وهو ما جعل سلا تضم في أسفل هرمها الاجتماعي قاعدة مهمة ومتجددة من العناصر الأوربية الأصل والمختلفة الجنسيات: فرنسيون، إيطاليون، إسبان، إنجليز، فلانديون، هولنديون وغيرهم. وقد حدد الأب دان عدد هؤلاء في عموم شمال إفريقيا في سنة وثلاثين ألف أسير عام 1635¹، لم تحتفظ سلا من جهتها إلا بعدد ضئيل منهم نظراً لمراسلتها إلى تنشيط عمليات الاقتداء المدرة لمداخل هامة جداً، خصوصاً أثناء عهد الديوان².

1- مداخل المواسم

تبدو من الوهلة الأولى الصعوبة الكبيرة في إعطاء نظرة دقيقة وموضوعية لمدى الجهاد على مستوى المداخل، لكون الوثائق المتناولة للجهاد ومواسمه لا ننمنا - رغم محاولة تتبعها - بالمعلومات الكاملة عن العمليات المنجزة خلال الموسم الواحد، فبالأحرى تغطية عموم مواسم القرن 17؛ وحتى الإشارات المقدمة حول أغلب العمليات تقتصر إلى القيم التقريبية للمغانم، وإلى المدارك الثانوية التي قد تساعدنا على تداركها، خاصة وأن المجاهدين كانوا ينوعون هجماتهم غانمين المراكب من مختلف الأحجام، من الزوارق الصغيرة إلى الغليونيات الكبيرة التي تتجاوز حمولاتها ستمائة طن³، ومن التي لا تتعدى قيمة بضائعها مائة ليرة⁴ إلى السفن الثمينة التي

¹ Dan - Op. cit - p 318.

² Brunot - Op. cit - p 163.

³ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T IV - p 389-90.

⁴ Ibid - 1° série - Angleterre - T II - p 559.

تصل قيمتها إلى مائة وستين ألف فلورين¹. وهذا ما يجعل محاولة التخمين انطلاقاً من هذه التباينات لا تستند إلى أي دليل، وتفتقد لكل مصداقية. ولإعطاء صورة قريبة عن هذا الإشكال نوجز المغامرات السلوية التي توفرت لنا إمكانية الحصول على قيمتها التالية:

* في 1622 غنم الرايس علي بن علي سفينة هولندية قدرت قيمتها بمائة وستين ألف فلورين.

* في 1624 غنم الحاج علي سفينة هولندية قدرت قيمتها بسبعة آلاف وتسعمائة

فلورين. * في 1625 غنم رايس مجهول الاسم مركباً إنجليزياً صغيراً قدرت قيمته بمائة ليرة. * في ما بين سنتي 1652 و1655 غنمت خمس سفن هولندية قدرت قيمة بضائعها جمعاً بمائة وواحد وتسعين ألف فلورين (أي ما يعادل ثمانية وثلاثين ألف فلورين عن كل سفينة).

* في 1654 غنم رايس مجهول سفينة برتغالية قدرت قيمتها بثلاثين ألف دوكا. * في 1659 غنم رايس مجهول آخر سفينة هولندية قدرت قيمتها بستة آلاف

فلورين. * في 1686 غنم الرايس عبد الله بن عائشة سفينة فرنسية قدرت قيمتها بثمانية آلاف إيكوس (أو ما يعادل أربعاً وعشرين ألف ليرة).

* في 1693 غنم الرايس نفسه سفينة برتغالية قدرت قيمتها بخمسين ألف ليرة. * في 1694 غنم الأخوان الرايسان عبد الله وعبد الرحمن بن عائشة سفينة

فرنسية قدرت قيمتها باثني عشر ألف قرش.

* في 1695 غنم الرايس عبد الله بن عائشة رفقة ابنه محمد وأخيه عبد الرحمن سفينة هولندية قدرت قيمتها بأربعين ألف قرش².

¹ Ibid - Pays-Bas - T III - p 269-70.

² انظر تفاصيل هذه المغامرات في:

Ibid - Angleterre - T II - p 559 ; Pays-Bas - T III - p 269-70 ; T IV - p 73 ; T VI - pp 96-99, 503 ; France - T III - p 672 ; 2^e série - France - T III - p 21 ; T IV - pp 230, 317-18 et 389-90.

لكله من المؤكد أن مداخلل الالهال كانت تشكل المورد الرلللل للهللة الاقلللاللة، ومصدرا مغذلا أساسلا بالنسبة لهلارك سلا، هلث أن ارلللالها كان يؤدل بالضرورة إلى ارلللال مالية الهلارك من خلال الأعشار أو الأخماس المقلللة من المغاللم، وعكس ذلك يؤدل إلى انللاللها.

وخلال فلة الللوان زامن الاستقلال السلاسل للمنطقة ازدهار كبلر لإنلارات الرلاس وعلللللالهم، مكن مزلانللالها من ضمان موردها اللموللل بشكل اعلللالل، بفعل أن سنة واحدة من مداخلل الالهال لقل برلللون أنها كانت لدر على هلارك سلا اللللل أكثر مما كانت لدره سنة ضرللللة على عموم الللال في عهد المنصور السعلل¹، رلغم أن هذه المداخلل لم تكن تمثل إلا المكوس الملوللة في سجلات الهلرك، أي ما لعلل 10 % من المجموع العام لمداخلل العلللل، ولهذا كانت 90 % البلاللة رهن الاستهلاك واللرولل ببل اللوالل.

ومن الللللل أن تكون مداخلل الالهال في سلالها العام مكلومة بمرالل النشاط وللوره، إذ من المفترض أن تكون المداخلل مقللة عقب سلوط المعمورة وعلل بباللة العلل اللالل من القرن 17، ولا للعلل موسملل بضعة عشارل الألال من الللرال بلكم بباللة النشاط، واقللار العلللل على مالهلة الشوالل الإللرلة واللرك على مقلرلة من السوالل علل هلن بباللة لوسلل رقللة الملال العملل منذ ملل العشرلنال إلى اللل قلال الللوان، هلث لشللر الأملال الفرنسل الل رازللل (De Razilly) سنة 1626 إلى أن المالهللل قل نللوا خلال ثمان سنوات في أسر أكثر من ستة آلاف مسللل، وفي رنم خمسة عشر مللون لبرة، عانل فرنسا قلللا ملها منها².

ومع لوفر الرلاس على ملال سلاسل ملاللم لنشاطهم وكقلل بشلذ همهم قلل تطوير إنلارالهم باعللارهم الفاعلون والمسلللللون الرللللون منه، زالل للة العلللل وللضاعفل قلة الللالل رلغم العراقلل اللل كانت لقف أمام المالهللل، وعلى رأسها فلال الحرب الأهلة ببل سكان الضلفة الللرل أنلسلهم، أو ببل سكان الضفللل معا. إذ خلال الفلة الممللة ببل سنتل 1629 و1639 بللغل مللنال سجلات هلارك

¹ Brignon - Op. cit - p 229.

² Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 115.

سلا سبعا وعشرين مليون دوكا،¹ فإرضة هذه الفترة كأهم الفترات من حيث الفعالية والمرودية.

وحتى إن لم تقدم لنا الوثائق أي توضيح حول مردودية النشاط عقب ذلك، فإن وضعية الجهاد المنتظمة خلال العهد الدلاني تدفعنا إلى الإقرار بكون المواسم إن كانت أقل عطاء من مواسم حقبة الديوان المستقل فإنها قد ظلت على مستوى من الأهمية، يدل عليها في ذلك عدد السفن الجهادية وحركة الأساطيل الأوروبية المرصودة لمجابهتها. بل إننا نجد أن الجهاد البحري قد ظل حتى إبان العهد العلوي يشكل مصدرا رئيسيا لخزينة السلطة المركزية رغم ما رافق هذه الفترة من تقلص في حجم الأسطول، وتضاؤل الكفاءات البشرية والعسكرية العاملة به. ويقدر القنصل الفرنسي إيستيل المداخل التي يجنيها السلطان من جمارك سلا بأربعين ألف ليرة شهريا، شكلت تجارة المغام فيها الجزء الأكثر أهمية، ويؤكد أنه لدى تقلصها كان مجبرا على وضع ضريبة خاصة على المدينة ككل لتغطية الخصاص.²

وسوف تأخذ هذه الأهمية خلال العقد الأخير من القرن في التضائل مع توجه الجهاد البحري نحو المزيد من التضعف، بلغت معه مداخل جمارك سلا مائتي ألف ليرة خلال سنة ونصف حسب شهادة القنصل المذكور³، وذلك ناتج عن جملة من الضغوط الذاتية المتمثلة في نقاسع الرياس عن الاستمرارية في نشاط لا يحصلون من ورائه إلا على استفادة محدودة جدا، وأخرى موضوعية محددة في الأخطار الكبيرة المحدقة بهذا النشاط كإفراز لقوة المجابهة الأوروبية المعاكسة لسفن الجهاد ولتجارة التهريب.

2- تصريف المغام

أدت العمليات الجهادية إلى جعل مركز أبي رقراق يبرز خلال القرن كقاعدة احتضان لبضائع مختلف مناطق المعمور، حيث عملت سفن الرياس على فتح خطوط هامشية متفرعة عن خطوط الملاحة التجارية الأطلننتيكية، وتنشيطها موسميا بتحويل أجزاء من عائدات علاقات أوربا بمستعمراتها عن نهاياتها الطبيعية الواقعة في

¹ Brunot - Op. cit - p 163.

² Penz - Op. cit - p 170.

³ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T IV - p 709.

الجنوب والغرب الأوروبيين، لتتخذ نهاية استثنائية في مركز سلا الجديد، وتتشع هذه الخطوط الفرعية على البعد القاري لمصعب أبي رقرق بتصريف بضائعها داخليا من جهة، ولتعمل من جهة أخرى على خلق هامش تجاري جديد لتجار أوروبا، قوامه بضائع زملانهم المفقودة في الخطوط الرئيسية، وبضائع مطلوبة بأسعار مشجعة تتحكم في التنافس التجاري داخل أسواق أوروبا.

لقد غنت المغامم سوق الاستهلاك المحلية ببضائع مهمة من حيث كفايتها وتنوعها، باعتبار نشاط المجاهدين المتحكم في الممرات التجارية المختلفة في الشمال والوسط الأطلنטיكيين، كما أمدت الخطوط الداخلية الرابطة بين مصعب أبي رقرق والحواضر الرئيسية كمراكش وفاس ومكناس بمحتجات هذه الأخيرة المصنعة بأوروبا والقادمة من المستعمرات، وأيضا ببعض المنتوجات الزراعية والبحرية المطلوبة في الاستهلاك الداخلي.

إلا أن الجزء الأهم من محتويات المغامم كان حضوره بمسلا الجديد مؤقتا، ولا يدعو أن يأخذ اتجاهه مجددا نحو أوروبا، وكان مركز سلا الجديد اضطلع بدور جمرك عالمي يتطلب ورودا للسفن التجارية إليه لتأدية حقوق مفروضة، قبل تنميط توجهها نحو مراسي أوروبا، ما دام القسط الأكبر من المغامم يتجه في الأخير صوب المراسي المبحر إليها أصلا قبل السقوط في أيدي الرياس السلاويين.

وقد نجم عن حضور هؤلاء الرياس تجزئة العلاقات التجارية بين مركز سلا والمراكز الأوروبية، حيث كان الأول يستقدم من هذه الأخيرة البضائع العسكرية والملاحية، لا سيما من الأقاليم المتحدة، في الوقت الذي حرصت فيه المراكز الأوروبية على إعادة وضع اليد على أهم محتويات سفنها المفقودة؛ فكان الجهاد البحري يجتذب التجارة بذلك بدل أن يؤدي إلى نفورها. وكانت سياسة مختلف السلطات المتعاقبة على منطقة المصعب تعمل جاهدة من أجل الحفاظ على هذه الوضعية بشتى الوسائل¹، وأساسا بمسارعتها للاستجابة لشرط حرية التجارة مع مختلف الدول الأوروبية عند تدارس أية اتفاقية أو معاهدة سلم.

وهذه الحرية التي كان يتمتع بها التجار المسيحيون كانت ضرورية بالنسبة للمجاهدين، حيث أن التعايش القائم بين التجارة وحرب الجهاد أتى من باب الاستفادة

¹ Monlati - Op. cit - p 90.

المشتركة؛ فلم يكن المغرب - ومن ضمنه مركز سلا الجديد - قادرا على الإعراض عن عدد من اللوازم والبضائع الأوربية، ومن جهة أخرى كان الرياس يقعون في مشكلة كيفية تصريف المغام التي يصعب أو يستحيل ترويجها في السوق الداخلية (كالخمور مثلا)، والتي لن تجد مشتريا لها من دون التجار الأوربيين الذين يقدمون لاقتنائها بصفة مباشرة، أو تستقدم إليهم في مراكزهم عن طريق وسطاء¹، وأساسا في مدن ليفورنو وجنوة وبيزا وفلورانس²، وفي مارسيليا، وأمستردام، وحتى في إنجلترا أحيانا في مركز لندن³.

إن طبيعة الجهاد البحري الاقتصادية كانت تحتم استئثار أقصى ما يمكن من مردودية المغام واستغلال كل الوسائل المتاحة لتطور رؤوس الأموال الموظفة خلال كل موسم، بشكل يشجع على الاستمرارية، وكان عرابا هذا الاتجاه محليا هم الممولون والتجار الأندلسيون، ولكن - بدرجة متميزة - طائفة اليهود⁴. فقد عمد هؤلاء جيدا من أجل الحفاظ على موقعهم المتقدم في احتكار التجارة الخارجية للمغرب منذ القرن 16، وبالتحديد في عهد أحمد المنصور السعدي، حيث تكدسوا في المراسي المغربية وفي المراكز الاقتصادية الكبرى الداخلية، وكانوا هم الذين يحددون أسعار شراء المواد الأوربية، وأسعار بيع المنتوجات المحلية، ويفرضون أداء معاملاتهم بأسلوب المقايضة⁵.

وقد أتى بروزهم بمركز سلا الجديد متميزا منذ انطلاقة الجهاد البحري، مستقرين بإزاء رجال الجهاد، وعلى مقربة من حركة المرسى النشيطة، ومنخرطين في مجال الوساطة التجارية بحذق وشطارة، وبقلق جلي من أجل تحقيق الربح دون قياس للسهولة التي وجدها في التعاطي للتجارة العالمية بنسجهم لعلاقات مع مختلف الدول البروتستانتية التي استقر بها إخوانهم في الدين. فنراهم يحرمون على الرياس والسلطة جزءا مهما من مداخيل المغام في صورة أرباح كبيرة يحققونها بشكل

Les S. I. H. M. - 1° série - Pays-Bas - T V - intro. p XV-XVI.

De Castries: "Le Maroc..." - Op. cit - p 822.

Les S. I. H. M. - 1° série - Angleterre - T II - p 477.

Montau - Op. cit - p 78.

Les S. I. H. M. - 1° série - Angleterre - T I - pp 445.

إجباري بفعل نجاحهم في إيجاد السبل الكفيلة بإقصاء التجار الأوربيين في المزايدات، وفي شراء البضائع والسفن بأسعار بخسة يحقق بيعها في أوربا فارقا ماليا بليغا^١. ومن بين أول من انطلق منهم في هذا النشاط: آل بالاش، العائلة اليهودية المقربة من السلطان السعدي مولاي زيدان، وكانت مهام أفرادها تتحدد في استغلال سفرياتهم الدبلوماسية إلى الأقاليم المتحدة لتصريف أولى المغامم المحققة على الإسبان^٢، وبالتالي بدا منذ الانطلاقة أن مهمة اليهود المغاربة ما كانت لتتجز بسهولة لولا بروز وبالقوى هذه الدولة كإحدى النهايات الأوربية الرئيسية لتجارة مغامم الجهاد، نظرا مراكز هذه الدولة كإحدى النهايات الأوربية الرئيسية لتجارة مغامم الجهاد، نظرا لاحتضانها لطائفة قوية من اليهود الإيبيري الأصل، المتعاطين للتجارة ولمجال الأبنك، فكانوا الأكثر تمرسا في الصرف والمبادلات بأمستردام، ونجحوا من جهتهم في الاستحواذ شبه الكلي على التجارة مع المغرب مستفيدين في ذلك من موقع إخوانهم في مراسيه، متعاونين على تصريف المغامم، ومعتادين في ذلك على القيام بمزج البضائع الغنية بغيرها، أو بإعادة حزمها بطرق جديدة، أو بتغيير علاماتها من أجل إظهارها كبضائع خالصة مستجلبه من مناطق الإنتاج الأصلية، ولم يكونوا يهابون الذهاب بها لبيعها في موانئ أخرى، وأحيانا حتى للتجار الذين عليهم حققت المغامم ذاتها^٣. وقد تمكن هؤلاء اليهود من اجتياز حواجز مختلف المراكز بفعل ذلك، بما فيها المراكز التي تضع شروطا معينة على البضائع القادمة من المغرب، تخوفا من تشجيع تجارة المغنم، حيث كانوا يستغلون علاقتهم بمختلف التجار الأوربيين الوافدين على مركز مصب أبي رراق لبيعوا بالمغامم إلى تلك المراكز تحت أسماء أولئك التجار^٤.

ولا يعني هذا أن الأوربيين قد انحصر دورهم في استقبال بضائع المغامم بعد تصديرها من طرف اليهود، وإنما ساهموا أيضا في تنشيط هذه التجارة بالتدخل المباشر فيها؛ فقد كان القناصل والتجار المسيحيون يحاولون من جهتهم كسر احتكار اليهود في هذا المجال، عاملين على استثمار القسم الأعظم من المغامم بشرائنها

^١ Hubac - Op. cit - p 209.

^٢ Les S. I H. M - 1^o série - Angleterre - T II - p 477.

^٣ Ibid - Pays-Bas - T VI - p 550 note.

^٤ في وثيقة فرنسية مؤرخة في 30 يوليو 1687 كتب صاحبها لقلنا: " يبدو لي أن التجارة التي يتعاطى لها اليهود منشطة بالخصوص من طرف الفرنسيين الموجودين بسلا، الذين يملكونهم أسماءهم ". انظر: Ibid - 2^o série - France - T III - p 106.

بأسعارها البخسة في عين المكان قصد إعادة بيعها في أوروبا¹، مستغلين في ذلك العلاقات الجيدة التي كانت تربطهم برجال الجهاد، ومقدمين لهم الخدمات التي بإمكانها أن تزيد من حظوتهم، وأساسا تهريب المواد العسكرية والملاحية المحظورة، الأمر الذي دفع بالأسير مويط إلى اتهامهم بأنهم المشجعون الفعليون لتطور الجهاد² وقد كان عملهم هذا يخضع لأخطار متعددة، منها المراقبة الأوروبية المتشددة لتجارة التهريب التي كانوا هم منشطوها، فضلا عن كون المجاهدين لا يتورعون أحيانا عن جعلهم عرضة لهجماتهم³.

وعلى العموم، نلاحظ أن بروز قاعدة سلا كمركز اقتصادي رئيسي على الواجهة الأطلنטיكية منذ بداية القرن 17، ولا سيما مع اشتداد حركة التبادل التجاري بالمحيط وما واكبه من نشاط عسكري معاد للملاحية المدنية، قد جعلها تضطلع بدور هام في تسويق المغانم لا لرجال الجهاد البحري بشمال إفريقيا - وعلى رأسهم رياس الجزائر⁴ - فحسب، وإنما أيضا بالنسبة للمتنازعين الأوروبيين الذي اتخذوها منفذا حيويا لتسويق حاصلات قراصنتهم على حساب السفن الأوروبية المعادية حسبما تشهد بذلك وثيقة فرنسية متعلقة بالتجارة مع المغرب، التي جاء فيها: "في زمن الحرب هذه، يجلب إلى هذه المدينة (سلا) كثير من بضائع المغانم المحققة على الهولنديين والإنجليز منم طرف البحارة الفرنسيين⁵".

3- تجارة الأسرى

شكلت الفديات والأموال الناجمة عن عمليات افتكاك أسرى السفن الغنيمة، إلى جانب قيمة العمل الأقل كلفة التي مثلها استغلال قوتهم العضلية في مصب أبي رقران خصوصا، والمغرب عموما، جزءا هاما جدا من مداخيل الجهاد البحري دفع الرياس ورجال البحر إلى الحرص على تحقيق أكبر عدد منهم سنويا، لا سيما وأنهم كانوا يجدون في ذلك ورقة ضغط دبلوماسية قابلة للاستخدام في علاقاتهم بالدول الأوروبية.

¹ Caillé - Op. cit - p 239.

² Penz - Op. cit - p 300.

³ رفعت الأكاديم المتحدة إلى مولاي زيدان شكاية في فبراير 1627، بخصوص تعرض سفينة تجارية هولندية كانت متجهة إلى سلا لاعتداء الأسرى مقابل مقايضة بالبضائع، وأيضا للقيام بعدة أنشطة أخرى، إلا أن الرياس الأحرش اعترضها وضمها. انظر: Les S. I. H. M. - 1° série - Pays-Bas - T IV - p 148.

⁴ Ibid - Angleterre - T II - p 500.

⁵ Ibid - 2° série - France - T IV - p 471.

ورغم انعدام التوفر على إحصائيات دقيقة بأعدادهم، فإنه كانت لا تمر سنة دون اختفاء آلاف الأوربيين في دوامة هذا النشاط، خالقا من مركز سلا نقطة تجمع لخليط من الأجناس المسيحية تجمع في ما بينها طريقة الاستقدام الإجبارية، وأشكال الحياة المعاشة في ظل الرق.

وقد كان تطور أعداد الأسرى مرتبطا بمدى حجم العمليات وكثافتها بحسب القوة أو الضعف؛ فخلال السنوات الأولى من مرحلة الجهاد لم يكن ذلك محسوسا بحكم محدودية النشاط، ولم تنطلق المذكرات الأوربية الأولى في الشكاية من الأضرار البشرية التي يلحقها هؤلاء الرياس بالأفراد الأوربيين إلا بعد اتساع رقعة مجال العمليات بعد سنة 1620، بدءا بالوثائق الإنجليزية التي تقدر لنا عدد الأسرى المنتمين للجزر الإنجليزية الموجودين بسلا سنة 1625 في حوالي ألف وخمسمائة أسير¹، ليأخذ هذا الرقم في التطور سريعا مع مصادفة هاته الفترة لقوة العمليات وفعاليتها، حيث يشير القائد الفرنسي دو رازيلي إلى أن عددهم كان سنة 1629 يناهز ستة آلاف مسيحي، شكل الفرنسيون منهم جزءا مهما²، كمقياس لبداية ازدهار الجهاد البحري قبل نشوء الديوان، وكقاعدة للتطور الذي سيواكب مرحلتها.

وبعد سنة 1627 ارتفعت حركة التواصل بين المياه الأطلنטיكية وشواطئ غرب أوربا من جهة ومركز الجهاد من جهة أخرى، حيث ارتقى المصعب بفعل ذلك وفي ظرف وجيز إلى مصاف مراكز الجهاد الإسلامي الأخرى الرئيسية. ويؤكد الأب دان أنه في سنة 1635 كانت تونس تضم سبعة آلاف أسير ومقابل ذلك لم يكن يوجد بسلا إلا ألفا وخمسمائة أسير، ليس لضعف الجهاد بها وإنما لأن الرياس السلوبيين لم يكونوا يحرصون على الاحتفاظ بالأسرى، وكانوا يشجعون على بيعهم بتطوان، حيث كان الرهبان الإسبان - بأمر من البابا - متعودين على استغلال الأعطيات في افتكاك من يوجد بالأسر³.

وقد ظل الرقم المذكور معدل تواجد الأسرى على أرض المغرب انطلاقا من مركز تسويقهم بسلا الجديد، على أن الفائض كان أكبر من ذلك بكثير حسب قوة الجهاد خلال الفترات المختلفة. وكان يخضع في انتقاصه لبلوغ حدود المعدل لعدة

¹ Ibid - 1^o série - Angleterre - T II - p 593.

² Ibid - France - T III - p 115.

³ Penz - Op. cit - p 319.

ظروف، منها بالأساس دور الإرساليات الدينية والوكلاء في القيام بافتداء من يمكن افتكاكه من أسرى دولهم، وأيضاً دور البعثات الدبلوماسية والحملات العسكرية ومحاولاتها تحرير كافة الأسرى سلماً أو عنوة¹؛ حيث حرصت السلطات السياسية الأوربية على جعل مسألة الأسرى - إلى جانب حرية التجارة - أولى أولويات علاقاتها السياسية مع مركز مصب أبي رقرق، وهو ما يتبين بوضوح في مختلف المعاهدات والاتفاقيات التي أبرمتها مع مختلف السلطات المتعاقبة.

وفضلاً عن انتقاص العدد بعمليات الافتكاك الرسمية والدينية، كانت الظروف القاسية التي خضعت لها جموع الأسرى قد ساهمت بدورها في تقليص أعدادهم من جراء ارتفاع نسبة الوفيات في صفوفهم بالدرجة الأولى²، وتحول ثلثه منهم إلى علوج، ونجاح جماعات أخرى في الفرار إما إلى مراكز الاحتلال الأوربي القريبة كالمعمورة، أو باستغلال السفن التجارية المغادرة للمرسى³. بيد أن تشدد المجاهدين في حراسة المطمورات ومراقبة تحركات الأسرى، وأيضاً إخضاع السفن الأجنبية الواقعة على الميناء لتدابير احترازية عالية⁴، جعلت حالات الفرار لا تسجل إلا نادراً. ولهذا، وحتى إبان الفترة الأخيرة من القرن التي عرف خلالها الجهاد البحري تضالاً ملحوظاً، ظل عدد الأسرى بالمغرب حوالي ألف وخمسمائة فرد، ما بين إنجليز وفرنسيين وهولنديين وإسبان وغيرهم⁵.

وقد كان المجاهدون يتخذون الخطوات الضرورية لتنشيط تجارة الأسرى منذ سيطرتهم على السفن وهي في عرض البحر، حيث كانوا يبادرون إلى الكشف عن طبيعة الركاب ووضعياتهم الاجتماعية، دافعين العلوج إلى اتخاذ هيئات تنكبة تظهرهم كاسرى آخرين بمهمة كسب ثقة الجدد واستدراجهم بغية التوصل إلى معرفة إمكانياتهم المادية، وتصنيف من يستوجب الحفاظ عليه كرهينة موجهة للفدية مباشرة كالميسورين وأبناء العائلات المرموقة، أو من يستوجب توجيههم للبيع في سلا وفي

¹ أولى المبادرات في هذا الصدد ذات الصبغة الرسمية تمثلت في سعي المفاوض الإنجليزي جون هاريسون في مارس 1627، ونجاحه في افتكاك أسرى بلاده؛ ومن بعده الفارس الفرنسي دو رازيلي بمهمة عسكرية رسمية سنة 1629. انظر: Les S. I. H. M. - 1^o série - Angleterre - T III - pp 12, 14 et France - T III - p 202.

² Penz - Op. cit - p 56.

³ Les S. I. H. M. - 2^o série - France - T II - p 521-22.

⁴ كمن بين هذه الاحترازمات حرص حراس المرسى على فرض خلع دقة المركب التجاري وأشرعته عند رسو بالميناء، حيث كانت تترك في أحد المخازن المخصصة لذلك. انظر: Dan - Op. cit - p 42.

⁵ Penz - Op. cit - p 153.

مراكز التصريف الإسلامية الأخرى. وكانت عموم هذه التدابير تمكن رجال الجهاد من وضع الأسعار المناسبة لكل أسير وفقا للمعطيات والمعلومات التي حصلوا عليها قبل بلوغ مكان الرسو¹.

وعند الوصول بالأسرى إلى المرسى يقوم الكاتب بوضع قوائم يدون فيها وأسماءهم وأعمارهم ودولهم الأصلية، وسنة الأسر والسفينة التي كانوا على متنها، والمهن التي يزاولونها، قبل توجيه مجموعهم إلى المظمورات، التي يصفها الأب دان بكونها: "عبارة عن أقبية كبيرة مقببة، على انخفاض اثني عشر إلى خمسة عشر قدما تحت سطح الأرض، يسجن الأسرى بداخلها مجتمعين، وليس لهم من مجال للتنهوية إلا كوات تتوفر عليها، ويقوم بحراستها عدد كبير من الحراس ليل نهار"². وكان يخصص بهذه المظمورات جناح يوضع فيه الأسرى المميزون الذين ارتأى المجاهدون توجيههم للاقتداء المباشر، ويظلون به إلى حين إتمام موضوعهم³. ويعرض الباقي للحياة في هذه المواضع التي هي بؤر لكل الأمراض والأوبئة، مكبلين بالأصفاد والسلاسل، وتحت السياط والجلد، وما من قوت لهم إلا الخبز الأسود الفشن، في انتظار عرضهم للبيع بالفندق المخصص لهذه العملية، وهو ما كان يسمى لدى الأوربيين "المدرج"، الذي يتم به استعراض الأسرى جلوسا على الأرض، ويتخلق حولهم التجار المحليون واليهود للمشاركة في المزااد العلني بالعرض الانفرادي لكل أسير⁴.

وقبل الشروع في ذلك يعمد الراغبون في الشراء إلى الوصول إلى تقييمهم الخاص للأسير المعروض للبيع، غير مباينين لا بأحكام القيمة الصادرة عن الدلائل المنشغلين برفع الأسعار، ولا بالسحنات المفتعلة من طرف الأسير في محاولة منه لتبخيص سعره، وإنما كانوا حريصين على التدقيق في بنيته الجسدية، أمرينه بالوقوف وخلع الملابس والسير والنط، ومدققين أيضا في تفحص العينين والأسنان، وفي تحريك المفاصل، ولم يكونوا ينسون فحص اليدين أساسا قصد تخمين مهنته الأصلية، وبالتالي وضع قيمة لسعر افتكاكه المستقبلي، التي تكون أكثر ارتفاعا حسب نعومة

¹ Dan - Op. cit - p 387.

² Dan - Op. cit - p 412.

³ Gosse - Op. cit - p 91.

⁴ Les S. I. H. M. - 1^{re} série - France - T III - p 671-72.

اليد من خشونتها، بل كانوا يمعنون النظر أيضا في خطوط الكف للتجيم في مدة بقاءه على قيد الحياة¹. وعقب هذه الطقوس يطرح للمزاد حيث يحصل على ملكيته من يدفع أكثر².

وقد كان الأسير يخضع في ملكيته لسيد أوحد في الغالب، على أنه أحيانا يشترك في ملكيته عدة أشخاص بنسب متفاوتة تحددها مساهمة كل واحد منهم في كلفة الشراء. ففي سنة 1670 اشترك سبعة أشخاص في شراء الأسير الفرنسي جان غالوني (G. Galloné) من بينهم يهوديان³؛ واشترك أربعة أشخاص في نفس السنة في شراء الأسير الفرنسي جيرمان مويط (G. Mouette)، من بينهم شخص يمتلك نصفه⁴. وقد كان ذلك شائعا خلال المدة التي لم تصبح فيها ملكية الأسرى بعد حكرا على السلطان وحده، إذ عقب ذاك لم يعد مسموحا لأي كان بملكية أي فرد منهم (إلا من تبرع عليه السلطان بذلك)، وكان مقابل ذلك يؤدي لكل رايس خمسين قرشا (ما يعادل مائة وخمسين ليرة) عن كل أسير حصل عليه⁵، وهو ما يجعلنا نستنتج بأن أسعار الأسرى في السوق الداخلية كانت ترتقي عموما عن هذا القدر، وتقل في غالبيتها العظمى عن ستمائة ليرة، باعتبار أن هذا القدر كان هو السعر المعتاد الذي تقدمه الإرساليات الدينية المختصة بافتكاك الأسرى خلال الثلث الأخير من القرن⁶.

وفي الغالب كان بعض التجار المسلمين واليهود متخصصين في استثمار أموالهم في شراء مجموعة من الأسرى، ولا يقومون بذلك من أجل إخضاعهم للاستغلال المباشر في أعمال تدار من طرفهم، وإنما لتأجيرهم فرادى وجماعات لمن هم في حاجة إلى خدماتهم حسب المهن المطلوبة وكفاءات الأسرى⁷، خاصة الحرف التي تعرف تقدما في أوروبا في الملاحة مثل رجال المدافع والتقنيين العسكريين والملاحيين، ولكن أساسا في تشكيل القوة العضلية لحركة المجاذيف.

وقد كانوا يستغلون أيضا في البر كحمالين أو عمال مزارع أو مياومين في أورش البناء ودور الصناعة، وبحظ كبير تتيح مهنة الأسير العملية أو الفنية الخاصة

¹ Penz - Op. cit - p 13.

² Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 672.

³ Ibid - 2^o série - France - T I - p 442 note.

⁴ Penz - Op. cit - p 13.

⁵ Les S. I. H. M. - 2^o série - France - T III - p 388-93.

⁶ Ibid - T I - p 442.

⁷ Gosse - Op. cit - p 91.

ظروفا حياة أقل سوءا عما عداها، حيث يحظى باهتمام نسبي، مثل الحيسوبيين المستخدمين لدى التجار، أو الغلمان والجواري الذين يستخدمون كأدوات للمجون الحضري، أو الخدم في المنازل، وهذه الفئة المتميزة كانت جيدة الرواج في سوق النخاسة¹.

وبالنظر إلى أن الفائدة المتوخاة من شراء الأسير كانت لا ترى في قوة عمله، بقدر ما كانت ترى في قيمة فديته، كان الاستغلال المحلي يأخذ في الغالب طابعا مؤقتا لا يعدو أن يكون استثمارا مرحليا لرأسمال ثابت محفوظ في بقاء الأسير على قيد الحياة؛ فكان هذا الأخير تخضع ملكيته للتنقل من سيد إلى آخر حسب مدة بقائه في البلد، إذ كان الملاكون يقدمون على بيعهم متى قدمت لهم أسعار ممتازة، ومتى راوا في ذلك فرصة لتحقيق ربح سريع، مفضلين ذلك على انتظار الحصول على فدية أكثر مردودية ولكنها غير مضمونة².

وقد كان هذا يجعل الملاكين يحاولون الحفاظ على الأسرى/البضاعة الذين تحت تصرفهم، ويولونهم عناية أكبر حينما يصابون بمرض معين لأن وفاتهم تعني فقدانهم لرأسمال مهم؛ لكنه خلال الفترة الأخيرة من القرن عند احتكار السلطة لملكية الأسرى، وتقلب استعمالهم كورقة في العلاقات الخارجية، أضحي هؤلاء متروكين لأنفسهم أكثر فأكثر، مما زاد من حدة ظروف عيشهم³.

وقد كان الحضور الكثيف لعناصر الدول الأوروبية في مصب أبي رقرق وعبره إلى المراكز المغربية الأخرى كإسرى يعانون من ظروف حياة سيئة وموصومة بالبؤس والشقاء للشديد، والخضوع لسخرة مفروضة عليهم، أن دفع بمجموعات منهم فرارا أحيانا من مصيرهم السيئ إلى إعلان إسلامهم، وبروزهم في صفوف الطوج المدعين لحركة الجهاد، ودفع من جهة أخرى سلطات دولهم إلى تنظيم البعثات العسكرية والدينية الممولة بأموال عمومية في صورة إعطيات كنائسية أو ضرائب رسمية⁴ للقيام بافتكاك أعداد ممن تبقى منهم، عن طريق شرائهم من ملاكهم السلاويين، وكان رجال مختلف الإرساليات الدينية هم النشيطون في هذا الصدد

¹ Monlaü - Op. cit - p 98.

² Penz - Op. cit - p 13.

³ Ibid - p 296.

⁴ Les S. I. H. M. - 1^o série - Angleterre - T III - p 259.

بالخصوص، لما كان يرى في ذلك من جانبهم من واجب ديني المقصود به مجابهة حالات الارتداد عن المسيحية. وحتى لا تتم عرقلة هذه العمليات التي كانوا يدرجونها في باب التجارة المربحة، ويعتبرونها جزءا أساسيا في استغلال مردودية العمليات الجهادية، كان رجال الجهاد يحترمون السفن الحاملة لهؤلاء المتخصصين في اقتكاك الأسرى¹، وييسرون عليهم عمليات التفاوض مع أسياد الأسرى التي تتم بينهم بصورة مباشرة، أو بواسطة بعض التجار المسيحيين المندوبين من طرفهم. وكانت الأسعار المتفاوض حولها تتم على قاعدة خصوصية الأسير، من جنسية وبنية وعمر ومقدرات مهنية ووضع اجتماعي، ولكن أساسا بثمن شرائه من طرف العنصر المحلي².

وفضلا عن الاقتكاك المشروع الذي كانت تضطلع به البعثات الرسمية، كانت هناك أحيانا بعض تنظيمات التجار الأوربيين الذين كانوا يشاركون في تنشيط تجارة الرقيق على الهامش، حيث لاحظ رجال الدين المسيحيون بأن رجال الجهاد " ليسوا وحدهم جبابرة الأسرى المساكين، بل هناك مسيحيون يقتاتون من لحم إخوانهم، والذين تحت أشكال التجارة يعرفون كيف يخفون نواياهم لنهش لحوم أولئك الضحايا وشرب دماهم"³.

وعموما، كان ملاكو الأسرى الطامعون في الحصول على ربح جيد من هؤلاء، يقومون بكل ما يروونه مناسباً لاجتذاب المفاوضين الأوربيين، وذلك بدفع أسراهم - خاصة نوو الوضعية الاجتماعية - للكتابة إلى أهاليهم طوعا أو كرها. ففي سنة 1625 كتب أحد الأسرى الإنجليز إلى أهله موضحا أن سيده بعدما علم كونه من أسرة ثرية أجبره بمضاعفة العذاب على الموافقة على مبلغ محدد لفديته، مطالبا أباه في الرسالة بتوفير المبلغ⁴. وكان السلاويون أحيانا يتشبثون بدقة بأسعار باهظة لحماية مستوى هذه التجارة الواعدة كمنبع مستمر لمداخيل مؤكدة؛ إذ خلال مفاوضات الضابط الفرنسي دو شالار سنة 1635 فرضوا عليه كشرط لاقتكاك أسرى بلاده أداء ثمن الشراء الذي دفعه الملاكون في المزاد فضلا عن زيادة قدرها 40 % من السعر

¹ Brunot - Op. cit - p 163-64.

² Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 562.

³ Ibid - p 669-70.

⁴ Ibid - Angleterre - T II - p 591.

المذكور كربنج صافي¹. وحتى خلال فترة سيطرة الدولة على هذا القطاع كانت الأسعار المطلوبة من طرف السلطان مهمة جدا، بلغت سنة 1689 إطلاق سراح أسير مسلم زيادة عن مائتي إيكوس (ما يعادل ستمائة ليرة) لقاء تحرير كل أسير فرنسي²، علما بأن المبلغ الأخير وحده كان عادة السعر المؤدى عن كل أسير مسيحي. وقد كان الاهتمام الكبير الذي يوليه السلاويون إلى تجارة الأسرى الخارجية، متوقفا على المجهودات الأوروبية الكبيرة في هذا المجال، واستمرار ورود سفن الرهبان المخلصين، وبذلك أقصى ما يمكن من أجل إطلاق سراح أكبر عدد من الأسرى طوال القرن، رغم التطور الملحوظ الذي عرفته أسعارهم. فحتى بداية عهد الديوان كان سعر اقتداء الأسير الواحد يقارب مائتي ليرة سنة 1629، وهو ما كان يوازي أو يقل عن ثمن الأسير السلاوي في أسواق أوروبا³.

ومع تطور قوة الجهاد البحري واتساع رقعة الأسرى، ارتفع هذا السعر ليتضاعف ثلاث مرات في ظرف ست سنوات، حيث أن دو شالار في سعيه الدؤوب، وبعد نجاحه في افتكاك مجموعة أولى سنة 1635، استطاع أن يحصل على حرية أربعين آخرين مقابل وعد بأداء مبلغ يقارب الثمانية وعشرين ألف ليرة بضمانة من القنصل غاسبار دي راستان (G. de Rastin) المستقر بسلا⁴. وقد استقر السعر عند هذا المستوى - أي ستمائة ليرة - على صعيد عام حتى أواخر القرن⁵؛ فحسب لائحة الأسرى المفتكين في شهر شتنبر 1674 التي ضمت ستة وخمسين فرنسيا ظلت الأسعار على العموم في حدود الستمائة ليرة، ولم يرتفع هذا السعر إلا بالنسبة لسته أسرى بلغ أقصاه ألفا وثمانمائة ليرة تقريبا، وتميز ملاكو هؤلاء الستة بكونهم إما عدة شركاء أو لأحد رجال السلطة⁶، أو أحد التجار اليهود⁷؛ في حين كان نصف الباقي

¹ Ibid - France - T III - p 502-03.

² Ibid - 2° série - France - T III - p 283.

³ خلال سنة 1629 باع الفارميس الفرنسي دو رازيلي اثني وخمسين أسيرا سلاويا بمبلغ إجمالي وصل إلى ستة عشر ألف ليرة (معدل أزيد من ثلاثمائة ليرة عن الأسير الواحد)، وتوصل إلى اتفاق مع سلطات الديوان بقضي باقتداء الأسرى الفرنسيين الموجودين بسلا مقابل أداء ثمن شرائهم من طرف الخواص في المزاد، أي ما يقارب مائتي ليرة عن الأسير. انظر: Les S. I. H. M. - 1° série - France - T III - p 201-02.

⁴ Penz - Op. cit - p 49.

⁵ خلال سنة 1688 قدم الرهبان الفرنسيون الإسبان إلى المغرب لافتكاك خمسمائة وخمسين أسيرا إسبانيا بسعر مائتي إيكوس (ستمائة ليرة) للفرد. انظر: Les S. I. H. M. - 2° série - France - T III - p 157.

⁶ Ibid - T I - p 452 note.

⁷ Ibid - p 453.

تقريبا الذي تم اقتناكه بأقل من المعدل المذكور (بين مائتين وثلاث عشرة ليرة وخمسمائة وإحدى وتسعين ليرة)، يتراوح عمره بين الثلاثين والستين سنة وفي ملكية تجار عاديين¹.

والى جانب الأسعار الصافية، كانت تنضاف إلى مصاريف الافتكاك مبالغ تخصم كضريبة تؤدي لملك الأسير تعويضا له عن حق الأبواب الذي أداه سلفا عند دخول الأسير إلى المركز، وكان هذا الحق يبلغ خمسة مثاقيل (ما يعادل عشرين ليرة)²، وساندا طوال فترة الجهاد ما قبل العهد العلوي، وارتفع بعد ذلك ليصبح في شكل نسبة تضاف إلى قيمة بيع كل أسير محددة في 12.5 %، وكانت تؤدي كحق خروج لجمارك المرسى³.

وقد كانت الأرباح المتولدة عن الجهاد البحري سواء في ما يخص تجارة المغام أو فديات الأسرى تغطي كليا تجهيزات المدينة الجهادية، وتتوسع لتشع بتأثيراتها المالية والبضائية على المراكز الأخرى، خصوصا الرئيسية منها؛ وكان ازدهارها مرتبطا بجهود اليهود والهولنديين العاملين على هامش النشاط الجهادي، موفرين - بفضل الأموال التي يوجهونها إلى مصب أبي رقراق في شكل مبالغ لشراء المغام، وبفضل تجارة تهريب اللوازم الملاحية والعسكرية الضرورية لحياة هذا النشاط - رواجاً تجارياً مهما يستغلون تبعاته، كنتيجة لندرة النقد المحلي الناجم عن انتقاص موارد المسكوكات، ومؤثرة بتأكيد على الأسعار المغربية التي لم تواكب تطور الأسعار الأوروبية إلا بشكل ضعيف⁴.

وبمقابل الاستفادة المزدوجة المحققة من طرف التجار اليهود والأوربيين من جهة، ورجال الجهاد من جهة أخرى ومن ارتبط بحركتهم، لم تكن المناطق المغربية الداخلية لتستفيد فعليا من هذا النجاح الاقتصادي - إذا ما استثنينا حركة التجارة ونقل الأموال إلى مركز السلطة في العهد العلوي - لكون القوة العضلية البخسة التي كان يوفرها الأسرى كانت تقف حاجزا دون فتح المجال أمام كفاءات الداخل المحلية

¹ Ibid - p 451-59.

² Dan - Op. cit - p 440.

³ تم افتكاك الأسير الفرنسي غالويه سنة 1674 بسعر خمسمائة وخمسة وعشرين إيكوس (ما يعادل ألفا وثمانمائة ليرة تقريبا)، وكان واجب الخروج محدد في النسبة المذكورة من سعر الافتكاك، أي حوالي مائتي ليرة. انظر: Les S. I.

H. M. - 2^e série - France - T I - p 448-49.

Monlaü - Op. cit - p 95.

للمشاركة في هذا النشاط مما جعله يبدو وكأنه يساهم في الإبقاء على ضعف تمويق العمل بتوفيره لقوة عمل قابلة للتسخير ومتجددة على الدوام، بنفس قوة امتناعه عن احتضان قوة فائضة متمركزة خلف أسوار المدينة، وبـ نفس قوة خلقه لمنافسة غير عادلة تقضي منافذ التصنيع التقليدي المحلي، بفعل كثافة المغنم التي تلقي ببضائعها المنتصرة في المنافسة داخل السوق¹. وقد منح هذا صورة لمجتمع حضري ثري بمنخراته المالية، وشروط عيشه الراقية داخل وسط بدوي أو شبه قروي، أضحت منذ البداية هوة التباعد بينهما، وراحت وتيرتها تزداد اتساعا موسما عقب آخر.

الباب الثالث

التطور المرحلي للجهاز البحري

إن وضعية السلم التي نزعنا إليها دول أوربا في مطلع القرن 17 لم تكن فعلية ولا مبنية على رغبات حقيقية، إذ سارع مختلف الفرقاء إلى استغلالها كفترة توقف التطاحنات بهدف إعداد تنظيماهم وقدراتهم العسكرية تهيؤا لحروب مستقبلية، وخلال ذلك لم يتورعوا على الدخول في معارك صغيرة من أجل تحقيق تفوق استراتيجي على الخصم، إما بتمتين التحالفات القارية¹، أو بمحاولة جر أطراف غير أوربية للتأثير على التوازن السياسي القائم لفائدة أحد المعسكرين البروتستانتى والكاثوليكي. ولهذا السبب عرفت الواجهة الخلفية لأوربا والمناخمة لامتدادها الحيوي - ونعني بذلك شمال إفريقيا، والمغرب بالأساس - عودة للضغوط الأوربية، تمثلت في معاودة مشروع الاحتلال الإسباني على شاكلة مشروع القرن 16؛ بيد أنه وأمام التكاليف الباهظة التي لم تعد الإمبراطورية المنهارة قادرة على توفيرها فرض عليها الاكتفاء باحتلال العرائش (1610) والمعمورة (1614)، مفضلة على ذلك نهج خطة تواجد أسطول قوي ومتحرك في المحيط بدلا عن إتمامه²؛ في حين كانت القوات المنافسة للإسبان قد استلهمت الخطة السياسية الموروثة عن علاقاتها بالمغرب منذ عهد عبد المالك المعتصم، في محاولة لاستمالته للدخول معها في حلف مضاد لإسبانيا، تطور من استعماله كورقة ضغط إلى مباشرته على الأقل في صورته التجارية، وما رافقها من استغلال للسفن الإنجليزية والهولندية لامتيازاتها بالمراسي المغربية لمهاجمة السفانة الإسبانية³، بل سعت هذه القوات لدى السلطات المحلية من أجل الحصول على تنازلات ترابية، تقضي بجعل بعض المراكز الساحلية قواعد بحرية عسكرية⁴.

وقد كان من شأن هذا التقارب أن يدفع بالأطراف المتحالفة إلى الرغبة في تطويره، مستفيدة من مصاعب إسبانيا؛ وبرز خلال أزمة الأندلس اهتمام مغربي-هولندي اتجه نحو التفكير في القيام بعمل عسكري مشترك فوق التراب الإسباني⁵، قمت خلاله الأقاليم المتحدة الضمانات القيمة بتوضيح حسن نيتها لبقاء هذا التنسيق

¹ انظر التحالف الهولندي-الإنجليزي بالانحياز الفرنسي ضد الإمبراطورية الإسبانية الذي تم منذ نهاية أكتوبر 1596. انظر: *Lex S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T I - p 22-23.*
² Louis Mougin: "Projet d'occupation de la Qusbah de Rabat par l'Espagne en 1619" - in *Revue de l'O. M. M. - 2^o semestre 1978 - Aix Marseille - pp 122 et 133.*

³ *Lex S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T I - p 9.*
⁴ في مارس 1605 أمر مجمع الولايات العلية بلاهاي مبعوثه لدى ليبي فارس بطلب تشكيل الأقاليم المتحدة من استغلال السفينة كقاعدة بحرية لمهاجمة سفن إسبانيا. انظر: *Ibid - p 50.*
⁵ في سنة 1609، أثناء هجوم الأنديسيين بإسبانيا، ومكتبتهم مولاي زيدان باستعدادهم للقيام بثورة يشارك فيها مائتي ألف رجل طالبين دمه في هذا الصدد، أطلع السلطان الهولنديين على المشروع مستفسرا إن كن بالعمدور إمداده بالرجال والسفن للحملة إلى إسبانيا. وقد أجابه ممثلو الأقاليم المتحدة بأنها على استعداد لتقديم له أقصى ما يمكن من

قائما، تمثل في تحرير أسرى مغاربة كانوا معتقلين على متن سفن إسبانية¹. وبتوسيع العلاقات الدبلوماسية المتمثلة في إيفاد البعثات العاملة لمصلحة استمرار التحالف الاستراتيجي²، وبتدعيم الموقف العسكري للمغرب بتمكينه من كافة المواد الضرورية لتحسين مراكزه الساحلية³، ولخلق قوات بحرية ضاربة بإنشاء نواة أسطول مغربي، وأيضا بجعل طواقم هولندية تحت إمرته⁴؛ هذا ما سيدفع الأوساط السياسية الإسبانية إلى اتخاذ التدابير الوقائية المستعجلة، والتي تمثلت في مهاجمتها للسفن المغربية بنجاح كبير سنة 1611⁵.

هذا السباق الأوربي من أجل ربط المغرب بسياسات المتنافسين سوف يأخذ بعدا آخر بعدما راح ميزان القوة يتغير لفائدة المعسكر البروتستانتي، حيث بدأ التباعد بين قوتي هذا الأخير الرئيسيتين: إنجلترا والأقاليم المتحدة، وتضاربت مصالحهما الاستراتيجية⁶. فقد أضحى النفوذ الاقتصادي المتطور للدولتين على حساب الخصم السياسي المنهك دافعا لقيام كل منهما بمناورات ضد الأخرى من أجل كسب المغرب إلى صفها، أو على الأقل إحراز سبق سياسي وتجاري لفائدتها على حساب الأخرى. ولهذا سعت إنجلترا إلى استغلال بداية مفاوضات الهدنة بين الأقاليم المتحدة وإسبانيا سنة 1607 لضرب علاقتها بالمغرب⁷، وكادت أن تنجح في خطتها بمسارعة مولاي زيدان إلى اتخاذ إجراءات انتقامية ضد التجار الهولنديين وسجن ممثلهم، وطرد الجاليات الهولندية والفرنسية والإسبانية بناء على إشاعة إنجليزية أوحى بتقارب هولندي-إسباني على حساب المغرب، لولا نجاح المبعوث الهولندي بيتر مارتينيز كوي (P. M. Coy) في تفنيدها⁸.

بل إن الأمر تعدى مستوى التناور السياسي ليتخذ صبغة عسكرية تمثلت في الحصار الهولندي المضروب على النشاط القرصني الإنجليزي⁹، وتنافس قوات

¹ Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T I - p 50.

² Ibid - p 12.

³ Ibid - p 668.

⁴ Ibid - pp 310 et 327.

⁵ نتيجة بروز الأسطول المغربي بفضل المساعدة الهولندية، قرر فيليب الثالث القضاء عليه، موجها في بداية شهر شتنبر 1611 بوارج حربية من نونكرن بقيادة دون رودريغو دا سيلبا (D. R. Da Silva) لهذا الغرض. انظر: Ibid - p 672.

⁶ Brignon - Op. cit - p 229.

⁷ Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T I - p 5.

⁸ Ibid - pp 232 et 253.

⁹ Ibid - p 224.

المهاجر العربي مصب أبي رقران

الطرفين على ميناء المعمورة، والذي رغم انتهائه بتفوق الأوانل حالت جودة العلاقات المغربية-الهولندية نون احتلاله، الأمر الذي سيكون له انعكاس إيجابي سعت الأقاليم المتحدة إلى استثماره مع تطور الأحداث المغربية، خاصة أحداث مصب أبي رقران.

الفصل الأول: مرحلة الانطلاقة

يجب الاعتراف بدءاً أن انطلاقة الجهاد البحري بمصعب أبي رقرق تعود إلى الربع الأخير من القرن 16 بجهود رسمية، وأن تبيننا لفكرة انطلاقه في بداية القرن 17 أنت لتكون العمليات التي سبقت هذه الفترة لم تكن منتظمة، ولا يتعدى نطاقها المياه المتاخمة لمراكز الاحتلال، وفي أحسن الأحوال تنفذ بعضها على سواحل جنوب إسبانيا. ويرجع هذا إلى ضعف الأسطول المغربي الذي لم يتعد على عهد أحمد المنصور العشر سفن، لأنه لم يكن مهماً في حد ذاته بقدر استعماله كورقة ضغط من لدن السلطان السعدي في السياسة العالمية، والتي كانت مسؤوليته في الحكم تفرض عليه المجابهة المستمرة للتحديات الأوروبية والعثمانية.

وانطلاقة الجهاد البحري بالمصعب نجمت عن ظهور متغيرات ملانمة للمضي فعلياً في نشاطه، بتدعيم الظروف الثابتة (الموقع والإرث الملاحى) بأخرى متحركة (عناصر جديدة واستفادة سياسية)، مع ما رافقها من علو قيمة المراكز الأطلننتيكية المغربية بتأثير من النزاع الأوربي-الأوربي حولها من أجل الريادة السياسية والاقتصادية. وقد مكنت هذه الوضعية منطقة المصعب - المستفيدة من بعدها عن التأثير المباشر للحرب الأهلية - من لعب دور فعال في هذا الصدد، وارتقاء جهدها العملي وتناجها الاقتصادية إلى درجة صارت معها أحد المراكز الجهادية الأكثر أهمية¹.

1- مصعب أبي رقرق في العهد السعدي الأخير

إن الصراع حول الملك بين ابني أحمد المنصور: مولاي زيدان وأبو فارس، ما كان ليخدم إلا مصلحة ولي العهد السابق محمد الشيخ المأمون، فبعد أن استطاع الحصول على ثقة أخيه أبي فارس الذي أطلق سراحه، واشركه في النزاع ضد مولاي

زيدان، انقلب عليه وأصبح منازعا رئيسيا على حكم البلاد، ساعيا إلى توسيع نفوذه انطلاقا من مركز فاس، وحاول بسط سلطانه على المناطق الشمالية. وفي هذا الإطار بعث بابنه عبد الله إلى منطقة المصعب حيث استطاع سنة 1605 اقتحام القصبية بعد حصار شديد¹، وكانت تلك أول إشارة عنها عقب وفاة أحمد المنصور. ويفترض أن ظل خضوعها للمأمون كباقي مناطق الغرب، خاصة وأنه خلال حروبه ضد أخويه قد وجد نفسه مجبرا على استخدام عناصر عسكرية مدربة على الأسلحة النارية، وكان لا يتورع على سد حاجياته البشرية هاته بتسخير طواقم السفن الأوربية الراسية في الشغور الشمالية، ومن ضمنها مرسى سلا كما حدث سنة 1606².

ويبدو أن الوضعية قد ظلت ثابتة إلى حين بداية تغير ميزان القوة لفائدة مولاي زيدان في ربيع 1609، وشروع الشيخ المأمون في التفكير في اللجوء إلى إحدى القوات الأوربية³؛ حيث ساد الغموض الأحداث السياسية للمصعب باستثناء ما يقدمه الناصري من كون سلا قد ظلت تحت إمرة عبد الله بن الشيخ، مشيرا إلى تواجده بها في سنة 1020هـ/1611م⁴، وهي فترة زامت توافد طلائع الأندلسيين الذين لم تذكر المصادر مشاركتهم في الأحداث، رغم ما عرف عنهم من حنكة ودراية في المجال العسكري لا تغيبان عن بال السعديين.

وتوحي المؤلفات المتحدثة عن مصب أبي رقرق بأن الاستقرار الأندلسي قد تم تحت سلطة مولاي زيدان، الذي نصب على الوافدين الجدد القائد فاضل الزعروري الأنصاري⁵ بمساعدة عناصر أندلسية على رأسها الكاتب موسى سننجاغو⁶، وحامية مكونة أصلا من الحرناشيين⁷، رغبة منه في إخضاع المنطقة وعناصرها لسلطانه، لا سيما وأن ابتعادها عن العاصمتين قد جعلها تبدو أقرب للظهور كمنطقة استقلال ذاتي

¹ الشاذلي - نفسه - ص 88.

² Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T I - p 106 et Angleterre - T II - p 308.

³ كان تفكير الشيخ المأمون منصبا في البداية على اللجوء إلى فلورنسا. Ibid - Pays-Bas - T I - p 160.

⁴ الناصري - نفسه - الجزء السادس - ص 53.

⁵ محمد الصغير الوقراني: "نزرة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي" - تصحيح هوداس - الطبعة الثانية - مكتبة الطالب/ الرباط - د. ت. - (الطبعة الأولى - مطبعة أبردين - أنجي 1888) - ص 264.

Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T III - p 271.

Mougin - Op. cit - p 122.

خلال السنوات الأولى للقرن 17¹، وهو ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن نفوذ مولاي زيدان قد امتد إلى مصب أبي رقراق منذ الاستقرار الأندلسي بالمنطقة. وقد أدى هذا الاستقرار إلى انتعاش المنطقة على مختلف الواجهات، بغض النظر عما أحدثته من بداية التوتر الاجتماعي بين السكان القدامى والجدد. فالإنتاجية الاقتصادية بالمنطقة تصنعيا وفلاحة وتجارة سوف ترتفع قيمتها بناء على استقرارها السياسي النسبي²، ممولة خزينة السلطة بمداخل مهمة قياسا بالمناطق الأخرى الفارقة في الفوضى والكساد؛ كما أن بقاء المصب كمرفأ تجاري بعيدا عن الضغوط الأجنبية قد ساهم في إنعاش مداخل الجمر ك بإخضاع البضائع والمحاصيل لاقتطاع نسبة 15% من قيمتها³.

ومع بداية تعاطي الأندلسيين للجهاد البحري زادت أهمية مداخل المنطقة بحصولها على مغنم مهمة، ومدمعة في الوقت ذاته أسطول الجهاد الناشئ منذ الاستقرار الأندلسي (1610)⁴، مما مكن الدولة من عشر المغنم (10 %) تحت إشراف القائد ومساعديه، من أجل تغطية مصاريف صيانة القسبة وإمداد الجيش⁵. وسوف يوفر سقوط المعمورة في يد الإسبان (غشت 1614) الظرف الملائم لتطور المصب مع انتقال الفارين من الثغر المذكور إلى سلا الجديد، واتخاذهم لمرسأه كقاعدة جديدة لنشاطهم بمساعدة الأندلسيين⁶، فراح الجهاد البحري يتبلور تدريجيا مستدعيا ضرورة توفير التجهيزات العسكرية الملائمة للدفاع عن مدخل المرسى، بتشييد حصن قوي "برج المجاهدين" في جانب القسبة المطل على النهر⁷، وبتجهيزه بمجموعة قطع مدفعية مستوردة من الأقاليم المتحدة⁸.

من جهة أخرى كانت الحروب المفروضة على مولاي زيدان في المناطق الجنوبية قد دفعته إلى اتباع سياسة أسلافه في إدماج المسلمين القادمين من الأندلس في

¹ Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T V - intro. p IV.

² الشافلي - نفسه - ص 40.

³ Ibid - T III - p 271.

⁴ كتب السفير الفرنسي بمغريد إلى الملك هنري الرابع في أبريل 1610 مشيرا إلى أن بعض الأندلسيين اللاجئين إلى شمال إفريقيا قد جهزوا بعض السفن، وشرعوا في الجهاد البحري معيدين تجهيز السفن التي يضمنونها. انظر: Ibid - France - T II - p 502

⁵ Ibid - Pays-Bas - T III - p 271.

⁶ Mougin - Op. cit - p 122.

⁷ De Castries: " Le Maroc... " - Op. cit - p 819.

⁸ Coindreau - Op. cit - p 42.

الفرق العسكرية الرئيسية، بغية استخدامهم ضد الخارجين عن سلطته لما يمتازون به من خبرة وكفاءة. وأدت هذه السياسة - بحكم ولائهم له - إلى جعل مصب أبي رقرق أحد روافد تحريك آلة المعارك، حيث أمر قائده الزعروري بتجهيز أربعمائة أندلسي لحركة بدرعة ضد أبي حسون السملالي¹؛ بل إن حاجته لخبرتهم كانت تدفعه إلى التفكير في تقليدهم مهام رفيعة، مثل تعيينه يوسف بسكاينو سفيرا له لدى الأقاليم المتحدة².

وهذه الالتزامات المفروضة على ساكنة سلا الجديد ما كانت إلا لتضطر بمصالح الأندلسيين، نظرا لما يتطلبه إشراكهم في حملات لا تعنيهم لا من قريب ولا من بعيد إلى مناطق نائية وغريبة عنهم من تضحيات بشرية، مع ما رافق ذلك من ظروف حياة مستحيلة كادت أن تدفع بالعديد منهم إلى الفرار³، فضلا عما ألحقه النظام الضريبي واستبداد ممثلي السلطة بنصيب وافر من مداخل الجهاد من أضرار بمصالحهم الاقتصادية، كلها عوامل شجعت على ظهور بوادر الانفصال المرشحة للتنامي مع الزمن.

من ثم، أضحت التباعد بين السلطة المركزية بمراكش والأندلسيين واقعا أخذوا في التطور، إلى درجة دفعت ببعض المؤرخين إلى التنصيص على أن بداية ثورتهم ضد مولاي زيدان قد حدثت بعيد استقرار آخر أفواجهم (سنة 1615)⁴، لما صار لهم من قوة مؤثرة في توجيه سياسة المنطقة ورجحان ثقلهم الديمغرافي بها؛ خاصة وأن إحساسهم بتواجدهم بعيدا عن موطنهم الأصلي وارتهانهم لسياسة لا تعنيهم في شيء قد أثر بشكل فعال في دفعهم - على غرار علوج وإنكشارية الجزائر - إلى محاولة الحصول على حريتهم واستقلالهم الذاتي؛ علما بأن الظروف المحيطة بهم اجتماعيا لم تكن تبدي أي تشجيع على الاندماج في الوسط الجديد، بل كان تباعدهم مع أهالي المنطقة لا يتورع عن جعل مشاعر العداء تطفو على السطح، إلى درجة جعلت المبعوث الهولندي البرت رويل (A. Ruyl) يكتب عن استعداد كلا الطرفين لبتر العشب من تحت أقدام الآخر⁵.

¹ الوفراني - نفسه - ص 264.

² Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T IV - p 73.

³ نفسه والمصنف.

⁴ حركات - نفسه - الجزء الثاني - ص 287.

⁵ Ibid - T III - p 272.

وحتى الوضعية الداخلية للضفة اليسرى لم تكن لتدعو إلى الاطمئنان نتيجة سطوة عنصر على باقي العناصر الأخرى؛ إذ بفعل استقرارهم الأسبق كانت للحرناشيين حظوة في مجالات الحياة، متحكمين في دفة المسار السياسي والاجتماعي بقيادتهم وإشرافهم على الحامية العسكرية، الأمر الذي جعلهم يمارسون سلطة تتشدد يوما عن يوم، مذللين العناصر الأندلسية الأخرى، ومرعين التجار اليهود المتكدسين في حواري المدينة¹. ونظرا لغناهم عملوا من جهة ثانية من أجل الحفاظ على الوضع الاقتصادي، مستبدين بأهم الأنشطة التي تمكنهم من تنامي ثرواتهم، ونعني بذلك تنظيم الجهاد البحري الذي لم يكن مسموحا بالمساهمة في تمويله وفي أرباحه إلا لسكان القنصة الحرناشيين².

وإن كان هذا الطرف قد ولد تعارضا بين العناصر القوية في المصوب والسلطة الرسمية من جهة، فإنه من جهة أخرى قد خلق لدى العناصر المحرومة من مداخل الجهاد - والتي كان يعتمد عليها في تسييره - رغبة في تغيير الوضع لفائدتها، وهو ما يبرر تشدد الحرناشيين إزاء باقي الأندلسيين الذين كانوا هم مستقدموهم إلى المنطقة بهدف الحفاظ على التراتبية الاجتماعية القائمة آنذاك، وحذرهم الشدد تجاه بعضهم البعض في هذا الصدد، ومزاجهم المضطرب الناجم عن إحساسهم بالتميز عن باقي عناصر المنطقة. وسيكون لهذه الظروف أثر فعال في اندلاع الحرب الأهلية بينهم من جهة، وبين الضفتين من جهة أخرى³.

وقد واكب هذه الفترة بروز التأثير السلبي الناتج عن تمركز الإسبان بالمعمورة، والذي عرقل أنشطة سلا الجديد سواء منها الجهاد البحري بحكم استغلال المركز المنكور كنقطة مراقبة وقاعدة تدخل قريبة منها، أو عرقلة علاقاته بمنطقة الغرب التي ظلت تشكل منطقة إنتاجية خلفية لفاعليات المصوب، الأمر الذي فرض على السكان المدفوعين بالحماس الديني إلى التفكير في ضرورة مجابهة الوجود الإسباني، خاصة وأن الأندلسيين لم تلتئم جراحهم، وأن السلطة الرسمية لم يعد بمقدورها الاضطلاع بدورها كحامية لصالح المسلمين، ممكنة منطقة المصوب من تبريرات وحجج تذكي

¹ Coindreau - Op. cit - p 42.

² Les S. I. H. M. - 1^{re} série - Pays-Bas - T III - p 272.

³ Leroux - Op. cit - p 22.

رغبها في الابتعاد عنها إلى درجة القطيعة من قبل سلا البالي¹، والتمثيل الشكلي بالقصبة وسلا الجديد.

لقد بلغ المجاهد العياشي سلا البالي خلال مرحلة انسلاخ المنطقة عن سلطة مولاي زيدان، ووجد فيه سكانها خير من يمكنه تحمل مسؤولية الجهاد ضد العدو، وبديلا عن السلطان الذي أصبح يحاييه ويضيق على رجال الجهاد، ومن بينهم محمد العياشي نفسه². وقد كان من شأن ذلك إذكاء حماسه الجهادية خاصة وأن جو الحرب المقدسة ورغبة الثأر من إسبانيا على أشدها في أوساط الأندلسيين والأهالي على السواء³. وأمام الخطر الذي أضحى يشكله على السلطة بالمنطقة سبحاول مولاي زيدان وضع حد لشهرة العياشي، موجهها إلى القائد الزعروري الأمر بتصفيته أو اعتقاله⁴، بيد أن تضالؤ نفوذه بالمصب ومعارضة عناصر المنطقة لسياسته في مسألة الجهاد جعل تنفيذ القرار أمرا مستحيلا⁵.

لم يجد أهالي سلا البالي بدا من الدخول تحت إمرة المجاهد قاطعين صلتهم نهائيا بالحكم السعدي، في وقت ظلت فيه الضفة الجنوبية مرتبطة إسميا بالسلطان. ولم يمنع هذا أن تبقى العلاقات بين العدوتين على مستوى الجهاد قائمة، كالتنسيق بين القوات البرية التابعة للعياشي والقوات الأندلسية البحرية لمحاصرة المعمورة (1621)، قبل أن يمتد الاختلاف الاجتماعي ليشمل المجالين العسكري والسياسي؛ حيث ستأخذ حدة التباين بين الأندلسيين والأهالي اتجاها سلبيا نحو العداء العلني، لا سيما وأن الاستقرار الجديد قد زرع الاستقرار الاقتصادي للمنطقة باستفادة الضفة الجنوبية على حساب صنوتها الشمالية، دافعة ببعض المؤرخين إلى الإشارة إلى فتور العلاقات بينهما منذ بداية عهد العياشي⁶. وربما كان ذلك عمليا إذا ما انتبهنا إلى دوافعه الجهادية ضد

¹ يقول النكالي: "اجتمع أهل سلا على الذهاب إلى زيدان بمراكش، فوفدوا عليه يطلبون منه الإعانة على العدو بذلك، الذي دخل المهدي وشرع في تحصين البلاد بالبناء وصار يضرب نواقيسه؛ فلما سمع العدو بذلك أقدم زيدان رسله بهدية من مرسى البريجة فقبضها، فلم أهل سلا أنه لا ينصرهم ولا يعينهم، فرجعوا إلى سلا وقطعوا ذكر اسمه من الخطبة". أنظر: الإتحاف الوجيز - ص 29.

² الوفراني - نفسه - ص 264.

³ Brignon - Op. cit - p 222.

⁴ الوفراني - نفسه والصفحة.

⁵ للناصري - نفسه - الجزء السادس - ص 51.

⁶ Mougín - Op. cit - p 128.

الإسبان اللل كانللل تعارضهلل شكوك مئارة من طرف بعض الأندلسلللن فلل محاوللهم اللللللل مع هؤلاء¹.
وأمام هذه الضغوط اللل صارت القصلبة وسلا اللللل تتعرضان لهل، والممئللة فلل تعسف مخزنل يطالب السكان بالمزلل من الإمدادات البشرلة والمالللة، وفلل مركز مناخل تئذر العللقات معه بتطور نحو الأسوأ، صار لزاما على الأندلسلللن الللخلص من ألل نفوذ أو تأللرللل يعارض مع مصالحهم. ولذللك سعلوا إلى اللللللل استقللال ذاتل ألل معملللن على نئائج عملللئهم اللللللة اللل راحت تجبر القوائل الأوربللة على الللقررب منهم، وعلى إرسال مبلعوللها لللللاوض معهم وطلب ودهم²، مقدمة فلل ذللك نئازلل صار مع الوضلع فلذر بالانفجار، وبللل الأندلسلللن بلللنلون الفرصة للانسلال عن اللللك السعلل ومطالبه المئكررة، مستغللن هشلشة العللقة بللن مركز السلطة والقواذل اللللبللن له كئئلجة لللللضع السلللسل العام. فسار عوا إلى الللخلص من القانذل الزعرورل فلل مطلع سنة 1627³، وإلى القضاء على خلفه القانذل عللبل العللج، بللعلوا بلذللك عن استقللالهم وعن انئظامهم فلل حكمل جمهورل بلوئوقراطل⁴.

2 - بروز النشلط اللللللل

بلللق المؤرخون على أن الاستقرار الأندلسل بمصبل أبل رقرار كان أساس الانطلاقة الفعللة لللللل البحرل، إل أن هؤلاء المطرودلن من منائلهم الأصللة قد حملوا معهم إلى المنطقة وكفلرهل من المنائل السائللة الإسلاملة حقلهم اللللن تجاه الإسبان، ورغبئهم العظلمة فلل الأخذل بئارهم ممن ساموهم اللل وسلبوهم أراضلهم ومناعئهم⁵. وقد استفادوا من تمركلزم على بعد فراسل قليلة من الأندلس وسار عوا إلى تضللل الللخال على أعدائهم وإلى الللقلصاص منهم، بالانئظام فلل نوع اللللل

¹ فلل فلالر 1619 بعئ قلذل مازلان الإسبانل برسالة إلى فلللب اللالل بللرهل بأن قلعة سلا (القصلبة) تطلب الانسلواء نللل سلطئهل، مئمنلا الللللل هذه الرلغة. وقد تمئل المئاللئال بئلل وبئل أندلسل من سلا وعده خلاللها هذا الأللر بللللم القصلبة. انظر: T III - p 44 - Les S. I. H. M. - 1^{re} série - France

² Ibid - Angleterre - T II - p 441.

³ الوفرالل - نئسله - ص 264-65.

⁴ Ibid - p 444-45.

⁵ Dan - Op. cit - p 206.

إن مقوم
فلول القراص
الأخرى، وأ
يستعملون الم
المركز مختل
الأخرى.
فقد جعلت
المهملين، من
وأحيانا بعثات
الانتقال من مر
عموما، باعتب
الأندلسي بالرش
العلوم، خاصة
أدواتها بفضل
وحتى البشرية
والمقلت للال
ليختص به سكا
البري وابتعادهم
إلى الضفة اليمس
وموقعهم الاجتماع
بالنشاط الجهادي

وحرى من الحرب المقدسة، امتد مسرحه في عرض الشواطئ المغربية، وأحيانا في أعالي البحار، مشكلين عن غير قصد درعا بحريا واقيا ضد الضغوط الأوروبية المباشرة على السواحل المغربية المشابهة لضغوط القرن 16، بفتحهم لجبهة جديدة مجالها المناطق البحرية وخطوطها التجارية، والتي تتسع أحيانا لتشمل الشواطئ الإيبيرية والأوروبية الغربية، من أجل استنزاف وامتصاص قوة العدو كاستراتيجية جديدة في الكفاح الوطني.²

لقد خلق استقرار الحرناشيين بالقصبة تحركا هاما في عموم المصعب، دافعا به للاصطلاح بدور ريادة في الجهاد، خاصة وأنهم قد جلبوا معهم من الأندلس ثروات مهمة تتطلب منافذ استثمارها في وسط لا يفي بالغرض نتيجة الاختلاف الواضح بين الضفتين، الأمر الذي سيدفع بهم إلى خلق نشاط جديد لا ينافسهم المستقرون القدامى فيه، مولدين بذلك اتحادا بين الرغبة النفسية والطموح الاقتصادي الذي سيجد فرص نجاحه في استغلال المجال البحري كواجهة للجهاد، وكميدان استثمار مربح، فسارعوا إلى تجهيز المراكب، وإلى ملاحقة السفانة الإسبانية وسواحل إيبيريا منذ وصول إخوانهم المطرودين.³

وإنما تفسر الانطلاقة الموفقة للجهاد البحري بكون الأندلسيين قد عمدوا إلى استغلال مداركهم الاجتماعية السابقة التي فرضت عليهم بإسبانيا، فكانوا يتحدثون القشتالية ويرفعون أعلام إسبانيا فوق صواري السفن، ويختفون وراء مظاهر التجارة متحايلين يبسر على السفن التي يصادفونها على البحر⁴؛ وحتى حملاتهم على شواطئ إيبيريا كانت تنفذ بسهولة بفعل تنظيمهم لحلقة تجسس حقيقية بين المصعب وإسبانيا، مكنتهم من ضبط مناطق ومواسم الصيد، ولم يتورعوا أحيانا على إنجاز بعثات جريئة في عمق التراب الإسباني بحكم معرفتهم بمسارات الشواطئ.

¹ Burlet - Op. cit - p 20.

² عبد العزيز بن عبد الله: "البحرية المغربية والقرصنة" - مجلة تطوان - عدد 3-4 - ص 66.

³ Monlati - Op. cit - p 63.

⁴ الشافلي - نفسه - ص 100. وجاء في مذكرة لعلومهم وكلمهم يساهمون في لا النواكث، ويستعملون

إن منقوط المعمورة في يد الإسبان قد عزز النشاط الهلادي بالمصوب بوصول
فلول القراصنة الذين كانوا بها، خصوصا الإنجليز، لينضموا بخبراتهم إلى الفاعليات
الأخرى، وأساسا بحارة شمال إفريقيا بأصولهم المتوسطية المتنوعة الذين ظلوا
يستعملون المصوب كقاعدة مركزية للنشاط المحيطي، مما وصم الضفة اليسرى بطابع
المركز مختلط الساكنة، المتشابه بشكل كبير مع باقي المراكز الهلادية والقراصانية
الأخرى.

فقد جعلت بداية ازدهار العمل الهلادي من سلا الجديد قبلة لمجموعات مهمة من
المهتمين، من مغامرين وتجار بضائع ومهربي أسلحة وبعثات افتداء الأسرى،
وأحيانا بعثات دبلوماسية، لا سيما وأن النجاح الاقتصادي قد دفع المجاهدين إلى
الانتقال من مرحلة مهاجمة السفن الإسبانية إلى مرحلة مواجهة الأساطيل المسيحية
عموما، باعتبار الحس الديني المتأجج ضد النصرانية جمعاء. فقد أمدت المغام
الأندلسي بالرغبة القوية في الاستمرار، لأن الربح والفائدة يولدان الحرص ويلهمان
العلوم، خاصة وأنه قد وجد ظروفًا مساعدة له تمكنه من إتقان فنون الملاحة وتطوير
أدواتها بفضل العون المقدم من طرف الهولنديين الذين أمدوه باحتياجاته المادية،
وحتى البشرية أحيانا².

والملفت للانتباه أن تركب النشاط الهلادي كلية على ضفاف الجانب الأيسر للنهر
ليخص به سكان سلا الجديد وقصبتها، مقابل تخصيص سكان سلا الهلالي بالجهاد
البري وابتعادهم شبه الكلي عن الأول³، وحتى من اهتم منهم بذلك كان عليه الانتقال
إلى الضفة اليسرى المحتضنة للميناء؛ في حين كان الحرناشيون بفضل ثرواتهم
وموقعهم الاجتماعي - الذي يبرزهم كقوة اقتصادية وسياسية واجتماعية - يستأثرون
بالنشاط الهلادي، فكانوا هم ممولو عملياته والمستفيدون من نتائجه⁴، ولم يكن

¹ الشافلي - نفسه - ص 151.

² Ibid p 79.

³ Caillé Op. cit - p 224.

⁴ جاء في مذكورة لبلوماسي هولندي في سنة 1622 أن الملاحة لا تزال إلا من طرف سكان القصبة (الحرناشيون)،
وكظم يساهمون في الكلفة كلا حسب قدراته، بعضهم بمائة دوكة، وآخرون بخمسين أو عشرين أو عشر أو أقل من
الدوكت، ويستفيدون من فوائد المغام. انظر: Ibid - Pays-Bas - T III - p 272

للأندلسيين الآخرين سوى حق الاشتراك العملي في القوات البشرية المعتمد عليها، شأنهم في ذلك شأن العلوج، كطواقم للسفن¹.

وقد وجد الطموح الجهادي في خبرة المغامرين الهولنديين والإنجليز، وأيضاً في أسرى السفن، أفضل الظروف لتوسيع نطاق العمليات للتوغل تدريجياً في عرض البحر مع تطور وسائل الملاحة الذي ولدته المجهودات المشتركة للأندلسيين والعلوج والأتراك، بحيث ستشهد بحار شمال أوروبا نشاطاً متنامياً للسفانة الجهادية منذ سنة 1622 مع مغامرة العليج الهولندي موراطو راييس²، الذي جعل بحر المانش من مناطق نفوذ مجاهدي سلا الجديد. وصارت سفنهم منذ ذلك الوقت تعتاد على ارتياد شواطئ إنجلترا كمسرح جديد، يضاف إلى المجال التقليدي الممتد بين جزر الخالدات وسواحل إسبانيا، خاصة وأن السلطان السعدي قد وجد أنه من الأفضل الاستفادة من كفاءة الراييس المذكور، لما لذلك من نتائج هامة على مستوى المداخل، فعينه أميراً للبحر سنة 1624، مشجعاً المجاهدين على تكثيف الجهود.

وقد صادف هذا التتويج اندلاع القلاقل السياسية بسلا الجديد التي ستؤدي إلى نشوب ثورة علنية ضد السلطة السعدية لن تنتهي إلا سنة 1627 بانخراط الأندلسيين في نظام سياسي خاص، دون أن تمنع هذه الاضطرابات النشاط الجهادي من تحقيق قفزة نوعية على يد أمير البحر، الذي نجح في حملة جريئة في اختراق أقصى شمال

¹ Caillé - Op. cit - p 224.

² يان يانز (J. Jansz) أو يان يانسن (J. Jansen) أو جون باربير (J. Barbir) أو القبطان جون (Cpt. John)، كلها أسماء للعليج الهولندي الأكثر شهرة في صفوف الراييس السلاويين خلال النصف الأول من القرن 17. ولد موراطو راييس بهارلم بالأقاليم المتحدة أواخر القرن 16، واشتغل بحاراً على متن السفن التجارية إلى حين سقوطه أسيراً قرب جزر الخالدات في أيدي الراييس الجزائريين سنة 1618، وألّت تبعيته لسليمان راييس وأسلم على يده منخرطاً في إطار الأسطول الجهادي الجزائري مدة سنة انتهت بوفاته ووليّه المذكور سنة 1619. وقد انتقل مباشرة بعد ذلك إلى سلا الجديد واستقر بها واقترب من أندلسية، وسرعان ما بدأ يبني شهرته في مجال الملاحة الجهادية، حيث كان أول من وضع نطاق العمليات إلى بحر الشمال (1622)، مما جعله يتبوأ منصب أمير البحر بعد ذلك بسنتين. وفي السنة الموالية أصبحت المياه الإنجليزية عرضة لهجمات أتباعه من رجال الجهاد، قبل أن يتوج ذلك بتوغله في أقصى الشمال الأطلسيكي وهجومه الجريء على جزيرة إيسلندا التي تعرضت عاصمتها ريكاغافيك للنهب سنة 1627، وأصبحت مياه إيرلندا باستمرار عرضة لمهاجمة سفنه حتى سنة 1631 التي عرفت استفحال الأزمة السياسية في سلا الجديد واندلاع الحروب الأهلية بين الأندلسيين، ففضل موراطو راييس العودة إلى الجزائر دون أن يتخلّى عن نشاطه وأن لم تسجل فترة مقامه بها ما يوحى بشهرته، حيث سقط أسيراً في يد فرسان مالطا إلى حين اقتدانه سنة 1640. وقد عاد بعد ذلك إلى المغرب بدعوة من السلطان السعدي محمد الشيخ الأصغر الذي عينه حاكماً لمرسى الوليدية بغية تقبل القطع الجهادية الرسمية بها، وهو ما لم يتمكن من تحقيقه.

الأطنتيكي بمهاجمته لجزيرة إيسلندة¹، لتكون بذلك أبعد نقطة بلغت سفن الجهاد السلوية، ومنطلقا لمرحلة جديدة للعمل الجهادي. تميزت مرحلة الانطلاقة هذه بثلاث فترات متباعدة حسب حجم وقوة العمليات الجهادية:

أ. فترة ما قبل سقوط المعمورة: انطلق خلالها العمل الجهادي بشكل خجول في خضم قوة العمليات القرصانية الأوربية على السواحل المغربية، إلى درجة راحت الدبلوماسية الأوربية تتضرر منها، وشكل عرقلة لمسايعها لدى البلاط السعدي؛ حيث تعالت شكايات التجار من ضربات القرصنة الإنجليز والهولنديين، الأمر الذي جعل دبلوماسي دولتهم غير قادرين على تبرير تصرفاتهم أمام السلطان²؛ وبالتالي فرض على الأساطيل الحربية التدخل لحماية الملاحة على الساحل المغربي، وأدت حملاتها إلى إلحاق خسائر جلية بسفن القرصنة³، لا سيما وأن هؤلاء قد أضحوا لا يعترفون بأية سلطة أو قانون، ولا يتورعون حتى على مهاجمة سفن مواطنيهم، حسبما يذكره الدبلوماسي الهولندي كوي سنة 1607: "هناك قرصان يدعي بأنه هولندي لكن اسمه ظل مجهولا، يسمى نفسه صديق الإله وعدو العالم أجمع"⁴.

وزيادة عن ردود فعل الأساطيل النظامية الإنجليزية والهولندية، عرف القرصنة مجابهة إسبانية عنيفة بحكم تضررها المباشر من عملياتهم أكثر من غيرها، وأدى ذلك إلى تفكيرها في توسيع مناطق الاحتلال بالشمال المغربي، حيث أفلحت في الحصول على العرائش دون قتال سنة 1610⁵، إلا أنها لاحظت بسرعة أن هذا الثغر لم يكن في حجم الأهمية المفترضة، ما دام القرصنة قد نزحوا بكثرة إلى المعمورة المركز الأكثر أمنا⁶؛ خاصة وأن فيليب الثالث باطلاعه على المخططات الهولندية-المغربية المشتركة الرامية إلى ضرب المصالح الإسبانية أصر على تأمين الملاحة الإيبيرية وخطوطها

¹ Coindreau - Op. cit - p 69-70.

² Les S I H M. - 1^{re} série - Pays-Bas - T I - p 174-75.

³ خلال سنة 1607 ألحق الأسطول الهولندي في التصدي للقرصنة الإنجليز، واستطاع غنم وتدمير ثلاث سفن قرصانية. انظر: Ibid - p 222-24.

⁴ Ibid - p 175.

⁵ تم تسليم ثغر العرائش يوم 21 أكتوبر إلى فيليب الثالث من طرف محمد الشيخ المامون، مقابل حصوله على الدعم السياسي والعسكري اللازم في صراعه من أجل الحكم.

⁶ Ibid - p 664-65.

بالمياه المغربية، بعدم السماح من جهة بنشوء قوة بحرية محلية، ومن جهة أخرى بتخريب مرسى المعمورة، مكلفا حاكم طنجة دون بيدرو دي طوليدو (D.P.deToledo) بالإشراف على المهمتين في سنة 1611، حيث بمجرد تلقيه الأوامر قام بمحاولة ردم مصب نهر سبو، وعقب ذلك مباشرة وجه أسطولا لمطاردة سفن مولاي زيدان وإتلافها¹.

وقد زامن هذا الظرف استقرار العنصر الأندلسي بمصب أبي رقرق وشروعه في العمل الجهادي. ففي سنة 1610 صدرت أولى الإشارات عن ذلك تذكر بأن بعض هؤلاء اللاجئين قد جهزوا بعض المراكب وبدأوا في القرصنة، مستغلين السفن التي استحوذوا عليها². وقد وجهت هذه العمليات بمشاعر العداة والرغبة في الثأر، على أن نطاق العمليات لم يكن يبتعد عن النواحي البحرية القريبة من مصب أبي رقرق، مع مغامرة البعض منهم في تنفيذ هجمات فجائية داخل المحيط³، ويعود هذا الأسلوب لضعف التجربة الملاحية، والخوف من السقوط في أيدي القراصنة الإسبان المتحركين باستمرار في عرض شواطئ المغرب⁴. وقد اضطروا للحفاظ على هذا المنوال إلى حين سقوط المعمورة، الذي سيغذي الجهاد البحري بدماء جديدة وبكفاءات عالية الخبرة مع ورود قراصنتها إلى سلا الجديد.

ب - فترة انتظام المواسم الجهادية (1614-22): بسقوط المعمورة في يد الإسبان أضحت مرسى سلا الجديد أقرب نقطة بحرية مستقلة إلى المضيق، ومنطقة تركز لفصيل مختلط وفاعل من المناوئين لمصالح إسبانيا، خصوصا مع انسحاب مجموعة من القراصنة برا نحو مركز أبي رقرق، واجدين به جموع الأندلسيين المتحرقين شوقا لتوجيه ضربات موجعة للملاحة الإيبيرية، كما لمسوا في الحرناسيين قوة اقتصادية رابعة في استثمار رساميلها في مشاريع اقتصادية منتجة. لذلك اتحدت ثروات هؤلاء برغبة الثأر وبالخبرات الملاحية للبحارة الهولنديين والإنجليز، معلنة

¹ في شتبر 1611 كتب مولاي زيدان إلى الأقاليم المتحدة يخبرها بتعرض أسطوله الصغير لهجوم إسباني، لم تنج منه سوى السفينة السلطانية " الشمس ". انظر: Ibid - p 672.

Ibid - France - T II - p 502.

Coindreau - Op. cit - p 178.

⁴ في رسالة إلى الأقاليم المتحدة في يناير 1615، بادر مولاي زيدان إلى إطلاق سراح بعض رعاياها من قبض المجاهدين الذين فعلوا ذلك ثارا من نشاط بعض القراصنة الهولنديين العاملين لفائدة العدو الإسباني. انظر: Les S. I. - H. M. - 1° série - Pays-Bas - T II - p 461-62.

بداية النظام مسيرة الجهاد البحري بدفعه إلى اكتساح عوالم بحرة بعيدة عن الشاطىء، مستفيدا من الاهتمام الكبير الذي كان السلطان يوليه إياه، بالسماح لبعض المقربين له كاليهودي صامويل بالاش بتصريف المغنم المحصل عليها خلال رحلاته إلى الأقاليم المتحدة، ومستفيدا أيضا من العلاقات المغربية-الهولندية الجيدة لاستغلال موانئ هولندا كمراكز رسو وتموين للسفن الجهادية، واستخدام بحارتها كطواقم، بل وفي استغلال دبلوماسيها في دعم الملاحة المغربية حتى خارج الأراضي المنخفضة².

وما كانت هذه الوضعية الملائمة إلا لتمنح الجهاد السلاوي أفضل الفرص وتطوره، إلى درجة صار معها مدعاة للخوف لدى الأعداء والحلفاء، لا سيما وأن سياسة البحرية المغربية كانت تقتضي العمل على تنمية الأسطول وتقوية كفاءته؛ فعمد روادها إلى غنم السفن وهي في حالة جيدة بغية استخدامها عقباك كوحداث جديدة³، مشكلين بذلك قوة تتعاضد إلى حين ظهورها كسلطة مستقلة عن السعديين، مما كان يوحي لمختلف الدول بالخطورة التي يمكن أن تمثلها ضدا عن مصالحها، مع بداية مضاهاة الأسطول السلاوي الناشئ لبقية أساطيل المدن الجهادية الأخرى، حيث أصبح ينوفر على أربع قطع رئيسية سنة 1617، بعدما كان عددها أقل من ذلك، الشيء الذي أضفى بشكل خطورة على الأساطيل التجارية، ويدعو - حتى الهولنديين - إلى اتخاذ الحيلة والحذر⁴.

وبالرغم من هذه المخاوف لم يتوقف الدعم الهولندي عن مواصلة إمداداته لرياس الجهاد، خاصة وأن العون جنب الأقاليم المتحدة المتاعب التي خلقتها مراكز الجهاد للسفن الإسبانية والإنجليزية والفرنسية، كما دعم نفوذها التجاري مع مركز سلا. وأكثر من ذلك عمل المجاهدون من جهتهم على تمتين العلاقات مع هذه الدولة، واتخاذ

² في رسالة أخرى بتاريخ نونبر 1616، طلب مولاي زيدان من الأقاليم المتحدة التدخل لدى الإنجليز لإطلاق سراح إحدى الغنم السلاوية التي قمت مصانرتها بأحد موانئ إنجلترا إثر اعتراض تقدم به السفير الإسباني بلندن. انظر: *Ibid* - p 716.

³ في سنة 1617 توصلت إمارة روتردام برسالة من أحد قباطنتها، جاء فيها: "منذ سنة لم يكن مسلمو سلا ينوفرون على أية سفينة، والأن لهم أربعا بالبحر، وصيصبون لقوياء جدا إذا لم ننتبه لذلك. وهم غير مهالين بسلطة الملك سوف يستولون على كل ما يستطيعون غنمه. لذلك أطلب من سيادتكم تبليغ الأحداث إلى معالي أسيد اللوليات وإلى سمو الأمير، حتى يستطيعوا الإطلاع على الوضعية. إذ عكس ذلك سيلحق أهلي سلا الضرر الأكبر الذي سوف يهوق ما نله أهلي تونس والجزائر". انظر: *Ibid* - p 64. *Les S. I. H. M. - 1° série - Pays-Bas - T III*

قرارات في هذا الشأن بتنسيق مع السلطان، ومن ذلك إطلاقهم سراح الأسرى الهولنديين¹. وبفضل هذا تمكن الأسطول الجهادي من تطوير أدواته وتقنياته الملاحية إلى درجة ارتقى معها من الاقتصاد على المراكب البسيطة إلى استعمال السفن المتطورة متعددة الطبقات²، وصار مصب أبي رقرق يحظى بسمعة وموقع هامين كقيلين باستقطاب مختلف مجاهدي وقراصنة ومغامري المناطق الأخرى، سوف يتمكن أحدهم، موراطو رايس، من وضع لينة جديدة في رقعة العمليات، لتخرج عن نطاقها التقليدي بالتوغل في بحار شمال الأطلسنتيكي منذ سنة 1622.

ج - فترة الحملات البعيدة (1622-27): تبتدئ مع عبور موراطو رايس لبحر المانش لأول مرة متوجها إلى مرسى زيلنده بالأقاليم المتحدة، معطيا الضوء الأخضر للرياس السلاويين لارتياحه خلال السنوات اللاحقة بالاشتراك مع رياس الجزائر، وبذلك نجح هؤلاء في إخضاع الممرات البحرية الرئيسية المؤدية إلى الغرب والجنوب الغربي لأوروبا، وفي تحقيق مغانم تشكل بعضها ثروة هامة³. وقد طال النشاط السلاوي آنذاك حتى السفن الهولندية التي أضحت تطرح إشكاليات في نظر السلاويين، لكونها تقل بضائع غير هولندية، أو تحمل بضائع مهربة إلى خصومهم⁴. وهذا ما أدى إلى غنم السفن مع إطلاق سراح رعايا الأقاليم المتحدة بمجرد بلوغ المرسى بسعي من العلوج واليهود المستفيدين من بقاء جودة العلاقات مع الأقاليم المتحدة⁵، ويدفع في الوقت ذاته المجاهدين إلى مطالبة هولنده بضرورة تمتيع ملاحها برخص قانونية لتفادي مثل هذه الإشكالات⁶.

إن رغبة الطرفين في الإبقاء على نوع من التحالف الضمني مرده حاجة الرياس إلى العتاد والتقنيات ومراكز تصريف المغانم، وحاجة الأقاليم المتحدة إلى تأمين

¹ أخير مولاي زيدان الأقاليم المتحدة في رسالة وجهها في أبريل 1619 بإطلاقه سراح مجموعة من الأسرى الهولنديين كان بعضهم بيد أهالي سلا. وقد عمل على تسريحهم إلى هولنده بمقتضى العلاقات الطيبة. أنظر: *Ibid* - p 86-87.

² *Ibid* - France - T III - p 79.

³ في أكتوبر 1622 نجح الرايس علي بن علي العامل لحساب القائد الزعروري في غنم سفينة هولندية محملة ببضائع ثمينة قدرت قيمتها بمائة وستين ألف فلورين. أنظر: *Ibid* - Pays-Bas - T III - p 269-70.

⁴ جاء في وثيقة هولندية مؤرخة في أكتوبر 1623 سقوط غنيمة هولندية أخرى محملة بالصواري وبضائع محظورة بيد الرياس السلاويين في عرض شواطئ إسبانيا، لم تكن تتوفر على جواز مرور قانوني. أنظر: *Ibid* - p 391.

⁵ في سنة 1623 عمد السلاويون إلى إطلاق سراح ثلثة من الأسرى الهولنديين بإيعاز من موراطو رايس، والتاجر اليهودي إسحاق بلاش لأنهم كانوا اسكتلنديي الجنسية. أنظر: *Ibid* - p 244.

⁶ Loc. cit.

سلامة ملاحتها والإبقاء على المغرب كسوق استهلاكية ومصدر مواد أولية؛ بل إن التنافس الهولندي-الإنجليزي في المجال التجاري قد رسخ عزم هولندا على استثمار السلاويين للتضييق على السفن الإنجليزية بنفس تشجيعها لهم على مواجهة الإسبان¹. ولهذا لم تتوان عن تنفيذ رغباتهم، وبالأساس حينما نصب موراطو راييس أميراً للبحر، حيث صارت كل طلباتهم العسكرية والملاحية تلبى دون عناء بدعم من اليهود السلاويين ونظراتهم المستقرين بالأقاليم المتحدة².

وتحت قيادة موراطو راييس أضحت البحرية السلاوية من أقوى البحريات العاملة في المحيط ببلوغها عدد ثلاثين قطعة سنة 1625³، ثم حوالي ستين في السنة الموالية⁴، مع تركيز عملياتها شمال مضيق جبل طارق في لحظة تضعضع فيها الأسطول الإسباني وانشغل قواده بحرب الثلاثين سنة من جهة، وتفرق الأسطول على مختلف الخطوط الرابطة بين المركز والمستعمرات المتعددة لخفر السفن، الأمر الذي مكن إنجلترا وهولندا من التنافس على السبق في ميدان الملاحية التجارية، وفرض على السلاويين تعقب البحريات النشيطة، وعلى رأسها السفانة الفرنسية، ربما بدافع الانتقام من التجاوزات المرتكبة من طرف قباطنتها أثناء رحلات الجلاء عن الأندلس⁵.

وقد كان اكتساح السفن الجهادية لبحر المانش كثيفاً، مكن الرياس السلاويين من السيطرة على السفن المبحرة، ومن اجتذاب طواقمها للاستفادة من خبراتهم الملاحية ومن معرفتهم بمسالك شيطان إنجلترا؛ فأصبحت المراكب السلاوية تعج بمختلف الفاعليات الملاحية في ذلك الوقت من أندلسيين وأتراك وعلوج وهولنديين وإنجليز وفرنسيين⁶، وأضحت المناطق البحرية خاضعة لسطوتهم، موجّهين أغلب مغانمهم

¹ Brignon - Op. cit - p 229.

² في رسالة من هارون كيريدو اليهودي السلاوي إلى اليهوديين الهولنديين ديفغو نونيز بلمونت (D N Belmonte) وفرنسيسكو بازيدي ليون (F. B. Leon) في ماي 1624، وجه طلباً ببعث الأسلحة والذخيرة المطلوبة من طرف موراطو راييس والقائد الزهروري، موضحاً لهما اعتقاده بموافقة سلطات الأقاليم المتحدة على ذلك. وتتكون الأسلحة المطلوبة من مائة وخمسين بنديقة، والفي ليرة من بارود المدافع، ومائتي مجداف، وخمسين قطاراً من القذائف نفسها من عيار ليرتين، والنصف الثاني من عيار ثلاث ليرات، وخمسة قناطر من الكبريت. انظر: Les S I H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T III - p 503-04.

³ Ibid - Angleterre - T II - p 588.

⁴ Ibid - France - T III - p 115-17.

⁵ Ibid - Angleterre - T II - p 799.

⁶ البحري - نفسه - ص 17.

ليبيعها للهلنديين الذين كانوا من جهتهم يشجعونهم ويدعمونهم بالذخيرة وبالسلاح.¹ وهذا ما دفع بالسلطات الإنجليزية إلى محاولة مجابهة هذه الهجمات بفرض حراسة قوية على الشواطئ، لم تؤد إلى أية نتيجة ملموسة بفعل قوة الحضور السلاوي سواء في عرض هذه الشواطئ أو في الخطوط البحرية المؤدية إليها، خاصة المسار الرابط بين إنجلترا والأرض الجديدة، حيث بلغت مغنم السلاويين في بحر المانش والسواحل الغربية لإنجلترا حوالي ألف مركب خلال سنة 1625.²

أصبح الإنجليز متعودين من جراء ذلك وبحسرة على مشاهدة سيطرة الرياس السلاويين على سفنهم، وعلى أسر بحارتهم، ويتوقعون هجماتهم قبل وقوعها. فرغم سعي حكام المناطق البحرية لتأمين حراسة الشواطئ تأتي حملات الرياس بمغنم محققة حتى في عرض شواطئ بلاد الغال، كما حدث سنة 1626³، مثيرين بذلك الرعب في نفوس السكان بما ألحقوه من خسائر بشرية ومادية تمثلت في أسر العدد الكبير من السكان، وفي إفقار أجزاء من المملكة الإنجليزية نتيجة انعدام الأمن على الشواطئ وارتفاع خسائر السفن التجارية، زيادة عن فديات تحرير الأسرى⁴، مما فرض على الساسة الإنجليز العمل على كل ما من شأنه تخفيف هذا الضغط بالطرق الدبلوماسية، بتعيين جون هاريسون (*Harrison*) مندوبا للملك تشارلز الأول بالمغرب في نهاية السنة المذكورة بمهمة الحصول على حرية رعاياه الأسرى، وتحقيق علاقات طيبة تمثلت في اصطحاب المندوب الإنجليزي لأسرى مسلمين كانوا بإ إنجلترا، وكمية من الذخيرة كان أندلسيو مصب أبي رقرق قد طلبوها قبل ذلك الوقت.⁵

وقد كانت فرنسا هي الأخرى - بحكم موقعها المطل على بحر المانش - مستهدفة بشكل كبير من طرف العمليات الجهادية حسبما يوضحه حجم المغنم المحققة على حساب سفنها، باعتراف أحد قوادها الذي يقر بأن نصيب فرنسا من الخسائر التي ألحقها الرياس السلاويون بمختلف السفن خلال الفترة الممتدة ما بين سنتي 1618

¹ Ibid - pp 562 et 583.

² Coindreau - Op. cit - p 122.

³ Les S. I. H. M. - 1^{re} série - Angleterre - T III - p 4.

⁴ Loc. cit.

⁵ Ibid - p 10.

و1626، والتي تمثلت في أزيد من ستة آلاف أسير وخمسة عشر مليون ليرة، كان مهماً¹. بيد أن الأهم من ذلك هو كون النشاط الجهادي قد استفاد بقوة من خبرة الملاحين الفرنسيين الذين فضلوا الانخراط في دين الإسلام على المكوث في المطامير، فاستخدمهم الرياس كرابنة أكفاء للقدوم إلى شواطئ فرنسا من أجل تنظيم الهجمات الخاطفة فوق أراضيها، ولملاحقة مسارات سفنها²، وهو ما يفسر تطور الهجمات السلاويين الفرنسية الأصل التي بلغت خلال سنتين فقط أكثر من مليوني ليرة مغنم السلاويين الفرنسية الأصل التي بلغت خلال سنتين فقط أكثر من مليوني ليرة وأكثر من ألفي أسير³. ومن ثم بدأ القادة الفرنسيون في التفكير في ضرورة وضع حد عاجل لهذه الوضعية، بتلويحهم منذ البداية بالخيار العسكري كحل أوحده لإجبار السلاويين على مهادنة الملاحة التجارية الفرنسية⁴.

في نهاية هاته الفترة لسنة 1627 التي كانت تنذر ببداية تحرك الأساطيل العسكرية الأوربية ضد نشاط رياس سلا الجديد، سجل هؤلاء قفزة نوعية أخرى في سلسلة التطور الذي عرفته البحرية السلاوية بإقدام موراطو رياس من جديد على القيام بحملة مذهلة خرجت عن النطاق المألوف، ليضعها كأبعد حملة للرياس طوال القرن 17 والتي لن تعرف تكراراً، ونعني بذلك توغله الجري نحو إيسلندة ومدينيتها المركزية ريكجافيك، مع ما تلا ذلك من حملات متكررة على إيرلندة لمفاجأة صيادي جزيرة بلتييمور، الذين أسر منهم أزيد من مائتي صياد⁵، كشهادة عن بداية الازدهار الكبير للجهاد البحري السلاوي، في وقت تزامن مع قيام ثورة الأندلسيين واستقلالهم عن السلطة السعدية من جهة، وتطور الاهتمام الأوربي بالمصوب من جهة مناقضة.

3- الاهتمامات أوربية أولى

إن الاهتمام الذي أولته الدول الأوربية للمغرب منذ نهاية القرن 16 ما كان إلا ليزداد قوة مع بروز أزمته السياسية، وارتفاع قيمة سواحله الأطلنطية، المجال المؤثر في أغلب مراكز القرارات السياسية، فولد ذلك أطماع إسبانيا صوب مختلف مراسيه

¹ Ibid - France - T III - p 115.

² Ibid - p 146-47.

³ Ibid - p 146.

⁴ Ibid - p 116-17.

⁵ Coindreau - Op. cit - p 69-70.

الغربية في تصابق مع القوات الأوروبية الأخرى¹، بغض النظر عن اختلاف الوسائل المعتمدة التي تمتد من الطرق الدبلوماسية إلى الخيارات العسكرية، خاصة وأن النشاط القرصاني الأوروبي قد استفحل أمره بتمركز قواعده على مقربة من نهايات الخطوط التجارية العالمية، وتطور عملياته على حساب اقتصاديات الدول. فقد كان القرصنة لا يسالمون حتى سفن مواطنيهم، وكان الهولنديون منهم أكثر شهرة من غيرهم آنذاك، دافعين بسلطاتهم إلى تكليف الأميرال فان هيمسكيرك (*Van Hemsckerck*) بإبلاغهم على سواحل المغرب وإحضارهم إلى الأقاليم المتحدة في سنة 1607²، إبان بملاحقتهم على سواحل المغرب وإحضارهم إلى الأقاليم المتحدة في سنة 1607²، إبان زيادة حدة احتجاجات الدول الأخرى لدى البلاط المغربي، إلى درجة أن الملك الفرنسي هنري الرابع لم يتوان في إرفاق تهنيته لمحمد الشيخ المأمون بانتصاره في معركة مرس الرماد (1607) بطلب منعهم من اتخاذ الشواطئ المغربية ملاجئ لهم عقب حملاتهم على سفن رعاياه³، وهو ما كان إلا ليزيد من تعقيد مهام الدبلوماسية الهولندية التي أصبح من المستحيل عليها تقديم تبريرات مقنعة للسلطان⁴.

ورغم الجهود المبذولة دبلوماسيا وعسكريا من طرف الدول الأوروبية لتأمين مناطق المغرب البحرية، لم يخضع النشاط القرصاني الهولندي والإنجليزي لأي قرار أو قوة إلا عند سقوط المعمورة كآخر وكر قرصاني مستقل سنة 1614 في يد القوات الإسبانية؛ إذ من المؤكد أن الحضور الكثيف لهذا العنصر الضاغط سلبا على اقتصاد إيبيريا التي كانت في أمس الحاجة إلى انتظام ورود المعادن النفيسة لضمان استقراره في ظروف أزمة مالية وسياسية واجتماعية خانقة⁵، كان من شأن ذلك أن يدفع بها إلى التفكير في توسيع رقعة الوجود الإسباني في شمال إفريقيا كحل شبه أوحده للقضاء على العمل القرصاني⁶، في الوقت الذي راجت فيه الأخبار حول احتمال توصل

في سنة 1605 كان الحصول على إذن Bas - T I - p 50

بعث مولاي زيدان المغربية، وبالتحديد بشهر 668 - p

¹ الشاذلي - نفسه - ص 15.

² في الوقت الذي توجه فيه الأميرال ياكوب فان هيمسكيرك لتنفيذ القرار، دخل في معركة مع الأميرال الإسباني دون خوان ألفاريز دافيلا (*d'Avilla*) أمام المضيق، محققا النصر عليه في أبريل 1607، بيد أنه توفي في نفس اليوم متأثرا بجراحه. انظر: *Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T II - p 181-82.*

³ *Ibid - France - T II - p 363.*

⁴ *Ibid - Pays-Bas - T I - p 174-75.*

⁵ أمر الملك فيليب الثالث سنة 1600 بجمع كافة الأدوات الذهبية والفضية التي هي مملوكة للخواص من أجل سكها قطعة نقدية. ويشير موجان إلى أن الوضع لم يتغير طيلة العشرين سنة التالية نظرا لتكاليف الحروب بأوروبا، وبحث إسبانيا عن حلفاء ومرتزقة قابلين لتقديم خدماتهم لقاء الراتب. انظر: *Mougin - Op. cit - p 130.*

⁶ *Ibid - p 131.*

الأقاليم المتحدة إلى اتفاق مع المغرب، يضع المعمورة رهن إشارة سفنها الحربية كقاعدة لمهاجمة الأسطول التجاري الإسباني¹.

وبما أن احتلال العرائش في نونبر 1610 لم يمهّد خطورة القراصنة ببيروز المعمورة كنقطة تجمع لتنظيماتهم، شارك الإسبان مختلف القوات الأوربية اهتمامهم بها²، عازمين على إلحاقها هي الأخرى ببقية مراكز الاحتلال، في الوقت الذي اشتد فيه الصراع بين القراصنة أنفسهم، إنجليز وهولنديون، من أجل الانفراد بها³. وهذا الاهتمام الخارجي ما كان إلا ليولد اهتماما داخليا موازيا يتمثل في سعي مولاي زيدان إلى تحصين بقية الثغور الأطلنטיكية⁴، خصوصا وأن العدو الإسباني انطلق في تدابير الهجومية ضد المعمورة بمحاولة إتلاف مدخل المرسى وإغلاق المصب، وهي المحاولة التي كادت أن تنجح لولا الدفاع المستميت الذي بذلته قوات مولاي زيدان بدعم من مجاهدي سلا سنة 1611⁵.

وفي الوقت الذي صار فيه مصب أبي رقراق يضطلع بالنشاط الجهادي ضد التجارة الإسبانية، مستفيدا من تركيز الاهتمام الدولي بقواعد الجهاد الكبرى كالجزار وتونس، كان التقارب الهولندي-المغربي يدفع الأقاليم المتحدة إلى تطوير سياستها في ما يخص ملاحتها التجارية، بالسعي من أجل الحصول على قاعدة متقدمة على الساحل المغربي لاستغلالها في الحرب الاستنزافية المعلنة على مصالح إسبانيا، سالكة في ذلك خطة ملاحقة وردع قراصنة المعمورة، ومحاولة التنسيق مع مولاي زيدان على أساس إنشاء قلعة بها لفائدة هولندة⁶. ويسود الاعتقاد أن مضي الأسطول الهولندي في تطبيق الشطر الأول من الخطة منذ ربيع 1614، وانتظاره الضوء الأخضر من مجلس الولايات العامة في ما يخص احتلال المعمورة⁷، قد جعل الأسطول الإسباني

¹ في سنة 1605 كلفت الأقاليم المتحدة مبعوثها إلى المغرب بمهام متنوعة من بينها السعي لدى السلطان من أجل الحصول على إئنه في اتخاذ ميناء المعمورة كقاعدة بحرية لمهاجمة السفن الإسبانية. انظر: Les S. I. H. M. - 1^{re} série - Pays-Bas - T I - p 50

² Ibid - Angleterre - T II - p 625.

³ Ibid - p 660.

⁴ بعث مولاي زيدان في غشت 1611 برسالة إلى الأقاليم المتحدة يطلب منها إيفاد مهندسين لتشييد التحصينات بالقلع المغربية، وبالتقيام بحريات في القاصير المعمورة؛ وقد كان ذلك عقب محاولة الإسبان ردم مدخل المرسى قبل ذلك بشهر. Ibid - p 668.

⁵ Ibid - Pays-Bas - T I - p 668.

⁶ Ibid - T II - p 225.

⁷ Mougin - Op. cit - p 122.

يبادر إلى جعل هذا الثغر تحت إمرة التاج الإسباني بكامل السهولة¹، دافعا بالقرصنة إلى الانكفاء عنه؛ وبالتالي سيخدم ذلك مستقبل مصب أبي ررقاق الذي وجد نفسه مجبرا على تحمل مسؤولية استمرار العمل الردعي بالبحر ضد الإسبان، ومن ثم تحول أنظار السياسة العالمية صوبه باعتباره القلعة الجديدة للنشاط القرصني والجهادي.

فقد عرف المصب تطوره المفاجئ مع ورود لاجئي المعمورة المجريين، وتزامن ذلك مع بداية نجاح العمليات الجهادية الأولى على يد الأندلسيين، والتي أدت إلى خلق نواة تباعد بين مختلف العناصر المكونة لمجتمع المنطقة بعضها إزاء البعض، وغالبيتها إزاء السلطة السعدية من جهة ثانية، كنتيجة لتضارب المصالح المغذاة على المستوى الداخلي بالاختلافات العميقة في نظم الحياة بين المستقرين القادمي والجدد، ذلك أن احتكار الأندلسيين - وعلى رأسهم الحرناشيون - لمداخل الجهاد لم يولد اغتاءهم وتنامي قوتهم فقط، وإنما أحدث أيضا خلا في النظام الاقتصادي للمنطقة انفردت ضعفها اليسرى بنتائجها الإيجابية على حساب اليمنى، بتركز الأموال والفاعليات الاقتصادية على مقربة من مرسى سلا الجديد²، بشكل أجج حدة العداة الاجتماعي بين هؤلاء وأولئك، دون أن يؤدي هذا الوضع إلى الاستقرار في مجتمع الضفة اليسرى بعينها.

وما كان من حصول منطقة المصب على دفعة جديدة ومطورة لنشاطها وبروزها كقاعدة أساسية في حروب الاستنزاف إلا أن يؤدي إلى توسيع رقعة الخلافات، بالقدر الذي وسع فيه نطاق العمليات وعدد الأساطيل الأوربية المتضررة وفي هذا السياق المظهر لتأزم الوضعية السياسية لمصب أبي ررقاق، سعت إسبانيا ضمن سياستها الرامية إلى بسط نفوذها على بقية الثغور المستقلة³ إلى الحصول على تنازلات من بعض أندلسيي المصب. إذ توصل البلاط الإسباني برسالة من قائد مازكان في فبراير 1619 يخبره فيها بأن قلعة سلا تطلب الانضواء تحت سلطة فيليب

Les S. I. H. M. - 1° série - France - T II - p 566.

² الشاذلي - نفسه - ص 151.

³ في سنة 1619 وجه قائد سانطو كروز (أكادير) رسالة إلى العاهل الإسباني تحمل مشروع تسليم هذه المدينة إضافة إلى موكادور. ويشير موجان إلى أن المشروع لم يتم الاهتمام به نظرا للتكاليف الباهظة التي يتطلبها تسخير القلاع المحيطة الأخرى، ونظرا لوجود تيار سياسي إسباني برئاسة الأميرال الدوق دو ميدينا سيدونيا (Medina Sidonia) مشتبك بفكرة تقوية الأسطول كوسيلة أساسية للقضاء على القرصنة. انظر: Mougín - Op. cit - p 122.

الثالث إثر دخوله في محادثات مع أحد الأندلسيين وعده بتسليم القسبة¹، دون أن نجد تطورا لهذا الحدث في الوثائق المعاصرة، سوى وثيقة توصل إليها موجان في الأرشيف الإسباني، تشير إلى تطورات مشروع تسليم القسبة²، مقدما في شأنها تحفظات كثيرة نشاطه الرأي حولها، نتيجة تأخر تدوينها عن زمن وقوع الأحداث بحوالي عشر سنوات، وأيضا لما تحمله من معلومات تتنافى وحقيقة الوقائع في تلك الفترة³.

تشير الرسالة المذكورة لقائد مازكان إلى أن محدثه كان أندلسيا متشبثا بالمسيحية وبإسبانيا⁴، فيما تشير الوثيقة إلى أن المشروع إنما قدم إلى حاكم طنجة دون بيدرو دي توليدو (*de Toledo*) من طرف مغربي غير أندلسي موفد من قبل المجاهد العياشي وأندلسي الضفة اليسرى⁵. وأتى انتداب هذا الشخص نتيجة الظروف الخائفة التي يجتازها العياشي، وكلف بإنهاء هذه المهمة في غضون ثلاثة أسابيع. وقد تم تكليف مفاوض إسباني من طرف الملك لمتابعة العملية، وأسند هذا المنسوب مسؤولية التفاوض المباشر مع المبعوث السلوي إلى قائد المعمورة، كما اتخذت جملة من القرارات لتنفيذ ذلك، من ضمنها وضع مجموعة من شخصيات مصب أبي رراق رهائن لدى الإسبان ضمانا لحسن نية أصحاب الاقتراح⁶، ووضعت خطة تقضي بتنظيم حملة عسكرية مؤلفة من خمسمائة جندي على متن سفينة تجارية المظهر، وبإعلام غير إسبانية لتحقيق عملية الاستيلاء ليلا بتنسيق مع المفاوض المغربي، وبمجرد السيطرة عليها يتم تدعيم الاحتلال بإيفاد نجدات سريعة من المعمورة⁷.

وإذا كانت مداولات مجلس الدولة بخصوص هذه القضية قد نشطت خلال شهر يوليو من نفس السنة، فإن تحديد انتقاء الجنود لم يتم إلا في أكتوبر الموالي، بقرار أخذهم من حامية اشبيلية⁸؛ لتتوقف عقب ذلك كل هذه القرارات حتى نهاية أبريل

¹ Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 44.

² لا يقدم ل. موجان نصا أصليا أو مترجما، وإنما نصا نقديا لوثيقة تناول فقراتها بالتفصيل والتعليق بشكل متداخل يصعب معه تجميع الوثيقة الأصلية، بل إنها تتراوح معلوماتها بين المبعوث السلوي والمشاورات السياسية لمجلس الدولة الإسباني، وظروف وجود هذا المبعوث في مناطق النفوذ الإيبيري. انظر: Mougin - Op. cit - p 128.

³ Ibid - p 128.

⁴ Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 44.

⁵ Mougin - Op. cit - p 127.

⁶ Ibid - p 124.

⁷ Loc. cit.

⁸ Ibid - p 126.

1620. ويظهر أن المجلس قد انحاز إلى تبني خيار الدوق دو ميدينا سيدونيا بإقرار ضرورة وضع القلاع المحتلة في حالة استنفار، مع الزيادة في كفاءة أسطول المحيط كحل أوحده للقضاء على خطر القرصنة، بعد أن تم الإطلاع على رسالة الدوق المبلغة لفشل المباحثات الجارية من أجل تسليم القسبة، وبالتالي الطي النهائي للمشروع.¹

لفشل المباحثات الجارية من أجل تسليم القسبة، وبالتالي الطي النهائي للمشروع.¹

ويبدو أن كل هذا إنما هو ثمرة خيال مدون، أو نتيجة وهم من نسج كاتب هذه الوثيقة تولد مع ظهور رسالة قائد مازكان، وتغذى بقوة المشاكل التي تجتازها إسبانيا مع أطراف فاعلية الجهاد طوال العشرين سنة التالية عن الطرد الأندلسي سواء في البر أو في البحر²، وأساسا ضغط المجاهد العياشي على مناطق الاحتلال قبل وأثناء استقراره بالمنطقة. فالمعلومات الواردة في الوثيقة تتضارب بقوة مع واقع الأحداث المعاصرة، إذ من اللازم توضيح أن ورود العياشي قد سبقه ذبوع صيته الجهادي ضد الإسبان، وما خلقه ذلك من تقارب إسباني-سعودي³ محاولة من الأوائل رفع الضغط على مناطق الاحتلال، ولتخوف السعوديين من نمو قوة هذا الأخير مع ما يشكله من تهديد لبقية مناطق نفوذهم، وهذا ما دفع بمولاي زيدان إلى إصدار الأوامر باعتقاله وتصفيته، فكان قدوم العياشي إلى مصب أبي ررقان فرارا من ذلك.

والواضح أن العلاقة بين العياشي وممثلي السلطة السعودية لن تكون إلا علاقة مشوبة بالحدر الشديد، فبالأحرى علاقة تصل حد التنسيق من أجل صالح عدو اشتهر العياشي بالتضيق عليه؛ زيادة على وجوده في وسط تقليدي أشد عداوة للمسيحيين⁴ وللإسبان المتواجدين على مقربة منه على الخصوص، ومن هنا تتضح استحالة مشاركة العياشي في هذا المشروع المفترض ولو من بعيد.

ويلاحظ من جهة ثانية أن المشروع قد تم تقديمه من طرف شخصية مغربية تنتمي إلى النخبة الدينية⁵ التي تفترض قرابتها من أحد الصلحاء الثائرين بنواحي مراكش، ولا تذكر التراجم المتحدثة عن شخصيات مراكز المصعب خلال بداية القرن

¹ أشار موجان إلى فقدان هذه الرسالة، والتي كان وجودها سيمكن من الحصول على معلومات إضافية، قد توضح الأسباب التي دفعت مجلس الدولة الإسباني إلى العلول عن المشروع. أنظر: Mougin - Op. cit - p 127-28.

² يذكر رزوق أن نسبة الأسرى الإسبان في يد الأندلسيين قد ارتفعت من 3 % من المجموع العام خلال سنة 1609 إلى 40 % خلال العشرين سنة التالية. أنظر: رزوق - نفسه - ص 211 الهامش.

³ الوفراني - نفسه - ص 264.

⁴ Les S. I. H. M. - 1° série - Pays-Bas - T V - intro. p IV.

⁵ يذكر موجان وجود وثيقة بسيماكاس معونة بـ "مذكرة المسلم سيدي عيسى" (Memoria del Moro Cida Iza) تحمل في الأصل توقيعاً باللغة العربية يمكن إحقاقه بالشخص المذكور، حيث يقرأ عيسى بن الطالب. أنظر: Mougin - Op. cit - p 129.

السابع عشر وجود شخصية باسم " سيدي عيسى " أو " سيدي عيسى بن الطالب "، زيادة على أنه من باب الاستحالة أن يكون الأندلسيون - الشعاعون بمشاعر الشك والريبة التي يبدونها أهالي سلا المغاربة نحوهم - قد أوكلوا أمرا بهذه الخطورة إلى شخص من هؤلاء.

وحتى لو ثبت وجود فعلي لهذا المشروع، نعتقد أنه لا يعدو أن يكون من باب المزايدات السياسية لا أقل ولا أكثر، على اعتبار أن هذه الفترة شهدت تطورا أساسيا للعمليات الجهادية، كانت إسبانيا أكثر الدول تضررا منها، كما تؤكد ذلك مذكرة إيبانية جاء فيها: " إن التركي الذي لم تكن أياديه محررة لعدم توفره على من يساعده ويلقنه فنون الملاحة مثلما يقوم به الهولندي اليوم الذي يعلمه ويمرنه، ويعرفه كيف يمارس القرصنة ضد السفن. وكبرياء الأندلسي يقامر من أجل التفوق على المدارك التي حصل عليها بخصوص دولتنا ووضعيتنا بنصب الحيل، متخذنا ملابسنا وسلاحنا ولغتنا ليتمكن من خداعنا، متصرفا كأنه صديق لنا " ¹.

وعلى أي حال، فإن الاهتمامات الإسبانية بسلا الجديد ستضاهيها اهتمامات أوربية أخرى مع تطور المواسم الجهادية وتوسيعها لمسارح العمليات ببلوغ السفن السلاوية بحر المانش، ومهاجمتها للسواحل البريطانية منذ سنة 1624م. فقد كان من شأن هذا التطور الخطير أن يدفع الإنجليز إلى البحث في الصيغ القمينة بتقليص حجم الخسائر وأعداد الأسرى، متخذين تدابير وقائية متعددة لم تظهر مع ذلك فعالية في التصدي للمخاطر المذكورة، التي ما كانت لتهدأ شتاء حتى تنتصب مجددا مع بداية كل ربيع وبصورة متناهية موسما عقب آخر.

وقد عمد المندوب الإنجليزي جون هاريسون (Harrison) - النشيط في التنسيق بين البلاطين الإنجليزي والمغربي - إلى التأثير بكل قوته لتحسين العلاقات بين مولاي زيدان وشارل الأول، ومن جهة أخرى لكسب ثقة رياس سلا الجديد إبان رغبتهم في التخلص من قوة تدخل ممثلي السلطة في توجيه سياسة الجهاد البحري، عارضين عليه الثورة على السلطان والانصياع لسلطة العاهل الإنجليزي منذ سنة 1625م ². ونعتقد أن الملتمس السلاوي هذا إنما كان يهدف إلى التقارب مع إنجلترا من أجل الحصول على إمداداتها من السلاح والذخيرة، خاصة وأن الدول الأوربية قد شنت حربا ضروسا على تجارة التهريب التي لم تكن المصدر الرئيسي لاحتياجات

¹ Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 79.

² Ibid - Angleterre - T II - p 441-42.

مصب أبي رقراق فحسب، بل وأيضا للمناطق الهامشية البعيدة عن مركز السلطة، مما أدى إلى تكاثر احتجاجات السلطان¹.

وما يعزز هذا الاعتقاد أن موراطو رياس أمير البحرية السلاوية آنذاك قد شدد الحصار على المصالح الإنجليزية مؤديا إلى ارتفاع حجم خسائرها، خاصة إذا ما أدرجنا في الاعتبار التنافس البحري الهولندي-الإنجليزي، ومسعى العلاج الهولندي المذكور إلى تقديم أقصى ما يمكن من الدعم لبلاده الأصلية². وحتى لو افترضنا واقعية ملتزم سكان سلا الجديد، فإنه من المفروض أن يكون ذلك دون علم كافة العناصر المؤثرة في سياسة الجهاد، وعلى رأسهم موراطو رياس.

والخلاصة أن إنجلترا لم تدخل في مفاوضات فعلية في هذا الصدد لما قد يشككه ذلك من عواقب وخيمة على علاقاتها بالسلطة السعدية، ومن ثم عدم استطاعتها التضحية بها لفائدة علاقة خاصة بمن ترى فيهم مجرد لصوص. بل إن المهام الدبلوماسية التي كلف بها شارل الأول مبعوثه هاريسون إلى رياس مصب أبي رقراق أجبره عليها احتداد الهجمات التي ظلت تنن من وطأتها شواطئ بلاده، وتعدد الأسرى المساجين في مطامير سلا الجديد، وبغية تحقيق انفراج العلاقات. ولهذا سمح له بنقل المساجين المسلمين بإنجلترا وإمدادات عسكرية إلى المجاهدين، راغبا من وراء ذلك في إطلاق سراح الأسرى الإنجليز³. وقد نجح هاريسون في مهمته مستغلا الأوضاع المتردية التي كانت تعرفها الضفة اليسرى. وهذا الدعم الإنجليزي الذي تسلمه الأندلسيون منه في مارس 1627م قد زامن تصعيدا في موقفهم من السلطة السعدية، حيث بعد أسابيع من ذلك أعلنوا استقلالهم التام عنها⁴.

¹ استنادا إلى شكايات مولاي زيدان قررت الأقاليم المتحدة في شتبر 1624 إصدار الأمر بحظر تجارة تهريب الأسلحة إلى المغرب، جاء فيه: "من أجل وضع حد لهذه التجاوزات حظرتنا ومنعنا على كافة رعايا الأراضي المنخفضة كينيا كانوا بعث أو نقل أي بنقية أو بارودة أو مسدس، ولا أسلحة ولا ذخائر حرب إلى مملكتي فاس ومراكش برسم البيع أو المبادلة إلا بإذن أو بترخيص خاص منا". انظر: *Ibid - Pays-Bas - T IV - p 16*.

² كتب التاجر اليهودي موسى بالاش إلى مجلس الولايات العامة في شتبر 1624 رسالة جاء فيها: "لقد وصل إلى هذه المحلة (محلة السلطان) القبطان موراطو رياس من سلا، ومنحه جلالته قيادة البحرية؛ ومنذ ذلك الوقت جعلني أسير عن الضرر الكبير الذي يلحقه أهل سلا برعاياكم، وأنه يريد أن يحصل من السلطان على أمر بتحريم مثل هذه الأفعال حتى لا يستطيع أحد أسر أو أخذ رعاياكم ولا متاعهم". انظر: *Ibid - pp 10 et 26*.

Ibid - Angleterre - T III - p 10.

Ibid - T II - p 443-45.

ويعزى ارتفاع قيمة مرسى سلا الجديد في نظر السياسات الأوروبية في هذه الأونة لما ذكرناه من بداية اكتساح السفن الجهادية لعوالم بحرية بعيدة عن الساحل المغربي وعن أراضي العدو التقليدي، حيث كلما زاد ابتعادها زاد اقتراب التأثيرات السياسية من قاعدة الجهاد لمعرفة قوة وفعالية الرياس من جهة، وللعمل على كسب ودهم من جهة ثانية عن طريق البعثات الدبلوماسية، الأمر الذي وعته فرنسا بدورها باعتبارها من أهم الدول المتضررة من العمليات الجهادية، والتي جعلتها تكشف خطورة الوضع، وما يفرضه عليها من ضرورة التفكير في الوسائل الكفيلة بالقضاء على هذا النشاط أو ردعه، مؤسسة بذلك توجهها رئيسيا لسياستها إزاء سلا الجديد في المرحلة اللاحقة.

1 في منكرة الفارس دي رانزي الموجهة إلى الوزير الفرنسي دو ريشليو في نونبر 1626، كتب قائلا: "بني افترض تواجد قوة بحرية أو عسكرية بفرنسا مسلحة ومجهزة بكل الأشياء الضرورية، وأنه سيكون جدير استئصالها وبالإمكان، إذ عوض أن تقدم سفن سلا يومها إلى هذه الشواطئ (الفرنسية) يجب الذهاب للرسو قبله مرسى سلا المنكورة بست سفن، بحيث تمنع إحداهما عمليتي الدخول والخروج، وتقوم في الوقت ذاته بهحث سبل السلم مع الإمبراطور، وبإطلاق سراح المعتقلين الفرنسيين المساكين". انظر: Ibid - France - T III - p 116-17.

الفصل الثاني: رحلة ازدهار الجهاد البحري

إن ظهور مرسى سلا الجديد كمرفأ رئيسي من الناحية الاقتصادية تجارة ومغنا، ومركز أساسي يضاهي مركز أسفي من الناحية الدبلوماسية - باعتباره الأقرب إلى العاصمة السعيدية - قد ولد تخوفا أوروبيا ناجما عن تأثير هذه الوضعية على العمل الجهادي ضد السفن التجارية، مثل ما خلق لدى الرياس شعورا بضرورة توفير إطار حقيقي لهذا النشاط بشكل يسمح بإنجاز نجاح أكبر، لن يتم إلا باستفادة قصوى من مردودية النتائج، وبإشراك العاملين في توجيه سياسة المصعب وفق مصالحهم. ومن هنا كانت طبيعة الظرف تفرض نظاما سياسيا خاصا بالمجتمع الجهادي يتميز باستقلاليته، أو على الأقل بنوع من التميز الذاتي، الأمر الذي أفرزته ثورة 1627م التي قام بها الأندلسيون ليفسخوا ما تبقى من صلة بالسلطان، منتصرين لانتظامهم في هيئة حكم خاص.

وهذه النتيجة إنما تشكل درجة من التطور الطبيعي المعروفة أصلا في المدن المتوسطية المماثلة؛ إذ أن ذلك يبدو عرفا تاريخيا لا ينتهي إلا باستقلال هذه الحواضر بصورة جلية معتمدة على سطوتها البحرية، وعاملة من أجل ضمان استمرارها، ومستقلة ابتعادها عن الصراعات السياسية القارية، ناصبة كل اهتمامها على المدينة والمجال الملاحي الممتد أمامها نتيجة اختلاف مصالحها وعاداتها وعناصرها البشرية عن الأوساط المحيطة بها؛ زيادة عن كونها - تبعا لنجاحها الذي أهلها لهذا التطور - تحضن ثروات كبيرة تود الانتفاع بها لوحدها. ومن هذا المنطلق يأتي استقلالها عن الدولة القارية مفروضا وبصورة تدريجية إلى أن تتحول إلى جمهورية تابعة أو مستقلة تماما¹ عن السلطة القائمة إلى جانبها.

لذلك، وفي فترة لم تعد خلالها الدولة السعيدية سوى سلطة منافسة في مصاف السلطات الإقليمية الأخرى، توقف رياس الجهاد البحري على الاعتراف بتبعيةهم لمولاي زيدان، لما كانوا يرون في علاقته بهم من ابتزاز مالي مفروض، ومن تجنيد عسكري غير محبذ، خاصة وأن شعورهم بغربتهم ظل متعاظما، على شاكلة حياة

¹ De Castries Op cit - p 824-25.

الطوج والإنكشارية بالجزائر، الشيء الذي دفعهم إلى السعي من أجل تحقيق استقلالهم، مع ما سترتب عن ذلك من تأثير على مجتمعهم الجهادي من جهة، ومن دوافع لتطوير نشاطهم من جهة أخرى².

وبروز الضفة الجنوبية للمصب مستقلة ما كان إلا ليجعلها طيلة فترة حضورها على هذا النحو مضطرة لمجابهة عدد من التحديات الداخلية والخارجية، حيث أن تنوع عناصرها ووجود فئة منتفعة على حساب فئات أخرى، سيزيد من هوة التباعد إلى درجة تنذر بالاحتكاك المباشر بين هاته العناصر، لا سيما وأن تغيير الوضع السياسي بمساهماتهم جميعا كان بإمكانه أن يوجب الرغبة العميقة في التحرر لدى القاعدة العريضة التي يشكلها الأندلسيون اللاجنون من جهة. ومن جهة أخرى سيكون الانسلاخ عن السلطة السعدية في نظر سلا البالي وقائدها العياشي خطوة مباركة لما له من إنهاء للتهديد العسكري، وما يقدمه من دعم لظهور العياشي كزعيم شرعي أوحى في عموم المنطقة، وعما يمكن أن يوفر ذلك من استفادة بشرية وعسكرية واقتصادية، علما بأن الضفة الجنوبية كانت واقعة في الحدود المشتركة لمنطقتي نفوذ مولاي زيدان والعياشي، بحيث لا يفصلها عن سلا البالي إلا النهر، وبالتالي سيحتّم عليها موقعها - أجلا أو عاجلا - التبعية لإحدى السلطتين، وسلطة المجاهد هي الأقرب لتحقيق هذه الخطوة.

1- التحول السياسي بمص أبي ررقاق

إذا كانت الوضعية السياسية لسلا البالي لم تخضع لأي تغيير منذ اعترافها بسلطة المجاهد العياشي، فإن سكان الضفة الجنوبية بزعامة الحرناشيين قد استغلوا عدم مواجهة السعديين لثورتهم³ للقيام بتنظيم أنفسهم في نظام مشابه لما كانوا عليه بالأندلس، مؤسسين سلطة مستقلة يرأسها حاكم منتخب سنويا في شهر ماي⁴، بمساعدة

Monlaü - Op. cit - p 77.

² لا يجد النشاط القرصاني ازدهاره إلا في إطار مدينة ذات سيادة، أو على الأقل متراجعة سياسيا في هامش دولة كبير ومستقلة عن سياساتها. وقد تجددت هذه الظاهرة بنفسها في المغرب إبان فترة تراجع النفوذ السعدي في المعمورة على بداية القرن السابع عشر، حيث شكل قرصنة مختلف البلدان جمهورية مستقلة تحت إمرة القبطان الإنجليزي فري

منوارين (H. Mainwaring). Ibid - p 69-70.

Caillé: "La ville de Rabat..." - Op. cit - p 215.

Dan - Op. cit - p 209.

ديوان (Cabildo)¹ مؤلف من ستة عشر عضوا من شيوخ الأندلسيين²، تنحصر مسؤوليته في المهام التنفيذية الخاصة بالشؤون الاقتصادية والعسكرية والدبلوماسية³، في حين أسندت العدالة لقاضيين من قضاتهم⁴. وقد كان من الطبيعي أن تحتل القسبة - بفضل مبادرة سكانها وموقعها الذي يسمح لها بالتحكم في المرسى - مكانة عاصمة السلطة الجديدة ومقر الديوان⁵.

وقد كانت عضوية الديوان ومنصب الحاكم قاصرين على العناصر الحراثية دون سواهم من الأندلسيين، وربما شاطروهم فيهما ذوو النفوذ الآخرين من الرياس وربابنة السفن الجهادية⁶؛ في حين كان نفوذ الديوان لا يشمل القسبة وسلا الجديد فحسب، وإنما كان يتعدى ذلك - حسب اعتقاد الأب دان - ليشمل حتى بعض دواوير النواحي⁷؛ وإن كان ذلك يدفع بنا إلى افتراضه نفوذا اقتصاديا لا سياسيا، لما كان يطبع علاقة الأندلسيين عموما بالأهالي من تباعد قوامه الاختلاف الاجتماعي والديني، على عكس الإشعاع الاقتصادي الذي كان للصفة الجنوبية على عموم المنطقة المحيطة بها.

وقد كان تمويل الديوان يتم بواسطة مداخيل الجمرک المفروضة على السلع وضرائب المرسى المتمثلة في حقوق الرسو والإقلاع، وأيضا بواسطة أعشار المغانم التي لم تعد تؤدي إلى السلطان. وللحفاظ على هذه الاستقلالية بالارت السلط الأندلسية، في بداية عهدا إلى اتخاذ تدابير وقائية تمثلت في تحصين مواقع القسبة المتقدمة برا وبحرا، حيث أنشئ برج في سور القسبة المتقدم نحو المدينة لحماية مدخلها⁸، وبرج آخر في جانب القسبة المشرف على مدخل المرسى لتحصين دفاعه (برج فلكاكر أو

¹ Brignon - Op. cit - p 230.

² Coindreau Op. cit - p 44.

³ Brignon - Op. cit - p 230.

⁴ Brunot Op. cit p 158.

⁵ Caillé Op. cit p 215.

⁶ يشير لوروا إلى أن موراطو رايوس كان أول المنتخبين على رأس الديوان، وأنه وجد نفسه مضطرا إلى تعيين أحد مواطنيه ككاتب له. وقد احتل هذا الأخير بذلك بتخراطه في دين الإسلام على منوال رئيسه. انظر: Leroux - Op. cit - p 74-75

⁷ Dan - Op. cit - p 206.

⁸ Burlot - Op. cit - p 52.

برج القراصنة) دعم بعدة قطع مدفعية استوردت من الأقاليم المتحدة¹، استعدادا منها لمواجهة التحديات المفروضة عليها. لكن السلطة الجديدة ونظامها الأوليغارشي² ما كان الوضع فيها إلا لينذر بالانفجار من جراء الغليان الداخلي البارز في تدمير الأندلسيين المشكلين للأغلبية السكانية في أحياء سلا الجديد. ذلك أن انفراد الحرناشيين بالسلطة السياسية وبالامتيازات الاقتصادية جعل الأوائل يتقبلونه على مضض ويحسون بوطأته المتزايدة يوما عقب آخر³، لا سيما وأنه منذ بداية سنة 1630م التي عرفت غلاء في أسعار الحبوب زادت وضعيتهم تدهورا إلى درجة أنهم "لم يعودوا يعرفون كيف سيشترون الخبز"، لذلك طالبوا بحقهم في مداخيل الجمر الموجهة لأداء رواتب جنود القصب⁴، كما طالبوا بحقهم في المشاركة في الحكومة وبيباقي الامتيازات الأخرى.

وقد كان رد الحرناشيين عنيفا في شكل قصف مدفعي⁵ كان بمثابة اندلاع حرب أهلية بين الطرفين، انخرط فيها سكان سلا البالي كحلفاء لسكان القصب⁶ بدافع تقاربهم الديني قياسا بالآخرين. إلا أن ذلك لم يرجح كفة فئة على الأخرى، كادت الحرب معها أن تعرف استمرارية طويلة لولا محاولة جهات عديدة التوسط لإقرار السلم⁷، انتهت بنجاح أحد صلحاء شالة في جر المتحاربين إلى القبول بتحقيق وفاق لمدة سنتين⁸، مع تمتيع أندلسي سلا الجديد بحق انتخاب قائد من بينهم إلى جانب قائد القصب وبمشاركتهم في عضوية الديوان على قدم المساواة مع الحرناشيين، على أن يظل مركز الديوان ومقر سكنى القاندين بالقصب⁹، كما قضى الاتفاق بالتوزيع المتساوي

Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 333.

Monlau - Op. cit - p 70.

Coindreau - Op. cit - p 43-44.

Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T IV - p 250.

Ibid - France - T III - p 193.

⁶ حول هذا التحالف، كتب جون هاريسون في مذكرته في أكتوبر 1630 أن الحرناشيين استفادوا من موقع سلا البالي لتركيز خيالهم، ولتنظيم حملات ضد سلا الجديد لنهب مواشي الأندلسيين وممتلكاتهم، كما استفادوا من علاقتهم الجيدة بالعيشي لتبشير تموينهم ونشاطهم التجاري عن طريق النهر. أنظر: Ibid - Angleterre - T III - p 99-102.

⁷ في نفس المذكرة كتب هاريسون معترفا بأنه قد راسل المجاهد العياشي - الموجود آنذاك على مقربة من طنجة - طالب منه التعجيل بالحضور إلى المنطقة من أجل تحقيق الوفاق بين الطرفين. أنظر: Loc. cit.

Ibid - France - T III - p 194.

Ibid - Angleterre - T III - p 99-102.

لما دخل أعشار الجهاد ورسوم الجمر ك بين القصبة وسلا الجديد¹. وقد تم التوصل إلى هذا الاتفاق في ماي 1630²، حيث أجبر الطرفان على احترام بنوده بفعل تهديد الولي المذكور بتحريض أعراب زعير ضد من ينقض شروط الصلح³.

لقد أضحى الديوان تحت رئاسة الحاكمين محمد بن عبد القادر صيرون عن الحرناتيين وعبد الله بن علي القصري عن الأندلسيين، في ظل نظام انتخابي متجدد سنويا⁴، بيد أن التساكن الظاهري كان يخفي هوة الخلاف بين الطرفين، خاصة وقد لمس الحرناتيون الخطر الناجم عن الكثرة العددية التي يمثلها شركاؤهم في قاعدة السلطة، في حين كان هؤلاء يعملون من أجل تثبيت مكتسباتهم السياسية والاقتصادية في وسط يناصبهم العداء داخليا وخارجيا، الأمر الذي ستكون انعكاساته سلبية على أوضاع ضفتي نهر أبي رقران.

إذ في الوقت الذي عرفت فيه العلاقات بين سلا البالي وديوان المجاهدين تعاوناً وتكاملاً، بلغ حد التنسيق العسكري مع العياشي ضد الثغور المحتلة فسي غزوة "الحلق" الثانية سنة 1627م⁵، أدى موقف سلا البالي في النزاع المذكور إلى زيادة حدة التوتر، وبداية تحول الصراع ليشمل ضفتي المصب مع ضيق إمكانات سلا البالي، بمقابل ازدهار الاقتصادي المحتكر من طرف سكان الضفة الجنوبية⁶، الشيء الذي راح يغري المجاهد العياشي بضرورة الانتفاع من إمكاناتها في حملاته ضد مناطق الاحتلال، وسوف تؤدي هزيمته أثناء الحملة على طنجة في يونيو من نفس السنة، واتهامه الأندلسيين بالخيانة إلى إعطائه مبرراً كافياً للدخول في حرب ضد

¹ Coindreau - Op. cit - p 44.

² Caillé - Op. cit - p 217.

³ Les S. I. H. M. - 1^o série - Angleterre - T III - p 101-02.

⁴ أما بعض المؤرخين إلى اعتبار ما أسفر عنه النزاع الحرناتي-الأندلسي من نتائج بمثابة انقسام الضفة الجنوبية إلى تقويتين متباينتين، حيث راولا في اكتساب سلا الجديد لحق التمثيلية في الحكم والديوان نشوء الجمهورية الثالثة بموازاة جمهورية الحرناتيين وجمهورية سلا البالي التي يرأسها العياشي. انظر: بوجندار - نفسه - ص 234. وأيضاً: Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T V - intro. p X et Coindreau - Op. cit - p 44.

⁵ ونظراً لأن الشكل الجمهوري المستحدث عقب اتفاق ماي 1630م إنما اتخذ نظام حكم موحد في ظل التساكن، لو ما يطلق عليه بنظام فيدرالي، بدليل وحدة النظام ومقر الحكم ووحدة المجلس الاستشاري. لذلك إذا ما قبلنا تسمية نظام الحكم في سلا البالي بـ "الجمهوري"، فإننا نتوصل إلى وجود جمهوريتين فقط بمصب أبي رقران عوض الثلاث الحالية - نفسه - ص 109.

* Brignon - Op. cit - p 230.

الأندلسيين منذ سنة 1631، واجهه هؤلاء بالبحث عن سبل تدعيم موقعهم السياسي المستقل حتى ولو اتخذ شكل التنسيق مع الإسبان أعداء العياشي. إن امتناعهم عن مساندة حملة العياشي على المعمورة في أبريل 1631، وإحساس هذا الأخير بسعيهم إلى مجابهة ضغطه بالتقرب من الإسبان² قد أجبره على البحث عن سند شرعي لتبرير دخوله في حرب ضدهم، وهو ما كان غير مستعص عليه بالنظر إلى موقف الوسط المغربي من لاجئي إسبانيا. وبمجرد انحياز العلماء إلى صفه³ قام بمحاصرة الضفة الجنوبية من جهة النهر وبقصف سفنها، في الوقت الذي قام فيه ابنه عبد الله بشن غارات على مزارع وحقول سلا الجديد خارج نطاق المدينة انطلاقاً من شالة في جيش كان يتألف من خمسة آلاف فارس⁴، في إطار خطة عسكرية اعتمدها العياشي طيلة عهده إلى حين مقتله.

ومع اشتداد ضغط العياشي بادر المحاصرون إلى البحث عن سلطة قادرة على حمايتهم من منافسهم القوي، محكمين في البداية شخصيات دينية من أجل إنهاك الحصار، فتوجهوا صوب زعيم الدلائيين محمد بن أبي بكر اعتباراً للعلاقات الطيبة التي تجمعها آنذاك بالعياشي⁵، وأمام خيبة مسعاها بادرُوا إلى إعادة ربط الجسور بالسلطان الوليد بن زيدان، مفضلين الاعتراف ثانية بالسلطة الإسمية للسعديين على السقوط تحت نفوذ العياشي⁶، خاصة وأنهم لمسوا فيه تفهما أكثر لوضعيتهم لكونه إسباني الأم مثل عدد كبير منهم⁷. وقد أدت هذه المبادرة الأخيرة إلى عودة السلطة السعدية إلى مصب أبي رقران، وبالتالي إحجام العياشي مؤقتاً عن تميم حصاره لما يبيده ذلك من تهجم على سلطة لا زالت تحظى بشريعتها.

¹ نفسه - ص 155.

² قال أبو إملق في ذلك: "كان أهل الأندلس قد كرهوا سيدي العياشي لغرض غير لائق اقترحوه عليه فلم يرضه ولم يوافقهم عليه". "أخبر عن ظهور العياشي" - ص 79-80. وتجعلنا هذه الفقرة نعتقد بإطلاع العياشي سياسة أندلسية تتعارض وسيرته الجهادية إزاء الإسبان.

³ استجاب له في ذلك سيدي محمد بن العربي الفاسي وسيدي عبد الواحد ابن عاشر. أبو إملق - نفسه - ص 80.

⁴ بوجندار - نفسه - ص 236-37.

ignon- Op. cit - p 225.

⁶ نفسه - ص 235.

⁷ حركات - نفسه - ص 290.

⁸ لا تبدي المؤلفات نهاية للحصار المذكور، وإن كانت تترك الانطباع بأنه لم يحقق شيئا.

وبمجرد توقف الاضطراب الذي عانت منه المنطقة خلال سنتي 1630 و 1631 وتضاعف حجم النشاط الجهادي إلى درجة بلوغه شكل صناعة حقيقية¹ طيلة الخمس سنوات التالية، استفاد منها بالدرجة الأولى العنصر الأندلسي الذي زاد حضوره قوة وطموحا، منتهيا ليصبح العنصر المتحكم في توجيه دفة المجتمع الجهادي كقوة سياسية غالبية. ولذلك بلادر الحاكم القصري سنة 1636 إلى خرق الاتفاق السابق، حيث هاجم أتباعه القصبه من أجل إخراج الحرناسيين منها، وتكلل هذا الهجوم بطرد هؤلاء من القصبه، حيث لجأ بعضهم إلى سلا البالي، وفر جزء منهم إلى الجزائر وتونس، في حين أقرت مجموعة منهم في سلا الجديد.

وهكذا انفرد الأندلسيون بالقرار، وثبت القصري سطوته على مجموع الضفة الجنوبية²، بل شجعه طموحه إلى التفكير في بسط النفوذ حتى على سلا البالي مستغلا غياب العياشي عنها³. فعمد إلى إنشاء قنطرة من القوارب على النهر للقيام بنقل المدفعية عبرها إلى الضفة اليمنى، فأرضا على المدينة حصارا شديدا دام شهرين حتى كانت أن تمسقط في يده⁴ لولا عودة العياشي بقواته من جهة، ووصول حملة إنجليزية ضد سلا الجديد من جهة ثانية، استطاعت قلب ميزان القوة لفائدة سكان سلا البالي.

لقد أفلح العياشي في بداية الأمر في طرد الأندلسيين إلى الضفة الجنوبية بمعونة الأسطول الإنجليزي الذي نجح في إتلاف القنطرة (المعدية)⁵، وانتقل عقب ذلك في نهاية شهر أبريل 1637 لتطبيق حصار على سلا الجديد من جهة البر، مستفيدا من المساعدات البشرية والعسكرية التي أمدته بها الإنجليز بغاية تشديد الضغط على الأندلسيين لاستغلاله في إنزال أكبر الخسائر بأسطول الجهاد الراسي بالميناء⁶، لا سيما وأن استفادة الإنجليز من عداوة العياشي لهؤلاء قد خطط لها مسبقا لتستثمر في إنجاح الحملة⁷. وقد بلادر الأميرال الإنجليزي ويليام راينسبوروه (W Rainsborough)

¹ Coindreau - Op. cit - p 45.

² بوجدار - نفسه - ص 237.

³ Les S I H M - 1^o série - France - T III - p 196.

⁴ Ibid - p 537-44.

⁵ نفسه - ص 238.

⁶ Ibid - Angleterre - T III - p 343-54.

⁷ جاء في مذكرة إنجليزية قبل ورود حملة راينسبوروه إشارة إلى أنها لن تكون سريعة ولا ذات نتائج مضمونة إلا إذا ما تم دفع العياشي إلى حصار القصبه براءه في وقت مهلة منها بحرا من طرف السفن الإنجليزية، وأن الحصول على دعم العياشي متوقع إذا ما توصل برسالة من الحاكم الإنجليزي. انظر: Ibid - p 263.

إلى توقيع اتفاقية تعاون مع العياشي في شهر ماي الموالي نصت على التنسيق العسكري، مما مكن العياشي من تشديد مراقبته للمصعب، كما وفرت للإنجليز فرصة تخريب سفن الجهاد عن طريق بعض جنود المدفعية الذين بعثوهم للعمل تحت إمرة المجاهد بسلا البالي¹.

من جهة أخرى، زادت وضعية الأندلسيين تأزما مع مسارعة العياشي إلى عرقلة زحف جيش السلطان محمد الشيخ الأصغر القادم لمساندتهم بفضل نجاح تحالفه مع الدلانيين، الأمر الذي جعل القوات السعدية تتوقف عند مشارف منطقة فضالة. وقد أدى هذا الوضع إلى تبخر آمال المحاصرين في التخفيف من حدة الحصار، ولم تتمكن سفنهم من التحرك خارج المرسى نظرا للمراقبة الإنجليزية الشديدة². ونجم عن ذلك نقصان شديد في موارد المدينة وضعف تموينها إلى درجة عرف معها السكان خصاصا في الأقوات³، ردوا عليه باندلاع حالات التذمر والاستياء ضد الحاكم القصري الذي حملوه مسؤولية ذلك⁴، وظهرت بين ظهرائهم ثلاث فئات متعارضة، حاولت كل منها إبداء رأيها كحل للمشكل القائم:

* فئة مدعمة من طرف الحرناشيين بزعامة علي غيلان وموسى سانتياغو وسليمان بن ظاهر، وهي مستقرة بسلا الجديد وتناصر المجاهد العياشي، تطالب بتصفية القصري والمصالحة مع المجاهد.

* فئة ثانية تتمسك بالسلطة القائمة وتستبعد أي خضوع للعياشي، ولذلك كانت ترى بضرورة إقالة القصري نظرا لفشل سياسته ولرغبته في الانفراد بالحكم، وتوصلت إلى ضرورة بعثه إلى السلطان الشرعي ليقرر في مصيره.

* فئة ثالثة تناصر القصري مستشهدة باتساع نطاق عمران المدينة منذ توليته، كمؤشر على ازدهار الحياة بها، وتطالب بإقراره في منصبه الذي عينه فيه السلطان⁵. وقد احتدم النقاش بين الفئات الثلاث، خاصة وأن مطالب العياشي مقابل الصلح اتسمت في نظرها بالمبالغة، من حيث اشتراطه دفع تعويضات عن الخسائر التي لحقت بأهالي سلا البالي، وتمتيعه بنصف مداخيل الجمرک وأرباح المغانم، فضلا عن

¹ Ibid - p 343-54.

² Ibid - p 322-24.

³ Ibid - France - T III - p 537-44.

⁴ Ibid - Angleterre - T III - p 461-63.

⁵ Ibid - p 461-63.

إعادة توطين الحرناشييين وإقرار حقوقهم في الحكم. وقد كان هذا المطلب الأخير كافيا لوحده لإلغاء كل إمكانيات الصلح¹، واتفق السكان في الأخير على إسناد تسوير المدينة مؤقتا إلى ثلاثة حكام هم: الكاهية البشير حرناشو والرايس الحاج عباس والرايس الهرادو²، تعبيرا عن رجحان وجهة النظر القاضية ببعث القصري إلى السلطان، وتم ذلك ليلا عن طريق البحر، حيث نقل القصري إلى محلة السلطان قرب فضالة عبر مرمى أزمو.

وباعتبار أن القصري كان أكثر اعتدالا تجاه السلطة السعدية وأكثر عدا للجهاد العياشي، فإن محمد الشيخ الأصغر قد بادر إلى تزكيته حاكما على الضفة الجنوبية، أمرا بإعادته إلى سلا الجديد على متن سفينة محملة بالمؤونة والأقوات لتخفيف وطأة الحصار على السكان رفقة المفاوض الإنجليزي روبرت بليك (Blake)، وبرسائل إلى الديوان تحمل أوامر بتقديم ضمانات للأسطول الإنجليزي حتى يرفع حصاره إلى الديوان تحمل أوامر بتقديم ضمانات للأسطول الإنجليزي حتى يرفع حصاره البحرى عن المصب³. وبذلك تمكن القصري من العودة ظافرا إلى الحكم، عاملا منذ البداية على تصفية خصومه المتطرفين⁴.

ولم يكن هذا لجعل المدينة تنعم بالاستقرار حتى بعدما رفع المجهاد العياشي هو الآخر حصاره البرى مقابل عودة الحرناشييين إلى سلا الجديد. فقد ولدت هذه العودة اختلالا سياسيا ناجما عن رغبة هؤلاء الأخيرين في استعادة ثقلهم السياسى الذي يتعارض وواقع السيطرة الأندلسية ونفوذ القصري⁵؛ إذ ليتمكن هذا من الحفاظ على الوضع بادر إلى إيجاد حليف يوازي تحالف العياشي مع الحرناشييين، داخلا منذ إقلاع الأسطول الإنجليزي في غشت 1637 في اتصالات مع الإسبان⁶، في الوقت الذي

¹ Ibid - France - T III - p 537-44.

² يلاحظ من خلال لقلب الحكم الثلاثة أنهم شخصيات عسكرية، إذ يفترض أن يكون الكاهية البشير على رأس جيش الفلر اعتبارا للقبه، أما الرايس الحاج عباس فلقبه دليل على انتمائه لطائفة الرايس، ونفس الشيء بالنسبة للهرادو الذي ألقاه بالرايس لاعتقادنا في أنه هو الرايس المذكور كعقيل سابق في الأراضي المنخفضة سنة 1635 (انظر: Les S. 368 - p 368 - T IV - 1^o série - Pays-Bas - I. H. M.). ويلاحظ اشتراك الحرناشييين في الإدارة المؤقتة على الأقل بالبشير الذي يؤكد لقبه انتمائه لهذه الطائفة.

³ بمجرد عودته إلى منصبه سارع القصري إلى إطلاق مراح الأسرى الإنجليزي. انظر: Ibid - France - T III - p 543-44.

⁴ كان المتضررون الريميون من عودة القصري هم الحرناشييون وأنصارهم، وقد تمت تصفية على غيلار وسليم بن طاهر مزمعي الرأي الأول في قضية مصير القصري، في حين فر البشير حرناشو لاجئا إلى سلا الهلالي. انظر: Ibid - p 544.

⁵ ضاق نفوذ القصري عما كان عليه قبل الأزمة، حيث أنه أعيد إلى منصبه كحاكم لسلا الجديد فقط في حين ولى الديوان كائدا خلاصا على القضية. انظر: Ibid - p 542-44.

⁶ بوجدان - نفسه - ص 242.

لمس فيه ضعف التأثير السعودي وانقطاعه من جراء التكامل الحاصل بين العياشي ومحمد الحاج الدلاني. وقد مكن مسعى القصري سلا الجديد من تخفيف حدة الضغط لفترة مؤقتة، لترتقي الأحداث الداخلية بعد ذلك نحو الاستفحال، الذي زاد من شدته تآزم الظروف الاقتصادية، وكان من نتائجه اغتيال عبد الله القصري في نهاية السنة وتنصيب ابنه في الحكم، رغم أنه لم يكن في مستوى طموحات والده². ودرءاً لخطورة الحرناشيين سارع السلطان محمد الشيخ إلى تعزيز قبضته على المنطقة، باعتا قائده العليج مراد لموازرة الحاكم الجديد، وللدفاع عن القصبه ضد أولئك الباحثين في سبل السيطرة عليها³ مدعين بعون العياشي، الذي قام من جديد بشن حصار شديد على سلا الجديد منذ مارس 1638⁴، مضاعفاً من معاناة ساكنتها في توفير الأقوات الضرورية إلى حين اضطرارهم أكل جلود البقر⁵، ومن ثم ضاقت عليهم فرص الخلاص، وصاروا يفكرون في تسليم أنفسهم ومدينتهم إلى الإسبان مقابل النجاة⁶.

فقد تمكن العياشي من شل حركة الجيش السعودي مستعينا بحليفه الدلاني الذي نجح في إلحاق ضربة قاصمة بقوات محمد الشيخ في معركة وادي العبيد (يوليو 1638)؛ كما عمد إلى إحضار سفن من عند حلفائه آل النقسيس حكام تطوان ونصبها أمام مدخل المرسى لمنع السفن الأندلسية من مغادرتها أو ولوجها⁷ بهنـف إجبارهم على تسليم القصبه. بيد أن استمرار ورود الإعانات من الإسبان والإنجليز قد أفشل حصاره، وجعل السكان يحصلون على أكثر من حاجياتهم، إلى درجة أن الحبوب أضحت تباع بأبخس الأثمان⁸؛ وبالتالي فرض عليه التنسيق مع القوات الأوربية لتكثيف الضغط البحري، متفقاً مع القنصل الفرنسي على تدعيم أسطول بلاده لحصاره البري⁹، وأيضاً بتكليفه اليهودي يوسف كوهين (J. Cohen) بالسعي لدى

Les S. I. H. M. - 1^o série - Angleterre - T III - p 461.

Ibid - Pays-Bas - T V - Intro. p XXII.

Ibid - Angleterre - T III - p 461-63.

Ibid - France - T III - p 197.

Dan - Op. cit - p 221.

Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 597.

⁵ رزوق - نفسه - ص 223.

⁸ بوجدان - نفسه - ص 242-43.

⁹ نفسه - ص 242.

الأقاليم المتحدة من أجل عقد تحالف في هذا الصدد، مقدما - كدليل عن حسن النية - على إطلاق سراح مجموعة من الأسرى الهولنديين، مطالبا بإمداده بكميات من بارود المدافع.¹ وقد اشتد بأس المجاهد العياشي عقب انتصاره في أبريل 1640 على حامية مازگان التي قتل خلالها قائدها، وغنم فيها كميات هامة من السلاح والذخيرة، مما شجعه على المضي قدما في تشديد الحصار على الأندلسيين²، إلى درجة لم يعد معها في مقدورهم سوى طلب وساطة الزاوية الدلانية في شخص زعيمها محمد الحاج، والذي بعد أن اتسمت تدخلاته السابقة في النزاع بالانحياز إلى حليفه العياشي وتمكينه من دعمه السياسي والعسكري³، بدأ شعوره يتحول تدريجيا نحو منافسته على مناطق نفوذه بشمال المغرب، وخاصة بمصب أبي رقرق، لما كان يمثل من مورد لمداهيل مهمة وتموين عسكري من قبل بلدان أوروبا المتعاملة مع مرساه. ولهذا السبب سوف يستغل فرصة الاستجداد الأندلسي الجديد للظهور بمظهر الفيصل السلمي، طالبا من العياشي قبول شفاعته في الأندلسيين، والتي سيقدم رفضها تبريرا معقولا للدلاني لإعلان الحرب على حليفه السابق⁴، ملتحما معه في بضعة معارك لم تنته إلا بمقتل هذا الأخير في نهاية أبريل 1641. وبذلك تخلص الأمير الدلاني من عقبة أمام طموحه السياسي، كما تخلص الأندلسيون من خصم لدود أذاقهم الأمرين أكثر من عقد من الزمن.

لقد استقبل نبا اغتيال العياشي في سلا الجديد بمظاهر عارمة من الفرح، حيث استقدم رأسه وطيف به في حوارها⁵. وبمقتل هذا الخصم ورؤية الأندلسيين استحالة الاعتماد على دعم السلطة السعدية المحتضرة، وعرفانا بالجميل الذي أسداه لهم محمد الحاج الدلاني، دخل المجاهدون في إطار منطقة مصب أبي رقرق تحت سلطة الإمارة الدلانية الناشئة.

¹ Ibid - Pays-Bas - T IV - p 482-83.

² Ibid - France - T III - p 198.

³ Ibid - p 586.

⁴ Ibid - T III - p 198.

2- ازدهار المواسم الجهادية

ما كان للنجاح الذي حققه رياس سلا منذ بلوغهم مناطق الشمال الأطلنتيكي إلا ليحفزهم على البحث في إمكانية تطوير عملياتهم، باستغلال أقصى النتائج المحصل عليها. فقد كان ازدهار المواسم الجهادية لا يتلاءم إلا في إطار نظام مستقل، الأمر الذي استهدفه هؤلاء المجاهدون حين انسلاخهم عن السلطة السعدية لتكوين سلطة ذات سيادة طويلة الفترة الممتدة من سنة 1627 إلى سنة 1641م، حيث تمكن العمل الجهادي من الإشعاع بقوة تصاعدية، وجعل رياسه يوسعون كل سنة نطاق عملياتهم، حتى أصبحت نواحي المحيط الأطلنتيكي الش

رقية من شمال إنجلترا إلى جزر الخالدات مسرحا مألوفاً لتحرك سفنهم.

لقد دفع استقلال مركز المجاهدين النجاح الجريء المحقق في عشرينيات القرن لتصبح تقليداً دأب عليه هؤلاء، لا في ما يخص مناطقها ولا نتائجها منذ تأسيس الديوان. وقد تنبأ جون هاريسون آنذاك بالمستقبل المشع الذي سيبلغه ميناء سلا الجديد، لا سيما وقد صار يضم أسطولاً قاراً وقوياً يتميز بكفاءة عالية مستمدة من المغام البشرية، بما تحتويه من خيرة الربابنة الأوروبيين² الواقعين في أيدي الرياس السلاويين.

وبالفعل أضحى المرسى مركز جذب للثروات التي تجنى على حساب تجار أوروبا، وقاعدة لتحرك السفن وانطلاقها صوب مراكز العمل، وبالأساس نحو الخط الشمالي الرابط بين غرب أوروبا والأرض الجديدة³، مشجعة بذلك رياس الجزائر على الإسهام بدورهم في العمل بالأطلنتيكي، وعلى إعطاء دفعة قوية للنشاط في ما بين سنتي 1630 و1640م، مدعين رياس سلا الجديد في حملاتهم الكبرى التي كانت تبلغ أحيانا شواطئ أمريكا الجنوبية⁴. ولم يكن هذا التقارب بين رياس مصب أبي رقراق ونظرانهم الجزائريين شاذاً، بل أضحى قاعدة نظراً لتشابه أنشطتهم وطرق استثمارها، الشيء الذي كان يقدم للحليفين وسائل إضافية لمراكمة النجاح، متمثلة في

Coindreau - Op. cit - p 178.

Les S. I. H. M. - 1^o série - Angleterre - T III - p 100-02.

Ibid - France - T III - p 199-200.

Monlau - Op. cit - p 86.

السبل العديدة لتعزيز التعاون في ما بينهم، مثل تبادل الأعلام لتمويه الخصوم¹، واستغلال المرسبين للتموين ولتصريف المغام، وأيضا للتنسيق المشترك والتعاون في الحملات البحرية². وبالطبع كان من شأن هذه الظروف المواتية أن تجعل وتيرة المغام والأسرى تتطور بشكل سريع ومبالغ فيه لدى الدول المتضررة، نجمت عنه سيادة الشعور بالقلق والخوف، صار معها البحارة غير قادرين على امتطاء السفن³ خشية الأسر، وذاع صيت مرسى سلا الجديد بنوع من الدهشة الممزوجة بالرعب، إلى درجة اعتبر بعض المؤرخين أن مجرد ذكر اسم سلا كان يولد الغثيان في عموم العالم المسيحي⁴.

وقد بدأ تطور المصعب سياسيا كمؤشر حقيقي عن القوة الضاربة التي بلغها الرياس في أنشطتهم، رغم ما اعترى فترات الديوان من تطاحنات داخلية وحصرات أجنبية؛ فما أن تتوقف العمليات أو تقتر خلال فترات التوتر إلا وتزداد قوة ونجاحا خلال فترات السلم. فبعد نهاية الحصار الأول للعياشي (1631م) وعودة الأمن انطلق النشاط مجددا بقوة تمكن معه الرياس من مضاعفة حجم العمليات، وما خلفته من مداخيل هامة من المغام المحصل عليها من الإسبان والفرنسيين، ومن الإنجليز أيضا، لا سيما بعد الأعمال العدائية التي قام بها بحارة هؤلاء ضد السفن الجهادية⁵، وعدم التفات سلطات لندن لشكاوى السلاويين. ولذلك كانت شواطئ إنجلترا ضمن مجالات العمليات التي نشط فيها الرياس، وعلى رأسهم موراطو رايس أمير البحر، الذي نجح في تلك السنة في تحقيق مغام هامة على سواحل إيرلندة⁶.

لقد أذن للسلاويين في مهاجمة سفن حلفائهم السابقين والسيطرة عليها، فلم يتوانوا عن العودة إلى مرساهم بالمغام والمسابجين خلال كل موسم جهادي؛ وقد عرف ذلك لقته في موسمي 1635 و1636 اللذين اعتبرا الأكثر ضررا بالنسبة لمصالح إنجلترا. إذ أن السلاويين منذ حلول فصل الربيع - الذي يشكل بداية الموسم - كانوا يمتطون

¹ Brunot - Op. cit - p 159.

² Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 225-26.

³ Ibid - Angleterre - T III - p 258.

⁴ Gosse - Op. cit - p 74.

⁵ منذ يوليو 1628، تعالت شكاوى أهالي سلا الجديد من الأضرار التي لحقت بهم من طرف سفن إنجليزية، بعد أول صل عدائي قام به القراصنة مادوك (Madock) ضد عن بنود الاتفاقية الإنجليزية-السلاوية. انظر: Les S. I. H. - pp 75, 91, 159 et 161-62.

M. - 1^o série - Angleterre - T III

⁶ Dan - Op. cit - p 313.

سفنهم متخذين من ضحاياهم المأسورين دلائل على سفن دولتهم، ومجبرينهم على العمل في السفن، ورافعين أعلاما إنجليزية، قبل أن يتقدموا للتمركز في خطة مجموعات متعددة على طول الشواطئ الغربية لإنجلترا بغرض مفاجأة مراكب الصيد العائدة من الأرض الجديدة، وأيضا للمغامرة في عرض المياه بين إنجلترا وإيرلندا للسيطرة على السفن الرابطة بين الجزيرتين¹.

ولم تكن إنجلترا تعاني وحدها من هذه الهجمات، بل عرفت فرنسا بدورها أثارا شبيهة رغم الحصار الذي قام به الفارس إسحاق دو رازيلي (*de Razilly*) إزاء مصب أبي ررقان سنة 1629م²، ورغم مساعيها الدبلوماسية سنة 1634 لدى مولاي الوليد من أجل دفعه إلى أمر السلاويين بمهادنة السفن الفرنسية مدة ستة أشهر³، إذ على حد قول دو رازيلي تعود الرياس على الإثراء كل سنة على حساب التجار الفرنسيين والتسلط على تجهيزات سفنهم، وعلى الاستفادة من الأسرى كفاءة ومدخولا⁴. لذلك لم تؤد الحصارات ولا الفديات إلى تخفيض عدد الأسرى الفرنسيين بسلا، بل على العكس من ذلك كان تصاعده دليلا على حركية الجهاد وجراة السلاويين⁵ حتى حدود سنة 1636م، التي انشغل عقبها الرياس بأحداث المنطقة مما كان له تأثير واضح على تعثر المواسم، خاصة وقد واكب هذه الفترة تعرض المرسى لحصارين أوروبيين شديدين انضافا إلى حصار العياشي، بشكل عرقل السفانة الجهادية عن القيام بحملاتها المنتظمة⁶، ولن ينتهي ذلك إلا بعودة الاستقرار بعد سنة 1641.

كادت وتيرة العمل الجهادي أن تأخذ طابع القوة والاستمرارية طيلة سنوات سلطة الديوان، لولا فترات التقطع التي كانت تصيبها بين الفينة والأخرى، وتجعل المواسم لا ترقى إلى مستوى سمعة مصب أبي ررقان، وتؤدي في بعض الأحيان إلى توقف العمليات. وقد كانت أولى مواسم الضعف هذه إبان حملة العياشي سنة 1631⁷ التي عاصرت الضغط الفرنسي على مرسى سلا الجديد من جهة، والنزاع الحرناشي-

¹ Les S. I. H. M. - 1^o série - Angleterre - T III - p 258.

² Ibid - France - T III - p 199-201.

³ Penz - Op. cit - p 47-48.

⁴ Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 199-200.

⁵ Penz - Op. cit - p 49-50.

⁶ Ibid - p 56.

⁷ Coindreau - Op. cit - p 180.

الأندلسي من جهة ثانية. أما الفترة الأساسية التي عانى فيها الجهاد البحري من مضاعفات سلبية فقد كانت خلال موسمي 1637 و1638، التي تشير الوثائق إلى عطالة النشاط بصفة شبه تامة من جراء الفوضى الداخلية وردود الفعل الأجنبية، وأساسا التنسيق بين العياشي والإنجليز لضرب أسطول الجهاد. ولكنه رغم هذه الظروف السلبية حافظ الرياس على جزء من فعالية الأسطول، تمثل في جراتهم على مغادرة المرسى ليلا بسفنهم الخفيفة تحت أنظار البوارج المحاصرة، التي لم تفلح في ملاحقتها نظرا لاتباعها أسلوب المساحلة الضيقة² بما تشكله من خطورة على السفن الثقيلة. وقد استمر هذا العمل المحدود إلى حين رفع الحصار الإنجليزي في غشت 1637، لينطلق رياس سلا بعده في عملياتهم ببحر المانش من جديد، رغبة في الانتقام للخسائر التي تكبواها من طرف الأميرال راينسبوروه³.

وقد كانت للجهاد البحري في هذه المرحلة نتائج هامة على مستوى إمداد آلياته باحتياجاتها التأسيسية، وأيضا ببروز المنطقة بفضل ذلك كاهم منطقة مغربية في التجارة الخارجية، فضلا عما خلفته العمليات من أثر تمويلي ناجم عن ارتفاع حجم الأموال الموظفة في هذا المجال سنة بعد أخرى، والذي سيولد مداخيل هامة حددت خلال الفترة الممتدة من سنة 1629 إلى سنة 1639م في مبلغ سبع وعشرين مليون لوكا (27 مليون) حسب سجلات جمارك سلا الجديد⁴. وقد لا يكون هذا الرقم سوى عشر المداخيل (1/10) إذا ما اعتمدناه فقط كمجمل الحقوق الجمركية المقطعة من تجارة المغنم- حسبما تقدم به كواندرو-⁵، مما يجعله لا يمثل سوى المعدل السنوي لهاته الفترة.

¹ Ibid - p 183.

² Lex S I H. M. - 1^o série - Angleterre - T III - p 281.

³ Ibid - p 546.

⁴ Brunot - Op. cit - p 163.

⁵ كتب كواندرو في ذلك ما يلي: "لم تكن لتتأخر السنوات الأخيرة ذات أهمية قليلة، فحوالي سبع وعشرون مليون لوكا مقطوعة من تجارة المغنم احتسبت كمداخيل من طرف جمارك سلا". انظر: Coindreau - Op. cit p 183. أما إذا كان يعني مغفرتها المرسى كجساعة فيفترض ألا يشكل المبلغ المذكور سوى جزءا يسيرا من المجموع، باعتباره أن ما خرج يكون مما تبقى من الاستهلاك والتصرف للداخلين من جهة، والقرض سقوط نسبة من القيمة المالية للأسرى، بحيث لا يمكن لتداولهم جميعا، إما لإسلام البعض، أو لقرار البعض الثاني، لو لاستمرار البعض الآخر في الأسر.

وما كانت هذه المداخل لتكون على هذه الدرجة من الأهمية لولا تأثيرها في قوة الأسطول الجهادي وكفاءته العملية، وفي توسيع مساح نشاطه. فقد كان معدل السفن المستعملة يقارب الخمسين مركبا في السنة وبأنواع مختلفة¹، وكان يتعرض للقوة أو للضعف ارتباطا بالنشاط المرتتهن بظروف العمل في مصب أبي رقرق؛ حيث يتضح بأن الأسطول عرف تدهورا كبيرا خلال الفترات العصبية ما بين سنتي 1629 و1631، جعل عدد قطعه لا تتجاوز - حسب شهادة الأب دان - الثلاثين وحدة². وما لبثت الظروف الملائمة التي أعقبت ذلك طيلة خمس سنوات أن جعلته يرتقي إلى ما بين الأربعين والخمسين مركبا³، ليصير الأسطول السلوي من أهم الأساطيل الجهادية، وفي المرتبة الثانية من حيث الترتيب بعد أسطول الجزائر، مع امتيازته على هذا الأخير بسرعة سفنه وخفتها⁴.

واكتساب سلا الجديد لهذه القوة الملاحية ما كان إلا ليزيد من طموحها في توسيع مجال النشاط، خاصة بعد القطيعة مع الإنجليز. ولهذا كان الرياس يوزعون سفنهم إلى مجموعات يتجه بعضها لمراقبة السفن القادمة من الجنوب بالقرب من جزر الخالدات قصد السيطرة على بضائع الهند⁵؛ ويتجه بعضها الآخر نحو الشواطئ الإسبانية والمضيق للتمركز عن كذب من قاديس أحد المراكز التجارية الأساسية؛ على أن جزءا من الأسطول كان يفضل العمل في المياه المحيطة بالجزر البريطانية، وبالأساس لملاحقة سفن الصيد القادمة من شرق كندا، وقد كان العدد المتوجه إلى هذه المناطق سنة 1637 يبلغ أزيد من عشرين سفينة، أي ما يمثل نصف الأسطول العامل⁶.

وقد اعتبر موسما 1635 و1636 الفترة الأكثر بريقا للحملة الجهادية على السواحل الإنجليزية في تعددها وقوة عملياتها؛ فخلال يوم واحد من سنة 1636 أقيمت حوالي مائتي أسير إنجليزي إلى مصب أبي رقرق⁷. وأضحت الشواطئ والتجارة الإنجليزيتين تحت رحمة رياس البحر، وعم الضرر سكان النواحي الساحلية وانتشر

¹ Caillé - Op. cit - p 225.

² حسبما ذكره الأب دان، فإن هذا الرقم لا يشكل إلا نصف عدد سفن الأسطول لسنة 1626. انظر:

³ Dan - Op. cit - p 209 et Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 115-17.

⁴ Les S. I. H. M. - 1^o série - Angleterre - T III - pp 281 et 309.

⁵ Dan - Op. cit - p 315.

⁶ Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 50.

⁷ Ibid - Angleterre - T III - p 309.

⁸ Ibid - p 258.

البؤس في أوساطهم، حيث سدت أمامهم منافذ الرزق لاعتمادهم في مواردهم على الصيد ونقل البضائع، من جراء تدهورهما بفعل اكتساح السفن السلاوية لمجالات العمل؛ فضلا على أن ارتفاع عدد الأسرى الإنجليز الذي بلغ حوالي ثلاثة آلاف رجل في مختلف مراكز شمال إفريقيا قد ولد إلى جانب انماسي مصاريف باهظة إضافية.

لأداء القديبات مقطعة من جهود المنتجين! إن نشاط الجهاد السلاوي لم يكن قاصرا على الشواطئ الإنجليزية فحسب، بل شكل ذلك نموذجا للعمل ضد المصالح الفرنسية والإسبانية طيلة مرحلة الديوان، الشيء الذي سينفع بسلطات هذه الدول إلى البحث في السبل القمينة بالقضاء على الجهاد البحري نهائيا، أو على الأقل تليين شوكته.

3- ضغوط أجنبية عفيفة

كان من شأن استفادة العمل الجهادي من الظروف المناسبة الناجمة عن التحول السياسي الطارئ في الضفة اليسرى، أن يدفع مختلف القوى الأوروبية إلى السعي من أجل التأثير على حركته، والتقليص من قوة عرقلته للملاحة التجارية. وقد نهجت في هذا السعي مظاهر متعددة، ما بين مساعي سلمية، إلى أعمال ردع عنيفة كانت هي الطاغية على علاقاتها مع معصب أبي رقرق، سواء ضد أسطول الجهاد أو ضد المدينة؛ بل حاول بعضها استغلال فرص الانقسامات التي عرفها مركز سلا الجديد من أجل فرض سلطانها على القسبة.

وإذا كان الهولنديون والإنجليز قد بادروا عند تأسيس الجمهورية إلى تدعيم العلاقات مع رجال الجهاد البحري، عن طريق تحقيق تقارب دبلوماسي معزز بتعاون عسكري استمرارا للمرحلة السابقة²، وهو ما أفلحوا فيه في البداية، خصوصا بالنسبة للإنجليز الذين كان لموقفهم المنحاز إلى جانب الأندلسيين إبان ثورتهم أبلغ الأثر على هؤلاء، وسعيهم إلى رد الجميل³؛ فإن السلاويين من جهتهم كانوا يرون في هذا التقارب ظرفا ملائما لتطوير نشاطهم الملاحي، جعلهم يوقعون اتفاقا مع المبعوث الإنجليزي هاريسون في ماي 1627، قضى بإطلاق سراح أسرى بلاده وترسيخ

¹ Ibid - p 159.

² Brunot - Op. cit - p 160.

³ Les S. I. H. M. - 1^{re} série - Angleterre - T III - p 14.

التعاون التجاري، وتحديد العلاقات البحرية بينهما بشكل يسمح بحاربة أعداء الطرفين، وغنم بضائعهم دون المساس بحرية رعاياهما، ولا إلحاق الضرر بسفنهما. وقد نجح هاريسون هذا في التوصل إلى هذه الاتفاقية رغم ضغط تيار معاد لإنجلترا، كان يعارض التفاوض مع من يرى فيهم مجرد لصوص².

أما الهولنديون فقد تمكنوا من تحقيق مطمعهم المذكور، وتمثل ذلك منذ البداية في الاستقبالات الطيبة التي كان يحظى بها مبعوثوهم³. ذلك أن علاقاتهم بالسلطة السعدية لم تؤثر على سياستهم تجاه سلا الجديد رغبة منهم في الحفاظ على أسطولها كقوة موازنة لسياستهم الملاحية من جهة، وكفاعلية محلية بمقدورها التأثير على التجارة مع المناطق الداخلية من جهة أخرى؛ ولأن منافستهم التجارية لإنجلترا من جهة ثالثة جعلتهم يجاهدون من أجل الحفاظ على علاقات رفيعة مع رياس الجهاد، تمكنهم من الانفراد بالنفوذ التجاري مع المغرب انطلاقاً من مرسى سلا. ولذلك بادروا إلى الاستجابة لكافة متطلباتهم الملاحية والعسكرية حتى بدوا كمون أساسي لهم، إلى درجة أفلقت بال مولاي زيدان، ودفعته إلى الشكوى من سياستهم هذه⁴.

ولم يثن هذا عزم السلطات الهولندية، بل استمرت في سياستها ضداً عن رغبة السلطان السعدي⁵، دافعة بالسلاويين إلى الحرص على اتخاذ التدابير اللازمة للحيلولة دون المساس بجودة العلاقات، والتي زادت رسوخاً خلال السنوات التالية، سواء عن طريق الرسائل المتبادلة بين الديوان والأقاليم المتحدة⁶، أو عن طريق السفارات، أو عن طريق تحرير أسرى الطرفين⁷، أو بالاستمرار في تقديم الدعم العسكري لرياس

² Ibid - p 16.

³ Ibid - p 51 note.

⁴ Caillé: "La petite histoire..." - Op. cit - p 101.

⁵ في شتبر 1627 قدم يوسف بالاش شكاية باسم السلطان إلى الولايات العامة الهولندية بخصوص نقل أحد برتغاليين مسترداًم لل ذخيرة وخشب إنشاء السفن وحجر البناء إلى سلا، مطالباً القيادة البحرية الهولندية بمراقبة سفن التهريب انظر: Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T IV - p 171-72.

⁶ ضداً عن رغبة مولاي زيدان سمحت هولندة بنقل بعض المواد المحظورة إلى سلا في شتبر 1627. انظر: Ibid - p 188-89.

⁷ Ibid - p 192.

Ibid - pp 231 et 242.

البحر (مصر) أي رفران

الجهاد. وهذا ما جعل السفن الجهادية تهادن الملاحاة الهولندية أكثر من غيرها، ولم تكن مطامير سلا تضم في أحشائها أي أسير هولندي¹.

ولأن فرنسا كانت من بين الدول الأكثر تضررا من العمليات الجهادية منذ فترة ما قبل تأسيس الديوان، اتسمت سياستها منذ البداية بنهج الخيار العسكري لإجبار الرياس على الإعراض عن مهاجمة سفنها²، على غرار ما توصلت إليه مع رياس الجزائر (1628م)³. وقد بادر لويس الثالث عشر إلى إيفاد حملة بقيادة الفارس إسحاق دو رازيلي في يونيو 1629 بمهمة التوصل إلى إطلاق سراح الأسرى، والاتفاق مع الديوان على السلم⁴؛ بيد أن الشروط المالية والعسكرية (مليون ليرة ومائة قطعة مدفعية) التي اشترطها المجاهدون مقابل ذلك دفعت الأسطول الفرنسي إلى تطبيق حصار على منخل المرسى مدة ثلاثة أشهر، كان من نتائجه إتلاف وإحراق سبع سفن سلاوية، وخصاص تمويني ناجم عن حيلولة الحصار دون رسو السفن الهولندية والإنجليزية المتعاملة مع ضفتي المصب.

وقد كان لهذا الوضع تأثير سلبي على الأوضاع السياسية الداخلية التي أجبرت قواد القسبة على القبول بالهدنة مع فرنسا لمدة خمسة أشهر⁵، وأصبح لزاما بالتالي على الفارس دو رازيلي العودة إلى المنطقة في السنة الموالية (يوليو 1630) ما دامت الهدنة مؤقتة، والسلاويون يشددون عدوانيتهم ضد سفن بلاده. وبفضل حصاره الثاني تمكن الفارس المذكور من الحصول على سراح مائتي أسير فرنسي، ومن توقيع هدنة في شتنبر⁶، عملت فرنسا من أجل دوامها، ومتابعة مصالحها عن كثب بتعيينها بوير مازت (P. Mazet) قسلا لها بسلا⁷.

إبان هذه الفترة داوم رياس البحر على تفضيل مهاجمتهم لسفن إسبانيا، عاملين على استنزاف طاقاتها الاقتصادية والبشرية، جاعلين اهتمامها بمصب أبي رفران يزداد قوة نتيجة لذلك؛ لا سيما وقد كانت هذه المنطقة - إلى جانب دورها هذا - تشكل

¹ Ibid - p 245.

² Ibid - France - T III - p 116-17.

³ Dan - Op. cit - p 117-21.

⁴ Coindreau - Op. cit - p 179.

⁵ Les S I H M - 1^o série - France - T III - p 199-202.

⁶ Coindreau - Op. cit - p 179-80.

⁷ Penz - Op. cit - p 43.

نقطة انطلاق المجاهد العياشي في عملياته ضد مراكز الاحتلال. ولهذا، ظلت إسبانيا تتحين الفرصة للتدخل في المنطقة، وأيضاً للتفكير في إلحاقها ببقية المراكز الأخرى. وقد جاء الصراع بين الأندلسيين والعياشي سنة 1631 بمثابة الفرصة السانحة، حاولت استغلالها منتدبة الدوق دو ميدينا سيدونيا (de M. Sidonia) أميرال الأسطول لعقد مباحثات سرية مع هؤلاء من أجل إقناعهم بالدخول تحت حماية الملكية الإسبانية، في وقت صار فيه لزاماً عليهم مجابهة وضعية سياسية عويصة، تتجلى في مزمنة ضغط العياشي لحضور مولاي الوليد إلى سلا الجديد، وسعيه إلى استئصال سكانها في حروبه ضد أخيه مولاي عبد المالك؛ فضلاً عن الصراع ضد بعضهم البعض. وبالتالي كانت حصيلة ذلك إحساس الأندلسيين بالخطر والخوف داخل وسط ناصبهم الاختلاف منذ استقرارهم، الشيء الذي كان من انعكاساته اضطرابهم إلى مد اليد إلى أية قوة خارجية - ولو كانت إسبانيا - لإعانتهم على مجابهة مختلف التحديت. ولهذا الأسباب تكشف الأرشيفات تقدم الأندلسيين بمشروع اتفاقية رداً على مقترحات إسبانية سابقة²، تعهدوا في بنودها بتقديم ضمانات عن حسن تنصيرهم، مطالبين لقاء ذلك تمتيعهم بالعيش في مدينة حرناشو بنفس الامتيازات التي حصلوا عليها سابقاً قبل الطرد، وبتسيير إداري ذاتي مقابل تسليم القسبة ومعها كافة الوثائق والمراسلات التي كانت بينهم وبين خصوم إسبانيا: الإنجليز والهولنديون والفرنسيون أيضاً؛ بل وتعهدوا فيه بتصفية المجاهد العياشي لإنهاء حملاته على مراكز الاحتلال³. وقد كان توقيع هذا المشروع ما بين 5 فبراير و10 مارس 1631⁴.

ويلاحظ أن اختيار حرناشو كمدينة للاستقبال ينم عن كون المشروع قد قدم من طرف الحرناشيين، أو على الأقل تحت تأثيرهم، لا سيما وأننا نجد الحاكم محمد بن عبد القادر صيرون الحرناشي على رأس الموقعين، مع غياب أسماء شركائهم في

¹ Les S. I. H. M. - 1^{re} série - France - T III - pp 195 et 197.

² Georges S. Colin: "Projet de traité entre les Morisques de la Qasbah de Rabat et le Roi d'Espagne en 1631" - Hesperis - T 42 - Paris 1955 - p 17.

³ Colin - Op. cit - p 17-24.

⁴ يصادف التاريخ الأول يوم تجديد ولاية صيرون حاكماً للقسبة، والتاريخ الثاني هو تاريخ وفاة عبد الملك بن زيدان مغتالاً بمراكش، علماً بأن ذكره في ديباجة المشروع يوحي بأنه كتب أثناء حكمه. Ibid - p 24 note.

المهاول البحرى مصب أبى ررقان

الحكم من الأندلسيين¹، وهو ما يعطى استنتاج أن المشروع جاء نتاج التطورات الداخلية التي قلصت نفوذ الحرناشيين، وجعلت الحكم موزعا بينهم وبين خصومهم منذ شهر ماي 1630. وإذا ما أضفنا إلى ذلك وضعية الحرناشيين الأقل سوءا على صعيد العلاقات مع عناصر وسط مصب أبى ررقان مقارنة بأندلسي سلا الجديد، نعتقد أن تقدمهم بالمشروع إنما كان من أجل تعويم الرؤيا، وبهدف إعادة الوضع إلى ما كان عليه، علما بأن أهالي المنطقة من المغاربة كان تشككهم من عقيدة الأندلسيين المنصرين مستمر، لا من حيث مظاهرها (أسماء أعجمية، مظاهر حياة غربية ومرفوضة في مجتمع محافظ...)، ولا من حيث الممارسات العاداتية التي كانت تدعو إلى الريبة. لذلك نرى أن المسعى الحرناشي هذا يدخل في إطار المناورة السياسية الساعية إلى تأليب سكان المصب قاطبة ضد التطور السياسي للقوة الجديدة المساعدة التي يمثلها الأندلسيون، خاصة وأن تردى العلاقات مع المجاهد العياشي قد عرف حنته منذ وصولهم إلى الاشتراك في الحكم²، وهو ما يمكن أن يستغله الحرناشيون بنقاء عن طريق المشروع المذكور، والذي لا يمكن أن ينسب في الأوساط المحلية إلا إلى أولئك المسلمين الفاترين، وأساسا إذا ما تم الترويج له وسط الأهالي³.

واعتمادنا هذا الافتراض أتى من باب الاعتقاد بأن العنصر الحرناشي الذي ظل طيلة فترة مقامه بإسبانيا غير قابل للوضع الجديد في مناطق الإسلام السابقة، بل ظل محافظا على الجزء الأهم من عاداته وتقاليده الدينية بخلاف العناصر الأندلسية الأخرى، كما حافظ إلى حين جلانه عن إسبانيا على امتيازاته ومميزاته. وما صورة تقاربه وتأقلمه مع وسطه الجديد بنجاح سوى دليلا عن استحالة تحقيقه لأي تعاون مع أعدائه أي الإسبان- رغم بعض الإشارات التي يحملها المشروع، والموحية برغبات حرناشية (منطقة الاستقرار المختارة/ امتيازات عهد فيليب الثاني...).

¹ تم توقيع المشروع من طرف شخصيات الضفة اليسرى من الحرناشيين، وهم الحاكم صيدون، وإبراهيم بن شبيب بركاش (سفير السلووين إلى الأقاليم المتحدة سنة 1629)، وموسى سنيغاغو (الكتيب السابق للقائد لز عروري)، ومحمد بلانكو. انظر: Ibid - p 24.

² أول إشارة إلى بداية التباعد بين سلا الجديد وسلا البالي أتى مباشرة عقب فشل حملة العياشي على طنجة في يونيو 1630، أي بعد حوالي شهر عن دخول الديوان في تجربة للحكم المشترك الأندلسي-الحرناشي. انظر: Les S. I. H. - T III - p 194.

³ أبو بلانكو - نفسه - ص 79.

¹ Les S. I. H.
² Georges S. d'Espagne
³ Colin - Op. المالك بن زيدان

لهذا، نجد أن غياب مشاركة العنصر المتضرر من الطرد، وأيضاً من علاقاته ببقية عناصر الوسط الجديد أكثر من غيره يدعونا إلى التعامل بحذر مع هذا المشروع، وبالتالي ضرورة اختبار نوايا المتقدمين به، والذي لا نرى إلا أنه استعمل كورقة في النزاع الأندلسي-الحرناشي خاصة. إذ في الوقت الذي كانت فيه المفاوضات قائمة بين إسبانيا وأصحاب المشروع، كانت السفن الجهادية ترسو بالميناء محملة بالعديد من الأسرى الإسبان¹؛ بل وعقب ذلك بأسابيع يتقدم سكان الضفة اليسرى عن طريق الإنجليزي هاريسون باقتراح إلى الأقاليم المتحدة يقدمون فيه خدماتهم من أجل الدخول في حرب ضد إسبانيا².

وعلى العموم، كانت سنة 1631 ساخنة على صعيد علاقات الديوان بالدول الأوروبية، وتميزت بتدهور بعض ما كان منها جيداً، ونخص بالذكر إنجلترا التي خلفت الأعمال العدائية لقراصنتها ضد السفن السلاوية منذ سنة 1628³ حقاً في أنفس رجال الجهاد، مما دفعهم إلى اتخاذ تدابير انتقامية ضد مصالحها وتجارها المستقرين بسلا الجديد⁴. ذلك أن تضرر السلاويين وعدم استجابة السلطات الإنجليزية لشكاوى الديوان⁵ أجبر هذا الأخير على إصدار أوامره باعتراض سفنها ومصادرتها، رغم مجهودات هاريسون في إبلاغ بلاده بالأخطار الناجمة عن هذا القرار، ونصحها بإياها باتخاذ الخطوات المناسبة للحفاظ على جودة العلاقات⁶. وقد كللت مساعيه في الأخير بالنجاح في التوصل إلى اتفاقية بين مولاي الوليد وشارل الأول ترمي إلى نسيان الأعمال العدائية السابقة، وإلى التعاون الملاحي بين الطرفين⁷، علماً بأن الضفة اليسرى قد دخلت من جديد في تبعية إسمية للسلطة السعدية.

وقد حاولت فرنسا بلوغ نفس الهدف، وتمكنت من الحصول في سنة 1632 على وعد من السلطان مولاي الوليد بإيقاف عمليات الجهاد ضد ملاحتها لمدة مؤقتة؛ بيد أن

¹ رزون - نفسه - ص 246.

² Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T IV - p 284.

³ Ibid - Angleterre - T III - p 75.

⁴ Ibid - p 91.

⁵ Ibid - p 159.

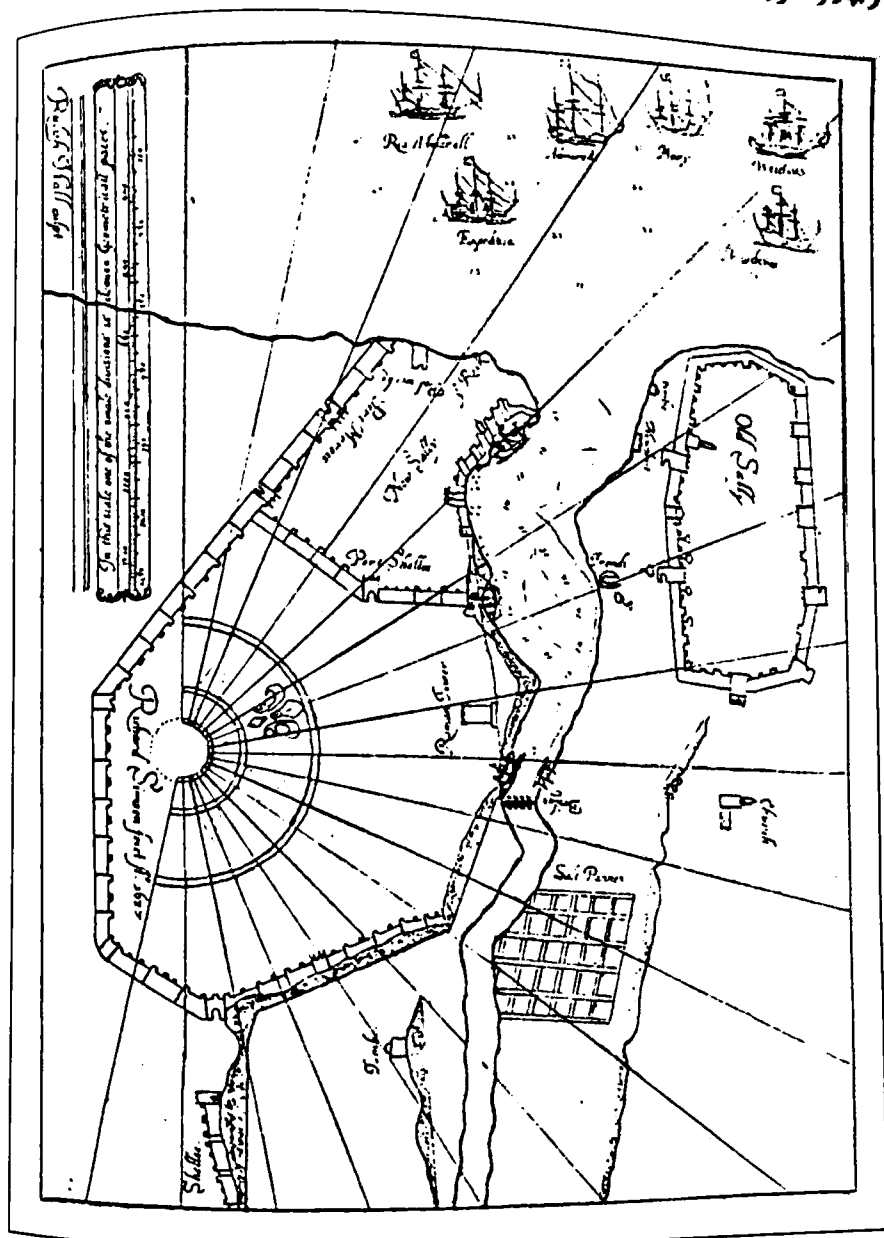
⁶ Ibid - p 161-62.

⁷ Ibid - p 174.

قراره كان يفتقر إلى التطبيق العملي. إذ أن تضرر السفن السلاوية وضيق مجال عملياتها من جراء المعاهدات مع الدول الأوروبية جعل رياس البحر يقررون عدم الانصياع لقرار السلطان¹، الأمر الذي أجبر فرنسا على بذل المزيد من الجهود الدبلوماسية من أجل التوصل إلى اتفاق مباشر مع الديوان، دون أن يتكفل ذلك بالنجاح إلا ثلاث سنوات بعد ذلك².

¹ Comdreau Op. cit - p 180-81.

² Les S I H M. - 1^o série - France - T III - p 502.



رسم لحصار الأميرال راينسبوروه لسلا الجديد

عن: Les SIHM – Angleterre T III

ورغم ارتباط الجهاد البحري بالعلاقات الأوربية، كانت حركيته تعيش فترة انتعاش مهم، مستفيدة من الدعم الذي كانت تحظى به من طرف الأقاليم المتحدة التي حافظت على دورها كمزود عسكري رئيسي لرياس البحر، الشيء الذي عاد عليها بالنتائج الإيجابية، وببروزها كقوة تجارية تحظى بالتقدير وبالاحترام من لدن المجاهدين، وتستفيد من القلائل التي تعترض الملاحة الإنجليزية المنافسة. غير أن هذه الوضعية ما لبثت أن تغيرت نحو السلب بسبب الدور غير الودي الذي لعبه القراصنة الهولنديون، وفشل الأقاليم المتحدة في وضع حد لاعتداءاتهم على السفن السلاوية؛ فأصبحت تتلقى شكاوى المغاربة باطراد ودون إمكانية إيجاد حلول للتجاوزات الحادثة في هذا الصدد¹. وقد بادت إلى إحداث قنصلية قارة في سلا الجديد عين لتسييرها القنصل جوريان فان بيسترفيلت (*J. V. Bystervelt*) في دجنبر 1635، وكان لها أبلغ الأثر في عودة العلاقات إلى مجراها الطبيعي، حيث تمكن من التوصل إلى توقيع اتفاقية صداقة وتعاون مع القاندين القصري ومحمد بن عامر حركات في السنة الموالية².

لقد عرف الرياس من جراء هذا التطور الإيجابي ظروفا ملائمة لنشاطهم، كانت نتائجها وخيمة على مصالح فرنسا وإنجلترا بفعل الخسائر التي تعرضت لها سفنهما على أيدي الرياس السلاويين، مما دفع بقواتهما إلى التحرك مجددا من أجل تضيق الخناق على سفن الجهاد، مصدرة في ذلك أحكاما قاسية في حق الرياس الذين سقطوا في أسرهما تصل حد الإعدام³، وبتكثيف الرقابة البحرية بالمحيط وملاحقة السفن الجهادية بعد إعلان الحرب على ديوان سلا في أفق إجباره على إطلاق سراح أسرى البلدين وعقد اتفاقية الهدنة وحرية الملاحة⁴. ولتحقيق ذلك نظمت فرنسا حصارا ضد مرسى سلا الجديد سنة 1636، تمثلت أهم نتائجه في إخضاع الأسطول الفرنسي

¹ تمت في هذا الصدد مراسلات عديدة بين الديوان والولايات العامة من أجل استعادة السفن المصادرة من قبل سمر الطرفين، وأيضا من أجل وضع حد للانتهاكات، مثلما لطلب معرفة الإجراءات المتحدة في حق العاطمة الهولنديين الذين تعرضوا لسفن سلا. انظر: *Ibid* Pays-Bas T III - pp 326-27, 352-54, 368, 404 etc.

² Caille "La petite histoire..." - Op. cit - p 102.

³ *Lex S I H M* - 1^{re} serie - Angleterre - T III - p 266.

⁴ Penz - Op. cit - p 53-54.

لسفينتين سلاويتين¹، دون أن يفضي إلا إلى اشتداد عدوانية رياس البحر إزاء المصالح الفرنسية، وإزاء القنصل الذي كاد أن يتعرض للاعتقال لولا حيلولة الحاكم القصري دون ذلك، مقابل وعده بالسعي لاسترداد ما ضاع من رعاياه².

لكنه بمجرد فشل الحصار المذكور، شهد مصب أبي رقرق حصاراً آخر أدهى وأمر بتدبير من البوارج الإنجليزية أثناء اضطراب الوضع السياسي للديوان سنة 1637، انتقاماً للعمليات المنفذة على حساب سفن إنجلترا وشواطئها، والتي رافقها ارتفاع حدة التنمر في أوساط الصيادين والتجار وقاطني المناطق الساحلية ببريطانيا، حيث صدر قرار رسمي في بداية السنة يقضي بإرسال حملة بحرية بقيادة الأميرال ويليام راينسبوروه بمهمة القضاء على الجهاد السلاوي واسترداد الأسرى³. وبمجرد وصول هذا الأخير قبالة المصب، التحم مع القصبية في قصف مدفعي لم يؤد إلى النتائج المتوخاة، مع استمرار السفن الخفيفة في خرق الحصار، ومباشرة نشاطها الملاحي تحت أنظار السفن الإنجليزية العاجزة عن ملاحقتها⁴.

وأمام هذا الفشل وجد راينسبوروه في معاداة العياشي للأندلسيين فرصة لتشديد الخناق على المرسى بالتنسيق معه، وبإمداده بالمدفعية والرجال المحنكين من أجل تخريب السفن الراسية انطلاقاً من سلا البالي⁵. وقد ارتقى هذا التنسيق ليأخذ شكل اتفاق بين العياشي وراينسبوروه باسم العاهل الإنجليزي في ماي 1637، التزم فيه الطرفان بالتعاون المشترك ضد سلطات الديوان إلى حين استسلامها، مع امتناع كل منهما عن التوافق معها إلا بعد التشاور مع الآخر⁶. بيد أن هذا التنسيق لم يستمر طويلاً من جراء الفشل الذي أصاب المفاوضات بين الرياس السلاويين ومحاصريهم، بسبب تشدد العياشي في مطالبه؛ الأمر الذي دفع الأميرال الإنجليزي إلى السعي من أجل التوصل إلى اتفاق منفرد معهم دون موافقة العياشي، خارقاً بذلك اتفاقيتهما الثنائية، ومحاولاً الاستفادة من الجهود السياسية التي بذلها روبرت بليك لدى السلطان محمد الشيخ الأصغر وعودة الحاكم القصري إلى منصبه، حيث تمكن من الحصول

¹ Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 529-31.

² Ibid - p 536-37.

³ Ibid - Angleterre - T III - p 276.

⁴ Ibid - p 281.

⁵ Ibid - p 306.

⁶ Ibid - p 284.

على سراح كافة الأسرى الإنجليز الموجودين بالمدينة المحاصرة وفقا لعهود قطعها القصري على نفسه¹. وكانت بذلك نهاية للحملة الإنجليزية التي حاولت إنحطاره تكتناجها سلميا بمسارعتها إلى إقامة علاقات دبلوماسية مع الديوان، سئلت في تعيين جيلز بين (G. Penn) قنصلا لها في مطلع سنة 1638².

ومن الطبيعي أن تقدم الظروف الحرجة التي كانت الضفة الجنوبية تحتازها خلال سنة 1637 فرصة لبروز الأطماع الأوربية مجددا بنية احتلالها؛ ذلك أنه أثناء حملته رايينسبوروه برزت لدى المسؤولين الإنجليز فكرة الاستفادة من نجاح الحملة بنظيره إلى تحكم نهائي في المصب، حيث في غشت من نفس السنة راسل كاتب الدولة قائد الحملة في شأن احتلال القصب³ دون أن تعرف الفكرة طريقها نحو التنفيذ. على أن الطرف الذي كان أقرب إلى الاستفادة من الوضعية الحرجة للديوان كان هو العامل الإسباني، ذلك أن ضغط المجاهد العياشي على سلا الجديد، والقلاقل التي أحدثها رجوع الحرناشيين المبعدين إلى المدينة، والتي كان من بين نتائجها اغتيال الحاكم القصري، قد دفعت الأندلسيين إلى التفكير من جديد في تسليم القصب⁴، وكاد ذلك أن يتم لولا المعارضة التي أبداهها القائد السعدي مراد العليج، والتي أفضلت مخطط الأميرال الإسباني الدوق دو ميدينا سيدونيا سنة 1638⁵.

لقد دعمت هذه الوضعية موقع المجاهد العياشي على مستوى العلاقات الدولية، وأضحى في نظر الأوربيين القوة الرئيسية بالمنطقة، وشجع دولهم على نسج علاقات وطيدة معه، بما في ذلك الأقاليم المتحدة التي انحاز قنصلها إلى صفه في صراعه ضد الأندلسيين، بشكل جعل السلطة السعدية المتحكمة إسميا في الضفة الجنوبية للمصب تطلب حكومته بوضع حد لتصرفاته التي منعت رعاياها بالمنطقة من التوصل بالإمدادات المبعوثة إليهم⁶.

¹ Ibid p 339

² Ibid p 389

³ Caillé " La ville de Rabat ... " - Op. cit - p 242.

⁴ جاء في رسالة القنصل الفرنسي دي راستان (G. de Rastin) في يونيو 1639 إلى عاهله أن ملك اسبانيا بحث في يوليو من السنة السابقة مؤنا ونخائر وثمانين سفن مجهزة بخمسمائة جندي، على أمل أن يتحلى له أندلسيو القصبه عن هذه القلعة. وخلص في نهاية رسالته إلى استحالة نجاح المدووعة الجارية في هذا الشأن.

⁵ Lev.S I H M - 1^{re} série - France - T III - p 585-86

⁶ يشير كايي إلى أن الحاكم الجديد للمدينة: عبد الله بن عبد الله القصري كان مستعدا للمواصلة على تسليم المدينة لولا اعتراض مراد الطنج. انظر: Caillé - Op. cit - p 242.

* Lev.S I H M - 1^{re} série - Pays-Bas - T IV - p 477-78.

وامام عدم التفات الأقاليم المتحدة إلى هذه الشكاوى لم يجد قواد القصبية بدا من نهج أسلوب عدائي ضد الهولنديين، وتطور ذلك ليجعل الحليفين السابقين على شفا حرب شبه معلنة¹، لا سيما وأن العياشي قد حرص على تطوير علاقاته بهولندة، وبالإبقاء عليها كمصدر تموين عسكري أساسي، عاملا على إطلاق سراح أسراها المتوفرين في مناطق نفوذه بغية إظهار حسن نواياه إزاءها². ويعتقد أن فشله في تحقيق نصر حاسم على الأندلسيين من جهة، وكثافة عمليات رياس سلا ضد السفن الهولندية، من الدوافع التي أجبرت الأقاليم المتحدة على إعفاء قنصلها المذكور من مهامه في سنة 1638³.

وبمجرد انتهاء فترة الضغط الشديدة هذه التي لم تفلح في ثني عزم رياس الجهاد البحري، بادر هؤلاء مجددا إلى تجميع قواتهم الملاحية، وإلى انطلاقهم في عمليات أكثر جرأة عما سبق، مكتسحين بحر المانش برغبة في الانتقام من إنجلترا، وفي الاقتصاص للخسائر التي ألحقها بهم الأميرال راينسبوروه؛ وسرعان ما امتلأت مطامير سلا بالأسرى الإنجليز بعدما كادت أن تفقدهم تماما عقب اتفاقية 1637⁴. كما تعرضت سفن الأقاليم المتحدة بدورها لهجماتهم الشرسة، بشكل جعل أساطيل هذه الأخيرة تقابلهم بالمثل⁵، رغم أن الهجوم السلاوي كان يبدو بمثابة رد فعل محدود هادف إلى إجبار هذه الدولة على العودة بعلاقتها بالديوان إلى صورتها الطبيعية⁶.

أما إسبانيا فإنها ظلت لا تحيد عن مناوراتها السياسية بالظهور بمظهر الدولة الصديقة للأندلسيين، مستفيدة من سوء علاقاتهم بباقي القوات الأوروبية الأخرى، وتضررهم المتواصل من حصار العياشي ورغبته في القضاء على سلطتهم؛ ولذلك عمدت إلى إصدار الأمر إلى الأميرال الإسباني تطلب منه التعجيل بإنقاذهم من الحصار المذكور في

¹ Caillé: "La petite histoire..." - Op. cit - p 103.

² سعى التاجر اليهودي يوسف كوهين في مارس 1639 إلى التعريف بقوة العياشي ونواياه في ربط علاقات جيدة مع الأقاليم المتحدة، مذكرا بمطالب العياشي المبعوثة عن طريق سفيرها في تطوان بنيامين كوهين، والمتمثلة في مائتي قنطار من بارود المدافع بسعر مقبول. أنظر: Les S. I. H. M. - 1^{re} série - Pays-Bas - T IV - p 583-84.

³ Ibid - p 478 note.

⁴ Ibid - Angleterre - T III - p 546 note.

⁵ Ibid - p 546.

⁶ راسل قواد القصبية الأقاليم المتحدة في أكتوبر 1643 يخبرونها أن ترخيصهم لرياسهم بمهاجمة سفنها إنما كان رد فعل عن دعمها لحصار العياشي، وعدم ردها على شكاواهم السابقة. Ibid - Pays-Bas - T V - p 45.

فبراير 1641، ساعية من وراء ذلك إلى التمرکز في القصبة. ويندو أن تطور التنافس بين محمد الحاج الدلاني والمجاهد العياشي الذي انتهى بمقتل هذا الأخير في أبريل 1641 قد حال دون تنمية الاتصالات الإسبانية-الأندلسية، بدخول عموم المنطقة تحت نفوذ الإمارة الدلانية، التي سوف تؤسس اتجاهها جديدا في العلاقات بين مصب أبي رقرق والدول الأوروبية بإشراف الأمراء الدلانيين عليها مباشرة.

ة بدا من
على شفا
ب هولندة،
ح أسراها
فشله في
سد السفن
ذكور من

س الجهاد
عمليات
رة، وفي
امتلات
1641⁴. كما
اطيل هذه
ل محدود
عية⁶.

بالظهور
هم بباقي
العياشي
لأمر إلى
ذكور في

¹ Caillé: "L
وقات جيدة مع
مثلة في مائتي
Les S. I. H
³ Ibid - p 4
⁴ Ibid - Ang
⁵ Ibid - p 5
كان رد فعل

الفصل الثالث: مرحلة استقرار النشاط الجهادي

اعتبرت سلطة المجاهدين ضغوط سياسية محلية متمثلة في النزاع الدائر بين عناصرها من أجل إقصاء بعضهم البعض من موقع التسيير السياسي والاستفادة الاقتصادية، خلفت تجاذب هذه الأطراف المتنازعة بين الاستقلال الذاتي والانتصار لقوات سياسية أخرى طامعة في بسط نفوذها على المنطقة، شكل المجاهد العياشي والسلطان السعدي شقيها المتعارضين. ولم ينته ذلك دون أن ينعكس جليا على الاهتمامات الأوربية بها لتأثيرها على ساحة الملاحة العالمية في المحيط الأطلنטיكي، الشيء الذي جعل الديوان يعيش مرحلة مليئة بالمبادرات الدبلوماسية والعسكرية الأوربية، ويدفع بالجهاد البحري إلى التوقف بصورة شبه عملية، أو إلى تقليص حجم نشاطه خلال عدة مواسم (1629، 1630، 1637، 1639) نتيجة حصرات العياشي البرية والحملات الأوربية البحرية.

وإذا كان الدلانيون قد اقتصر دورهم على العموم على المشاركة في توجيه أحداث المصب بصفة غير مباشرة بانحيازهم إلى العياشي، وفي اضطلاعهم بمهمة عرقة تأثير السلطة السعدية على ديوان المجاهدين ومنع وصول نجاداتها إليهم، فإن وصول محمد الحاج إلى خلافة والده على رأس الزاوية سنة 1636م، وطموحه السياسي من أجل بسط سلطانه على كافة المناطق التي ضعف فيها شأن السلطان السعدي، الذي تأكد منذ انتصار الدلانيين على جيشه في معركة أبي عقبة على ضفاف واد العبيد (1638م)¹، سيجعل تحالفه مع العياشي يعرف نفسا تدريجيا بفعل تضارب مصالحهما السياسية.

فقد أصبح لزما على محمد الحاج لتثبيت سلطانه الامتداد نحو الغرب، وتملك أحد مراكزه الساحلية على الأقل الذي يمكنه من إبراز سمته كقوة رئيسية أمام القوات الأوربية، ومن وراء ذلك الحصول على دعمها العسكري المجبرة عليه حفاظا على مصالحها، في وقت بدت له الأهمية المتعظمة لمصب أبي رقرق، سواء من حيث دورها العسكري المذكور لتوفرها على مختلف الأسلحة المتطورة ولتنشيط تجارة التهريب بها، أو من حيث أهميتها كمصدر تمويلي هام جدا (مداخل الجهاد، ازدهار

¹ حمي - نفسه - ص 150-52.

التجارة الخارجية...¹ وقد أنتت مساعي الأندلسيين لديه سنة 1639م من أجل التدخل في نزاعهم مع العياشي ورفض هذا الأخير الوساطة الدلانية فرصة للتملص من التحالف السابق، وتبريرا كافيا للمضي في تنفيذ حلمه، منخرطا ضد العياشي في معارك لم تنته إلا باغتيال المجاهد المذكور في 1641م²؛ حيث أضحت الطريق معبدة في وجه الأمير الدلاني للسيطرة على ضفتي أبي رراق، ولإخضاع السلطة الجهادية لنفوذ السياسي³.

1- الاستقرار السياسي للمصّب

إن استدعاء الأندلسيين للتدخل الدلاني سوف يجلب للمنطقة سيدا أكثر رغبة في السيطرة عليها، وأكثر حضورا لممارسة السلطة فيها، جاعلا قصبه سلا الجديد المقر السابق للديوان- مركزا للحاكم الدلاني: الأمير عبد الله بن محمد الحاج⁴. وكنتيجة لذلك فرض الإشراف الدلاني المباشر على منطقة المصّب استقرارا سياسيا أكثر من ذي قبل، وفر لمواسم الجهاد البحري ظروف عمل جيدة، دفعت بعض المؤرخين إلى اعتبار هذه الفترة الأكثر خصوبة ومردودية في تاريخ سلا الجديد كعاصمة للجهاد البحري المغربي⁵. فمنذ البداية سارع الدلانيون إلى الاعتماد على العنصر المحلي الأكثر وثوقا به من الأندلسيين، منتدبين الأمين سعيد الجنوبي للنيابة عنهم على الضفتين⁶ بمساعدة قائدتين تحت إشرافه، هما: أبو الطيب عبد الرحمن عبدون على سلا الجديد، والحاج يوسف السنسياض على القصبه؛ إلا أن اتساع مسؤولياته جعلته ينتدب لقيادة سلا البالي عامر بن محمد، ليتفرغ للشؤون العامة ولتنفيذ السياسة الدلانية بالعدوتين⁷.

وقد لوحظ عقب ذلك بثلاث سنين (1644م) أن المنطقة عموما قد تركزت بيد الأمير عبد الله، الذي لقب في المصادر الأوربية " أمير سلا " ⁸، حيث يسود الاعتقاد

¹ Brignon- Op. cit - p 225.

² نفسه - ص 155-57.

³ Coindreau - Op. cit - p 46.

⁴ Brignon - Op. cit - p 226.

⁵ Coindreau - Op. cit - p 176.

⁶ Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T V - intro. p XXV.

⁷ حجي - نفسه - ص 173.

⁸ Coindreau - Op. cit - p 46.

من التدخل
ملص من
ياشسي في
يق معبدة
الجهادية

رغبة في
الجديد
الحاج⁴
رأ سياسيا
ت بعض
سلا الجديد
تماد على
ي للنيابة
الرحمن
أن اتساع
ن العامة

كزت بيد
الاعتقاد

¹ Brignon-

² Coindre

⁴ Brignon -

⁵ Coindre

⁶ Les S. I. I.

⁸ Coindre

بأن هذا التعديل قد طرأ لرغبة محمد الحاج في الإشراف المباشر على العلاقات الخارجية من خلال تنصيب ابنه على رأس ولاية المنطقة¹ من جهة، ولغاياته تثبيت سلطته نهائيا على منطقة الغرب من جهة أخرى، لا سيما وأن فلول المجاهد العياشي قد التفت حول ابن هذا الأخير، واصطدمت بالقوات الدلانية على ضفاف واد الطين سنة 1643م². أضف إلى ذلك إن الدلانيين كانوا على علم برغبة الأندلسيين في استعادة استقلاليتهم التامة، ومعاونتهم الاتصال بمحمد الأصغر السعدي وبأثر الك الجزائر أيضا.

ولهذا سبق للدلانيين أن البوا حرناشي سلا الجديد ضد أندلسي القصبه، ودفعوهم إلى مهاجمتها برا، وعززوا ذلك بحصارها عن طريق البحر بإغراق سفينة عند مدخل النهر، إلى أن اضطر المحاصرون إلى الاستسلام، حيث بادر محمد الحاج إلى طردهم من القصبه³، ونصب ابنه المذكور على رأس القيادة العليا للمصب. وتتميمًا لسياسته حاول محمد الحاج تجميع فاعليات المنطقة تحت تصرف نجله، حيث أقر الأمين الجنوبي نائباً له وأميناً لسره، وجعل الأمور يبيت فيها في مجلس استشاري يجمع ابنه بأعيان العدوتين، كما جعل عددا من الأندلسيين يشكلون كتابة الولاية لحاجة العلاقات الخارجية إلى خبرتهم ومعرفتهم باللغة الإسبانية⁴. وقد ساهم هذا في تدعيم الاستقرار السياسي للمنطقة وأصبحت نتائجه تدعم موقع الدلانيين بما وفرته من زيادة في مداخيل الجهاد وفي أرباح التجارة، مثلما في تحقيق كفايتهم من الأسلحة ومن ذخائر الحرب المؤمنة من طرف التجار الأوربيين، واليهود الأندلسي الأصل الذين حافظوا على علاقات بإخوانهم المطرودين من إسبانيا إلى الأقاليم المتحدة، مما حتم على الدلانيين نسج علاقات أكثر متانة مع هذه الأخيرة⁵.

وقد نعم مصب أبى ررقان خلال الفترة الممتدة من سنة 1641 إلى 1660 بهدوء سياسي واجتماعي، موفرا بذلك فرصة استقرار لعمليات الجهاد البحرى في مستوى هام؛ ولم يعكر صفو ذلك إلا اضطرابات خفيفة حدثت سنة 1650 تأثرا بأحداث

¹ نفسه - ص 167.

² نفسه - ص 158.

³ نفسه - ص 174.

⁴ نفسه - ص 175-76.

سياسية بعيدة عن المنطقة¹. وأتى نجاح الدلائيين في احتواء كافة عناصر المنطقة نتيجة تحكمهم في توجهها السياسي العام، مع تمتيعهم المجتمع الجهادي بشبه استقلال ذاتي مكنه من الحفاظ على خصوصياته²، إلى درجة صار معها رياس سلا يشكلون القوة الأكثر مهابة في البحر³.

فقد وعى الدلائيون عند سعيهم إلى التطويع النهائي للمنطقة ضرورة التحكم في العنصر الأندلسي المتعود على عدم الخضوع والاستسلام لسلطة محلية تشدد حدة خلافه الحضاري معها؛ فكان عليهم مواجهة مناوراته والتصدي لها بقوة، كما فعلوا في سنة 1644م حين أخرجوا الأندلسيين من القصبنة ووزعهم بين خصومهم الحرناشيين والأهالي على عدوتي المصعب بغية إضعاف شوكتهم⁴، مما مكّنهم من درأ خطورة تمردهم، إلى حين قيام ثورة بني جنسهم بفاس سنة 1650م حيث استغلها الأندلسيون لإعلان الثورة من جانبهم في سلا الجديد بهدف التحرر من القبضة الدلائية.

ولم يؤد نجاح محمد الحاج في فرض سيطرته على الوضع إلا إلى كبت مؤقت للطموح الأندلسي الذي راح منذ ذلك الوقت يظهر نواياه بشدة، وخاصة خلال فترة الأزمة الاقتصادية الحادة (1651-53م)⁵، وما تلاها من مجاعة ووفيات أثرت سلباً على معنويات رياس البحر⁶، ومن ثم ارتفاع حدة تذرهم من السياسة الدلائية، إلى درجة صاروا معها لا يكونون أي احترام لأمير سلا: سيدي عبد الله، حسب شهادة القنصل الهولندي⁷.

وقد كانت هذه الفترة تشهد بداية انهيار السلطة الدلائية وسلبية تطورها في منطقة مصب أبي رزوق، ببروز النزاعات العسكرية من جديد بالمنطقة سنة 1659م،

¹ يتعلق الأمر بثورة أندلسي فاس بقيادة عبد الكريم الليريني أثناء الصراع الدلائية-العلوي. انظر: رزوق - نفسه - ص 204.

² Caillé: "La ville de Rabat..." - Op. cit - p 216.

³ Coindreau - Op. cit - p 47.

⁴ رزوق - نفسه - ص 203.

⁵ القادري - نفسه - الجزء الثاني - ص 67.

⁶ كتب القنصل الهولندي دو فريز رسالة من سلا في 3 أكتوبر 1653 جاء فيها: "بالنسبة لهذا البلد فإنه في وضعية سيئة

جدا نتيجة الموسم الرديء للحصاد خلال السنتين أو السنوات ثلاث الأخيرة؛ والوفيات مهمة في صفوف السكان، ففي كل يوم توجد الجثث ملقاة في الشارع. ولم تعد لهذا البلد أكثر من أربع سفن جهادية". انظر: Les S. I. H. M. - 1° - série - Pays-Bas - T V - p 352.

⁷ Ibid - p 359.

عصر المنطقة
شبه استقلال
سلا يشكون

ة التحكم في
ة تشدد حدة
ة، كما فعلوا
ن خصومهم
كنهم من درا
يث استغلها
من القبضة

كبت مؤقت
خلال فترة
أثرت سلبا
دلانية، إلى
سب شهادة

في منطقة
نة 1659م

رزوق - نفسه -

Caillé: "La
Coindreau

ي وضعية سيئة
ف السكان، فني
Les S. I. H. I.

Ibid - p 35

استغلها سكان الضواحي ليقوموا من جهتهم ضد الدلائيين، خالقين بذلك جبهة جديدة تستنزف قوتهم، ومقدمين لأهالي سلا الجديد فرصة التقدم إلى مشارف القصبه¹ ومحاصرة الأمير عبد الله بها في العام الموالي. وقد راح الوضع يوحد بذلك بين سكان الضفتين ضد الوجود الدلاني، إذ في الوقت الذي شدد فيه أندلسيو سلا الجديد حصارهم المباشر للقصبه، كان حلفاؤهم بسلا البالي يقصفونها بالمدفعية الثقيلة²، لاسمين في اندلاع ثورة الخضر غيلان ودحره لقوات محمد الحاج في معركة بوحريرة أكبر دعم وتوجيه لانتفاضتهم ضد القصبه³.

وسرعان ما ساءت وضعية المحاصرين وغلت أسعار الأقوات، مما زاد من مخاوف الأمير عبد الله ليس في فقدان سيطرته على المنطقة فحسب، بل أصبح هاجسه الأساسي يتمثل في الدفاع على سلامته الشخصية⁴، وفي النجاح في الخروج من القصبه، وهو ما جعله يستنجد بالحاكم الإسباني لسبته، مقترحا عليه تسليم القصبه مقابل نقله إلى الجهة التي يود النزول بها من شواطئ المغرب. إلا أن ارتباط الإسبان بحلف صداقة مع الخضر غيلان المسيطر على منطقة الشمال الغربي دفعتهم إلى رفض الاقتراح، وإطلاع غيلان عليه. وأمام ذلك لم يجد عبد الله بدا من التقدم بنفس المقترح إلى العاهل الإنجليزي، مقابل تمكنه من معدات حربية⁵ بمقدورها الدفاع عن حياته ومجابهة محاصريه.

ويبدو أن الدخول المباشر لغيلان في حصار القصبه التي ظلت صامدة تحت قيادة أحمد الجنوي بعد نجاح الأمير الدلاني في مغادرتها سنة 1661م - قد أصبح يعجل بسقوطها، بحصوله على الدعم العسكري الإنجليزي المتمثل في عشر سفن حربية⁶ عرقلت كل إمكانيات تموينها من جهة البحر، مما أجبرها على الاستسلام

¹ Ibid p 613-14.

² كتب الطبيب الهولندي أوليفيه دوبير (O. Dopper) في مذكراته سنة 1660: "دخل أندلسيو سلا الجديد والبالي في معارضة رجال القصبه المكونين من الفتي جندي سوسي ومن مناطق أخرى بقيادة أحمد الجنوي. وفي 10 هـ رابر حاصر السكان القصبه، وبنوا في سلا الجديد عدة أبراج ليوجهوا من خلالها يوميا رشقات البنادق على سكان القصبه، وفي الوقت ذاته كان سكان سلا البالي يقصفونها بالمدافع الكبيرة، بيد أن سكان القصبه كانوا يردون بمدفعينهم ويبنونهم على الأحياء والأبراج، الشيء الذي كان يؤدي إلى مقتل أعداد من السكان". انظر: Ibid p 625.

³ Brignon Op. cit. p 226.

⁴ Les S. I. H. M. 1^{re} série - Pays-Bas - T V - p 616-17.

⁵ رزوق - نفسه - ص 207.

⁶ Ibid 2^o série France - T I - p 23.

للخضر غيلان سنة 1664م¹. وبمقال ذلك أقر المجاهد غيلان القائد الجنوبي في منصبه كحاكم للقنصة لما لمس فيه من شجاعة وبطولة²، ثم ما لبث أن استبدله بأخيه إبراهيم غيلان بعد طرده لجنود سوس من أجل تثبيت سلطته وتقوية نفوذه بها. ومن جهة أخرى سمح غيلان للحرناشيين والأندلسيين بالعودة إلى نمطهم السياسي، بانتخاب قائدين جديدين على مركزي المصعب، هما: عبد القادر موريو على سلا الجديد، والحاج محمد فنيش على سلا البالي، واللذان بديا طامحين إلى لعب دور سياسي أكثر مما رسمه لهما غيلان، فنشبت مجددا منازعات في المنطقة أدت سنة 1665 إلى انتداب قائدين أكثر إخلاصا للمجاهد غيلان، هما: عبد القادر روكسو، وأحد أبناء عبد القادر صيرون³.

والواضح أن نفوذ غيلان كان أضعف من أن يواجه الطبيعة الأندلسية التي لا تستقر على قرار مادامت لم تبلغ مستوى الاستقلال الذاتي؛ ولذلك ظلت الفوضى السياسية مستعرة في مدن أبي رقران، وتختلف حدتها حسب بعد أو قرب المجاهد غيلان منها، إلى أن سقطت في يد مولاي الرشيد سنة 1666م. وكان لهذه الوضعية دور سلبي في تطور المواسم الجهادية، وفي عرقلة نموها لبلوغ الصيت الذي حققته خلال النصف الأول من القرن⁴، وهو ما سيحاول الملوك العلويون تداركه تحت إشرافهم وتوجيههم في المرحلة اللاحقة.

2 - انتظام مواسم الجهاد

أظهر التغيير السياسي الذي أحدثته النفوذ الدلائي في المنطقة حاجة الرياس إلى استقرار دائم، ووضعية اجتماعية آمنة بمقدورها أن تسمح لهم بالعمل بشكل منطوق، اعتبارا لوحدة الهدف المتمثل في المزيد من المغنم وفي تقوية الأسطول؛ وهو ما كان غير متاح سلفا بسبب انشغال عناصر الجهاد البحري من ممولين وبحارة بالاضطراب السياسي السائد طيلة فترات هامة من عهد الديوان، مع ما شكله من عرقلة للمسار الطبيعي لمواسم العمليات.

¹ Ibid - 1^o série - France - T III - p 702-03.

² Ibid - Pays-Bas - T V - p 625 note.

³ نفسه - ص 208-09.

⁴ Brignon - Op. cit - p 231.

ولهذا، أتى دخول المصعب تحت السلطة الدلانية ليشكل طيلة هذا العهد الفترة الأكثر انتظاما ومردودية في تاريخ الجهاد البحري السلاوي، عرف خلالها مرحلة توسعه الناجح والقوي. وولد ذلك انعكاسا واضحا على الملاحة العالمية، ارتفعت معها ضرائب التأمين على البضائع المنقولة بحرا في مختلف موانئ أوروبا الغربية لتبلغ أسعارا خيالية تصل إلى 40 % من القيمة الإجمالية للحمولة، كما ولدت العمليات السلاوية مشاكل عويصة لأصحاب السفن بتقلص الطلب على الشغل في صفوف البحارة، ولم يعد بمقدور المجهزين توفير الطواقم الضرورية للمراكب¹، وارتفعت أجور الراغبين في العمل، وكان ذلك سببا في ارتفاع تكاليف الملاحة التجارية، وعبنا ثقيلًا على اقتصاديات دول أوروبا الغربية من جراء هذا الضرر الذي لحقها من ضربات رياح شمال إفريقيا، وعلى رأسهم رياح سلا الذين كانوا ينعتون بأنهم الأكثر خطورة من بينهم².

بمجرد التخلص من العياشي سنة 1641 سارع الرياس إلى تنشيط عملياتهم تفاديا للكساد الذي اعتراها منذ سنة 1637 من جراء هجمات العياشي من جهة، ومن جهة أخرى نتيجة رغبة البوراج الأوربية في الانتقام لخسائر دولها، بانحيازها إلى أمير سلا البالي، وبمبادرتها إلى عسكرة المحيط، حيث اتسمت المرحلة الجديدة بملاحقة السفن السلاوية لمختلف الأساطيل الملاحية بما فيها سفن الحلفاء الهولنديين، الشيء الذي أجبر الأقاليم المتحدة على مكاتبة قواد سلا للحيلولة دون استمرار تلك التجاوزات في حق مصالحها ورعاياها³.

ولا يعني هذا أن الدول الأوربية قد وقفت مكتوفة الأيدي أمام الظهور المتجدد والفعال لأسطول الجهاد، بل عمدت من جانبها إلى الرد بالمثل بمطاردة كل مراكب سلا الجهادية والناقلة أيضا⁴، برغبة منها في الحصول على أسرى مماثلين قد يستغلون في عمليات التبادل بالأسرى المسيحيين. بيد أن هذا لم يضعف الطموح السلاوي وإنما زاده إصرارا، لا سيما وأن التنسيق بين سلا والجزائر قد أضحي أكثر متانة، وأصبح مرسى أبي رفران مركز استقبال وتموين لسفن جهاد هذه الأخيرة ومركزا لتصرف

¹ Coindreau - Op. cit - p 183.

² Brignon - Op. cit - p 230.

³ Les S / H M. - 1^o série - Pays-Bas - T V - p 27.

⁴ يقول القادري في نشر المثالي: "وجاء خبر أسر أنلس في البحر فقصدا الحج فوق الماء وذلك في رجب 1053 هـ ثم نجاهم الله، بعضهم بالفداء، وبعضهم دون الفداء بالقرب". أنظر: القادري - نفسه - الجزء الثاني - ص 28.

الجنوي في
يستبدله بأخيه
بها.

إلى نمطهم
مورينو على
س لعب دور
ققة أدت سنة
در روكسو،

سسية التي لا
تت الفوضى
رب المجاهد
هذه الوضعية
الذي حققته
أركه تحت

لرياس إلى
كل متطور،
هو ما كان
الاضطراب
قلة للمسال

¹ Ibid - 1^o s

² Ibid - Pays

⁴ Brignon -

مغانمها¹، وبالتالي صار لزاما على البحريات الأوروبية مواجهة هذا الحلف الجهادي القوي النتائج².

ورغم تناقض المصالح بين الرياس والحكام الدلايين لرغبة الأخيرين في إقرار علاقات خارجية جيدة تسمح لهم بتنظيم تجارة مستقرة قادرة على توفير مداخل قارة، وهي رغبة تعاكس غايات الجهاد البحري المعرقل لجودة العلاقات، والمؤثر سلبا على استقرار التجارة الخارجية، مع خضوع عملياته للتوقف الاضطراري كلما تحركت أساطيل الردع الأوروبية في حملات عدائية ضد المصعب؛ فإن أسطول الجهاد قد عاد للبروز بقوة لا بأس بها سنة 1647، تمثلت في توفره على عشرين قطعة عاملة، مما كان يرعب المراقبين الأوروبيين³، ويجعلهم يتخوفون من حجم الخسائر التي بإمكانها إلحاقها بالبحريات التجارية.

وبالفعل، غنم رياس الجهاد السلاوي في غضون ستة أسابيع سنة 1648 تسع سفن من مختلف الجنسيات⁴، رغم الإجراءات والتدابير التي اتخذتها الدول الأوروبية لتحجيم قوة الجهاد، والتي لم تزد الرياس إلا عزيمة وإصرارا على مواصلة عملياتهم الناجحة، بشكل أجبر الدول المتضررة على تطوير أساليب الردع والمواجهة، مخصصة في ذلك أسلحة جديدة، ومراقبة متواصلة للممرات البحرية وخاصة في بحر الشمال، إلى جانب تبنيها لوسائل تقليدية تتمثل في الحملات البحرية، وفي الحصارات العسكرية لمصعب أبي رقراق، وفي بذل الضغوط الدبلوماسية لقطع اتصالاتهم بالرياس الآخرين في شمال إفريقيا⁵.

وتنفيذا لذلك، كانت سنة 1649م نهاية لعهد التوافق بين الأقاليم المتحدة وسلا، ولم تعد الأولى تبدو بمظهر الحليف غير المباشر للرياس، حيث اضطرت للتدخل العسكري ضد مصعب أبي رقراق من أجل إجبار رجاله على القبول باتفاقية سلم بين الطرفين تكفل لسفنها الملاحة الآمنة، وهو ما توصلت إليه في شتتير من السنة الموالية بعد حصار شديد للمرسى⁶. ونص الاتفاق المذكور على التزام سلا بعدم القيام بأي

¹ Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T V - p 114-15.

² Coindreau - Op. cit - p 80-81.

³ Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 637-38.

⁴ Ibid - Pays-Bas - T V - p 139-40.

⁵ Ibid - p 175-76.

⁶ Ibid - p 203.

(البحري) (مصر) (أي) (البحري)

اعمال عدائية ضد الملاحه الهولندية انطلاقا من مرساها، ليس من طرف سفنها
نصب، وإنما أيضا من طرف السفن الجزائرية أو التونسية أو الطرابلسية المبحرة
منها، كما تلتزم فيه بحظر تصريف المغام الهولندية بأسواقها، وبتقنين الجهاد البحري
بمنع سفن الجهاد من ممارسة عملياتها إلا بعد تقديم ضمانات كافية عن الخسائر التي
يمكن أن يترافق بحارتها¹.

وكما دأب عليه السلاويون، كانوا كلما اذعنوا لمهادنة إحدى القوات الأوروبية
يوجهون عملياتهم بكثافة ضد باقي الدول الأخرى؛ وهكذا أدى السلم مع الأقاليم
المتحدة إلى استفحال تضرر السفن الإنجليزية، وإلى سقوط عدد كبير من بحارتها في
الأسر؛ مما دفع إنجلترا إلى قطع صلاتها بالمغرب²، وإلى تطبيق حصر اقتصادي
عليه، رغم أن هذه الفترة (1651م) تبرزها الوثائق بمثابة فترة ركود للعمليات
الجهادية، حيث لم يتعد عدد السفن العاملة أكثر من عشرة قطع³، وكانت نتائج نشاطها
محدودة من جراء الإجراءات الردعية المتشددة خلال سنتي 1651 و 1652م، والتي
عاصرتها أوضاع مضطربة داخلية، انعكست سلبا على مختلف ميادين العمل في
المنطقة إلى حدود سنة 1653م.

لقد خرج النشاط السلاوي من هذه الأزمة نشيطا، وحقق رجاله نتائج جيدة أعادت
المنطقة إلى صدارة الاهتمام الدولي⁴، لا سيما وأن الرياس قد ابتكروا خططا جديدة
تمكّنهم من العمل بحرية ضد كافة السفن، بما فيها تلك التي فرضت عليهم دولها سلما
إجباريا. وتمثل هذا في اعتمادهم على مخادعة السفن للسيطرة عليها دون المساس
ببنود السلم، عن طريق التنكر في هيئة رياس الجزائر للدفع بالبحارة إلى الفرار من
على منتهى وبالغائها من الرجال، مما كان يخلق للقناصل والمراقبين صعوبة
المطالبة باستردادها⁵. وقد كانت هذه الأساليب بمثابة رد فعل عن التجاوزات المرتكبة
من طرف القباطنة والقراصنة الأوروبيين في حق السفن السلاوية، وخاصة الهولنديون

محي - نفسه - ص 182.

¹ Ibid - p 242.

² Les S. I. H. M. - le série - Pays-Bas - T V - p 290.

³ Ibid - p 357-58.

⁴ Ibid - p 391-92.

¹ Les S. I. H. M.

² Coindreau - C

³ Les S. I. H. M.

⁴ Ibid - Pays-B

⁵ Ibid - p 175-

⁶ Ibid - p 203.

من بينهم، والتي لم تتمكن مراسلات القناصل من وضع حد لها¹. ولذلك ارتفعت قيمة الخسائر الهولندية خلال ثلاثة مواسم فقط إلى أكثر من مائة وتسعين ألف فلورين²، رغم التزام الطرفين باتفاقية السلم لسنة 1651م.

ومن المرجح أن يكون حجم خسائر الدول الأخرى التي لا ترتبط معها سلا بآية اتفاقية أكثر ارتفاعا، وأساسا إنجلترا التي بدأت تفقد سمعتها كصديقة تقليدية لرياس سلا مع بروز أطماعها حول بعض المراكز الساحلية للمغرب، فأضحت سفنها طراند مفضلة للمجاهدين بصورة أجبرتها على القيام بحصار المصب على يد الأميرال روبرت بليك (Blake) من أجل إطلاق سراح الأسرى، وعقد اتفاقية سلم وحرية التجارة، وذلك في غشت 1656³. ولم يؤد هذا إلى نتائج ملموسة إلا بعد سنة من ذلك، وبمبادرة من محمد الحاج الراغب في توطيد عرى الصداقة مع الحاكم الإنجليزي كرومويل (Cromwell)⁴، الذي ما اندفع إلى ذلك إلا بعدما بدأت ردود الفعل الأوربية الأخرى تبرز نجاحات متميزة باعتمادها لأساليب مواجهة متعددة، من حصارات إلى ملاحقات للسفن الجهادية، وإلى ابتداء أساليب تواصل بحرية جديدة مكنت السفن الأوربية من مداراة خطر السقوط في شرك الرياس السلاويين⁵.

إن الجهاد البحري في نهاية العهد الدلائي قد تأثر كثيرا بالضعف السياسي الذي لحق بسلطة محمد الحاج، فصارت المبادرة لقائدة القوى الأجنبية أمام تقلص فعالية الأسطول السلاوي، إلى درجة أن الرياس المتعودين على التحرك بكل حرية واستقلالية قد فقدوا هاته الخصوصية مع التقنين الذي طال الميدان الجهادي، وأصبحوا بذلك عرضة لتجاوزات السفن الأوربية رغم قانونية وضعهم الملاحي. فقد وقعت حادثتان تعرض لهما اثنان من رياس سلا، أولهما الرياس علي مارشيك الذي تم أسره من طرف القبطان الهولندي براكل (Brakle) قرب تطوان سنة 1657م، باعتباره عاملا في صفوف الأسطول الجهادي الجزائري⁶؛ وثانيهما الرياس أحمد القرطبي

¹ تذكر رسالة موجهة من طرف القنصل دو فريز في شنتبر 1654 الأخطار المحدقة بالتجار الهولنديين في سلا من جراء استيلاء القبطان الهولندي كورنليس طرومب (C. Tromp) على سفينة سلاوية، وإعدامه على يديها في ميناء قاديس. انظر: Ibid - p 416.

² Ibid - T VI - p 96.

³ Coindreau - Op. cit - p 186.

⁴ حجي - نفسه - ص 183.

⁵ Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T VI - p 268.

⁶ Coindreau - Op. cit - p 81.

الذل تعرض للللل المشهورل سنل 1658م الملووفل بلللل السفلنل " النبل دانللال"، واللل رللم تولفرل علل اللولز اللانونل المسلم من طرف اللنصل الهولنلل لمل اللللل من طرف قبطان هولنلل، وأل ذلك إلى مقلل وأسر طاقم سفلنلته وإلراقها، ضلل عن بنول اللفاقلل السلم الموقعلل فل السنل الأسبق بلن الأقاللم المللللة وسلا. ولل دفع هلا الللوز السلطال الهولنللل إلى للرلم القبطان المذلبل، والللم علله بألاءل لعللضال للرللس القرطبل¹. وللقلم هله الأمللل نامال لللللضل لللل الللوز اللللل اللللل اللللل للللل بالأللمل اللللالل لللللل إلى مصب أبل رقرل، واللنشلال المللل للللل للللل بالأللمل الملسللل فل المنلقلل منذ سنل 1660، بلللل لرك ضللف مساللملهم الملال مفللحا للللل الللزل الللنل كنفلوا أنسللهم قبالل السالل الملربل، منفللن عملللل هالل للللل اللنصل الهولنللل بلصفهم بأنهم: " هم الآن أسلال هلا المكان"². ولل تولاصل إبلللال الرللس السلاولللن عن مسرل عملللل مع اسلمرار حالل الفولسل فل المصلب، إلى اللن للللل غللان لفلوذه فل المنلقلل، وبألال اسلللبال الأمن بها، أالفا بالأوربلللن إلى عللل للوفهم من انللال الموسام الللللللل ملللل فل ظلل عللل الللروف الملائمل³.

3- الصراع الللرل السلاول-الأوربل

أصلل مفلرول على اللول الأوربلل أن توللج اللللل السلاول بللصللل أاللل، أاللل منها صالللل الرلأل فل الماللل الأطلنلللللل: الأقاللم المللللة وإنلللرل. ولل نهلل فل ذلك ملللل الأساللبل المللللال أنلاك لللللر علل مسلرل هلا النسلال اللل بللغلل من لضرر مصلللل اللللرل، بللللللل للللل للللل ماسل فل اللللال مع الأملر اللاللل الراللل بلورل فل اللللل باعلرلاف دولل علل غرار السلطان السعلل وأبلل لسلن السماللل، لما بلملل ذلك من للعلل لسلللالل الللللل، ومن لئللل لموارلل الماللل اللالللل عن اللللرل اللللرل.

¹ Les S I H. M. - 1° série - Pays-Bas - T VI - p 456-57.

² Ibid p 616-17.

³ Ibid - France - T III - p 703.

وعند اشتداد حدة هجمات الرياس السلاويين، كثيراً ما كانت هذه الدول تجنح إلى خيار التصعيد العنيف من خلال حملات الردع والاستعراضات العسكرية الملاحية كوسائل ضغط لموازرة الخيار الدبلوماسي، وسعيها من وراء ذلك إلى إقرار المصالحة مع رجال الجهاد البحري، وإلى الحصول على حرية الأسرى المتكسبين في مطمورات مصب أبي رقرق.

وعلى العموم، كانت نتائج هذه المجهودات لا ترقى مستوياتها التطبيقية إلى درجة مخططاتها النظرية¹؛ ذلك أن السعي الأوربي من أجل إضعاف شوكة العمليات الجهادية، وتعدد القوانين المحرمة لتصدير العتاد الملاحي والعسكري إلى المغرب بقيا دون مفعول، جراء تحكم مصب أبي رقرق في جزء مهم من التجارة المغربية من جهة، وتحكمه من جهة أخرى في تجارة البضائع المستولى عليها من السفن المغنومة، الأمر الذي كان يؤثر في استمرارية نشاط التهريب الذي اضطلع به اليهود نورو الأصول الأندلسية المستقرون بالأقاليم المتحدة، أمثال بنيامين كوهين (B. Cohen) وحاييم طوليدانو (H. Toledano) وهارون كيريدو (A. Quieredo)²، الذين أضحووا يشكلون قوة ذات ثقل اقتصادي هام في الأوساط المالية الهولندية³، التي كانت تبرز - إلى جانب لندن - كأحد المراكز العالمية في هذا المجال.

إن الرياس السلاويين قد التفتوا من جديد إلى مسارح عملياتهم في بداية العهد الدلائي، وبرغبة أكثر إلحاحاً في تحقيق المزيد من المغانم؛ فأصبح ربانة السفن الإنجليزية العاملة في مجال الصيد بالأرض الجديدة يشكون منذ سنة 1642م من الضربات التي يتلقونها من السلاويين والجزائريين⁴. كما سارعت الأقاليم المتحدة إلى رفع شكائاتها إلى قواد سلا من الأعمال العدائية المقترفة في حق رعاياها وسفنها، مطالبة باتخاذ التدابير التي تجعل رياس السفن يكفون عن هذه الانتهاكات، ويتعويض المتضررين وإطلاق سراح الأسرى دون فدية⁵.

¹ Coindreau - Op. cit - p 47.

² Ibid - p107.

³ كانت الجالية اليهودية بأمستردام تضم حوالي سنة 1650م أكثر من أربعمئة أسرة غالبيتها من أصل برتغالي، ويوجد من بينها رجال أعمال يلعبون دوراً أساسياً في بنك أمستردام. انظر: André Alba : " Les temps modernes " - Hachette - 2e éd. - Paris 1956 - p 235.

⁴ Les S. I. H. M. - 1^o série - Angletterre - T III - p 556 note.

⁵ Ibid - Pays-Bas - T V - p 27-28.

وبغرض فرض رقابة صارمة على تجاوزات الرياس وللدفاع عن مصالحها في عين المكان، بادرت هذه الدولة إلى تعيين هندريك دوبر (*H. Dopper*) قنصلا لها بسلا سنة 1643¹، الذي أفلح في جعل سلا تتراجع عن خططها العدائية إزاء حليفاتها السابقة، وتصدر أوامرها بحظر مهاجمة السفن والراعايا الهولنديين²، مثلما نجح في التوصل مع القواد السلأويين إلى توقيع اتفاقية متعلقة بتصفية المشاكل المرتبطة بالمغانم والأسرى، مستغلا في ذلك دعم الأمير الدلاني له ولتجار الأقاليم المتحدة³، لرغبة هذا الأخير في تحقيق تعاون مثمر معها من شأنه أن يكفل له نشاطا تجاريا رانجا ودعما عسكريا متواصلًا.

وفي الوقت الذي سعت فيه هولندة إلى إعادة العلاقات الطبيعية مع مصعب أبي رقران، لوحظ تزايد العمليات ضد السفن الإنجليزية وتأخر ظهور ردود فعلها. ويعتقد أن هذا يعود للأحداث الداخلية التي عاشتها إنجلترا مع اندلاع ثورة 1640 التي كان من نتائجها إعلان قيام الجمهورية غداة إعدام الملك شارل الأول⁴، وانطواء الحكومة الجديدة على نفسها لترتيب سياستها الداخلية؛ وهو ما يفسر غياب المساعي السلمية من لدن الإنجليز خلال هاته الفترة لدى السلطان السعدي أو لدى أمراء المناطق، وكذا تقلص حجم تجارتها مع المغرب.

وقد زاد من حدة ذلك غياب رجال الدبلوماسية والمفاوضين الإنجليز، الذين دأبت بلادهم على انتدابهم للإشراف على مصالحها بالمغرب⁵، مما أدى إلى ارتفاع حجم خسائرها، ودفعها إلى نهج سبل جديدة لمواجهة القلق المتعاظم في أوساط سكانها من هجمات رياس البحر المستفحلة منذ سنة 1645م، حيث حددت نسبة 1/400 كضريبة على كافة البضائع المصدرة أو المستوردة لتمويل فديات الأسرى، وسرعان ما ارتفعت إلى الضعف (1/200)، ووضعت رهن إشارة مجلس الدولة الذي انتدب لمتابعة هذه القضية⁶.

¹ Ibid - p 35.

² Ibid - p 45.

³ Ibid - p 64.

⁴ Alba - Op. cit - p 218.

⁵ Les S. I. H. M. - 1^o série - Angleterre - T III - p 552.

⁶ Ibid - p 553.

وعلى العموم، قدمت الإجراءات الأوروبية المتناقضة ظروفًا ملائمة لتطوير العمليات الجهادية واستمراريتها، وبدأت كافة ردود الفعل غير مجدية، الأمر الذي رفع من القيمة الاستراتيجية لمرسى سلا الجديد، ودفع أعلى الحكومات إلى طلب ودرياسها واتقاء شرهم سلميا دون نجاح¹، وأضحت معها الطرق الملاحية خاضعة لرحمتهم. وأمام هذا الوضع راحت الدول الأوروبية - بمن فيها الأكثر تقاربًا مع السلاويين - تضيق ذرعًا بهجماتهم المتكررة، وانطلق قباطنتها وقراصنتها، وعلى رأسهم الهولنديون، في التعرض لسفن الرياس العاملة على مقربة من سواحل أوربا بغية أسر أكبر عدد منهم، معرضينهم للإعدام شنقًا أو إلقاء إلى عرض البحر²، فيما راحت سياستها المتشددة تتضح أكثر مع إطلاعها على نوايا الدلايين إزاء إرساء علاقات سلمية، مع الأقاليم المتحدة بالخصوص، ومن ذلك إقدام الأمير عبد الله على إطلاق سراح مجموعة من الأسرى سنة 1648م³. فصار لزامًا على السفن الأوروبية تكثيف الضغوط على الأسطول السلاوي طيلة الفترة الممتدة ما بين سنتي 1648 و1650م من أجل إجبار ريase على القبول بالسلم، وأخذت سفنها تتعقب المراكب السلاوية ونظيراتها الجزائرية العاملة إلى جانبها في مختلف النواحي البحرية، وتقوم أيضا باختطاف بعضها حتى في مدخل مصب أبي ر قراق تحت نيران مدفعية القصبه⁴.

إن الأقاليم المتحدة وقد خرجت ظافرة من الحروب الأوروبية بقوة وحجم سياسيين كبيرين⁵ قد وجدت نفسها مؤهلة لمواجهة كافة التحديات الأخرى، ومن بينها التحدي السلاوي. ولذلك بادرت سنة 1649 إلى تنظيم أول حصار لها ضد مرسى سلا الجديد بقيادة الضابط جوريس فان كاتس (J. V. Cats)، أدى إلى إصابة الأسطول السلاوي بأضرار بليغة تمثلت في فقدانه لخمس قطع عاملة ولعدد مهم من رجال البحر⁶. وتلت

¹ في رسالة موجهة منه إلى الأقاليم المتحدة في يوليو 1646م، يشتكي السلطان السعدي محمد الشيخ الأصغر من عدم استجابتها لمطالبه، في الوقت الذي سعت فيه إلى التعامل مع مراسي الخارجين عن سلطانه، ذاكرًا نشاط أحد تجارها المستقر بسلا، والذي يتناقض والشروط التي بينه والأقاليم المتحدة، رغم أن أهل سلا يهاجمون سفنها ويأسرون رعاياها بنقيض أمنهم في مناطق نفوذهم. انظر: *Ibid - Pays-Bas - T V - p 109-10*.

² *Ibid - p 114-15*.

³ *Ibid - p 135 et France - T III - p 637-38*.

⁴ *Ibid - Pays-Bas - T V - p 135*.

⁵ *Alba - Op. cit - p 209-10*.

⁶ *Coindreau - Op. cit - p 183-84*.

هذه حملة ثانية
لغيت بقواد سلا
سلم بين الطرفين
الطرف الآخر،
تقديم الرياس
ضرورة توفير
العلاقات عينت
والذي سيقوم بدو
ورغم معار
على عكس ريا
بإبتكارهم لأساليب
مستبدين في ذلك
هؤلاء قاعدة لتصف
بغية تهريب البحر
جراة غير مباشرين
وقد سارع ك

المنبيين، وفرض
الثاني باتخاذ إجرا
الدلايون بكل ق
اعتراض بيع ما ق

¹ راع هذه الاتفاقية عن
الجانب الهولندي قلند

⁶ في سنة 1651 اعترض
منهم وصلا بما استولوا
- p 310-11

هذه حملة ثانية في السنة الموالية تحت قيادة القائد جيديون دي فيلدت (G. de Wildt)، دفعت بقواد سلا إلى التفاوض من أجل رفع الحصار، وانتهى ذلك إلى توقيع اتفاقية سلم بين الطرفين في فبراير 1651م، نصت على احترام كل طرف لسفن ورعايا الطرف الآخر، وامتناع سلا عن تقديم أي دعم لرياس المناطق الأخرى، مع اشتراط تقديم الرياس السلويين لضمانات مسبقة عن التجاوزات الممكن ارتكابها، مع ضرورة توفيرهم على جوازات قانونية¹. وللاشراف على السير الطبيعي لهذه العلاقات عينت الأقاليم المتحدة دافيد دو فريز (D. de Vries) قنصلا جديدا لها بسلا، والذي سيقوم بدور هام في المفاوضات الدلانية-الهولندية بعد ذلك². ورغم معارضة الدلائيين لبعض البنود، كانت الرغبة السلمية لديهم أقوى وأمتن³، على عكس رياس الجهاد الذين وجدوا أنفسهم مجبرين على مراوغة نصوصها، بابتكارهم لأساليب وخطط لمهاجمة السفن الهولندية دون ترك دليل إثبات ضدهم، مستغلين في ذلك من تحالفهم الطبيعي مع نظرائهم الجزائريين، متخذين من مدينة هؤلاء قاعدة لتصرف المغنم الهولندية⁴، وأيضا بانتحال صفتهم أمام السفن التجارية بغية ترويب البحارة وإجبارهم على التخلي عنها⁵، وأحيانا أخرى بالسيطرة عليها بكل جراءة غير مبالين ببنود الاتفاقية⁶.

وقد سارع كلا الطرفين المتفقين إلى محاولة ردع هذه الخروقات بمعاقبة الرياس المننيين، وفرض تعويضات عليهم لفائدة أصحاب السفن المتضررة، ومطالبة الطرف الثاني باتخاذ إجراءات مماثلة في حق القراصنة المتعرضين للسفن السلوية⁷. وحاول الدلائيون بكل قوة دعم مأمورية القنصل الهولندي في استعادة سفن بلاده، وفي اعتراض بيع ما قدم به رياس الجزائر منها بسلا⁸، لا سيما وأن نشاط هؤلاء أضحى

¹ راجع هذه الاتفاقية عن سلا البالي إبراهيم معينو ومحمد فنيش، وعن سلا الجديد إبراهيم النوك ومحمد روغان، وعن الجانب الهولندي قائد الأسطول دي فيلدت. انظر: Les S. I. H. M. - 1^{re} série - Pays-Bas - T V - p 238-42.

² Caillé: "La petite histoire..." - Op. cit - p 106-07.

³ Les S. I. H. M. - 1^{re} série - Pays-Bas - T V - p 296-99.

⁴ Ibid - p 304.

⁵ Ibid p 391-92.

⁶ في سنة 1651 اعترض الراس القرطبي وبحارته سفينة هولندية وسيطروا عليها رغم احتجاج قبطانها الذي طلب منهم وصلا بما استولوا عليه منها قصد تقديمه لمجهزي السفينة، إلا أنهم بدلا من ذلك نكلوا به وبرجاله. انظر: Ibid - p 310-11.

⁷ Ibid - pp 327 et 332-33.

⁸ Ibid - p 358-59.

أكثر أهمية بنواحي المغرب انطلاقاً من هذه المرسى ومن أصيلاً، مما جعل القنصل دو فريز يطالب بضرورة مراقبة البوارج الحربية للساحل المغربي¹، وهو ما جعل استجابة السلطات الهولندية لذلك يؤدي إلى سقوط بعض السفن السلالية سنة 1653م، ومن ثم إلى ارتفاع حدة التوتر بين الهولنديين والدلائيين، كادت نتائجها أن تكون وخيمة على الرعايا الهولنديين المستقرين بسلا، وعلى رأسهم القنصل المذكور، الذين تم اعتقالهم في نونبر من نفس السنة².

وأنتى هذا الموقف الهولندي نتيجة التطورات السريعة التي عرفها الميدان الملاحي، والتي استفادت منها إنجلترا بالأساس، بسعي كرومويل إلى تأمين سطوة الأسطول الإنجليزي على البحار، بحصوله سنة 1651م على تصويت البرلمان على " قانون الملاحة " الذي يجعل نقل البضائع إلى إنجلترا حكرًا على السفن المحلية وسفن البلد المنتج لها³، مما أسدى ضربة مؤلمة للملاحة الهولندية التي ظلت إلى حدود منتصف القرن القوة البحرية الأولى عالمياً⁴؛ مثلما فرض عليها العمل ضد أسطولي الجهاد الجزائري والساوي للذين ظلا يشكلان جبهة في الصراع البحري، وبالتالي سعيها بحزم إلى إيقاف الاستنزاف الممارس من طرف سفينهما وفرض علاقات سلمية مع سلطاتهما. وقد نجحت في الأخير في تقريب وجهات النظر مع الإمارة الدلائية كانت من نتائجها تسوية المشاكل العالقة، وإطلاق سراح القنصل والتجار المعتقلين، وأيضاً استعادة السفن المحتجزة لدى الطرفين، وطي صفحة المشاكل الأخرى بصفة نهائية⁵. كما انطلقت في السنة الموالية المفاوضات بين الدلائيين والهولنديين من أجل التوصل إلى معاهدة سلم أكثر شمولية، لم يتم التصديق النهائي عليها إلا في غشت 1658⁶.

ومع نجاح كرومويل في إعادة تأسيس أسطول إنجليزي قوي خلال هذه الفترة، ورغبته في فرض هيبة دولته على العاملين في البحار، بدأ اهتمام إنجلترا بمسألة

¹ Ibid - pp 358-59, 376 et 391-92.

² Ibid - pp 396 et 536-37.

³ Alba - Op. cit - p 222-23.

⁴ كان أسطول إقليمين (هولندا وزيلندة) فقط من الأقاليم المتحدة يضم لوحده عدداً من البحارة أكبر من بحارة إنجلترا واسكتلندا وفرنسا وإسبانيا مجتمعين خلال فترة من النصف الأول من القرن 17م. انظر: Ibid - p 230.

⁵ وقع هذا الاتفاق عن الجانب الهولندي القنصل دو فريز والحيسوبي جيلبر دو فيانين (G. de Vyanden)، وعن الجانب السلاوي إبراهيم الدوك وأحمد القرطبي. انظر: Les S. I. H. M. - 1^{re} série - Pays-Bas-T VI - p 136-37.

⁶ انظر تفاصيل المعاهدة والنقاشات التي عرفت بنودها في: Ibid - pp 146-53, 198-200, 262-63 et 388.

الجهاد البحري، عاملة ما في وسعها من أجل القضاء على خطره وعلى عملياته. وقد استطاع الأميرال بليك سنة 1655م إتلاف الأسطول التونسي، وفرض اتفاقية سلم على رياس الجزائر، مما شجعه على اتخاذ تدابير مماثلة لمواجهة الأسطول السلاوي، بيد أن بوانر الحرب مع إسبانيا في سنة 1656 حالت دون تنفيذه لذلك¹، وفرضت عليه إرجاءه إلى وقت لاحق.

وبمجرد استعادته لمشروع المواجهة العسكرية مع السفن السلاوية في السنة الموالية، نجح بليك في السيطرة على بضعة قطع من الأسطول، مما دفع برياس الجهاد إلى إبداء رغبتهم في القبول بعروض السلم²، التي حاول بليك استثمارها للحصول على أقصى النتائج دون أدنى تنازلات، الشيء الذي جعل موقفه المتشدد يفضي إلى توقف المفاوضات، وإلى مواصلة حصاره العسكري لمصعب أبي رقران³. ولم تنفج أجواء العلاقات السلاوية-الإنجليزية إلا في غشت 1657م إثر توصل الطرفين إلى معاهدة سلم، يلتزمان فيها باستعداد كل منهما لنسيان الانتهاكات السابقة، وبضمانة سلامة سفن ورعايا الطرف الآخر، وبمعاقبة المذنبيين من رياسهما وقياطنتهما، مع وضع مراسيمهما رهن إشارة سفن الآخر⁴. وعينت إنجلترا نائينال ليوك (N. Luke) قنصلا لها في مختلف المراسي المغربية الرئيسية لموازرة التجار الإنجليز، وللدفاع عن مصالحهم لدى السلطات الدلانية⁵. وقد أتى هذا التطور بمثابة سبق سياسي أحرزته إنجلترا على الأقاليم المتحدة التي لم تنجح بعد في التوصل إلى اتفاقية مشابهة، مع ما يترتب عن ذلك من استمرار خطورة الوضع على مصالحها.

فبعد التوقيع على هذه المعاهدة صار السلاويون يتخلصون من عقدة الخوف من الأسطول الهولندي، ويكتفون هجماتهم ضد سفن الأقاليم المتحدة، إلى درجة أضحي معها بحارتها غير قادرين على متابعتهم قانونيا خشية على حياتهم⁶ من جهة، ولأن هذه المتابعات أصبحت بدون جدوى نتيجة تعدد وسائل الخداع التي كان الرياس يبتكرونها، زيادة على تنصيب الأمير عبد الله نفسه قاضيا بين الطرفين دون انتظار أي

¹ Ibid - Angleterre - T III - p 553.

² Ibid - p 553-54.

³ كان ذلك من جراء امتناع السلاويين في البداية عن إطلاق سراح الأسرى الإنجليز دون فدية، ثم بعد ذلك مع امتناع الأمير عبد الله عن إعادة طفلين إنجليزين ولدا بملا. انظر: Ibid - pp 571 et 573.

⁴ Ibid - p 588-90.

⁵ Ibid - p 586.

⁶ Ibid - Pays-Bas - T VI - p 372.

استشارة أو رأي من الأقاليم المتحدة في القضايا المعروضة أمامه؛ وأكثر من ذلك، كان يرى القنصل الهولندي مسؤولاً عن كافة الأضرار التي كانت سفن سلا تتعرض لها من طرف بحارة بلاده¹، الأمر الذي جعل دو فريز يقدم استقالته من مهمته الدبلوماسية سنة 1658م خشية على حياته².

إن هذا ما دفع الأقاليم المتحدة إلى التفكير في لزوم التوصل إلى معاهدة نهائية للسلم، مدعمة بمفاوضات القنصل بإرسال حملة بحرية بقيادة الأميرال رويتر (*Ruyter*) للضغط على السلاويين، حيث كان لتلويحه بقصف المدينة أثر في التصديق النهائي على الاتفاقية في غشت 1658م³. ويبدو أن ذلك لم يلتزم به السلاويون إلا تحت الإكراه، لذلك تواصلت الأعمال العدائية بين الهولنديين والسلاويين رغم سعي سلطاتهما إلى حصر انعكاساتها في أضيق نطاق، وبمواجهتهما بما تستحقه من تدابير زجرية من شأنها طمأنة الطرف الآخر⁴، والتي كانت توازيها مع ذلك خروقات مستمرة من قباطنة ورياس كلا الطرفين.

وقد أصبح الجهاد البحري بفعل ذلك يعيش فترة ضعف ناجمة عن الخسائر المهمة التي لحقت بسفنه وبرجاله، وجعلت الدلانيين يnehجون سبلا أكثر دبلوماسية لحل المشاكل المعرقة للسير الطبيعي للعلاقات مع الأقاليم المتحدة، موفدين في هذا الصدد سفارة إلى لاهاي سنة 1659م مكونة من إبراهيم معنينو وإبراهيم الدوك ومحمد بنيلوز، بمهمة التفاوض حول القضايا ذات الاهتمام المشترك، وعلى رأسها السفن المصادرة والعلاقات التجارية⁵.

وقد اتجه الجهاد البحري نحو التوقف الفعلي مع عودة الاضطراب السياسي إلى منطقة المصب، وأضحى الاهتمام الأوربي يأخذ منحى التدخل العنيف لمؤازرة أحد الأطراف المتنازعة، حيث أزرت إنجلترا الخضر غيلان الذي صار يبدو بمظهر الرجل القوي للساحل، مقدمة له دعماً عسكرياً نوعياً مكوناً من عشرين بارجة حربية لتمتين حصاره للقصب⁶. ومن جهتها بادرت إسبانيا إلى الارتباط به في حلف صداقة

¹ Ibid - p 373.

² Ibid - p 375.

³ Ibid - p 388.

⁴ Coindreau - Op. cit - p 187.

⁵ إلى جانب ذلك، كلفت السفارة بمهمة استقدام طبيب مختص في أمراض العيون لمعالجة محمد الحاج. انظر: Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T VI - p 524-25.

⁶ Ibid - 2^o série - France - T I - p 23.

الجهاد البحري مصيب أبي رقران

بالنظر إلى موقعه السياسي، مما سيفوت على الدلائيين بسلا كل أمل في الحصول على نجات منها لفك الحصار¹.
وبالتالي كانت سيطرة غيلان على مصيب أبي رقران، وعودة الاستقرار إلى مركز الجهاد البحري في إطار مستقل، تنبئ باسترجاع العمليات الجهادية لمستواها الطبيعي، ومن ورائها عودة الضغوط الأوربية لمواجهتها، لولا أن هذا العهد لم يدم أكثر من بضع سنوات بسقوط مرسى سلا الجديد في تبعية السلطة العلوية التي ستفقد استقلاليتها كلياً.

¹ لزوق - نفسه - ص 207.

الفصل الرابع: مرحلة إشراف الدولة

أنت سيطرة مولاي الرشيد العلوي على مصب أبي رقراق سنة 1666م في إطار إعادة الحياة إلى نظام تتركز فيه السلطات بيد السلطان، وإعادة الاعتبار إلى مؤسسات الدولة المحركة لدواليب الحكم وفق مصلحة التراتبية السياسية على حساب نفوذ السلطات الإقليمية. وسوف تترسخ بنيات السلطة المركزية الموحدة بقوة عند تولية مولاي إسماعيل سنة 1672م، بممارسة قصوى لحكم مطلق افتقده المغرب منذ سنة 1603م؛ حيث أعاد التنظيم المركزي السياسة الضريبية والمراقبة الاقتصادية، التي ستمكن فاس - المركز الرئيسي - والتجارتين الداخلية والخارجية، وأيضا الجهاد البحري من التقيد بشروط الازدهار السعدي السابق¹. وقد مكن هذا الدولة من معين متكامل من المداخل الكفيلة بتغذية الانطلاقة المتطورة للحكم العلوي، وفرض عليه في الوقت ذاته الحفاظ على انتظام تدفقها بتبني سياسة عسكرية خاصة، قوامها قوات مرتبهة مباشرة بأوامر السلطان (عبيد البخاري)، ومنتشرة في عموم المغرب عبر نكبات، كان الغرض منها امتداد السلطة، وبلوغ يد السلطان مناطق نفوذه القريبة والبعيدة.

وكان من النتائج الحتمية لهذه السياسة اندثار الاستقلال السياسي لمنطقة المصب، وفقدان أنشطتها الاقتصادية لسندها الخاص الموجه لها والمحدد لاختياراتها؛ وأصبح الجهاد البحري بفعل ذلك في مرحلة تنظيم مركزي وفي خدمة نفوذ السلطان أكثر فأكثر، حتى صار الرياس لا ينظمون حملاتهم إلا حسب جنسيات السفن المصادفة في عرض البحر ووفق توجيهات السلطة المركزية، كما كانت عليه سفن البيلربايات العثمانية أثناء التبعية المطلقة لمناطق شمال إفريقيا للسياسة المرسومة من طرف الباب العلي قبل هزيمة ليبانطو (1571م).

إن الإشراف المباشر للدولة على مختلف ميادين الحياة قد جعلها تهتم بالجهاد البحري من حيث دوره الهام على مستوى المداخل، وأيضا على مستوى ظهور أسطوله ورجاله كقوة عسكرية خاصة؛ ولذا، وجد السلطان نفسه مضطرا إلى الاشتراك في هذا المجال بصورة تدريجية، بدءا بالاستفادة الشرعية من المداخل، ثم

¹ Brignon - Op. cit - p 232.

بملكيتها لجزء من أدوات الإنتاج راحت تتنامى سنة بعد أخرى، فارضة في الأخير منافسة غير عادلة أدت في الأخير إلى احتكار الدولة لهذا النشاط، وإلى ابتعاد الكفاءات البحرية عنه من جراء ضعف الاستفادة من المجهودات المبذولة، والتي تقابلها ظروف عمل سيئة. وكان ذلك بمثابة إعلان عن بداية نهاية إشعاع مرسى سلا الجديد كواجهة فاعلة للجهاد البحري.

1 - مصب أبي رقراق في العهد العلوي

كان على مولاي الرشيد منذ استخواذه على منطقة المصب أن يثبت نفوذه في وسط اعتاد المحافظة على استقلاليتها، فلم يجد بدا من وضع ثقته في القائدين المعزولين من طرف الخضر غيلان سنة 1665م: عبد القادر مورينو ومحمد فنيش²، لما كانا يتمتعان به من حظوة ونفوذ في أوساط الساكنة، ولما من شأن هذه السياسة أن تيسر بسط الدولة الناشئة لسلطانها على الضفتين، دون أن تترك للقائدين فرصة التحكم النهائي فيها؛ إذ كانا تابعين مباشرة للسلطان، ومراقبين عن كثب نظرا لوجود المنطقة في حدود الدولة المتصلة بمجالات القوى السياسية الخارجية، وكقاعدة تتمركز بها عناصرها وممثلوها من قناصل ودبلوماسيين وتجار³. وقد نجح قواد المصب على العهد العلوي في فرض الهدوء والاستقرار بالمنطقة، حيث لم تشهد أية اضطراب طيلة الفترة المتبقية من القرن 17م.

وبإزاء قيادتي سلا البالي والجديد، أحدث مولاي الرشيد منصب مراقب عام للبحرية أوكلت إليه مهمة الإشراف على النشاط المتنوع للمرسى، لما كان يوليه من اهتمام خاص لمداخل الجمارك. وأول مسؤول أسند إليه تدبير هذه المصلحة هو عبد القادر مورينو المذكور، الذي وصفه الأسير جيرمان مويط (G. Mouët) بذلك في سنة 1670م⁴، بعدما أسندت مسؤوليته السابقة إلى الحاج الزبدي⁵، وكان ذلك في فترة حاول فيها السلطان استنهاض كفاءة الأسطول الجهادي شبه المتوقفة منذ نهاية العهد الدلاني، عاملا على تدعيمه وعلى إعداد المنطقة للقيام بدورها كقاعدة له. ولحماية

¹ Les S. I. H. M. - 2e série - France - T IV - p 707.

² رزوق - نفسه - ص 209.

³ Caillé: "La ville de Rabat..." - Op. cit - p 289-90.

⁴ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T I - p 384 note.

⁵ Ibid - p 288.

القصبة من الهجمات المحتملة لسكان سلا الجديد أمر في السنة المذكورة بتوسيع نطاقها في اتجاه المدينة، وبالإضافة في أسوارها التي عزز جانبها المطل على المرسى ببرجين دفاعيين¹، كما أنشأ للغاية ذاتها قصبة جديدة جنوب غرب المصب²، لما كان يعلقه من آمال على المواسم الجهادية في عهده.

لقد بادر السلطان إلى بداية التدخل في نشاط الجهاد البحري، وإلى الاشتراك في تمويله، حاصلا على ملكية سفن عاملة لحسابه الخاص إلى جانب السفن الأخرى المملوكة للرياس³، رغبة منه في الحصول على مردودية الجهود المبذولة في تطعيم قاعدة الجهاد. لكنه من الواضح أن النتائج لم ترق إلى مستوى الطموحات، حيث أن التجهيزات الدفاعية البرية كانت صعبة الاستعمال نتاج سوء التدبير والصيانة، حيث يذكر الأميرال الفرنسي جان ديتري (J. d'Estrées) عند قصفه للمدينة في صيف 1671 إفلاس أحد المدافع الكبيرة للقصبة عند أول طلقة منه، كما أن أربعة مدافع أخرى لم تتمكن من إطلاق أية قذيفة نتيجة تعرضها للتلف بسبب وجودها في موقع مكتشف أمام التأثيرات المناخية⁴.

كما أن تدخل السلطة العلوية في تمويل الجهاد البحري لم يمكن الأسطول من تطوير كفاءته القتالية، بل على العكس زادت مقلالية المغنم المحصلة، بشكل دفع الرياس والمجاهدين إلى التفكير في التوقف عن تنظيم الحملات بالنظر إلى فرط الخسائر اللاحقة بهم من طرف السفن الأوروبية عموما، والفرنسية على وجه الخصوص، والتي كان من نتائجها فقدان الأسطول لثلث قطعه العاملة⁵. فقد هاجمت فرنسا مساح عمليات الرياس، ولاحقت سفنهم في المناطق البحرية وفي المراسي المستعملة من طرفهم⁶. وكما كان دأب هؤلاء، سعوا إلى الانتقام وإلى الرد على هذه الأفعال بشتى الوسائل، بما في ذلك المبادرة إلى مصادرة سفن التجار الفرنسيين الراسية بمرسى سلا الجديد تعويضا عن خسائرهم، لولا حيلولة مولاي الرشيد دون ذلك رغبة منه في الإبقاء على علاقات ودية مع أوربا⁷.

¹ بوجدار - نفسه - ص 60.
² نفسه - ص 64.

³ Coindreau - Op cit - p 59.

⁴ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T I - p 383-84.

⁵ Ibid - p 379.

⁶ Ibid - p 381-82.

⁷ ينقل القنصل الفرنسي هنري بواط (H. Pratt) عن مولاي الرشيد في معارضته لانتقام الرياس من السفن التجارية الفرنسية قوله: "من يخاف الذنب لا يذهب إلى الغابة". انظر: Ibid - p 390.



ولربما كان النقص الحاصل في مداخيل جمرك سلا من جراء هذه الضغوط سببا لتخوف مراقب المرسى عبد القادر مورينو على حياته ومتاعه، حيث أن مساهمة مولاي الرشيد في موسم 1671 لم تدر أرباحا جيدة، الأمر الذي جعل مورينو يخشى اتهامه بالتقصير أو بالاستحواذ على جزء من عائدات الجهاد، ولذلك سعى لدى الأميرال ديتري بطلب الحصول على جواز سري في أفق اللجوء صحبة أسرته وثروته إلى إيبيريا على متن السفن الفرنسية؛ وقد أجابه الأميرال الفرنسي إلى طلبه مقابل دفعه إلى الالتزام بتسليم القسبة إلى فرنسا¹. ويبدو أن استتباب الأمور بالمنطقة، واطمئنان مورينو على نفسه وأسرته قد جعله يواعي الخوف بتبخر بسرعة، ولم تترتب عن الأحداث المذكورة أية تطورات، مع استمرار مورينو بحظوته لدى السلطة العلوية حتى بعد وفاة مولاي الرشيد².

كانت الميزة الرئيسية للضفتين عند تولية مولاي إسماعيل تتلخص في سيادة الاستقرار والأمن، حيث سار على نهج أخيه بمراقبة شديدة للقواد الموزعين على مهام المنطقة، رغبة منه في الحفاظ على انتظام مواردها الهامة التي كانت تقدر من طرف المصادر المعاصرة بأربعين ألف ليرة شهريا، مشكلة مصدرا ماليا لا غنى عنه للسلطة المركزية، والتي كان انتقاصها الفجائي يدفع السلطان إلى تغريم سكان مصب أبي رفران تعويضا عن ذلك³. وقد فرضت عليه هذه الحالة حضورا مستمرا للبيت العلوي بها، مما جعله يتخذها مقرا لإقامة خليفته مولاي زيدان، مؤسسا لهذه الغاية داخل القسم الجديد من القسبة إقامة سلطانية مجهزة بمسجد وحمام خاصين⁴، وغرضه في ذلك إعطاء دفعة جديدة للجهاد البحري الذي أخذ يتحول كلية من ملكية الخواص إلى ملكية الدولة وتحت إشرافها المباشر⁵.

ورغم أن الوضع الجديد سوف يغير الكثير من خصوصيات العمل الجهادي ويسهم في تراجعها، فإن الوضعية السياسية للمنطقة لم تتأثر كثيرا بذلك لنجاح السلطة في فرض سيطرتها وفي إقرار الأمن بها، حتى أثناء الأزمات الاقتصادية وانعكاساتها

¹ Ibid - p 384 et 404-05.

² في سنة 1672 أعيد تنصيب مورينو حاكما للرباط وملا على عهد مولاي إسماعيل خلفا لأحمد بن بكر.

Ibid - p 384 note

³ Penz - Op. cit - p 170.

⁴ فوجدار - نفسه - ص 60.

⁵ Coindreau - Op. cit - p 190-91.

الاجتماعية خلال فترة 1677-1680م¹؛ ونظرا لمراقبة السلطان الشديدة للأعيان والولاية بالمنطقة، بحيث كان لا يتورع عن إنزال أقسى العقوبات بمن لم يمثل لسياسته²؛ في حين صارت التأثيرات الخارجية أشد وبالا على حركة الرياس، خاصة وأن الأساطيل النظامية الأوروبية أضحت تستعين بدعم قراصنتها ومغامريها في مواجهتها لنشاط السفن السلاوية³.

وفي سنة 1681م تمكن مولاي إسماعيل من تحرير المعمورة (المهدية) من نير الاحتلال الإسباني، وهو ما جعله أمام محاصرة أوروبا لأنشطة سلا يحاول اتخاذها قاعدة أساسية في الجهاد البحري نظرا لمميزاتها الطبيعية الأكثر أفضلية من مرسى سلا الجديد⁴، الشيء الذي راح يندز بالتراجع الحتمي لقيمة مصب أبي رقرق وتوقف نشاط الجهاد به؛ خاصة وقد انضاف إلى ذلك سعي مولاي إسماعيل سنة 1682م إلى ربط علاقات جيدة مع دول أوروبا وحماية مصالحها بالمغرب من جهة، وانشغاله من جهة أخرى بثورة ابن أخيه أحمد بن محرز. وقد أفلح سفيراه إلى فرنسا: الحاج محمد تميم، وإلى إنجلترا: القائد محمد بن حدو في توقيع معاهدتي سلم مع سلطاتهما⁵.

وقد فرض السلطان على الرياس الانقياد لسياسته الخارجية، إلى درجة صارت معها السفن السلاوية شبه مشلولة عن الحركة⁶، باستثناء قيامها ببعض العمليات المحدودة التي كانت تجد نهايتها في مرسى الجزائر، أو باستخدامها في عمليات غير عسكرية مثل نقلها لرخام قصر البديع من أسفي إلى سلا⁷. بل إن سياسة مولاي إسماعيل الخارجية قد جعلته يتصدى أيضا للجهاد البحري الجزائري الذي ظل رجاله يستغلون القواعد المغربية، مقدما على مصادرة مغانمهم، ومحاولا إعطاء الدليل لدول

¹ في سنة 1088هـ/1677م انتشر الجراد في أجزاء هامة من المغرب ومن ضمنها ناحية سلا، وكان من نتائجه تعرضها لمجاعة ووباء امتد لثلاث سنوات (1678-80)، والحق بها خسائر كبيرة في الأرواح قدرها مويط بثمانية عشر ألف ضحية. انظر: القادري - نفسه - الجزء الثاني - ص 232، وأيضا:

Les S. I. H. M. - 2° série - France - T II - p 174.

² يشير القادري إلى إعدام الوزير المنزري واتباعه في رمضان 1090هـ الذي كان واليا على سلا وأحوازها ومكناسة، وذلك لإقدامه على فرض آتارات على تجار فاس قصد الإنفاق على أسرى النصارى. انظر: القادري - نفسه - الجزء الثاني - ص 268.

³ Coindreau - Op. cit - p 167-68.

⁴ *Les S. I. H. M. - 2° série - France - T I - p 536.*

⁵ Coindreau - Op. cit - p 192.

⁶ *Les S. I. H. M. - 2° série - France - T II - p 391.*

⁷ *Ibid - p 424-28.*

بان والولة
سته؟ في
الأساطيل
نها لنشاط

من نير
اتخاذها
ن مرسى
ن وتوقف
1680م إلى
سغاله من
اج محمد
5.

صارت
العمليات
بات غير
ة مولاي
ل رجاله
يل لدول

نه تعرضها
عشر الف

Les S. I.
ومكتاسة،
ه - الجزء

3 Coindr
4 Les S.
5 Coindr
6 Les S.
7 Ibid -

أوروبا على رغبته في علاقات سلمية¹. فبدأ بذلك تعارض واضح بين السياسة العلوية والنشاط الجهادي الجزائري، كان من نتائج ارتفاع حدة التوتر إلى درجة تلويح مولاي إسماعيل لباشا الجزائر إبراهيم خوجة بخيار الحرب ما لم يتوقف رياس ولايته عن نشاطهم بالساحل المغربي، مدعما في ذلك بالموقف القوي الذي أصبح عليه بعد نجاحه في السيطرة على تارودانت، وفي القضاء على ثورة ابن محرز سنة 1686م². ولم يكن موقف الباشا إلا مماثلا لموقف السلطان المغربي، بحظره على الرياس السلاويين استغلال مرسى الجزائر، وباتخاذها في حق الوافدين عليه منهم إجراءات انتقامية³، الأمر الذي جعل نشاط الجهاد السلاوي المتقلص أصلا بفعل الضغوط الدولية المتواصلة يفقد سنده التاريخي وقاعدته الاستراتيجية البعيدة عن حركات الأساطيل الأجنبية، وأضحى الوضع العام ينذر بالتوقف التام⁴ مع ارتفاع خسائر رجال الجهاد إلى مستوى نجاحاتهم أو أكثر أحيانا. فخلال سنة 1680 التي حاول فيها السلاويون بتشجيع من السلطان تحدي الحصار الأوربي، بلغت خسائرهم نصف عدد سفنهم العاملة⁵، وأصبح عدد الأسرى السلاويين بفرنسا يقارب لأول مرة عدد نظرانهم الفرنسيين المعتقلين بالمغرب⁶.

وكان من الطبيعي أن تؤثر هذه الإخفاقات المتواصلة على عزائم الرياس بالسلب، وتؤدي إلى خمود رغبتهم في استمرارية نشاطهم الملاحى، والذي كان مولاي إسماعيل يحث على انتعاشه بشتى الوسائل، إلى درجة تهديده بمعاينة رجال البحر المنتعنين عن المشاركة في العمل⁷. فانتقل الجهاد بذلك من حالة الرغبة النفسية الذاتية إلى حالة الإكراه القسري التي لن تترك وراءها إلا حصادا ضعيفا، وإلى دخول النشاط

¹ في سنة 1686 صادر مولاي إسماعيل غنومة فرنسية قدم بها الراس الجزائري محمد البستانجي، وأطلق سراح طاقمها بين يدي القنصل الفرنسي بيرييه (Perillé). وقد ترتب عن هذه القضية المعروفة باسم "البستانجي" مناقشات وردود فعل بين المغرب والجزائر. انظر: Ibid - pp 554-55, 561 et 612.

² Ibid - p 613.

³ في سنة 1687 صادر الباشا الجزائري ثلاث غنائم فرنسية قدم بها بعض الرياس السلاويين إلى الجزائر، وذلك كرد فعل منه على قضية البوسنانجي. انظر: Les S. I. H. M. - 2^e série - France - T I - T III - p 52.

⁴ كتب الأميرال الفرنسي مورتمارت (Mortemarte) في 20 يوليو 1687 أثناء حملته لمراقبة سفن الجهاد أنه لم يصاف أية سفينة جهادية بالساحل المغربي، وأن الرياس لم يعونوا يخرجون إلا نادرا. انظر: Ibid - p 120.

⁵ كان مجموع الأسطول في تلك الفترة يبلغ ست سفن عاملة. انظر: Ibid pp 318, note et 350.

⁶ كتب السفير الفرنسي إلى المغرب بيدو دو سان أولون (P. de St. Olon) في سنة 1690، أنه إذا ما ثبت سقوط أحد المراكب الجهادية في يد الأسطول الفرنسي كما نهي إلى علمه، فإن عدد الأسرى السلاويين سيرتفع إلى مائتين وثمانية وعشرين رجلا مقابل مائتين وأربعة وستين أسيرا فرنسيا بالمغرب. انظر: Ibid - T IV - p 133.

⁷ Ibid p 300.

الجهادي في عصر مواته، رغم المجهودات الجبارة التي كان يبذلها أمير البحر عبد الله ابن عائشة وأخوه عبد الرحمن.

فقد زاد تدهور مرسى سلا الجديد مع التطور السلبي للظروف الطبيعية المؤثرة على الإبحار في مدخلها، وتخلت عن دورها كقاعدة رئيسية لفائدة المعمورة¹؛ كما أن نشاط الأساطيل الأوربية المعادية بالمحيط الأطلنטיكي ومراقبتها اللصيقة للملاحة به ولتجارة التهريب، قد عاق المواسم الجهادية عن مواكبة التطورات التقنية، رغم مساعي السلطان إلى توفير حاجيات السفانة الجهادية، بإجبار الأقاليم المتحدة على مواصلة دورها كعمون عسكري وتقني ملاحى، وتهديده إياها بإعلان الحرب عليها كلما بدا منها تقاعس في هذا الصدد².

وهذه المحاولات لم تثن تدهور الجهاد البحري، مما جعل السلطان وهو يطلع على الاستعدادات الأوربية الجارية في صيف 1698م لردع الرياس السلاويين، خاصة الفرنسية منها، يجنح إلى التعبير عن رغبته في السلم، حيث عين عبد الله ابن عائشة سفيرا له لدى لويس الرابع عشر بمهمة التفاوض حول اتفاقية الهدنة. فاستبدل رياس الرياس حرفة الجهاد بالدبلوماسية، إيذانا بنهاية العصر الذهبي لمصعب أبي رقران كقاعدة للجهاد البحري المغربي.

2 - الجهاد البحري وسياسة الدولة

شكل امتداد النفوذ العلوي إلى المناطق الساحلية للبلاد، وسيطرته على منطقة مصب أبي رقران خاتمة للجهاد البحري السلاوي المستقل، ونهاية لتأثره بتوجيهات العناصر الفاعلة فيه، بانتقال السلطة المركزية إلى مرحلة التحكم المطلق في مختلف مجالات الحياة الاقتصادية، والتي كان هذا النشاط يشكل إحدى واجهاتها البارزة. وقد عمد السلطان العلوي منذ البداية إلى جعل أدوات العمل وكفاءاته تحت مراقبته، ونتائجه ومداخله تحت تصرفه؛ واتخذ ذلك منحى متطورا عبر السنوات، متجها نحو:

¹ ذكر القنصل الفرنسي جان بابتيست إيسثيل (J. B. Estelle) سنة 1695 أن الأسطول الجهادي يتألف من خمس سفن، أربع منها بالمعمورة، وواحدة فقط بسلا. انظر: Ibid - p 327.

² في سنة 1694 أعلن مولاي إسماعيل الحرب على الأقاليم المتحدة بسبب عدم وفاء قنصلها بالتزاماته في ما يخص الإمدادات العسكرية والملاحية؛ ولم يتم التراجع عن هذا القرار إلا سنتين بعد ذلك بعدما علم بتوجيه شحنة عسكرية هولندية إلى المغرب. انظر: Ibid - p 437.

جعل هذا النشاط مسؤولية مركزية، الأمر الذي سيفرز انعكاسات جديدة على مسيرته جعلت ببداية نهايته.

لقد بانر مولاي الرشيد بمجرد سيطرته على مرسى سلا الجديد إلى تأمين انطلاقا مجددة للمواسم الجهادية بعد سنوات التوقف التي عرفها خلال مرحلة انتقال الحكم من الدلائيين إلى سلطته. ومنذ سنة 1669 عاود الرياس ظهورهم على مسرح الأحداث في بحار الشمال، رغم ضعف الأسطول الذي لم يكن يتعدى تسع قطع¹. فعالت الأساطيل الأوربية لتهتم من جديد بالمصعب من أجل سحق ما تبقى من أسطول سلا، وأدى ذلك إلى فقدان الرياس لست منه سنة 1671 من جراء حملة الأميرال الفرنسي ديتري، مما أجبر التجار - خشية تعرضهم للانتقام - على مقاطعة مركز سلا، خاصة وأن المراقبة قد شددت للتدقيق في هوية السفن المبحرة وحمولتها قصد مكافحة تجارة التهريب التي كان ينشطها يهود سلا².

أمام هذه الإجراءات المتشددة أضحى السلاويون يخشون من هجوم فجائي على المرسى، مبادرين إلى إرساء سفنهم بعيدا داخل النهر، وحاولوا في الوقت ذاته تعويض خسائرهم بمصادرة السفن الفرنسية الراسية بالمرسى؛ بيد أن هذا التصرف لم يكن يتوافق مع سياسة مولاي الرشيد الرامية إلى إظهاره بمظهر الحاكم الفعلي³، وجعله يفرض على الرياس مجابهة التحديات الأوربية بدلا عن ذلك بتنفيذ المزيد من العمليات ضد مختلف السفن، خاصة وقد أضحت الدولة تتحكم في عدة قطع من الأسطول. وكانت نتائج ذلك مشجعة خلال الموسم الموالي، الذي عرف على الأقل سقوط أربع غنائم فرنسية⁴، رغم ظروف الحصار والتغيير السياسي الذي شهدته السلطة مع خلافة مولاي إسماعيل لأخيه.

وقد أصبح العاهل الفرنسي لويس الرابع عشر أكثر إصرارا على وضع حد نهائي للجهاد السلاوي، بعدما توفى في ذلك إزاء نظيره الجزائري (1666) والتونسي (1672)⁵، في الوقت الذي كان فيه الرياس التابعون للخضر غيلان يعرقلون بشكل ملموس تجارة فاس وسلا، حتى كادوا أن يدفعوا برياس هذه الأخيرة إلى الانحياز إلى

¹ Les S. I. H. M - 2° série - France - T I - p 279.

² Ibid p 379.

³ Ibid p 288.

⁴ Ibid p 428.

⁵ Ibid p 474-75.

صفه لولا حيلولة قاندي المنطقة عبد القادر مورينو والحسن بن محمد سكيريدو دون ذلك¹.

وكانت هذه الظروف السلبية تنذر بفقدان المواسم الجهادية لقوتها، لولا بروز رايس جديد سيصبح في وقت وجيز من أشهر رياس مصب أبي رقران خلال مسيرته الجهادية، ونقصد بذلك عبد الله ابن عائشة²، الذي تمكن بفضل جراته وخبرته من إرجاء تدهور الجهاد السلاوي حتى آخر القرن³، مستعينا في ذلك بثلة من الرياس الشجعان، وعلى رأسهم أخوه عبد الرحمن، والرايسان القرطبي الأب والإبن، والرياس محمد قنديل ومحمد فنيش وغيرهم⁴. وقد تمكن ابن عائشة طيلة حياته الجهادية التي امتدت لأزيد من ربع قرن (1672-98م) من الاستيلاء على أزيد من ثلاثين سفينة⁵، محققا بذلك إنجازا مدهشا في فترة عرف فيها الأسطول السلاوي ظروفها غير ملائمة.

إن تراجع مقومات العمل الجهادي المتمثلة في إعراض أهالي المصعب عن الانخراط في تجهيز السفن والمشاركة في المواسم، قد جعل الأسطول يعرف نوعا من التقهقر الذي راح يتأكد موسما عقب آخر، وجعل السفن تحظى بطواقم غير مجربة وفاقة للحوافز المطلوبة لمثل هذه المغامرات، وذلك نتيجة رغبة مولاي إسماعيل في إخضاع مؤسسة الجهاد لإشراف الدولة. فقد ارتقت استفادة خزينة السلطة المركزية من الاقتصاد على الحق الشرعي المخول لها في خمس المغامرات (1/5)، إلى استغلال ملكية السلطان لنسبة من قطع الأسطول قاربت النصف من مجموع السفن منذ سنة 1671⁶، وتعززت عائداتها من وراء ذلك؛ وصار قوادها يراقبون مداخيل الحملات،

¹ Ibid - T II - p 71.

² عبد الله ابن عائشة: أمير البحر بسلا خلال الربع الأخير من القرن 17، ووزير البحرية على عهد مولاي إسماعيل. شرع في نشاطه الملاحي حوالي سنة 1672 وداوم عليه إلى حين قيامه بسفاراته الشهيرة لدى لويس الرابع عشر سنة 1698. نجح ابن عائشة في تحقيق مواسم إيجابية طيلة حياته الجهادية، باستثناء الفترة التي سقط فيها أسيرا في يد البورج الإنجليزية سنة 1684 قبل أن يعود المعامل الإنجليزي جاك الثاني إلى إطلاق سراحه إثر سفارة القائد محمد بن حدو إلى لندن، حيث مباشرة بعد عودته إلى سابق مهنته في نفس السنة سوف يتلقى من سلطانه التفاتة خاصة بتعيينه أميراً للبحرية عموماً، محتفظاً رغم ذلك بسفينته الخاصة في وقت أضحي فيه الأسطول كله في ملكية السلطة المركزية. وقد أنهى حياته المهنية بتعيينه وزيراً للبحر ومكلفاً بالعلاقات الخارجية قبل أن يوفده مولاي إسماعيل في سفارة إلى فرنسا سنة 1698 للتفاوض حول السلم ولطلب يد أميرة كوني باسم سلطانه.

³ Coindreau - Op. cit - p 199.

⁴ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T I - p 406-07.

⁵ Coindreau - Op. cit - p 70-75.

⁶ كانت الدولة في آخر عهد مولاي الرشيد تمتلك أربع قطع من مجموع السفن التسع التي كانت تشكل الأسطول العامل في تلك الفترة. انظر. Les S. I. H. M. - 2° série - France - T I - p 379.

ويخضعونها للاقتطاعات التي جعلت حقوق الخزينة تصل إلى أكثر من ثلثي قيمة المغام (70 %) ¹، وإلى تمام عائداتها البشرية (100 %) بجعل كافة الأسرى تحت تصرف السلطان ².

وقد كان لهذه الوضعية الجديدة تأثير كبير على مساهمة الخواص، وسببا في ابتعادهم التدريجي عن مواصلة تنشيط مجال اقتصادي كان إلى وقت قريب من اختصاصهم، كما دفع بالبشارة ذوي التجربة إلى العدول عن الاستمرار في المهنة مقابل الانخراط في مجالات اقتصادية بديلة، من جراء ضالة الأرباح التي لا توازي فداحة التضحيات المطلوبة في العمل. فافتقد الجهاد البحري بذلك إمداداته البشرية والتمويلية المفروضة من حيث العدد والكفاءة، مستبدلا ذلك بانفتاحه على بحارة جدد يفتقرون إلى الخبرة والتجربة اللازمتين في هذا المضمار، تميزوا بقساوة عيشتهم وبظروف عملهم غير المناسبة، وبانعزاليتهم عن المجتمع الحضري في إطار مجموعة مندمجة في ما بينها عرفت باسم " الطائفة " ³.

ومن جهة أخرى تعددت حركة البوارج الأوربية قبالة الساحل المغربي لتضييق الخناق على سفن الجهاد ولإلحاق خسائر ملموسة بها، لا سيما وأنها كانت تحظى بدعم رسمي وشعبي كبيرين، إلى درجة أن سقوط أية سفينة جهادية كانت تقابل في دول أوربا بفرح عارم على كافة المستويات ⁴. وزاد من حدة ذلك تطور صعوبة العمل الجهادي مع اشتداد نشاط رياس الجزائر في المياه المغربية، وبداية تعارضه مع أهداف السلطة المركزية العلوية، مما أدى إلى توتر العلاقات الرسمية بين البلدين، خاصة مع اندلاع قضية البستانجي وغيرها من العمليات الجهادية الجزائرية، التي كانت أن تدفع الطرفين إلى التصادم العسكري ⁵. وبالطبع ما كان لهذه الوضعية إلا لتؤثر على مسيرة الجهاد البحري السلاوي بحرمانه من مرسى الجزائر كقاعدة متوسطة تيسر عملية تصريف المغام بعيدا عن الملاحقات الأوربية ⁶، وبالتالي شجع

¹ Brignon Op cit p 247.

² Savine Op cit p 12.

³ Lex S I H M 2° série - France - T IV - p 705.

⁴ Ibid T I p 556-57.

⁵ Ibid T II p 612-13.

⁶ Ibid T III p 52.

هذا التباعد بين الحليين الطبيعيين السياسات الأوربية على المزيد من مراقبة حركة الملاحة بالمحيط الأطلنتيكي.

وفي ظل هذه الظروف كان نشاط ابن عائشة ذا أهمية قصوى منذ ثمانينات القرن، إذ يتمكن من الخبرة والدراية اللازمتين في هذا المضمار، وإطلاعه على حركة الأساطيل الأوربية، شرع في تنفيذ عمليات جريئة كانت أهمها مشاركته في الحملة الكبرى ضد السفن الإنجليزية التي حقق فيها الأسطول السلاوي ما ينيف عن الثلاثين غنيمة سنة 1682¹. ويعتقد أن هذا النجاح الاستثنائي هو ما دفع مولاي إسماعيل إلى تنصيبه أميرا للبحر في سنة 1684م² بمهمة الإشراف على الأسطول وتنظيم عملياته ومواسمه حتى إبان احتداد الضغوط الخارجية، وتطوير مردوديته من المغنم دون اعتبار للملاحقات الأوربية³.

وقد تحمل ابن عائشة هذه المسؤولية بشجاعة كبيرة مستفيدا من قوة الفريق الجهادي الذي كان يشترك معه في العمل، وذاع صيته بالخصوص في موسم 1691 من خلال النتائج التي حصدها، والتي بلغت أزيد من عشر غنائم⁴. ومن الواضح أن ابن عائشة أمام مبادرة البوارج إلى مراقبة المياه المغربية خلال فصلي الربيع والصيف لم يتورع على توسيع النطاق الزمني للمواسم الجهادية، بتمديد فترة الحملات إلى فصل الخريف⁵، رغم الضعف التقني الذي كانت تشكو منه سفن سلا، والخطورة الطبيعية التي كانت تمثلها أقاصير المصب خلال رداءة أحوال الطقس.

ولم تكن هذه الجهود كافية لإرساء معالم قوة بحرية فعلية، حيث أن تقلص الاهتمام البحري، واحتياج السفن إلى الأدوات والوسائل التقنية التي كانت توفرها تجارة التهريب من جراء شدة الحصار المفروض عليها، والعقوبات التي كانت تطول القائمين بها إلى درجة تعريضهم للإعدام⁶، جعل السفن السلاوية تبدو رديئة التجهيز وضعيفة التسليح، وفرض على السلطان اعتبارا لملكيته أكبر عدد من قطعها البحث في سبل تغطية الخصاص، مستغلا في ذلك رغبة الأقاليم المتحدة في الحفاظ على

¹ Ibid - T II - p 288.

² Coindreau - Op. cit - p 70-72.

³ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T III - p 27.

⁴ Coindreau - Op. cit - p 72.

⁵ Ibid - p 72-73.

⁶ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T I - p 472.

علاقتها التقليدية الجيدة مع المغرب، بحيث أضحي لا يتجاوب مع أمانيتها إلا بالقرن الذي كانت تستجيب فيه لمطالب الأسطول¹.

وبما أن المشكل التقني لم يكن يشكل إلا جزءا من الأزمة العامة التي كان يتخبط فيها الأسطول السلاوي، فإن هذه الجهود لم تؤد إلى النتائج المتوخاة مع استمرار فتور السلاويين واستنكافهم عن المساهمة في المواسم الجهادية إلا تحت الإلحاح الشديد للسلطة وتدابيرها الزجرية لإكراه المترددين منهم. وفقد العمل بذلك تلك الرغبة الشرسة في مهاجمة الآخر، وأضحت السفن تغادر المرسى وهي في وضعية رديئة جدارجالا وعتادا ومعنوية²، مما كان يخدم مصلحة القوى الأوروبية التي أفلحت أساطيلها خلال المواسم الأخيرة في تحقيق ما عجزت عنه قرابة قرن من الزمن، مؤدية بالجهاد البحري إلى معاناة مصيره النهائي. فقد تقلص عدد السفن العاملة في الأسطول الجهادي في موسم 1697 إلى أقل من خمس قطع³، ممكنا المراقبين الأوروبيين من التأكد من احتمال مواته خلال فترة زمنية منظورة⁴، لم تنفع معها جراحة ابن عائشة - الذي أنجز خلال الموسمين التاليين عمليات جريئة قدرت قيمتها الإجمالية بمائتي ألف ليرة⁵ - إلا بالظهور بمثابة صحوة قبل الموت. ويتضح أن تدهور الجهاد البحري خلال هذه الفترة تعود أسبابه إلى ثلاثة عناصر جديدة عاقت تطوره:

1- خضوعه لمراقبة السلطة المركزية بصورة أفقدته تماما استقلاليتها العملية التي شكلت الركيزة الأساسية لازدهار مواسمه.

2- التضيق الأوربي على تجارة التهريب بما كان يمثل من إعاقة للاستمرار في تمكين بنياته من تجهيزاته الضرورية، ومن فقدان لدعامته التقنية التي بتوقفها عرف

¹ في سنة 1694 لوح مولاي إسماعيل بخوار الحرب في وجه الأقاليم المتحدة، أمرا أسطوله بالتمرض لسفنها، وذلك لعدم استجابتها لمطالبه العسكرية والتجهيزية. وفي السنة الموالية اتخذ نفس الموقف، ولم يحل عن ذلك إلا في أواخر سنة 1696 بعد تيقنه من إرسال هذه الدولة للتجهيزات المطلوبة مع فصلها. أنظر: Les S I H M. 2^e série - France - T IV - pp 261, 349 et 437.

² Ibid - p 300.

³ Ibid - p 706.

⁴ كتب للتصل الفرنسي إيستيل عند تعرضه لأزمة الجهاد البحري في سنة 1697 أنه يتبا بتجهيز هذا النشاط في غضون ثلاث أو أربع سنوات. أنظر:

Ibid p 593.

⁵ Ibid - p 709.

توقفا للتطور الموازي لتطور الملاحة العالمية، الأمر الذي جعل مؤسسة الجهاد تسقط في تخلف واضح على مستوى السفانة والعتاد والذخيرة.

3- حركات الردع الملاحية الأوربية المتولدة عن انفراج الخريطة السياسية في أوروبا عقب حرب الثلاثين سنة، وصعود الأنظمة القوية الراغبة في الزعامة العالمية، في فرنسا لويس الرابع عشر، وفي إنجلترا كرومويل ومن بعده جاك الثاني، وبالتالي كانت هذه الأنظمة ترى ضرورة فرض هيمنتها على كل ما من شأنه المساس بسيادتها وبكبريائها، أو عرقلة مصالحها الاقتصادية في المحيط الأطلسيكي.

ولا شك أن التحولات الداخلية لمنطقة مصب أبي رقران كانت أساس المتغيرات التي أعاقلت استمرارية ازدهار الجهاد البحري، ذلك أن السلطة المركزية في ملاحظتها لقوة المداخل المجنية من مواسمه فكرت في اتخاذ سبل استقرار هذه العائدات والانفراد بها من خلال تدرجها في امتلاك الأسطول¹، وأضحى توجيه الحملات غير خاضعا للارتجال الحر - عصب خيار العمليات - وإنما يتم بأمر من المركز، وحسب جنسيات السفن المصادفة في البحر. كما أن استغلال مغنم الجهاد البحري انتقل من أيدي الفاعلين إلى يد السلطان لا بصفته عاهلا شرعيا فحسب، وإنما أيضا كعمول وصاحب أدوات العمل، يتلوه في سلم المستفيدين قواد المرسى ورياس السفن، مما لم يكن يترك في أيدي التقنيين والبحارة المقاتلين - القسم الأكبر من المشاركين - إلا النزر اليسير للاقتسام، بما لا يوازي مخاطرتهم بحياتهم خلال المواسم². فصاروا بذلك يعملون على متن السفن كأجراء لا تتعدى قيمة رواتبهم المضمونة - حسب القنصل إيستيل - حاجز العشرين فرنكا³، الأمر الذي كان له أثر كبير في إعراضهم عن العمل، وأصبحوا لا يشاركون في العمليات إلا تحت الضغط والإكراه.

ورغم الاستفادة النسبية للرياس، فإن الامتيازات السابقة التي كانوا يتمتعون بها قد تقلصت إلى درجة انعدامها، وأساسا بعدما صار الأسرى حكرا على السلطان، حيث كان يصادهم مقابل تعويض يبلغ خمسا وسبعين ليرة عن الرأس يؤدي للرياس⁴، في

¹ Monlaü - Op. cit - p 120.

² Caillé: "La ville de Rabat..." - Op. cit - p 276.

³ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T IV - p 705.

⁴ يشير بنز إلى أن هبة السلطان عن كل أسير كانت تصل إلى خمسة وعشرين إيكوس تمنح للرياس صاحب الإنجاز، وهو ما يعادل خمسا وسبعين ليرة. انظر: Penz - Op. cit - p 13.

وقت كان فيه السعر العادي يتراوح بين الستمائة ليرة والألف وخمسمائة. وحتما كان من شأن هذه الوضعية أن توصم العمل الجهادي بطابع التدهور والانحيار موسما بعد

آخر. إن المنافسة بين الدولة والخواص في هذا الصدد لم تكن متكافئة، لا على مستوى التمويل ولا على مستوى النتائج، ولهذا ارتد الممولون التقليديون عن دورهم لفائدة السلطة، وارتفعت بذلك نسبة ملكيتها للأسطول من 44 % (9/4 سفن) سنة 1671¹ إلى 85 % (7/6 سفن) سنة 1698²، دون أن يؤدي ذلك إلى الزيادة في حجم الأسطول، وإنما كانت الزيادة على حساب سفن الخواص. ولم يرفع هذا التقلص من حجم الكفاءات، وإنما اتسمت غالبية السفن بالرداءة في التجهيز وفي التسليح، لأن القواد المكلفين بذلك كانوا يجهزونها كيفما اتفق، حتى أنه "إذا ما توفرت لبحارتها كمية من البارود وقذائف لإطلاق ثلاث طلقات إلى أربع لكل مدفع اعتبر ذلك تسليحا جيدا"³.

وكما سبق الذكر، يسرت هذه الوضعية السلبية مأمورية المواجهة الأوربية للجهاد البحري، وجعلتها تتحكم رويدا رويدا في الوضع الملاحى بالأطلنטיكي عن طريق مراقبتها المكثفة لمسارح العمليات، أو بتركزها قبالة الساحل المغربي ومصب أبي رفران والقواعد الأخرى الملحقة به، كما بتشديد رقابتها على تجارة التهريب، وبالتالي كانت نتائج ذلك وخيمة على عدد من السفن الجهادية التي لم تستطع أورايش البناء بالمعمورة من تطويره من جراء الخسائر المتكررة موسما بعد آخر، وحتى ما تبقى منها ظل في حاجة ماسة إلى العتاد والتجهيز الملاحى، إلى درجة دفعت بالرياس إلى نغطية خصاصهم من المادة التقنية باستغلال أدوات ووسائل ملاحية السفن الغنيمة، ولغفت شدة الحاجة بأمر البحر نفسه إلى نهب إحدى السفن التجارية الراسية بسلا لتطعيم مركبه الجديد سنة 1696⁴.

¹ Caillé - Op. cit - p 291.

² Les S. I. H. M. - 2^e série - France - T IV - p 705.

³ Ibid p 706

⁴ Ibid p 433.

¹ Monlaü -

² Caillé: "La

³ Les S. I. H.

ساحب الإنجاز،

3 - التصعيد الأوروبي الأخير

أدى تضرر الملاحة في المحيط الأطلنטיكي وفشل المساعي السياسية خلال منتصف القرن إلى تصعيد الدول لمواقفها قصد إيقاف النزيف الاقتصادي الذي تتسبب فيه العمليات السلاوية، وتوجهت أساسا إلى تكثيف حملاتها العسكرية للقضاء على حركية الرياس؛ الأمر الذي جعل الربع الأخير من القرن يشهد حضورا مكثفا للبوارج الأوربية المتنوعة، وفرضا لحصارها لمرسى سلا بلغ في المجموع ستة عشر حصارا¹، رغم التكاليف الباهظة التي كانت تتطلبها تلك الحملات البحرية، والتي كانت تمول من الضرائب المفروضة على الملاحة التجارية، وكان التجار يقبلون على أدائها بصدر رحب².

وإلى جانب هذه الضغوط المباشرة، شددت الأساطيل العسكرية من مراقبتها للخطوط الملاحية والنواحي البحرية المرتداة من طرف رياس الجهاد، واستغل ذلك كدبير وقائي بهدف الضغط على السلطات المغربية، وإجبارها على القبول بالاتفاقيات والمعاهدات التي من شأنها أن توفر الأمن لملاحتها، وتسعى أحيانا إلى إضفاء مشروعية مقننة على الجهاد البحري السلاوي. ولتدعيم هذه المواقف كان لزاما على الدول الأوربية، وخاصة فرنسا وإنجلترا، تنظيم حصارات اقتصادية شديدة شملت أحيانا عموم البضائع، بما كان يؤدي إلى شلل النشاط التجاري في سلا³، ولكنها كانت موجهة في الغالب للتصديده لتهريب الأسلحة والتقنيات على متن السفن الهولندية، بشكل جعل من النجاح في مصادرة سفن هذه الأخيرة واعتراضها سببا رئيسيا في تدهور الأسطول السلاوي.

وكان من نتائج البروز المتجدد للعمليات الجهادية على عهد مولاي الرشيد التضيق على السفن الإنجليزية وإلحاق الضرر بمصالح تجارها، فأصبح مفروضا على الإنجليز مخاطبة ود السلطان من أجل التوصل إلى سلم يكفل لهم حرية التجارة

¹ توزعت هذه الحصارات على كل من فرنسا بسبعة حصارات، وإنجلترا بخمسة، والبرتغال بثلاثة، والأقاليم المتحدة بحصار واحد.

³ للضغط على المغرب أصدر لويس الرابع عشر في يوليو 1687 أمرا يحظر فيه المعاملات التجارية بين فرنسا والمغرب، بيد أن هذا لم يتم التقيد به لخشية التجار الفرنسيين من استغلال منافسهم لذلك للانفراد بالسوق المغربية. وقد تم التراجع عن هذا الأمر رسميا في أكتوبر من السنة الموالية. انظر: Les S. I. H. M. - 2° série - France - T III - p 179.

² Coindreau - Op. cit - p 168-69.

ة خلال
تتسبب
اء على
لبوارج
ة عشر
والتى
ن على

اقتبها
ذلك
فاقيات
ضفاء
على
مملت
كانت
دية
ما في

شيد
ضا
ارة

متحدة

2 Co
نسا
بية
Les

مع المغرب، ويلزم بالتالي على الرياس وضع حد لحملاهم ضد ملاحتهم التجارية؛ الأمر الذي نجح فيه السفير اللورد هنري هوارد (H. Howard) جزنيا سنة 1669، حينما أمر مولاي الرشيد بالانصياع لهذه الرغبة، وبرد المغامم الإنجليزية وحمولاتها وطواقم سفنها التي تم الاستيلاء عليها أثناء فترة المفاوضات¹، دون أن تعرف هذه المعاهدة صيغة الاستمرارية من جراء عدم تطابق وجهات النظر حول شروط السلم. وبالنظر إلى النجاح المتكرر الذي راح الرياس السلاويون يحققونه في مواسمهم العملية، شهد مصب أبي رقراق في السنة الموالية (1670) ثلاث حصارات متزامنة، كان الغرض من الفرنسي والإنجليزي منها تعقب السفن الجهادية²، في حين تكلف الحصار الهولندي بقيادة الأميرال فان غنط (Van Gent) بمهمة تدعيم المفاوضات الجارية من أجل تجديد المعاهدة المغربية-الهولندية لعام 1658م، والتي كان يجريها آنذاك القنصل يان سميث هيندورب (J. S. Heppendorp) مع قواد مولاي الرشيد³.

ويبدو أن هذه الضغوط لم تقض إلى نتائج ملموسة، حيث باذر لويس الرابع عشر إلى إصدار أوامره باستمرار الحرب البحرية ضد الرياس السلاويين، باعنا لهذا الغرض أسطولا قويا تحت إشراف الأميرال ديتري في سنة 1671⁴، وتمكن من عرقلة موسم الجهاد وإتلاف أربع قطع جهادية، بشكل كاد أن يدفع رجال الجهاد إلى استخلاص الثمن من السفن التجارية الفرنسية الراسية بمرسى سلا الجديد لولا معارضة السلطان لهذا الإجراء، وكان يرى فيه ضربة قوية للتجارة الخارجية التي رغب في استمراريتها كمورد جمركي هام لفائدة السلطة المركزية.

وكان من شأن هذا النجاح الأولي أن يدفع بالعاهل الفرنسي إلى اتباع نفس النهج في السنة الموالية، بغية إظهار صرامته وحزمه في تهريب رجال الجهاد، مصدرا أوامره بمطاردة السفن السلاوية ومصادرتها أينما وجدت⁵، وعاملا في الوقت نفسه على الظهور بمظهر الراغب في إقامة علاقات شرعية جيدة مع السلطة العلوية ونظيره مولاي إسماعيل، حيث طالب هذا الأخير بتأمين التجارة الفرنسية في المغرب

¹ قدم السفير المذكور شكوى بخصوص الانتهاكات التي تعرض لها تجار بلاده بسلا، وقد أظهر السلطان امتعاضه وأسنه لذلك، وعززه باعتقال أحد قوادها الحاج الزبدى قبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام في مارس 1670. انظر: Ibid - T1 - p 288

² Caillé - Op. cit - p 292.

³ Lex S. I. H. M. - 2^e série - France - T1 - p 301-02.

⁴ Ibid - p 348.

⁵ Coindreau - Op. cit - p 190.

وحماية سفنها الوافدة على سلا. وقد وافقه السلطان على ذلك شريطة توفرها على جواز القدوم إلى المغرب¹.

والملاحظ أن حركة البوارج الأوربية في هذه الفترة لم تمنع السفن الجهادية من تكثيف عملياتها، ومن ثم ظهور حصاراتها بمظهر القشل في تحقيق أي ضغط ملموس، لا سيما وأن سياسة الجهاد قد فرضت على الفاعلين الإعراض عن مهاجمة سفن الدول المحاصرة للمصب، مقابل توجيه حملاتها ضد سفن الدول الأخرى. فخلال سنوات السبعين لم تكن السفن الفرنسية تهاجم إلا لماما، في الوقت الذي صارت فيه السفن الإنجليزية أكثر عرضة لضربات الرياس السلاويين، الذين استفادوا من اعتلاء الأسطول التجاري الإنجليزي لعرش الملاحة العالمية منذ صدور قانون الملاحة لسنة 1651². إن هذا ما سوف يجبر إنجلترا إلى القيام بمساعي دبلوماسية لدى مولاي إسماعيل من أجل وضع حد لحرب الاستنزاف المفروضة على مصالحها، هادفة إلى التوصل إلى توقيع معاهدة سلم، معززة جهودها الدبلوماسية بتحركات عسكرية استعراضية سنة 1676 قصد الضغط على خيار المغرب، الشيء الذي تحقق لأميرال أسطولها جون ناربوروه (Narborough)³.

وقد زاد التصعيد الأوربي حدة منذ سنة 1680 نتيجة ترسخ الجهاد البحري كأساس محوري في العلاقات المغربية-الأوربية، خاصة لدى الجانب الفرنسي الذي أصبح يرى في سقوط كل غنيمة فرنسية استفزازا كبيرا يستوجب الرد عليه بتجهيز الحملات ضد مرسى سلا الجديد. فقد كلف في هذه السنة القائد شاطورونو (Ch. Renaud) بالتضيق على سلا وعلى أسطولها، مستفيدا من الدعم المرحلي الذي كان يقدمه له الأميرال ديتري⁴؛ ولم يتوان رونو في قصف المدينة من أجل إجبار المغرب على القبول بالمقترحات الفرنسية الخاصة بمعاهدة السلم⁵. وأمام تأخر الرد المغربي جدد الأسطول الفرنسي حصاره لمصب أبي رقران في صيف السنة الموالية، وحقق خلاله نجاحا هاما تمثل في إتلاف أربع سفن جهادية وأسر ثلاثمائة بحار من

¹ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T I - p 425.

² Alba - Op. cit - p 222-23.

³ Coindreau - Op. cit - p 191.

⁴ كان أسطول الأميرال ديتري مكلفا بالتوجه إلى جزر أمريكا لغفر السفن التجارية الفرنسية، في حين كلف شاطورونو - إلى جانب مهمته المذكورة - بنقل تصاميم لميناءي سلا وأسفي قصد الوقوف على بنياتها وتجهيزاتها الدفاعية. انظر: Les S. I. H. M. - 2° série - France - T I - p 480-87.

⁵ Ibid - p 484-85.

طقة توفرها على

من الجهادية من

قيق أي ضغط

عن مهاجمة

لأخرى. فخلال

ي صارت فيه

وا من اعتلاء

الملاحة لسنة

ة لدى مولاي

ها، هادفة إلى

بات عسكرية

فقق لأميرال

هاد البحري

رني الذي

عليه بتجهيز

باطو رنو

حلي الذي

أجل إجبار

تأخر الرد

ة الموالية،

بحار من

1 Les S. I. I.

2 Alba - O

3 Coindreau

شاطر رنو

تها الدفاعية.

5 Ibid - p

طواقمها، مستفيدا من المساهمة الناجحة للقراصنة الفرنسيين¹، الشيء الذي جر المغرب إلى الموافقة على اتفاقية المعمورة لسنة 1681م²، وهي الموافقة التي أصبحت في ظل تحول ميزان القوة لفائدة الأسطول الفرنسي عديمة الجدوى بالنسبة للعاهل الفرنسي.

لقد رأى لويس الرابع عشر أن تصديقه على هذه المعاهدة يعد مساسا بسمعة فرنسا وبهيبة قدره، لأن بنودها تضع الطرفين على قدم المساواة. ولذلك أمر قواده بمواصلة الضغط العسكري على الأسطول المغربي إلى حين قبول مولاي إسماعيل بمعاودة سلم جديدة تتلاءم شروطها وعظمة فرنسا³. ونتيجة لذلك أوفد السلطان سفارة مؤلفة من الحاج محمد تميم والحاج علي معنيو إلى فرنسا⁴ (سبتمبر 1681م مارس 1682) بمهمة التوصل إلى اتفاق يراعي مصالح الطرفين، تناولت بنودها تنظيم العلاقات بين سفنهما، وضمان سلامتها في مراكزهما الملاحية، والعقوبات المفروضة على التجاوزات والانتهاكات التي تتعارض والبنود المتفق عليها⁵.

وكلفت هذه السفارة فضلا عن ذلك بالتباحث في مسألة الأسرى السلاويين المسخرين في التجذيف على متن القوادم الملكية، بيد أن حاجة لويس الرابع عشر إليهم حالت دون تحقيق أي نجاح، وهو شيء حاول الإنجليز استغلاله كفرصة للتقرب من مولاي إسماعيل، بمبادرتهم إلى تسريب إشاعة عن سوء استقبال فرنسا للدبلوماسية المغربية، مؤثرين على الرياس السلاويين، ودافعين بهم إلى القيام بأعمال انتقامية ضد الملاحة الفرنسية بسلا⁶؛ كما تمكنوا من جهة أخرى من إقناع مولاي إسماعيل بإيفاد سفارة مماثلة إلى لندن (سفارة أحمد بن حدو العطار) من أجل توقيع معاهدة سلم شبيهة بالمعاهدة الفرنسية، والتي يبدو أن حماس المغرب إليها لم يكن فعليا مادام الرياس قد واصلوا ملاحقاتهم للسفن الإنجليزية منذ عودة العطار من سفارته⁷.

¹ Coindreau - Op. cit - p 167-68.

² وقع هذه الاتفاقية القائد عمر بن حدو عن الجانب المغربي، وأنطوان دو لا بار (A. de la Barre) عن الجانب الفرنسي. انظر: Les S. I. H. M. - 2° série - France - T I - p 584-52.

³ Ibid - p 560-61.

⁴ خلافا لما هو شائع، يذكر الفرنسي دو سان أمانس (De St. Amans) في مذكراته لسنة 1683 بأن القائم الرنيسي بهذه السفارة هو الحاج معنيو. انظر: Ibid - T II - p 332.

⁵ Ibid T I p 608-27.

⁶ Penz Op. cit p 108.

⁷ Coindreau Op. cit - p 192.

مما فرض على البوراج الإنجليزية العودة مجددا للمرابطة قبالة الساحل المغربي ما بين سلا وأسفي طيلة الثلاث سنوات الموالية (1682-84).

ومع توصل فرنسا وإنجلترا إلى إقامة علاقات قانونية مع المغرب، بادرت الأقاليم المتحدة من جهتها إلى التقرب من مولاي إسماعيل لضمان أمن ملاحتها التجارية، لا سيما وأنها ظلت الدولة الأوربية الأقرب سياسيا إلى المغرب، والأمن صداقة مع رياس مصب أبي رقرق، ولم تتراجع أهميتها إلا نتيجة تقلص دورها في تموين بنية أسطول الجهاد، مما جعل سفنها تتعرض هي الأخرى لهجمات الرياس السلاويين. وعلى هذا الأساس كان مسعاها الدبلوماسي مرهونا بمواصلة دعمها للسفانة المغربية، ولم يتم توصلها إلى تحقيق معاهدة سلم جديدة في ماي 1683 إلا بناء على التزامها بالدور المنوط بها¹، وهو الذي سوف يكون المقياس الأوحد لتقربها من المغرب حسب قوة أو ضعف إمداداتها.

وبفعل النجاح السياسي المتحكم في توجيه نشاط الجهاد البحري، وخضوع الرياس لإملاءات السلطة المركزية، شكلت هذه الفترة مرحلة ركود ملحوظ في حدة العمليات وكثافتها، وأضحت السفن السلاوية تصادف المراكب الأجنبية دون أن تلحق بها أي أذى احتراماً لبنود المعاهدات المتعددة²؛ وحتى الهجمات التي كانت تشنها على بعض السفن الإنجليزية كانت نتائجها سلبية على الأسطول المغربي من جراء الحضور المستمر للأسطول العسكري الإنجليزي، الذي تمكن في سنة 1684 من التصييق عليه، إلى درجة إجبار سفينة أمير البحر ابن عائشة على الجنوح بعدما تمكن من أسر العدد الأكبر من طاقمه³.

وقد أنتت هذه الفترة لتدعم السياسة الإنجليزية الرامية إلى التوصل إلى نفس النتائج التي حصلت عليها فرنسا، فشددت بوارجها الحصار على مرسى سلا الجديد بصورة متفاقمة قبل انطلاقة موسم العمليات حتى نهايته بغاية منع الرياس من الإقلاع نحو مسارح نشاطهم، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع حدة العداء المغربي ضد الإنجليز،

¹ في سنة 1684 بلغت قوة هولندية إلى سلا حاملة هدايا إلى مولاي إسماعيل، كان الهولنديون قد وعدوه بها بعد المصادقة على بنود المعاهدة، وكانت عبارة عن مواد عسكرية متنوعة. انظر: Les S. I. H. M. - 2° série - France - T II - p 451-52

² Ibid - p 391.

³ في يوليو 1684 استولى الإنجليز قرب سلا على السفينة السلاوية التي كانت تحت قيادة عبد الله ابن عائشة، ويعتقد بأنه تمكن من الإفلات من الأسر. انظر: Ibid - p 426-27 et T IV - p 507.

وما تلاها من ردود فعل قوية للسلطان، الذي أمر بطرد رعاياهم وتجارهم من سلا ومن باقي المراكز المغربية الأخرى¹، وكان من نتائجها إقدام الأسطول الإنجليزي على القيام بعمليات خاطفة في يوليو 1685م استهدفت إحراق السفن الراسية بالمعمورة².

وبمقابل مواصلة السفن السلالية لا اعتداءاتها على الملاحين الهولندية والإنجليزية ولو بشكل محدود، ظل الرياس متقيدون باحترام مقتضيات معاهدة السلم مع فرنسا، إلى حين بروز قضية البستانجي وتطور النشاط الجزائري في المحيط قبالة الساحل المغربي³، إذ ولد ذلك لدى لويس الرابع عشر الرغبة في التصدي لكافة الانتهاكات المفترقة من طرف الرياس السلاليين إبان فترة السلم، وبعث في هذا الشأن الأميرال ديتري للتفاوض مع السلطات المغربية في المسألة الملاحية وقضية الأسرى⁴، معززا دوره الدبلوماسي بتكليف القائد مورتمارت بقيادة قوة بحرية عسكرية لمهاجمة الأسطول المغربي سنة 1686⁵. ولم يكن هذا مؤشرا حقيقيا عن طبيعة العلاقات المغربية-الفرنسية المتسمة على العموم بجودتها، إذ سرعان ما عادت الأمور إلى وضعها الطبيعي، وظلت السفن التجارية الفرنسية لا تمثل إلا نسبة ضئيلة في مغنم الجهاد البحري السلالي.

وقد كان من الطبيعي أن تتواصل مساعي الدول الأخرى لبلوغ نفس الامتيازات، واستعملت في ذلك شتى الوسائل. إذ استمر الإنجليز في فرض رقابة مشددة على مجالات النشاط الجهادي دون أن يتمكنوا من كبح جماح الرياس السلاليين من جهة، وزاد شوقهم تحرقا للوصول إلى اتفاق مع مولاي إسماعيل من جهة أخرى⁶. أما الأقاليم المتحدة فقد بادرت إلى اتباع مختلف السبل القمينة بالحفاظ على علاقات سلمية مع المغرب، مبادرة إلى تلبية طلباته العسكرية سنة بعد أخرى⁷، وجارة بذلك حلق

¹ Ibid - T III - p 451.

² تذكر إحدى الوثائق الفرنسية الصادرة في يوليو 1685 بأنه إثر حصول الأسطول العسكري الإنجليزي على معلومات من بعض الأسرى حول إمكانية إحراق السفن الراسية بالمعمورة، أوفد ليلا بعض زوارقه التي نجحت في اتلاف مركبين مغربيين، وفي إطلاق سراح بعض الأسرى دون أن تلحق بها أضرار بشرية. انظر: Ibid - p 521-22.

³ Ibid - T II - pp 554-56, 561 et 612-13.

⁴ Penz - Op. cit - p 141.

⁵ سوف يعود القائد مورتمارت في حملة جديدة على الساحل المغربي في السنة الموالية، لكن تدهور الجهاد البحري جعل حصاره دون جدوى. وقد انتهت هذه المواجهات بمقتضى اتفاقية هدنة جديدة في ماي 1689 لحل المشاكل العالقة، وللإكيد على استمرارية روح معاهدة 1682. انظر: Ibid - T III - p 645, T II - 2° série - France - pp 58-59, 60-64 et 120.

⁶ Ibid - T III - p 27 et note.

⁷ Ibid - T II - pp 644 et 652.

الإنجليز الذين أصبحوا يلاحقون سفنها المهربة للمواد الاستراتيجية ومصادرتها، غايتهم في ذلك حرمان الأسطول المغربي من فرص استمراريته وتطوره¹؛ وربما كان هذا الهدف سببا في إصدار الملك الفرنسي - هو الآخر - الأمر إلى تجار بلاده بالامتناع عن التعامل التجاري مع المغرب في سنة 1687².

وخلال هذه المرحلة التي شهدت حضورا قويا للقوات الأوروبية بمقابل الضعف والانحلال الذين صاروا يبدان في الجهاد البحري، انضمت القوة البرتغالية إلى مصاف البوارج المراقبة لتحركات الرياس، حينما تمكنت سفنها القيام لأول مرة بمجابهة ناجحة لهجوم جهادي في سنة 1691، واحتفل بعودتها سالمة إلى لشبونة وسط مظاهر الفرح، واعتبرت بمثابة نصر كبير في الأوساط الرسمية³. وقد أردفت البرتغال ذلك بتوجيه حملة بحرية ضد سلا والقواعد الساحلية، لم يكتب لها النجاح، لضعف الخبرة والتجربة الذي كان جليا على مستوى فعاليتها، إلى درجة جعلت أحد الدبلوماسيين يصفها بأنها لم تكن إلا تضییعا للمال⁴.

ولم يثن هذا عزم المسؤولين البرتغاليين على تأمين سلامة ملاحتهم، بقيامهم بين الفينة والأخرى بحملات جديدة ضد مرسى سلا الجديد، لا سيما بعد سقوط غنيمة برتغالية في يد الراجس روساي سنة 1694، كان من بين أسراها حاكم الأصور. إذ مباشرة بعدها توجهت قوة بحرية مكونة من ست بوارج لمحاصرة مرسى المعمورة وسلا للتوصل إلى إطلاق سراح الأسير المذكور، بيد أنها لم تكن بأحسن حال من سابقتها، إلى درجة انسياب أربع سفن جهادية إلى المرسى تحت أنظار البرتغاليين⁵؛ ورسخت لدى السلاويين صورة البرتغاليين الجبناء⁶ رغم ما حاولوا إظهاره من قوة خلال حملة ثلاثة في نفس السنة، توجهوا بقصف قصبة سلا مرتين دون جدوى⁷.

لكنه أمام تدهور المواسم الجهادية وتقلص الكفاءة التقنية للأسطول، وارتفاع حدة الضغوط الأوروبية، لم تبق لمولاي إسماعيل إلا محاولة إخراج الجهاد البحري من

¹ في سنة 1688 أقدمت سفينة حربية إنجليزية بمصادرة مركبين هولنديين يحملان شحنة من الأسلحة والمواد المهربة الأخرى إلى المغرب. انظر: *Ibid - T III - p 155-56*.

² *Ibid - p 179*.

³ *Ibid - p 393-94*.

⁴ كتب القنصل الفرنسي بلشبونة عن ذلك قائلا: "إن البرتغاليين كانوا أثناء حملتهم حينما يبصرون الجزائريين من جهة يلوون رؤوسهم إلى الجهة الأخرى، كأنهم لم يروهم قط". انظر: *Ibid - p 492*.

⁵ *Ibid - T IV - p 284-300*.

⁶ كان أطفال المنطقة يصرخون عاليا عند رؤيتهم للسفن البرتغالية قائلين: "انظروا ماذا أتى يفعلُه دجاج البحر". وهو اللقب الذي كان المغاربة يطلقونه على البرتغاليين. انظر: *Coindreau - Op. cit - p 196*.

⁷ *Les S. I. H. M. - 2° série - France - T IV - p 416-21*.

البلو البحري مصب أبي ررلان

مازقه بالضغط مرة أخيرة على الأقاليم المتحدة لتمكينه من الأسلحة والأدوات التقنية الضرورية، وبفرض أداء حقوق رسو السفن التجارية بمراسيه بكميات عينية من البارود²، بيد أن فشل كل هذه الإجراءات رغم الإمدادات الهولندية الأخيرة³، وتعرض الدول الأوربية - وعلى رأسها فرنسا - لخسائر الحقت بها من طرف الرياس السلاويين خلال صيف 1698، وما أصبحت تلوح به من أعمال انتقامية عنيفة، جعلت مولاي إسماعيل يضطر إلى دفع أمير البحر ابن عائشة إلى معانقة المجال الدبلوماسي، مرخصا له صلاحية التفاوض مع الدول الأوربية في كل ما يمت إلى المجال الملاحي⁴، وباعثا إياه في أكتوبر من نفس السنة سفيراً إلى فرنسا بمهمة التوصل إلى اتفاقية سلم مع لويس الرابع عشر، وهي المهمة التي لم تكمل بالنجاح من جراء تباین وجهات النظر في مسألة الأسرى⁵. وبدخول ابن عائشة إلى الميدان السياسي والإداري مبتعداً عن مجاله التقليدي تسارعت خطوات الجهاد البحري نحو الانهيار النهائي، رغم بروز عمليات متفرقة بعد ذلك، لن ترق بأية حال إلى مستوى ازدهاره السابق.

¹ قدم مولاي إسماعيل مرارا على إجبار هولندا على توفير حاجياته الملاحية والصكرية خلال الفترة الممتدة من سنة 1692 إلى 1696. انظر: *Ibid* - T I - T III - pp 450, 461, T IV - pp 261, 349 et 437.

² *Ibid* - T IV - p 258-60.

³ في يناير 1698 وصلت سفينتان هولنديتان إلى مرسى سلا الجديد محملتين بشحنة مهمة من المبال والأثواب والأسلحة التقنية الخاصة بصناعة الأشرعة، وكذا بفوهات البنادق والسيوف والبارود وعدد كبير من المواد المهربة، والتي كان السلاويون في حاجة شديدة إليها، الأمر الذي يفسر إلى حد ما النجاح الهام الذي حققه الموسم الجهادي لصيف 1698 انظر: *Ibid* - p 593.

⁴ *Ibid* p 677.

⁵ Coindreau - Op. cit - p 199-200.

الباب الرابع

المجتمع الجهاد بمصب

أبي رقرق نموذجاً

إن طابع التعدد والتنوع الذي ميز مجتمع المصعب من حيث أصوله العرقية، وما رافقها من مظاهر حضارية ودينية مختلفة، نتيجة انفتاحه على الآثار البشرية المتولدة عن الطرد الإسباني للجالية الأندلسية، قد جعل من الجزء المستقر من هذه الفئة يبدو - إلى جانب موجات العلوج المتدفقة عليهم - ماثلا إلى حد كبير لوضعية رجال الجهاد بالجزائر وتونس وطرابلس من عناصر تركية وعلوج¹، سواء على مستوى تكتلاتها وتلاحمها بعيدا عن العناصر البشرية الأصلية، أو على مستوى انتقائها لفعل اقتصادي ومجاله البحر ومداه الشاسع، مستغلين ضعف التواجد العملي للعنصر الأصلي فيه، ومستفيدين من تركيزهم بمناطق حضرية ساحلية تدعم بروز هذا المجال البحري وكشاش منبني على عناصر غير تامة الاندماج في وسطها الاجتماعي من جهة، وكجمال متعلق ببنية حضرية ويفترض ساكنة قارة.

بل إن الجهاد البحري أضحي - كنشاط ملاحى - أساس حياة المدينة، وأصبحت مرماه الرنة الفعلية لنموها وازدهارها، وأثر ذلك على التوجه العام لمعمارها خاصة في الحواشي المشرفة على الحدود المائية، لتبدو أشبه بنطاق عسكري يقوم بدور الخلفية الدفاعية بمهمة حماية المرسى، وتغطية انسحاب أليات الجهاد ورجاله نحو الداخل النهري.

وقد واكبت هذه المميزات خصائص اجتماعية فرضتها طبيعة القانمين بالجهاد، منها ما هو متداول على الصعيد الإسلامي العام، ومنها ما كان وليد الاستقرار الأندلسي ويخالف جزئيا أو كلياً ما يحيط به، سواء على مستوى العادات أو التقاليد أو العلاقات الاجتماعية؛ بل وأيضا في الحرص الذي أبداه الأندلسيون إزاء الحفاظ على نظمهم السياسية والإدارية التي ألفوها، والتي كانت تبدو أكثر علمانية عما هو مألوف في مغرب القرن 17م، مستمدين قوة ذلك من غناهم عن أي تعايش مع المحيط. ولن ينتهي التباعد القائم بين نمط العيش في المجتمع الجهادي الأندلسي بسلا الجديد والنمط المحافظ المغربي بسلا البالي إلا بتوصل العدوتين إلى تعايش مفروض بمجرد انخراطهما في مناطق نفوذ الإمارة الدلانية أولا، وذوبانهما بعد ذلك في الوحدة

¹ Montlau - Op. cit - p 77.

السياسية للمغرب خلال عهدي مولاي الرشيد ومولاي إسماعيل، مع بداية انغراس جذور العنصر الأندلسي وتدرج التحامه بباقي عناصر المنطقة القدامى، إلى درجة ظهور اندماجه بصورة شبه نهائية في المجتمع المغربي في نهاية القرن، بدليل غياب أي مظاهر اضطراب بالمنطقة طيلة الفترة العلوية آنذاك.

وبمقابل الاهتمام الكبير الذي كان المجتمع الجهادي يوليه للمجال البحري، كانت الأنشطة الإنتاجية الأخرى التي انشغل بها رجاله خلال فترات ما بين المواسم، أو طوال السنة بالنسبة للعناصر الأخرى لا تختلف عما كان معمولاً به في المدن الجهادية، حيث أن حياة الرياس والبحارة الملاحية كانت تجد امتداداً لها داخل الحدائق والبساتين، وكان اهتمامهم برعايتها والاعتناء بها شديداً، لا سيما وأن الأندلسيين كانوا أهل خبرة ودراية كبيرتين بهذا المجال، واستفادوا من تملكهم لطاقت نشيطة غير مكلفة مثلها جموع الأسرى. وكان هذا عاماً بالعدوتين، وجعلهما تبدوان كمجال حضري يمتزج فيه المعمار بالبستنة.

على أنه لوحظت محافظة سلا البالى على دورها كمركز يستمد قوته الاقتصادية من الأنشطة الفلاحية لسكانته بانفتاحه على المجال الممتد ما وراء الأسوار نحو أراضي الولجة بالأساس، وهو ما كان غير متوفر لسكان سلا الجديد الذين كانت أسوار رباط الفتح تشكل نهاياتها القصوى، الأمر الذي جعل العدوتين وكأنهما قد وزعتا ضمنياً مجاليهما الحيويين، أحدهما باتجاه المحيط المائي، والثاني باتجاه الداخل القاري، مع اشتراكهما في استغلال الحدود المائية الماثلة في النهر باعتباره المنفذ الأوحـد لتنظيم المبادلات مع الخارج، لا بالنسبة للمنطقة فحسب، وإنما لجزء مهم أيضاً من مناطق المغرب التي كان مرسى سلا الجديد يشكل بوابتها الرئيسية.

وقد كان لهذه الوضعية أثر كبير في احتضان المنطقة لعناصر مسيحية مختلفة قدمت إليها مصلحياً، من قناصل وتجار ومبعوثين ورجال دين، أو إجبارياً في شكل أسرى، مما جعلهم يتعايشون لأمد يطول أو يقصر مع مكونات المجتمع الإسلامي الجهادي، بما كان يستتبع ذلك من إثارة للجدل الديني بين الإسلام والمسيحية المذكى برغبة الرياس ورجال المجتمع في إتمام دورهم العقائدي بمحاولة اجتذاب أكبر عدد ممكن من المسيحيين إلى صف الإسلام، عن طريق مناقشة المعتقدات المسيحية المنعوتة بالزيف، وبتوفير الشروط الكفيلة بانتقال الأسرى - بالخصوص - من

عناصر مسيحية إلى علوج مسلمين؛ في الوقت الذي سعت فيه المسيحية من خلال مثاليها إلى الحفاظ على أتباعها، مستغلة حرص المجتمع الجهادي على إتاحة الظروف المناسبة لاستمرار العلاقات التجارية بين المنطقة وأوروبا، التي عدت ضرورية لتطعيم بنيات الجهاد ولتصريف مغانمه.

وقد ظلت سلا البالي تضطلع بدور الإشعاع الديني والفكري في المنطقة، من خلال حفاظها على مؤسساتها وموروثاتها العقائدية والعلمية - رغم التراجع المسجل خلال مدة من النصف الأول من القرن - من جراء بروزها كمركز لتجميع المجاهدين، ولتغذية الحملات الجهادية بالرجال. في حين افتقرت العدو اليسرى إلى الأسس العلمية المعتمدة في المجتمع الإسلامي نتيجة الظروف السلبية التي عايشها أندلسيوها حتى حدود قرار الطرد، ولغياب أي تأطير فكري بفعل انكماشهم وعدم انفتاحهم على مصادر العلوم ورجالاتها، مما جعل المنطقة على العموم لم تشهد تطورا ملموسا في هذا المجال إلا مع بداية تقلص أعداد المشتغلين بالمجهود الجهادي برا وبحرا، واستقطابها للعلماء بشكل ذاتي، أو بالتنسيق مع السلطة الحاكمة، لا سيما خلال عهد مولاي إسماعيل مع عودة قناة التواصل الفكري بين العدوتين من جهة والعاصمة العلمية فاس من جهة ثانية.

عشر الهجري

انغراس
درجة
غياب

كانت
سم، أو
المدن
لحدائق
كانوا
ة غير
كمجال

صادية
نحو
كانت
بما قد
لداخل
المنفذ
أيضا

خاتمة
شكل
لامبي
نذكي
عدد
يحية
من

الفصل الأول: الحياة المدنية

رغم الخصوصية التي انفردت بها مراكز الجهاد في شمال إفريقيا، كانت الحياة المدنية العامة التي عرفتها منطقة مصب أبي رقراق خلال القرن 17 في ظل الجهاد البحري تشكل نموذجا أمثلا لما كان متداولاً بها؛ حيث يبدى مجتمع الضفتين مع مركز الجزائر تشابها كبيرا على مستوى التنظيمات الإدارية والخاصية العمرانية، كما على مستوى تراتبية عناصر المجتمع والعلاقات الاجتماعية السائدة في ما بينها. ذلك أن كلتي المنطقتين لم تكونا مرتبطتين بالسلطتين المركزيتين، بمراكش والقسطنطينية، إلا بروابط ضعيفة توفر لهما استقلالاً ذاتياً، ترتفع درجته حسب الظروف الداخلية والظغوط الخارجية. ولم تكن سلا تقدم للسلطان سوى أتاوة رمزية، ولم يكن للقواد الرسميين إلا سلطة شرفية متضائلة لفائدة قوات الجهاد المتعاضمة زمناً عن آخر. وعلى نفس الشاكلة، كانت سلطات قواد الإنكشارية التركية الحاكمة تحت القاب الباشا، أو الداي، أو الأغا.

ويبدو المظهر الثاني في تأسيس سلطة إقليمية متمسكة بغربة مكونها وسط محيط أصلي معارض، أو تتعارض مقوماته المعنوية وطموحاته المادية مع المسيطررين على المنطقة؛ فضلا عن تنوع العناصر المؤلفة لهذه السلطة بين أندلسيين وعلوج بسلا، أو أتراك وعلوج بالجزائر، وبين الطموحات المتضاربة وسط عناصر الفئة الواحدة، وسعي الغالب منها إلى تركيز السلطات في أيديه من خلال جعل عضوية ديوان سلا حكرا على الأندلسيين دون باقي الفئات الأخرى، بمقال احتكار عناصر الإنكشارية لكل وسائل الحكم، وعدم سماحهم بانتقال أي جزء من النفوذ إلى ما دونهم¹. وهذا ما كان يبرز نظاما متشابها في المركزين، منبني على تركيز الحكم في يد فئة عنصرية حديثة الاستقرار قياسا بمن يحيط بها، متحركة في وسط أصلي يناصبها الاختلاف إلى حد العداء.

وإذا كانت وضعية أتراك الجزائر كمستوزرين عثمانيين بمهمة تطبيق سياسة الباب العلي في مجموع الولايات، فإن المظهر الاجتماعي لمدينة الجزائر خلال القرن 17 لم يكن يختلف كثيرا عن وضعية منطقة مصب أبي رقراق، وتحديدًا بضفتها

¹ De Castries - Op. cit - p 825-26.

اليسرى. ذلك أن المجتمع الجهادي تميز باقتصار أنشطته الأساسية على جهود عناصر حضرية، وبإعراض المدينة عن واجهتها القارية من جراء الحواجز المختلفة المتولدة عن الاستقرار الجديد، لتتقاد كلية نحو المجال البحري الكفيل بتحقيق طموحاتها المرونة بحجم الجهاد ونجاحاته¹.

ويتبين من وجهة خاصة أن المدينة في مختلف هذه المراكز قد ضمت بين الأسوار والحارات الضيقة نسيجاً اجتماعياً مؤلفاً من خليط من العناصر مختلفة العادات والتقاليد، والمتوحدة على صعيد الأهداف الاقتصادية التي تفسح المجال للجميع للإسهام فيها بشكل من الأشكال، مع تراتبية قائمة تترأسها العناصر المسلمة السباقة إلى هذا المضمار، والمشكلة لفئة أرستقراطية متحكمة في الميدانين الاقتصادي والسياسي، ومخضعة لها جموع العلوج والأهالي واليهود²؛ بل إنها - وحتى بعد التغيرات الطارئة على المنطقة - سوف تعمل على تأمين ريادةتها الاجتماعية بتدعيم وضعيتها انطلاقاً من الموروثات المادية للجهاد، باستمرار بعضها في النشاط الجهادي نفسه، وبحث البعض الآخر عن حظوة سياسية لدى السلطة الحاكمة، أو بالانخراط القوي في النشاط التجاري.

1 - التنظيمات الإدارية

بحكم بروز طبيعة العمل الجهادي كنشاط منبعث من وسط حضري تواق إلى الانتفاع الأقصى من الثروات المحصل عليها من مواسمه، بحيث يسعى هذا الوسط للحيلولة دون مغادرة ولو جزء يسير منها خارجه إلا في شكل استثمارات جديدة؛ كان المجتمع مضطراً إلى الانسلاخ تدريجياً عن السلطة المركزية ليؤسس حكماً ذاتياً خاصاً به، وتنظيماً إدارياً تنقلد مسؤوليته عناصر من بين رجاله في هيئة ديوان، وصفه دو كاستري بمثابة قانون تاريخي تخضع له كل المدن البحرية والتجارية الكبرى، مقابل إعراضها عن الاهتمام بما يجول خارج الأسوار من نزاعات قارية، الشيء الذي كان يوصمها بطابع الخصوصية الشديدة المحاصرة بنظام عام³.

¹ Hubac - Op. cit - p 206.

² لم تكن للأندلسيين بمراكز الجهاد الأخرى المتوسطة إلا مرتبة ثانوية بعد الأتراك الذين كانوا هم مؤسسو الجهاد البحري ومنشطوه. انظر: Dan - Op. cit - p 82.

³ De Castries - Op. cit - p 824-25.

ولم يكن الحرناشيون - بفعل ريادتهم - ليشذوا عن القاعدة، وسرعان ما تبين لهم لزوم استحداث شكل نظامي مواكب للقفزة النوعية التي حققتها المواسم الجهادية الأولى، فأسسوا نظاما خاصا مركزه القصبية، وحدوده الجغرافية أسوار مدينة رباط الفتح، استوحوا أسسه من النظم الإدارية التي جربوها بإسبانيا؛ وأسندوا الحكم إلى قائد منتخب سنويا في شهر ماي، دون أن تجعل كل السلطات بيده، بل كان يتقاسمها مع المجلس الاستشاري - التنفيذي المكون من ستة عشر حرناشيا منتخباً من ذوي الخبرة والكفاءة والنفوذ¹، وبشكل يقارب نظام الحكم في الجزائر، ونظام جمهوريات المدن الإيطالية وفرسان مالطا أيضا².

كانت هذه الحكومة هي المسؤولة عن شؤون المدينة وكل جوانب حياتها، وأساسا في ما يتعلق بتنظيم الميدان العسكري، سواء في جانب الملاحة الجهادية إشرافا وتنظيما، أو في إدارة الدفاع عن المدينة بإشرافها على الحامية العسكرية التي كان تتألفها حكرا على الحرناشيين³ إلى حدود سنة 1630، وبالاضطلاع بتحصين الشواطئ وتوفير التجهيزات الحربية اللازمة. وبإزاء ذلك كان موكولا لها أمر تسيير الميزانية التي كانت تمول من مداخيل الجمرک المنشطة أساسا بأعشار المغام⁴، والمكوس المفروضة على المعاملات التجارية، لمباشرة مسؤولياتها المذكورة، وخاصة لإمداد المدينة بمرافقها الضرورية⁵.

وكان طبيعيا أن تبرز المهام السياسية والدبلوماسية كأولى المسؤوليات المطروحة على كاهل الديوان، خاصة وأن وضعيته الاستقلالية كانت تفرض عليه تحديد الخيارات الأساسية للمجتمع الجهادي إزاء السلطات القارية المجاورة له من جهة، وإزاء الدول الأوروبية التي فرض عليها العمل الجهادي تعاملات سياسيا متواصلا ومتنوعا بحسب إفرازات المواسم وتأثيراتها على مواقف هذه الدول. كان الديوان يعقد جلساته بالمقر الرسمي - الذي يعتقد أنه كان بالساباط - المخصص منذ البداية للاضطلاع بدور مركز القرار، مشتملا على قاعة متقدمة أعدت لإيواء الجند المكلف

جهود عناصر مختلفة المتولدة ق طموحاتها

ضمت بين أصغر مختلفة ففسح المجال صر المسلمة

الاقتصادي - وحتى بعد ساعية بتدعيم نشاط الجهادي وبالانخراط

ي تواق إلى هذا الوسط جديدة؛ كان حكما ذاتيا هيئة ديوان، والتجارية عات قارية، م³.

¹ Dan - Op cit p 209.

² Hardy - Op cit p 124-25.

³ Les S. I. H. M. - 1^{re} série - Pays-Bas - T III - p 272.

⁴ Comdreau - Op cit p 42.

⁵ خلال لزمة 1637 ناصر فريق من السكان القائد القصري، مستشهدا بديره الكبير في تطور المدينة ومراقبها خلال فترة حكمه. انظر: Les S. I. H. M. - 1^{re} série - France - T III - p 536-44.

¹ Hubac - Op cit م مؤسس الجهاد

³ De Castries

بحراسته وبحراسة القصبة، وقاعتين مجاورتين خصصتا لاستقبال الوافدين على الديوان من قواد ودبلوماسيين، وأيضا لعقد الاجتماعات للنظر في المهام المطروحة، كما لعقد جلسات القضاء الأساسية¹.

وإذا كانت الوثائق لم تسعفنا في تكوين تصور لأسلوب عمل الديوان، فإننا نعتقد بأنها لم تكن لتغاير كثيرا جلسات دواوين المدن الجهادية الأخرى، باعتبارها كانت تتمسك بنفس الأعراف المتداولة في المجتمعات الإسلامية؛ حيث كانت تجعل من يوم الجمعة معطلا بفعل قدسيته. ويقدم لنا الأب دان شهادته حول اجتماعات ديوان الجزائر التي كانت تضم الحاكم وأعضاء الديوان إلى جانب المترجمان - أي الكاتب - ، التي كانت تعقد جلساته الرئيسية أيام السبت، مع مواصلة عمله خلال الأيام الثلاثة الموالية من كل أسبوع².

حكام مراكز مصب أبي رقرق خلال القرن 17م³

السنوات	حاكم عام	سلا البالي	الضفة اليسرى	العهد
20-1610	فاضل الزعروري	فاضل الزعروري	سلا الجديد القصبة فاضل الزعروري	السعدي
26-1621		محمد العياشي	فاضل الزعروري	السعدي
27-1626		محمد العياشي	العلج عجب	السعدي
1627		محمد العياشي	محمد بن عبد القادر صيرون	الديوان
1628		محمد العياشي	أحمد بن علي البشير	الديوان
1629		محمد العياشي	محمد بن عبد القادر صيرون	الديوان
1630		محمد العياشي	عبد الله بن علي علي القصري	الديوان
33-1631		محمد العياشي	عبد الله بن علي علي القصري	الديوان
1634		محمد العياشي	عبد الله بن علي علي القصري	الديوان

¹ Burlot - Op. cit - p 53.

² Dan - Op. cit - p 101.

³ هناك حكام آخرون لم نقف على فترات حكمهم، من بينهم: محمد بن محمد بن حدو العطار أحد عمال سلا خلال العهد الإسماعيلي (ملحق الإتحاف الوجيز - ص 137)؛ والحاج محمد تميم التطواني الذي قبل سفارته كان عاملا على العدوتين (نفس المصدر - ص 155)؛ وعلي بن عبد الله قائد الساحل سنة 1686 حسبما ينعته لويس الرابع عشر (Les S. I. H. M. - 2^o série - T II - p 587, 632 et 635.)

1635	محمد العياشي	عبد الله بن علي القصري	محمد بن عامر	الديوان
1636	محمد العياشي	عبد الله بن علي القصري	الديوان	
1637	محمد العياشي	البشير حرناشو / الحاج عجل	الديوان	
1637	محمد العياشي	عودة عبد الله بن علي القصري ثانية ¹	الديوان	
40-1638	محمد العياشي	عبد الله القصري الإبن	العلج مراد الشيخ ²	الديوان
43-1641	عامر بن محمد	عبد الرحمن بن عبدون	يوسف السنسياض	الدلاني
1644	سعيد الجنوي	عبد الرحمن بن عبدون	يوسف السنسياض	الدلاني
1651	سعيد الجنوي	محمد بن عامر حركات ³	عبد الله القصري	الدلاني
1655	عامر بن محمد حركات			الدلاني
1656	الحاج محمد فنيش			الدلاني
63-1661	الأمير عبد الله الدلاني	أحمد الجنوي ⁴		الدلاني
1664	الظاهر الجرفطي ⁵	عبد الله بن محمد فنيش	عبد القادر مورينو	غيلان
1665	الظاهر الجرفطي	عبد القادر روكسو	صبيرون الإبن ⁶	غيلان
1666		عبد الله فنيش	عبد القادر مورينو	مولاي الرشيد
1667			الحاج محمد الزبدي	مولاي الرشيد
1669			الحاج محمد الزبدي	مولاي الرشيد
1670	عبد القادر مورينو			مولاي الرشيد
1671	أحمد بن يكور ⁸			مولاي الرشيد

¹ قتل في السنة الموالية، وعين ابنه من طرف الأنتمسنيين، في حين عين السلطان السعدي مراد الشيخ وفرقة من جيش سوس على القصة.

² لجأ السلطان السعدي محمد الشيخ إلى إرسال علجه مراد من أجل الحيلولة دون عودة الحرناشيين - أنصار العياشي - إلى القصة مجدداً.

³ يعتقد في كونه ابن عامر بن محمد حاكم سلا البالي سنة 1641، وحفيد محمد بن عامر حاكم القصة سنة 1635.

⁴ أصبح حاكماً لدلانيا بعد انسحاب الأمير عبد الله من القصة أمام ضغط الغضن غيلان والعناصر الفلمسية الموالية له، وذلك سنة 1661.

⁵ أخو الغضن غيلان، كان له الإشراف العام على العدوتين إلى سنة 1666.

⁶ عين هذا الحاكم رفقة روكسو بدلا للحاكمين المنتخبين فنيش ومورينو لهرز إخلاصهما أكثر من سواهما.

⁷ يشير دو كاستر إلى إعدامه من طرف مولاي الرشيد في مارس 1670.

⁸ كان أخر عامل على العدوتين على عهد مولاي الرشيد.

1672	عبد القادر مورينو	عبد الله فنيش	حسن بن محمد سكيريديو	مولاي إسماعيل
1681		علي معنيو		مولاي إسماعيل
1682		علي معنيو		مولاي إسماعيل
1696	الباشا ابن الأشقر			مولاي إسماعيل

وإذا كان اتفاق سنة 1630 الناجم عن الحرب الأهلية قد أفسح المجال أمام الأندلسيين للمشاركة في الحكم على قدم المساواة مع الحرناشيين، بانتخاب حاكم عنهم يشارك القائد الحرناشي، وانتخاب ثمانية من أعضاء الديوان الستة عشر؛ فقد ظل مقر الحكم بالقصبة، وظل العمل ساريا بالنظم الإدارية المذكورة²، في وقت اشتدت فيه ضغوط العياشي الراغب في توحيد عموم المنطقة، وزادت فيه مخاوف أولئك من ردود فعل السلطة السعدية؛ وهو ما جعل الأندلسيين بزعامة عبد الله القصري يستغلون خروج العياشي في حملاته البعيدة لاتخاذ مبادرة السيطرة على دفة تسيير المدينة أولا³، وبالزحف على سلا البالي ثانيا. وقد كاد الأمر أن يتحقق لولا تحالف العياشي مع الأميرال الإنجليزي راينسبوروه الذي لم يفوت فرصة تدعيم موقع العناصر المعارضة للحاكم المذكور بشكل سوف يؤدي إلى الإطاحة به، وإلى إحداث تغيير مؤقت في قمة السلطة بإسناد الحكم إلى معارضيه لوضع حد للاستبداد الذي برز به القصري حتى في نظر أنصاره⁴.

إن هذه الاضطرابات السياسية وما خلفته من انعكاسات على النظم الإدارية المعتمدة ليست غريبة عن عناصر اعتادت تاريخيا أن تحيي حياة سياسية متقلبة ناجمة عن الاقتتال الداخلي بين ذوي النفوذ⁵ من جهة، ولكون الحكم ظل من جهة أخرى بيد المالكين لزمم الثقل العسكري في عموم القواعد الجهادية، الأمر الذي جعل مسألة

¹ اعتمدنا في وضع هذه القائمة على المؤلفات التالية: بفعبد الله: "الموسوعة المغربية" ج 3؛ بوجندار: "مقدمة الفتح" حجي: "الزاوية الدلانية"؛ الدكالي: "الإتحاف الوجيز"؛ رزوق: "المورسكيون بالمغرب"؛ الشاذلي: "الحركة العياشية"؛ وأيضا: « La ville de Rabat .. » ; « La petite histoire de Rabat » ; Penz : « France - T II , III , France - T I , II , III et IV . Les captifs Français .. » ; Les S. I. H. M. - 1° série - Angleterre - T II , III , France - T I , II , III et IV .

² Les S. I. H. M. - 1° série - France - T III - p 194.

³ Ibid - p 196.

⁴ Ibid - p 536-44.

⁵ Brunot - Op. cit - p 153.

استبدال الحكام تخضع بالأساس لمدى رغبة الرياس والجند¹، وتؤدي من ثم إلى الخلطة المتوالية للنظامين السياسي والإداري كما يشهد على ذلك الأب دان في معرض حديثه عن الجزائر بقوله: "وأحيانا يتم تغيير خمسة قواد أو ستة في نفس اليوم

حينما تلمس عدم كفاءتهم من طرف الديوان"². وإذا كانت إعادة تنصيب القصري على رأس الديوان من طرف السلطان السعدي قد فاقمت حدة الاضطراب وانقسام الرأي العام، فإن مقتل العياشي ودخول المنطقة ضمن النفوذ الدلاني في سنة 1641 قد وضع حدا لذلك، لا سيما وأن محمد الحاج حاول الاستفادة من أخطاء السياسة السعدية باعتماده على إشراك عناصر أصلية ضامن لولائها، وعناصر أندلسية ترك لها مهمة تسيير الضفة اليسرى، قبل أن يتحكم في عموم المنطقة بتنصيب ابنه أميرا لها، وولد بذلك ترتيبا سياسيا وإداريا حذرا ونكيا مكن المنطقة من فترة استقرار طويلة.

فقد كانت السياسة العامة والخارجية بيد محمد الحاج من خلال ابنه عبد الله، في حين كان الإشراف العام على الحياة الداخلية بيد سعيد الجنوي الذي كانت له قيادة سلا البالي والإشراف على قاندي القصبية وسلا الجديد. ولم تعد الأمور إلى حالة الاضطراب إلا تأثرا بالضعف السياسي الذي بدأ يدب في الإمارة الدلانية، وبروز قوات مناوئة لها، لا سيما وأن وفاة سعيد الجنوي سنة 1655³ أفقد المنطقة قائدا محنكا اعتمدت عليه الإمارة في تنفيذ سياستها، حيث في غيابه وبمجرد هزيمة الدلانيين في معركة بوحريرة (1660) أمام الخضر غيلان انحازت المنطقة إلى صف المنتصر رغما عن محاولات الأمير عبد الله ومساعدته أحمد الجنوي⁴، لتدخل نهائيا في طاعة غيلان سنة 1664.

لقد نهج هذا الأخير نفس السياسة الدلانية في التسيير الإداري بوضع الإشراف العام بين يدي أخيه الرايس الطاهر، وفي الوقت ذاته ترك لسكان العدوتين نوعا من الاستقلال الذاتي، بحيث كان حريصا على صعود قائدين من العناصر المخلصة، مما يمكن أن يفسره التغيير السياسي الذي طرأ في أقل من سنة حينما تم استبدال القائدين

¹ تمكن قارة عثمان في سنة 1594 من غزو قلوب الإنكشارية في تونس، حيث ولوه قائدا عليهم ومنحوه لقب الداوي، إلى درجة أن الديوان والميليشيا لم يعد في مقدورهما وضعه عند حده. أنظر: Dan - Op. cit - p 163.

² Ibid - p 98.

³ Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T V - intro. p XXV.

⁴ Ibid - T VI - p 625.

المنتخبين في مارس 1665: مورينو وفنيش، بعبد القادر روكسو وأحد أبناء صيرون في غشت من نفس السنة¹.

وقد أتت سيطرة مولاي الرشيد على المنطقة في السنة الموالية لتضع حدا نهائيا لهذه النظم السلييلة عن نسق الديوان السابق، ولتسمح بالعودة إلى التسيير الإداري المرتبط بالمركز. وأصبحت المنطقة لا تحظى بشكل سياسي استثنائي، وإنما جزءا من منطقة يشرف عليها وال خاضع في تصرفاته لتوجيهات السلطة المركزية، ويشرف بدوره على قواد القصبنة وسلا الجديد والبالى، مع إحداث منصب قائد أو مراقب للمرسى مستقل عن القواد الثلاثة. ومع ذلك يصعب تحديد الإقليم الذي كانت تنتمي إليه المنطقة، بين إقليم مكناس² وإقليم الغرب الذي كان تحت تسيير القائد أحمد بن حدو العطار³. كان مجمل قواد المنطقة تحت رحمة رقابة شديدة، ومحاسبة من طرف السلطان في سعيه إلى تثبيت نفوذه بها، حيث كان لا يتورع في اتخاذ أقصى العقوبات أمام الهفوات أو التجاوزات التي يمكن أن تصدر عن هؤلاء القواد، والتي قد تصل إلى حد الإعدام⁴. ومن ثم تحكمت السلطة بهذه المراقبة في المنطقة، وفرضت عليها الاندماج تماما في الوحدة السياسية والإدارية للبلاد.

2 - الجانب العمراني

تتميز المنطقة بوجود ثلاثة مراكز منفصلة بعضها عن بعض، طبيعيا بواسطة النهر الفاصل بين سلا البالى من جهة وسلا الجديد والقصبنة من جهة أخرى، وشكليا بين المركزين الأخيرين باعتبار الأولى حادثة عن الثانية ولاحقة عنها من حيث التعمير، الأمر الذي فرض ترك بقعة فراغ فاصلة بينهما، فرضتها أسوار القصبنة التي حالت دون توسعها خارجيا. وقد تميز الجزء المعمور من الضفة الجنوبية بشغله لحيز ضئيل من مساحة مدينة رباط الفتح الموحدية، ولم يكن يمثل إلى جانب القصبنة ومقبرة لعلو إلا حوالي تسعين هكتارا من مجموع مساحتها البالغة أربعمائة وعشرين هكتار، كان القسم الأكبر منها يستغل كحقول وبساتين مرتبطة بالمدينة⁵.

¹ رزوق - نفسه - ص 208-09.

² أنظر القادري - نفسه - الجزء الثاني - ص 268.

³ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T I - p 508 et note.

⁴ أنظر حالة إعدام الوزير المنزاري سنة 1670، وأيضا تفكير القائد مورينو في الجوء إلى إسبانيا في السنة الموالية، في: 383-84 et 288 pp Ibid.

⁵ Caillé: "La ville de Rabat..." - Op. cit - p 246.

صليرون

ضلع حد
الإداري

جزء من

ويشرف

مراقب

تتمي إليه

من حدو

طرف

عقوبات

صل إلى

عليها

واسطة

وشكليا

حيث

ة التي

له لحيز

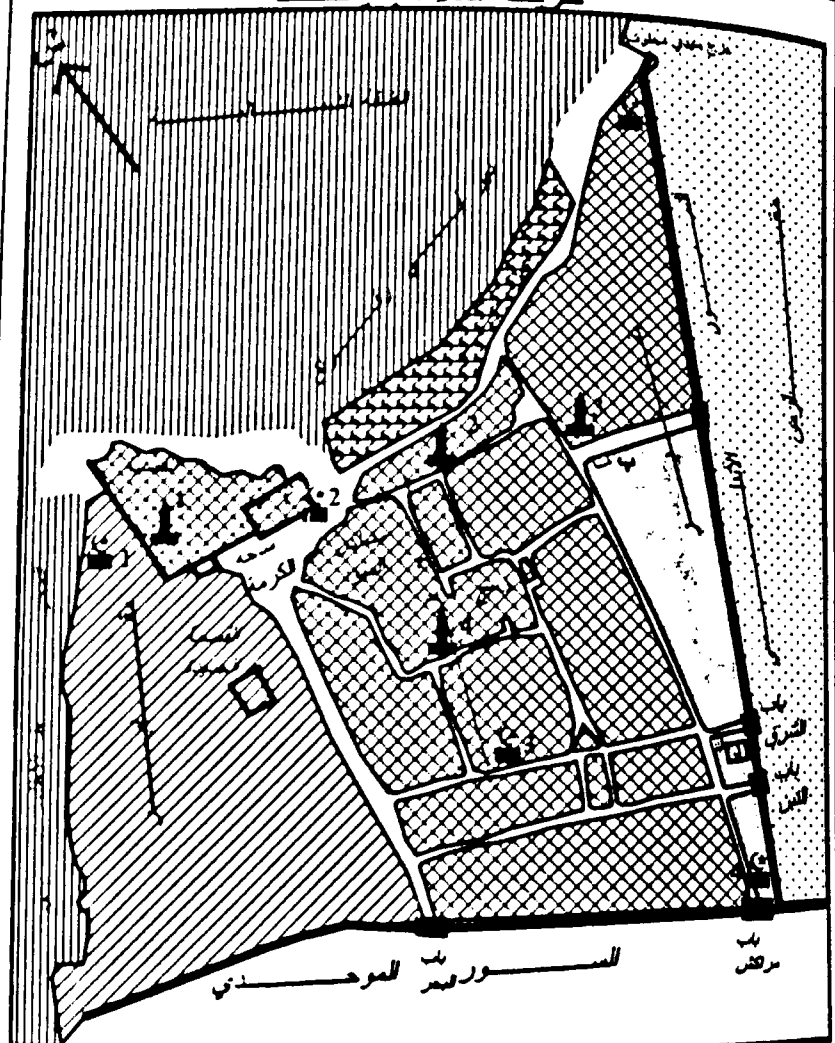
مقبرة

هكتار،

³ Les S
الموالية،

⁵ Caill

خريطة سلا الجديد



- البحر
- 1 - مدرسة الصلابة
- ب - قصر سلطان
- ج - مدرسة قرب القراء
- د - قريبة الصلابة

- الضرحة
- 1 - مسجد القلبي
- 2 - حد القريش الأتليسي
- 3 - حد القريش الصليحي
- 4 - مسجد القلبي

- المسجد
- 1 - مسجد القلبي
- 2 - مسجد ٧٧ لطلبة شريعة
- 3 - مسجد القلبي
- 4 - مسجد ابن عتيبة

وقد كانت الأطراف الكاملة للمدينة محدودة من جهتي الغرب والجنوب بالأسوار الموحدة الممتدة على طول الحدود البرية من البحر إلى النهر، بهندسة نصف دائرية يبلغ سمكها مترين ونصف أحيانا وعلوها عشرة أمتار¹، مشتملة على أبراج وحصون متفرقة ومختلفة الأشكال، متوجة بشرفات وكوات وطريق مفروزة تصل بعضها ببعض. وقد كانت هذه الأبراج مواجهة ما يقابلها من مشارف إقليم تامسنا غربا وناحية شالة وجزء داخلي من النهر جنوبا، ولا تتفتح عن هذه النواحي إلا بخمسة أبواب هي: باب البحر وباب مراكش وباب الجبل من جهة الغرب، وباب الجديد وباب شالة² من جهة الجنوب³.

وقد استفاد الأندلسيون من هذه التحصينات نظرا للاستراتيجية الدفاعية التي كانت مفروضة عليهم خلال النصف الأول من القرن 17، لا سيما وأن النهر والبحر كانا يضطلمان بدور حمائي طبيعي واق من جهة الشمال والشمال الغربي، وكانت الحدود البرية هي المستوجبة لحواجز تحمي المركز من أي زحف محتمل للعناصر المحلية؛ بل إن هجمات العياشي كانت تأتي دوما عن طريق الجنوب، حيث وقفت الأسوار كعائق حال دون تحقيقه لأي نصر حاسم طوال عقد كامل من الهجمات المتكررة، علما بأن الأندلسيين - مدفعين بضالة عددهم - دعموا ذلك بإنشاء أسوار داخلية فاصلة الجزء المعمور عن الجزء المخصص للزراعة، امتد متقاطعا مع السور الموحد من جهة باب مراكش حتى حدود منحدر شاطئ النهر على طول أكثر من ألف وأربعمائة متر، بسمك يصل إلى أزيد من متر ونصف (1.65م) وارتفاع يتراوح بين الخمسة أمتار والخمسة ونصف (4.90م-5.50م)، باستثناء الجهة الغربية منه التي كان يتعدى فيه حاجز الستة أمتار⁴.

وقد حصر الأندلسيون الاتصال بين الجهتين في ثلاث أبواب داخلية: باب التبن غربا، وباب الشرف وسطا، وباب شالة شرقا، بشكل جعل دفاع المدينة أكثر قوة وتحصينا منذ بداية استقرارهم بها، حيث بادروا إلى ترميم الجهات الرئيسية في الأسوار، محدثين بها كوات للمدافع، وظلوا يتعهدونها بالعناية والتحسين حسب

¹ السويسي - نفسه - ص 113-14.

² تعرف هذه الأبواب على التوالي راهنا: باب العلو، وباب الأحد، وباب الرواح، وباب أكدال، وباب زعير.

³ جعفر الناصري - نفسه - ص 170.

⁴ Caillé - Op. cit - p 273.

طاعتهم وحاجتهم، لا سيما في الجهة الممتدة من المحيط إلى باب مراكش¹ القريبة من الأحياء والحارات المعمورة.

وقد ذكرنا أن القصبة كانت تشكل مركزاً منفصلاً عن باقي الجزء المأهول، ولم تكن تمتد نحو الجنوب بأكثر من مائة وثمانين متر إلى حدود سورها الموحد²، وبها نزل الحرناشيون وعمروها، واتخذوا بها الديار والمرافق الاجتماعية الأخرى وفق قسمين، أحدهما منبسط في الشمال، وآخر متدرج في الجنوب مواكب لانحدار القصبة، يفصل بينهما شارع عريض مواز لجبهتها البحرية، وعنه تتفرع مجموع الحارات المتصلة بعضها ببعض بأزقة فرعية، وبعضها في شكل دروب مغلقة؛ في حين كان الشارع ينفتح على الجزء المنحدر بحارة كانت تلامس نهاية استقامة السور الموحد³ الفاصل بين القصبة الأصلية والإنشاءات الإضافية التي قام بها مولاي الرشيد العلوي.

وقد سعى المستقرون الجدد في غمرة انشغالهم بالجهاد البحري إلى تطعيم القصبة بإنشاءات ذات صبغة عسكرية، خاصة في ناحيتيها المطلتين على المصب وعلى سلا الجديد. ذلك أن الحياة المضطربة التي عرفتها المنطقة ما بين بداية عهد الديوان إلى حين تنصيب الأمير عبد الله الدلاني حاكماً عليها فرضت على الأندلسيين إحداث قوات اتصال داخلية، تمثلت في تأسيس مراديب في جهتها الشمالية الشرقية، تنتهي بعضها عند التماس مع جبهتها المطلّة على المصب، استغلت أيضاً لتخزين الأقوات والمؤونة بعيداً عن قذائف الخصوم³، بشكل سمح للقائنين بمجابهة أثار الحصارات التي يمكن أن تتعرض لها، وأساساً من جهة سلا الجديد.

أما من حيث التحصينات الأخرى، فبالإضافة إلى ترميم الأسوار المطلّة على المصب، عمد الأندلسيون إلى إحداث برج ملحق بالقصبة "برج المجاهدين" من أجل حماية مدخل المرسى، وتغطية انسحاب المجاهدين إلى داخلها أو إلى أسفل هذا البرج، حيث تم إنشاء بناء دائري الشكل "المدورة" كموقع ترسية مؤقتة بعيداً عن المرسى⁴.

أنفسه - ص 168.

¹ Les S. I. H. M. - 1^{re} série - Pays-Bas - T IV - intro. p III note.
والثاني في النهاية الشمالية الشرقية للسور الموحد في قرب الدرج المغطى.
Caillé - Op. cit - p 257 ويمثل الثالث قبو دلو بركة بنهاية الزقاق المذكور. انظر: Caillé - Op. cit - p 257

⁴ Burriot - Op. cit - p 59.

كما أنشأوا في الوجهة الغربية لحماية مدخل القصبية قرب باب الساباط - أبراجا دقيقة ذات شرفات متجهة صوب الغرب من أجل تعزيز مهمة الحراس¹. ومن المفترض أن تكون كل هذه الإنشاءات قد تمت إبان فترة الديوان، وخلال فترة سعي القوات المسيطرة على القصبية للحفاظ على أمنها ضدا عن هجمات سكان سلا الجديد. وقد عرفت القصبية خلال العهد العلوي توسيع نطاقها على يد مولاي الرشيد، حيث مدد أسوارها باتجاه المرسى، وعززها من جهة الجنوب ببرجين متوجهين صوب المدينة والمرسى، قبل أن يعمد مولاي إسماعيل إلى استغلال الفناء الملحق بالقصبية لجعل منه إقامة أميرية لخليفته بعدما بنى به مسجدا وحماما².

وفي خارج القصبية أنشأ مولاي الرشيد في غربها وعلى مقربة منها قصبية جديدة مربعة الشكل، محصنة بأبراج وبأسوار ذات شرفات جميلة يعتقد أنها كانت متصلة بالقصبية الأصلية بحائط مرتفع مجهز ببرجين، يسلك من تحت أحدهما إلى البحر³. وقد أنشئت بغاية تعزيز دفاع القصبية إزاء هجمات الأساطيل الأوروبية من جهة، وأيضا لحماية المرسى، كما لمواجهة الهجمات المحتملة لسكان سلا الجديد.

وإذا كان الحضور الخرناشي إلى القصبية قد تم في وقت كانت لا تضم فيه إلا بضعة كوانين، فإن الأندلسيين من جهتهم هم من منحوا سلا الجديد حياتها الفعلية التي ظلت تنتظرها منذ أربعة قرون، فلم تعمر حاراتها إلا عند استيطانهم، ولم تبلغ مستوى حضاريا إلا على يدهم⁴، حيث حصنوها وشيدوا قصورها ودورها وحماماتها، وميزوا المدينة عن غيرها من المدن التقليدية بتصميم يسائر التخطيطات المعمارية الأكثر تنظيما تأثرا بالطابع الأندلسي الأصلي، حيث توزعت المدينة بين أربعة شوارع رئيسية ذات اتجاه شمال جنوب، تقاطعها ثلاثة خطوط عرضية من الشرق إلى الغرب⁵، وعنها تتفرع الأزقة الثانوية المنفتحة بعضها عن البعض الآخر، مشكلة

² بوجندار - نفسه - ص 60.

³ نفسه - ص 64-65.

⁴ بوجندار: "تطوير البساط ينكر تراجع قضية الرباط".

⁵ يرى كايي أن المدينة موزعة على خطين عرضيين فقط: فيما يمنحنا الواقع الحالي للمدينة الذي لا يختلف كثيرا عن وضعيتها خلال القرن 17 - ثلاثة خطوط عرضية: يبتدئ أولها من حارة تحت الحمام إلى ضريح سيدي محمد الضاوي، ويشمل الثاني حارة بوقرون في اتجاه شارع القناصل، ويمتد الثالث من باب الأحد باتجاه الرحبة عبر حارة للسوق. انظر: Caillé - Op. cit - p 246-47.

¹ Ibid - p 53.

خطوط اتصال ضمنية بين الأزقة الرئيسية، بشكل يجعل جهات المدينة مترابطة في ما بينها.

وتتصل المدينة من جهتها الجنوبية ببساتينها ورياضها عبر أبواب المور الأندلسي. وقد كان نظام الأبواب عاما حتى داخل المدينة، حيث أن انفتاح الحارات على الأزقة الرئيسية كان بواسطة بوابات داخلية استغلت لتثبيت الأمن والمراقبة، لا سيما باتجاه المقبرة المطلة على الساحل، وباتجاه مساحة سوق الغزل الفاصلة بين المدينة والقصبة التي لم تكن تستغل إلا نادرا ولأغراض عسكرية. فقد حصنت جوانب هذه الساحة لحصار القصبة سنة 1660 بدروب صغيرة من التراب المدكوك دائرية الشكل من تصميم الحاج موسى أحد صيادلة المدينة¹. فكانت المدينة - بدورها - عبارة عن قلعة كبيرة مفتوحة على داخلها ومنغلقة أمام الخارج جنوبا، وأمام القلعة الصغيرة التي تمثلها القصبة، ولم تكن تتصل بها إلا بواسطة ممرات ضيقة متحكممة في كل حالات الدخول والخروج. وفي الغالب كان الفضاء الأكثر حرية في التلاقي بين المركزين هو تلك المساحة التي يوفرها رصيف المرسى وضفة النهر أثناء فترات الاستقرار بالدرجة الأولى.

وبمقابل سلا الجديد تبرز سلا البالي على الضفة اليمنى مبتعدة عن النهر والمصب بمسافة مهمة على شكل شريط مستطيل توازي جبهته العرضية الشمالية-غربية ساحل المحيط. وكانت المدينة محاطة كلها بأسوار يعود ترميمها الرئيسي إلى العهد المريني، بيد أنها تبدو شبه محطمة خلال بداية القرن 17 في عدة أماكن منها، وغير جيدة التحصين²، الأمر الذي دفع المجاهد العياشي إلى الاعتناء بدفاعاتها، لا سيما وقد كان مجبرا على الدخول في حروب مع جيرانه من جهة، ونظرا لطبيعة قيادته العسكرية الجهادية التي كانت توجه اختياراته السياسية. ومن ثم كانت سلا على عهده بمثابة قلعة جهادية على طول الجبهة المشرفة على النهر لاتقاء قذائف مدفعية الضفة اليسرى؛ وزاد في تعزيز هذه الجبهة بإنشاء برجين على ساحل البحر قبالة القصبة، كان أحسنهما وأبدعها برج الدموع³، مستعينا في إنجازهما بالدعم المادي

¹ Ibid p 146.

² Savine - Op. cit - p 32.

³ الدكالي - نفسه - ص 67.

والبحري الذي قدمه الأميرال الإنجليزي راينسبوروه سنة 1637، واتخذ خندقا مارا تحت السور يصل منزله الواقع قبالة باب المعلقة بالبرجين المذكورين¹. وكانت سلا البالي لا تتصل بخارجها جهة النهر والبر إلا عبر خمسة أبواب - إلى جانب باب الصنعة - باب المعلقة وباب الجديد غربا، وباب فاس جنوبا، وباب سبتة وباب شعبة شرقا؛ وتتخلل المسافات الفاصلة طوال الأسوار بين هذه الأبواب أبراج مربعة الشكل وبعضها مئمن، منتصبة على شكل منارات صغيرة، وقد شيد غالبيتها من الحجر المنجور المركب بالجير اتخذت لحماية المدينة². وداخل الأسوار كانت المدينة موزعة إلى قسمين: شمالي ينتهي عند مستوى باب شعبة يحتل ثلثها، وهو عبارة عن مساحة فارغة استغلت كمقبرة؛ وجنوبي تتفرع أجزاءه انطلاقا من الشارعين المتصلين بباب سبتة عرضا وباب فاس طولاً، حيث يلتقي الشارعان ليشكلا ملتقى تتفرع عنه أزقة أخرى ضيقة، وأساسا الزقاقان المتجهان شمالا من وسط المدينة صوب المسجد الأعظم.

وتجتمع أزقة المراكز الثلاثة في ميزة ضيقة إلى درجة تتقارب فيها جدران المباني في كافة الأحياء، باستثناء تلك المؤدية إلى الأبواب الرئيسية؛ وذلك رغبة في الحفاظ على رطوبة الممرات وقلة تعرض الجدران للحرارة والإشعاع الشمسي. وفي الغالب كانت هذه الحارات تخضع للترابعية الاجتماعية بحسب الفئات ومدى ثرائها ووجاهتها، متميزة بين أحياء أرستقراطية وأخرى شعبية غير مندمجة في ما بينها. وكانت الأحياء الأولى متوزعة في الأجزاء الواقعة إلى الشرق من القصبة وسلا الجديد من جهة³، وبالأحياء الواقعة إلى الغرب من المسجد الأعظم والجهة الغربية من سلا البالي⁴.

أما اليهود، فقد كانت جموعهم تستقر بمنازل مجتمعة في أحياء محددة سواء في سلا الجديد أو البالي، وقد استقروا في الضفة اليمنى على مقربة من باب الجديد (الملاح القديم) وشكل لا ينفصل تماما عن منازل المسلمين⁵؛ أما في سلا الجديد فقد

¹ ج. الناصري - نفسه - ص 400-01.
² الدكالي - نفسه - ص 67.

³ Savine - Op. cit - p 32.
⁴ Burlot - Op. cit - p 98.

⁵ ج. الناصري - نفسه - ص 264.

سمح لهم بالاستقرار فى الجهة الشمالية شرقية للمركز على مقربة من باب الساباط (حارة البحيرة)¹.

ولم يكن يسمح للمسيحيين الوافدين على سلا الجديد من تجار ومبعوثين بالاستقرار مع عائلاتهم إلا بفنادق قريبة من المرسى، وهى عبارة عن مستقرات مناسبة من أبهج المباني وأكثرها عصرية تتوفر على المرافق الضرورية. وبها كانت تستقر القنصليات الأوروبية وممثلو الدول، وبها تتخذ ملحقاتهم الإدارية والتجارية من مخازن البضائع وأماكن اعتقال مواطنيهم المحكومين؛ حيث سعت سلطات المدينة إلى توفير الخدمات الأساسية لها فى عين المكان أو خارجها، بما فى ذلك الترخيص لرعايا كل دولة على حدة بالاستفادة من بعض حمامات المدينة مرة فى الأسبوع².

وتميزت المراكز الثلاثة عن غيرها من المدن المغربية بقلة الديار الكبيرة، وتشابهت معها فى محافظتها على النمط الذى كان يمنح الزقاق وحدة البناء والإنشاء، لا سيما فى سلا الجديد؛ حيث على غرار إدارة المدينة ظهرها للعالم الخارجى الواقع خلف الأسوار، كانت الدور تعرض عن الزقاق لتتفتح على دواخلها، نظرا لالتجاء أصحابها إلى ستره التفاتوات الاجتماعية، وهو ما يفسر قلة الزخارف والتزيينات والتصاميم الهندسية التى تتسم بها الجدران الخارجية باستثناء بعض أقواس الأبواب-، وكل ما كانت تتحلى به هو طلاؤها بالجير الأبيض المزوج بصبغة النيل³. وكانت غالبية أهل العدوتين تجنح إلى الاستقرار منعزلة فى مساكنها، لما يمثله ذلك من صيانة للأحساب وحفظ للأنساب⁴؛ وكانت الأسر الميسورة تسعى للعيش بالدروب المغلقة "الصابة" لما تمنحه من استقلالية أسرية بعيدة عن حركية الزقاق، وبشكل يسمح للحياة المنزلية الداخلية بالاستمرار فى إطار محافظ على خاصيتها وأسرارها وحرمتها.

وعلى العموم كانت الدور لا تتوفر إلا على طابق واحد موزع إلى ثلاث وحدات مميزة، يصل من الباب الرئيسية إلى وحدتها الأساسية بواسطة دهليز متعرج يعوق من لم يلجأه الاطلاع على الحياة الواقعة خلفه. وتتمثل الوحدات الثلاث فى ما يلى:

¹ Caillé: "La petite histoire..." - Op. cit - p 140.

² Hubac - Op. cit - p 188-89.

³ Dan - Op. cit - p 88.

⁴ الدكالى - نفسه - ص 42.

1- الدار: وهي الوحدة المركزية التي تشكل الجزء القابل للانفتاح على أنشطة الحياة المدنية العامة، ومن حيث اتخاذها جزءا مخصصا للضيافة والاستقبال، ومن حيث استغلال أقسام أخرى منه للحياة الخاصة. وهذه الأقسام هي غرف طويلة وعالية متسعة، تحيط بفناء "الرياض" الواسع، ولا تتمتع بالنور إلا عن طريق الأبواب الكبيرة الموازية لارتفاع الجدران.

2- الدويرة: وهي مقر الخدم ومخدع اللوازم وحاجيات المنزل، وغالبا ما كان موقعها على جانب الدهليز، وتتصل بالزقاق مباشرة بمدخل صغير خاص بها يتميز بصغر بوابه؛ في حين تفتح على داخل المنزل بباب مغايرة لجميع الغرف، وتتوفر على بضعة منافذ على الزقاق شديدة الضيق ضمانا للنور وللتهوية الضرورية لحفظ الأقوات المخزونة بها من التعرض للتلف؛ كما يتخذ بها الحمام الخصوصي وخزان الماء الخاص بالاغتسال¹.

3- الرياض: وهي حديقة المنزل التي غالبا ما تتوسط الدار، وأحيانا أخرى تكون كوحدة خلفية مستقلة في الدور الكبرى.

وقد حرص أهالي العدوتين على جمع كل جماليات المعمار والبناء داخل الدور، مجصصينها عادة بالمربعات الفسيفسائية²، ومخضعين السقوف لغطاء خشبي منقوش، ورؤوس الأعمدة الحاملة لممر الطبقة العلوية لنقوش من الزخارف والمنمنمات الإسلامية. ويصف ابن علي الدكالي ذلك بقوله: "كاد أن يكون إتيان البناء خاصا بالعدوتين، لا سيما نقش الحجر وتخريمه بالحفر، ومعالات القصور والديار وتنجيدها وحكم وضعها، وتناسق أبوابها وشماساتها وسراجيمها، ثم المعالات على الحيطان بالجير الرطب... ويحفر ذلك الجير برسوم ومقاطع وكتابات مائلة، ثم يلون المحفور بالوان الزواق والصينج"³.

3- الفئات ومظاهرها الحضرية

تميز المجتمع الجهادي نتيجة موقعه الحدودي بين العالمين الداخلي والخارجي بتشكله من عناصر مختلفة، وعادات وتقاليد متنوعة قد تصل إلى حد التعارض، من

¹ Savine - Op. cit - p 68.

² Dan - Op. cit - p 88.

³ الدكالي، نفسه - ص 41.

حيث تكون جزء منه في العدو الجنوبية من عناصر إسلامية معتلة أو حديثة العهد بالإسلام، من حرناشيين وأندلسيين وعلوج، زيادة عن العناصر التقليدية التي تمثلها الفئات الأصلية المكونة من مغاربة ومهاجرين أندلسيين قدماء تجمعوا في سلا البالي. وعلى هامش هذه العناصر المسلمة احتضنت المنطقة مجموعة غير إسلامية، منها من ارتبط بها بعامل التجارة أو الدبلوماسية من تجار وقناصل، أو بعامل الرق الذي خضع له أسرى الجهاد البحري، أو بعامل التبعية الذي خضعت له الجالية اليهودية باعتبارها تؤدي الزمة كحق استقرار بين ظهرائي مجموعة إسلامية متحكمة¹.

وقد تطورت الساكنة بشكل مهم بلغت معه خلال الربع الأخير من القرن حوالي عشرين ألف نسمة²، وهو رقم ذو دلالة بالغة بالانتباه إلى كونه لم يتجاوز عند الاستقرار الأندلسي حدود العشرة آلاف³. ولذلك يلاحظ بأن المنطقة قد حافظت على وتيرتها التصاعدية، لتتضاعف ديموغرافيتها رغم الحروب الأهلية والمجاعات والأوبئة التي عرفت على امتداد القرن. ونعتقد أن هذا التطور ليس وليد الزيادة الطبيعية فحسب، بالنظر إلى الطبيعة الحضرية للمجتمع القائمة على تحديد النسل نسبيا مقارنة بالعناصر التقليدية، وإنما يعود لوفود عناصر أخرى على المنطقة باستمرار وبشكل استقطابي عفوي أو إجباري، من علوج وأسرى، ومن مغاربة أيضا باحثين عن الاستفادة من نشاط الجهاد، خاصة بعد انفتاح المرسى على العنصر المغربي منذ العهد الدلائي.

والوحدات الخمس الرئيسية المؤلفة للمجتمع الجهادي كانت هي فئات الأندلسيين، والأهالي، والعلوج، واليهود، والأسرى؛ وعن الفئات الثلاث الأولى انبثقت وضعية اجتماعية تراتبية، شكلت القوى ذات النفوذ السياسي والاقتصادي قمتها، وعلى رأسها عناصر الفئة الأولى التي كانت هي المسيطرة على الحياة العامة حتى حدود العهد العلوي، الذي شهدت فيه المنطقة ورود عناصر مغربية جديدة متمتعة بنفوذ سياسي مستمد من السلطة المركزية:

¹ Dan - Op. cit - pp 88 et 255.

² Caillé - Op. cit - p 239.

³ راجع الفصل الثاني من الباب الأول.

1. الأندلسيون: تميزوا بانتسابهم إلى ثلاث فئات مختلفة: الأندلسيون القدماء المستقرون بسلا البالي، والحرناشيون الوافدون على الضفة الجنوبية سنة 1608، ثم الأندلسيون المطرودون بعد ذلك وهم الذين يشكلون أكبرها. وإذا كانت هذه الفئات قد اتسمت بتقدمها الحضاري على ما عداها، فإن الوجدتين الأخيرتين عرفتا أيضا بخصوصياتهما المضطربة، مما جعلهما تفشلان في الاندماج في وسطهما الجديد بسبب اختلافهما الشديد في كثير من مظاهر الحياة عن باقي العناصر الأصلية، لا سيما وأنهما وجدتتا في موقعهما المتاخم للنهر والبحر والمحدود بالأسوار خير عازل عن كل التأثيرات الداخلية، التي من شأنها إضعاف تماسك هويتهم الأندلسية التي كانتا قد أفلحتا في صيانتها حتى داخل إسبانيا الكاثوليكية².

وقد ساهمت المظاهر الاجتماعية التي تمكنت من الأندلسيين في إسبانيا، وظلت عالقة بالقسم الأكبر منهم، في جعل سكان سلا البالي وقبائل زعير المحيطة بهم ينظرون إليهم بنظرة ملوها الشك والريبة في طويبتهم وفي سلامة عقيدتهم، خاصة وأن اللغة القشتالية كانت هي السائدة في أوساطهم، وكانت نساؤهم في وضعية سفور مرفوضة في المنطقة. فدفعهم ذلك إلى البروز كمجتمع منفصل عما عداه، وزادت سيطرتهم على الحياة الاقتصادية واحتكارهم لها في تأجيج هذا الشعور³؛ إذ منهم كان رياس البحر المشاهير والقواد السياسيون والعسكريون، ومنهم كان أهل الحل والعقد خلال فترة الديوان⁴.

وقد ظل التمييز واضحا في الأنساب بين الحرناشيين وباقي الأندلسيين، حيث حافظ الأوائل على ألقابهم العربية⁵ ضمن ما استطاعوا الحفاظ عليه من مظاهر وتقاليد الحياة الأندلسية الأصلية، في حين حمل معهم الآخرون ألقابا دخيلة متولدة عن احتكاكهم بالإسبان وامتزاجهم بهم، فعجمت أسماؤهم، خصوصا في أوساط المنحدرين

1 الشائلي - نفسه - ص 147.

2 عنان - نفسه - ص 331.

3 شكل أندلسيو سلا الجديد أنجح الجاليات اللاحقة إلى شمال إفريقيا أكثر مما حققه إخوانهم في الجزائر، حيث إذا كان هؤلاء الأخيرين قد تحكموا في جزء من الحياة الاقتصادية بهذه المدينة وسيطروا على الحرف والتجارة، فإنهم كانوا خاضعين سياسيا لسلطة الأتراك. انظر: 107 - p cit - Hardy - Op.

4 بوجدان: "مقدمة الفتح..." - نفسه - ص 216-23.

5 من الألقاب الأندلسية العربية الأصل التي كانت سائدة في أوساط الضفة الجنوبية خلال القرن 17، نذكر: ابن عبدون، الحداد، ملين، والزهر، بلكامية، المعاني، الدقاق، التونسي، المدور، غنام، عاشور، الحافي، العكاري، القندي، ابن قور، ابن عمرو، ابن الطاهر، ابن منديل، ابن عطية، ابن الضيف، الحمري، العظمي - نفسه - ص 196-97.

من المناطق الشمالية للأندلس، ويعتقد أن منهم من كان أعجمي الأصل، وسليل العائلات الإسبانية التي أسلمت في عهود سابقة، وحافظت رغم ذلك على ما يحيل إلى أصولها الحقيقية¹. ولم يكن هؤلاء وأولئك يشتركون إلا في بعض الألقاب المستمدة من أسماء جهات ومناطق ومدن الأندلس².

أما بالنسبة لسلا البالي، فباستثناء العناصر الأندلسية المستقرة قبل قرار الطرد لم تلتحق بها بعد سنة 1609 إلا نسبة ضئيلة جدا من اللاجئين الجدد مثل آل الأبيض (بلانكو في الأصل)³. وقد كانت العناصر الأندلسية المنتمية إليها من ضمن من لجأ إلى المغرب بعد سقوط غرناطة، فتميزوا عن أندلسي الضفة الجنوبية بمحافظتهم على التقاليد والمظاهر والعادات الإسلامية الأكثر تقاربا مع الوسط المحلي، الأمر الذي يسر اندماجهم وانفراستهم بالمنطقة مع طول فترة الاستقرار، وجعلهم لا يبدون أي خلاف مع العناصر الأصلية، بل يشاركون إلى جانبها في جميع مظاهر الحياة كنسيج موحد ذي عادات ومصالح مشتركة، يعارض المستحدثات الحاصلة على يد إخوانهم الوافدين.

وبفعل نشاطهم الاقتصادي وكفاءتهم العلمية شكل هؤلاء قوة اجتماعية وفكرية مؤثرة، سوف تتعرض لتقلص نفوذها مع سيطرة الضفة الجنوبية على المرسى خاصة خلال النصف الأول من القرن 17، ولن تتمكن من استعادة جزء منه إلا عند عودة الاستقرار السياسي إلى المنطقة منذ العهد الدلاني. ومن أشهر الأسر الأندلسية بسلا البالي آنذاك: آل عمار المنتسبون للولي الصالح ابن عاشر، وآل زنبير، وآل حمدون، وآل خالص. كما قدمت عائلات أخرى إلى سلا بعد استقرارها بمناطق مغربية أخرى مثل آل حصار النازحين من سبتة، وآل عطية الإشبيليون القادمون من سلا الجديد، وآل العطار الوافدون من المهديّة⁴.

¹ من الألقاب الأندلسية المعتمدة في سلا الجديد في القرن 17، والمشتقة أو المنحدرة من أسماء أعجمية، والتي لا تختلف كثيرا عن الألقاب الإسبانية، نذكر: كراكشو، كرشبو، بروب، بلامينو، بلانكو، بريس، رودياس، بركيش، مدينا، مورينو، مارسيل، أشكلانط، أراكون، لوباريس، شنتيك، بلانسيانو، بركاني، بنطوجا، بونو، فرشادو، فرناندو، كنظرون، سباطة، بيرو، كيليطو، بلافريج، تكيطو، مولاطو، بلانجو، متجنوش، طيفور، بربيش، تورو، باينة، جبرو، فلوريش، الدك، المراس، قوريا، ضاكة، برادو، جوريو، فنجيرو... نفسه - ص 196-97، وأيضا:

² من بين هذه الألقاب: القرطبي، القصري، القسطالي، الزبدي، لميرو، الرندة، الغرناطي.

³ عشايش - نفسه - ص 63.

⁴ عشايش - صص 25، 33، 45، 46، 62، و63.

2- الأهالي: إذا كانوا قد استطاعوا الحفاظ على موقعهم الاجتماعي بسلا البالي، فإنما اعتبارا لقدم استقرار بعضهم قبل القرن 17 بمدة تطول أو تقصر، مثل آل المسطاسي وآل معينو وآل بنسعيد وآل الدكالي وآل النمريني، ولتوحدهم مع العناصر الأندلسية المستقرة بالمدينة؛ زيادة على بقائها مفتوحة على مختلف الهجرات القادمة إلى المصعب، سواء منها ذات الطابع الديني والفكري مثل ورود الشرفاء العلميين والطالبيين من القصر الكبير، أو ذات الطابع الاجتماعي مثل آل حجي وآل عواد وآل الصبيحي وآل فنيش وآل الشبيهي وآل بوشعراء وآل النجار وآل لعلو وآل محبوبة. بيد أنهم في الضفة الجنوبية لم يكونوا يضطلعون بأي دور بارز إلا عند تراجع السطوة الأندلسية؛ فبمقابل حضورهم القوي خلال الربع الأول من القرن 17 عند بداية استقرار الأندلسيين إلى درجة تسلمهم السلطة في شخص القائد فاضل الزعروري، تقلص دورهم بشكل جلي في تسيير الدفة السياسية والاقتصادية للمجتمع الجهادي رغم محاولات المجاهد العياشي. واستمر ذلك إلى حين خضوع المنطقة للسلطة الدلانية، حيث استعادت العناصر الأصلية موقعها مع إسناد مهمة الإشراف على الضفتين للقائد سعيد الجنوبي، اعتبارا للثقة الموضوعة من طرف محمد الحاج في العناصر الأصلية أكثر منها في العناصر الأندلسية التواقعة دوما إلى الاستقلال.

ومنذ تلك الفترة لم يعد دور الأهالي مقتصرًا على الاهتمام بوضعية سلا البالي بمعزل عن الضفة الجنوبية، وإنما أصبحوا من خلال تمثيليتهم في السلطة بواسطة القائد المنتمي إليهم يؤثرون في التوجه العام لمنطقة المصعب، ويستفيدون من مختلف نتائج الاقتصادية والسياسية؛ وهو ما تواصل في العهد العلوي بحصول الأهالي على فرص تحقيق التوازن في المنطقة، الأمر الذي مثله تزايد أعداد المنخرطين منهم في الجهاد البحري خلال الفترة الأخيرة من القرن 17².

ولا يعني هذا أن الأهالي المستقرين خارج النطاق الحضري لم يتفاعلوا مع أحداثها، بل من المؤكد أن موقفهم السلبي - على غرار إخوانهم الحضريين - من أندلسي سلا الجديد كان حاجزا يعوق انفتاح هؤلاء على الآخرين، وسدا منيعا أمام

¹ نفسه - صص 25، 33، 45، 46، 62، و63، وأيضا: Leroux - Op. cit - p 204-06
² ضمن لائحة الأسرى المغاربة في فرنسا أواخر العهد الإسماعيلي الذين أسروا في ما بين سنتي 1665 و1699م، نجد أن عدد الأسرى المنتسبين لسلا البالي بلغ واحدا وخمسين أسيرا، وهو ما يمثل حوالي 70% من مجموع الأسرى المذكورين. انظر: 84-53 p - T IV - France - 2° série - Les S. I. H. M.

تمازج العنصرين، لا سيما وأن قبائل زعير المتاخمة للمدينة والمتشعبة بالعادات التقليدية المتشددة كانت لا ترى فيهم أكثر من أشباه مسيحيين¹، الأمر الذي جعل الأسوار تبدو بالنسبة لهم حدا فاصلا بين عالمين متعارضين، يفترض أن يكون لعائدات الجهاد دور في تقليص المسافة التي بينهما؛ وهذا ما قد يفسر إشراف بعض صلحاء شالة على تحقيق السلم بين المتنازعين الأندلسيين في سنة 1630، رغم أن هؤلاء انسلكوا عن السلطة السعدية الشرعية.

لكنه من وجهة أخرى اتضح أن توحيد المنطقة تحت راية سلطة عناصر أصلية، مع ما يمثلها ذلك من توزيع مناسب للخبرات الاقتصادية، وعلى رأسها مداخيل الجهاد البحري، بدل الاستفادة المحدودة التي كان يسمح بها الاحتكار الأندلسي لفائدة هذه القبائل. ولذلك خلال حروب العياشي ضد الأندلسيين كان التحالف قويا بينها وقوات المجاهد، ماثحة إياه جبهة برية وقوات عسكرية ظلت إلى جانبه إلى حين مقتله. وبتمكن الدلائيين من توحيد المنطقة أضحت الضفة الجنوبية تتفتح تدريجيا أمام العناصر الأهلية، ولن يصبح ذلك فعليا إلا عند انخراط المنطقة نهائيا في الحياة الاجتماعية المغربية.

3- العلوج: أمدت العمليات الجهادية المنطقة بعناصر من مختلف الجنسيات الأوربية: إسبان، وبرتغاليين، وفرنسيين، وإنجليز، وهولنديين وغيرهم، في شكل أسرى، جعلت مجملهم يكابد ظروفًا بنيسة دون خلاص منها إلا بالفداء أو باعتناق الدين الإسلامي.

ونظرا إلى كثرة أعدادهم وعدم نجاح عمليات الافتكاك إلا في تخلص نسبة ضئيلة منهم، كانت مجموعة منهم تبادر إلى اعتناق الإسلام عن طواعية لما كان يوفره لها ذلك من تحسين وضعيتها من جهة، ومن تسنم مقام اجتماعي متميز من جهة أخرى؛ علما بأن جل هؤلاء كانوا من ذوي الخبرة الملاحية أو العسكرية المطلوبة في مجال الجهاد البحري، فمنهم ربابنة السفن والتقنيون والخبراء بشؤون المدافع، ومهندسو الأوراش والجراحون، وغيرهم من الرجال المتخصصين في هذا المضمار، إلى درجة أن العديد منهم قد استطاع بلوغ مصاف الرياس ذائعي الصيت مثل العلج

¹ إدزوق - نفسه - ص 244.

الهولندي موراطو رايس أمير البحر (1624)¹، أو نصب في أرفع المراتب السياسية مثل العليج الفرنسي الأصل مراد الشليخ قائد القصبنة (1638)².

وقد كانت عملية تحول الأسير المسيحي إلى عليج مسلم تتم بناء على رغبته، حيث يتقدم إلى القائد أو القاضي الذي يشرف شخصيا على ذلك، طالبا من المعني بالأمر ترديد الشهادتين قبل إخضاعه لطقوس الإطهار بتنفيذ عملية الختان، ثم بتكليف أحد الفقهاء بتلقينه قواعد وفروض العقيدة. وكانت نظرة المجتمع إلى هذا التحول من باب الأعمال الحميدة والحسنات الكبرى التي تعود على صاحب الأسير السابق بالثناء والمديح. ومع ذلك لا يؤدي اعتناق العليج للإسلام إلى اعتناقه مباشرة، ولكنه كان مرحلة أولى في أفق تحرره النهائي.

وحدث التحرر هذا كان يتمثل في تحول الأسير إلى مولى تابع لسيده، بتأسيس شبه قرابة بينهما يلتزم فيها كل منهما ضمنيا بتعهدات إزاء الآخر³. وبمجرد تحول الأسير إلى عليج حر، ونجاحه في اكتساب ثقة المجتمع من خلال سيرته الدينية والاجتماعية وكفاءته العملية والميدانية، ينعم بنفس الامتيازات التي يحظى بها المسلمون الأصليون، ويصبح معدودا دون تمييز من عناصر البلد، بشكل يفسح المجال أمامه لبلوغ كافة المناصب حسب قدراته ومؤهلاته⁴؛ الأمر الذي مكن المجتمع الجهادي من الاستفادة من تجارب مجموعة بشرية متنوعة في عدد من الميادين، وخاصة تلك ذات الطابع التقني؛ كما مكن العلوج من تحسين وضعيتهم وإبراز كفاءاتهم. ومن جهة ثانية ترك هذا الانخراط أثارا بارزة على المجتمع، بما أدخله من عادات وتقاليد اجتماعية متنوعة، امتزجت فيها العادات التقليدية المغربية بملامح من الحياة الأوروبية المسيحية، من خلال ما حمله معهم هؤلاء من أخلاق ونظم اجتماعية مغايرة لما هو متداول في وسطهم الجديد⁵.

4- اليهود : كانوا يؤلفون مجتمعا صغيرا على هامش المجتمع الإسلامي،

قاطنين في حارات معينة من مركزي سلا البالي والجديد، منشئين بها مرافقهم الخاصة، ومستفيدين من حرية ممارسة الشعائر الدينية مقابل أداء الدمة؛ وكان قسم

¹ Coindreau - Op. cit - p 43.

² Ibid - p 45.

³ Hubac - Op. cit - p 206.

⁴ Hardy - Op. cit - p 125-26.

⁵ ج. الناصري - نفسه - ص 746.

مهم منهم ينحدر من اليهود الأندلسيين اللاجئين في نهاية القرن 15م على غرار ما شهنته المدن الجهادية الأخرى¹. ورغم أنهم كانوا مجبرين على التفرد بلباس موحد اللون، كانوا على العموم يلقون معاملة متسمة بالتسامح²، لا سيما وأنهم كانوا يضطلمون بدور أساسي في التبادل الخارجي تصديرا واستيرادا، إلى درجة سمحت لبعضهم ببلوغ مصاف وكلاء السلطات المغربية لدى الدول الأوروبية، وخاصة آل بالاش الموكلين من لدن السلطة السعيدية لدى الأقاليم المتحدة³، وحاييم طوليدانو بالنسبة للديوان الأندلسي، وبنيامين كوهين بالنسبة للعياشي⁴.

5 - الأسرى: كونوا مجموعة لا بأس بها في أسفل الهرم الاجتماعي وعلى هامش تراتبية فئاته، بحيث لم يكن بإمكانهم الانخراط فيه بشكل فعلي إلا عند تحولهم إلى علوج. وقد كانت المطاعم هي أولى المقرات المخصصة لاستيعابهم عند بلوغهم سلا الجديد، وتظل مستودعا للجزء الأكبر منهم الذي لم تتمكن عناصره من الحصول على منصب شغل متميز كخدم في المنازل أو رقيق للترفيه، يتيح لهم الانتقال للعيش في كنف مالكيهم.

فقد كان الأسرى يغادرون هذه المطاعم أثناء النهار، والعودة إليها في المساء تحت حراسة مشددة وفي ظل شروط حياة قاسية، مؤدين الخدمات الخاصة لأسيادهم عاملين كمزارعين في الحقول والبساتين، أو كجذافين على متن السفن، أو حمالين في المرسى وفي الأسواق، أو بنائين في مختلف الأوراش والمرافق. ومع ذلك كان يتاح لهم هامش من الحرية داخل المطاعم، لا سيما في الجانب الروحي، حيث يسمح لهم بإقامة أو القداس في كنائس صغيرة بها تحت إشراف بعض الرهبان منهم، بعض قببوسة الإرساليات الدينية⁵.

وخلال فترة ما قبل العهد العلوي ظل أسرى الجهاد البحري مستقرين بصفة أساسية في سلا الجديد، ولم يكونوا ينقلون إلى الداخل إلا استثنائيا، مشكلين بذلك مادة تجارية رائجة بالعدوتين، وبضاعة كثيرة العرض والطلب معه، إلى درجة بدا معها كل منزل، من قصر القائد إلى بيت الفرد العادي، متوفرا على عنصر منهم على

¹ Hardy - Op. cit - p 118.

² Hubac - Op. cit - p 188.

³ Les S I H M. - 1^{re} série - Pays-Bas - T I - p 310 note.

⁴ Ibid - T IV - p 482-83.

⁵ Dan - Op. cit - pp 168 et 255.

الأهل، لما كانوا يقدمونه من استفادة مزدوجة، آنية من خلال استغلالهم كيد عاملة بخسة التكلفة وقابلة لتنفيذ أعمال السخرة، ومستقبلية من خلال قيمتهم كراسمال ثابت يمكن استخلاص ريعه فدية مباشرة من الأسرى الأثرياء، أو مرتقبة من خلال مساعي الإرساليات الدينية المهمة بعمليات الافتكاك¹.

والواضح أن هذه الفئة كانت تضم في صفوفها تفاوتات بارزة تأثرا بالوضعية الاجتماعية للملاك، وبنوعية المهن التي بمقدورهم مزاولتها، لا سيما منها ذات الطابع الحضري، كالخدمات المنزلية التي كانت تتطلب من الملاك الاهتمام بحالة أسراهم لباسا وتغذية وتطبيبا، حتى أن عددا من هؤلاء كانت لهم داخل الأسر التي يخدمونها سلطة لا تقل عن سلطة أسيادهم، ويحظون بمعاملة على غرار الأفراد الأصليين للأسرة².

ومع بسط السلطة العلوية لنفوذها على منطقة مصب أبي رقرق، وتملك مولاي إسماعيل لكافة أسرى الجهاد البحري اعتبارا لأحقية السلطان الشرعي في ذلك، لم يعد بالمقدور تنشيط أسواق النخاسة من طرف الخواص، وأصبح الأسرى يصنفون كمعتقلي الحروب البحرية القائمة ضد دول معادية، وبالتالي أضحي حضورهم في المنطقة قليلا، ولم يعد استقرارهم بها إلا مؤقتا في انتظار الترحيل إلى العاصمة مكناس.

وعلى العموم، كانت لوضعية الأسرى داخل المجتمع الجهادي نتائج عديدة، تمثلت في المستحدثات المهنية التي أدخلوها إلى المنطقة مع ما واکبها من نتائج اقتصادية، إلى جانب تأثيرهم في العادات المحلية وفي نظمها الاجتماعية داخل الأسر والبيوت، معززين بذلك تأثيرات العلوج في هذا المضمار³.

4_ ألبسة المنطقة

كان اللباس المحلي في المنطقة لا يختلف عموما عن اللباس الحضري المغربي إلا في بعض الخصوصيات، باستثناء ما ذكر من احتفاظ الأندلسيين النازحين في مطلع القرن 17 بالمظاهر التي خضعوا لها في إسبانيا طيلة القرن 16، ومن ذلك غطاء الرأس المكون من شاشية حمراء تعلوها عمامة بيضاء وبينهما شوشة زرقاء،

¹ Hardy - Op. cit - p 138.

² Hubac - Op. cit - p 205.

³ ج. الناصري - نفسه - ص 746.

وهو ما كانوا مجبرين على حمله كشارة خاصة بهم على قلنسواتهم خلال عهود مختتمهم الأخيرة¹.

ونظرا لارتباط الحياة الدنياوية بالمعتقدات الدينية، ولزوم الحفاظ على أنقى مظاهر الطهارة في مختلف مجالات الحياة، كان سكان المنطقة حريصين بشكل واضح على جودة الملابس ونقاوتها، محافظين بشدة على نظافة القمصان والمرتديات الداخلية، حتى أنه لم يكن يثير غضبهم أكثر من تعرضها للمس من طرف الأشخاص غير المسلمين، أو الاقتراب منها بأيدي متمسخة². وقد كانت عموما عبارة عن أقمشة صوفية أو قطنية يتطلب بعضها مهارة عالية في الحياكة والزركشة، ويبدو بعضها الآخر أقرب إلى النسيج البسيط³، ومتنوعة حسب إمكانيات ومراتب عناصر المجتمع. وقد كان متداولاً في أوساط الضفتين اتخاذ الألبسة داخلية مشكلة من سراويل قصيرة لا تصل بالنسبة للعوام مستوى الركبتين، تربط على الخصر مباشرة، ولا يحملون معها أية جوارب؛ في حين كان المترفون منهم يرتدون سراويل تصل إلى منتصف الساقين. أما في الجانب العلوي من البدن كان اللباس يتألف عادة من قفطان يفوق الجسد طولا وعرضا، يعلوه "صداري" أشبه بصدرية دون أكمام، يضع الميسورون فوقه سترة "فراجية" واسعة بكمين قصيرين يصلان إلى منتصف النراعين، وهي مدبجة بعدد كبير من العقد الدقيقة والمزدحمة التي لا يتم فك رباطاتها، وتربط فوق الجسد بحزام متناسق يحل محل الجيب لحمل كيس النقود أو لترتيب الخنجر الشخصية. أما في الرجل فكانوا يحتذون نعلا مصنوعة من جلد الماعز يتقن الصناع في إتقان هينتها ومظهرها.

وتنوعت أشكال الألبسة الخارجية ما بين حلل صوفية بيضاء واسعة مرصعة بعقد على الجانبين، تمتد إلى أربعة أمتار أو خمسة طولا، ومتر ونصف عرضا، تدعى "الحايك" أو "الكسا"، ينتهي أسفلها بنوع من الخمل "الهدوب" المكون من الخيوط المفتولة مما تبقى من غزل الأقمشة. وقد كان هذا اللباس شائع الاستعمال في

¹ السويسي - نفسه - ص 167.

² Savine - Op. cit - p 68.

³ أضفنا في وضع رسم الصورة العامة لألبسة المنطقة لتلك الفترة على المذكرتين التاليتين:
مذكرة القنصل الهولندي ه. دوبر لسنة 1695، في: Les S I H M - 1^{re} série - Pays-Bas - T VI - 605-07

ومذكرة لرئيسية مجهولة وغير مؤرخة حول مملكتي فارس ومراكش، في: Savine Op. cit - p 56-58.

كيد عاملة
سمال ثابت
ال مساعي

بالوضعية
ت الطابع
ة أسراهم
يخدمونها
الأصليين

ك مولاي
ك، لم يعد
يصنفون
رهم في
لعاصمة

عديدة،
ن نتائج
ال أسر

مغربي
ينين في
ن ذلك
رقاء،

¹ Hardy
² Huba

عوم شمال غرب إفريقيا، وكان يستعمل خصيصة للخروج، حيث يتأق في كيفية إبرازه وتلفيف الجسد به باستثناء جانب الكتف الأيمن. وخلال فصل الشتاء البارد كان سكان المنطقة يضيفون إلى ما ذكر رداء واسما يعلو الحايك، وهو عبارة عن سلهاق قصير ينسج من وبر الماعز أو من الصوف الأسود اللون "الخفيف"، أو من الجوخ أو الصوف الملون - يتم ارتداؤه بشده إلى الكتفين بواسطة العقد - "غفارة"، وهو يغطي نصف الجسد. ويتوفر على "قب" في الخلف، ومزدان بعقد أمامية على الصدر، وعند تشميره وجعله فوق الرأس قبل تغطيته بالقب يعرف آنذاك "مغنش".

وفضلا عن هذين النوعين كان شيوع ارتداء البرنس - ينعت أيضا "قبلاز" ² عند شده إلى الأمام - وهو أشبه بالخفيف، لكنه كان يشتمل على قب ينتهي بـ "شرابة" أو "قلموز" تتدلى منه، وهي منسوجة من قماش مختلف عن قماش البرنس. وقد كانت الغفارة والبرنس من البسة الفئات الميسورة، في حين كان الخفيف حكرا على العامة. وفي الأوساط المهنية كان شيوع ارتداء حلة مبطنه "سانطبار" ³ أو "قبوط" ذات أكمام متدلّية، ومفتوحة في الصدر، وموشاة على جانبيه بعقد حمراء صغيرة تجمع بينها خيوط الربط، وتتوفر في الخلف على قب. وكان الإقبال عليها في أوساط الحرفيين والبحارة على الخصوص نظرا لرخص تكلفتها، ولسهولة لبسها وخلعها.

أما غطاء الرأس فكان مفروضا على الرجال - بغض النظر عن مرتبتهم الاجتماعية - ستر رؤوسهم بعد الزواج بعمامة منسوجة من قماش من الصوف "الكورزية" ⁴، أو من القطن "الشد"، وكان العامة يغطونها أحيانا بقبعات مرتفعة من الصوف الأحمر "الشاشية" ⁵. وكان يفرض على الأبناء ترك الرؤوس سافرة وحليقة تماما إلا من نديفة صغيرة من الشعر يصنعون من خصلاتها ظفيرة فريدة، ويظلون على تلك الحالة إلى حين بلوغهم، ليسمح لهم آنذاك بارتداء الشاشية، دون العمامة التي لا يبلغونها إلا عند تحقيقهم شرط الزواج ⁶.

¹ Hardy - Op. cit - p 68.

² القبلاز: لفظ مترجم عن الكلمة الإسبانية (Cappellar).

³ سانطبار: لفظ معروف عن الكلمة الإسبانية (Saltaem Barca).

⁴ لصحت الكورزية في بداية القرن 20 تطلق على الحزام الصوفي أو الحريري.

⁵ الشاشية أضحت شائعة الاستعمال في شمال غرب إفريقيا منذ وصول الأتراك العثمانيين إليها.

⁶ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T II - p 171.

وفي ما يخص اللبسة النساء، كانت قمصانهن تنسج على منوال قمصان الذكور، باستثناء المظهر الأمامي الذي كان يطرز ويوشى بأشكال بديعة وبتخاريم هندسية. وكان يعززن سترتهن بحمل قطعة قماشية بيضاء مفتوحة، ذات طول يتجاوز المترين يلفنها حول الجسد، ويربطنها بحزام خاص؛ وفوق هذه الملابس يضعن حايكا¹ الدراعة² أو "الإيزار"³ منسوجا من القطن الأبيض الرفيع يتلحفن به من الكتفين إلى الركبتين⁴. وينتعلن نعالا حمراء تختلف نسبيا عن النعال الذكورية. لكنهن عند الخروج يجبرن على ارتداء سراويل تحت اللبسة ذات طول كاف لستر سيقانهن، وعلى ارتداء خمار يحجبهن عن الأنظار⁵.

وتظفر النساء شعورهن مستعينات بأشرطة وأنسجة قماشية، ويصنعن منه ظفيرتين ممدودتين إلى الخلف على طول الظهر؛ ويزينن جباههن بما يشبه عصا خضراء اللون أو مخططة، يتدلى طرفها ليلبغا مستوى الحزام. وكان يستعملن لزينتهن بعض الحلي بحسب إمكانياتهن ووضعهن الاجتماعي، عبارة عن حلقات من الذهب أو الفضة محلاة بالأحجار الكريمة، وتحمل الميسورات منهن قلاند مرجانية أو بلورية تتدلى منها القطع الذهبية أو الفضية، أو المحارات الرفيعة الملقبة لدى الإنجليز "قطع غينيا"؛ في حين كانت نساء العامة يكتفين بأساور فضية، والأدقعهن فقرا بحمل حلي نحاسية⁶.

¹ Ibid - 1^o série - Pays-Bas - T VI - p 608.

² Hardy - Op. cit - p 90.

³ Savine - Op. cit - p 59.

⁴ Loc. cit.

الفصل الثاني: الأنشطة الاقتصادية بالمنطقة

(على هامش الجهاد البحري)

لم يكن انتشار الجهاد البحري ليلغي دور منطقة مصب أبي رقراق كمركز اقتصادي متعدد الإنتاجية، وقاعدة محورية في علاقات التبادلين الداخلي والخارجي؛ وإنما أتى ليعزز هذا الدور، لما كان مفروضا على المراكز الحضرية آنذاك من ضرورة تحقيق اكتفائها الذاتي على مختلف الأصعدة، مما كان يوصمها بنوع من التمازج بين الطابع البدوي المتمثل في انتشار المجال الفلاحي حتى داخلها، وبين الطابع المدني الظاهر في قيام المدينة بدورها الحضاري إزاء عناصرها وإزاء المحيط الواقع تحت إشعاعها، بما تقدمه من خدمات ما بعد إنتاجية أو تحويلية أو تسويقية، وأيضا نحو المحيط القاري العام باعتبارها مركزا إقليميا رابطا بين النواحي وبين المراكز الرئيسية الأخرى من جهة، وبين البلد والمحيط الخارجي ببروزها كاحدى البوابات الرئيسية المنفتحة على المحيط الأطلنتيكي وأوربا، عبرها يتم تصريف المنتوجات المحلية واستقبال وتوزيع البضائع المستوردة من خارج القارة.

وقد تضافرت عدة شروط مساهمة في تعزيز المنطقة إنتاجيا وتجاريا، حيث أن اعتدال مناخها على مدار السنة¹ كان يهيئ ظروف إنتاج جيد، مثلما كان أحد الأسباب الرئيسية لاستقطاب عناصر فاعلة نزحت إليه بخبراتها في مجالي الزراعة والسكافة بحسبها الاقتصادي، فبثتها في فضائها الجديد بتنشيطها للمنطقة فلاحيا، مؤسسة نظاما زراعيا حضريا قائما على البستنة وبذر المواد الأساسية في التغذية؛ كما بتقويتها لحرف الصناعة الصغيرة، سواء تلك المرتبطة منها بالمجال الفلاحي مثل الخرازة والحياكة، أو تلك المتعلقة بالتعدين الخفيف مثل الحدادة وصهر النحاس؛ ولكن أيضا بتنشيط التجارة، لا سيما وأنها أضافت إلى مهمتها الأولى - كمركز يمثل ساكنته والوسط المحيط به - مهمة أساسية بوقوعها كمنفذ بحري رئيسي في الاتصال بين شمال المغرب والقارة الأوروبية.

وقد أتى بروز مصب أبي رقراق كقاعدة للتجارة الخارجية المغربية بفضل اضطلاعها بدور تخزين مغانم الجهاد البحري في انتظار تسويقها ثانية إلى أوربا،

¹ Burlot - Op. cit - p 6-7.

حيث ساعده ذلك - على غرار بقية المدن الجهادية الأخرى- على التأثير إيجابيا بحركة الجهاد التي عوض أن تلغي التجارة أدت إلى ازدهارها¹. وتجلى ذلك من خلال استمرار قدوم السفن التجارية نحو مرساها طيلة القرن وحتى في أخرج اللحظات السياسية، وأيضا في سعي الدول الأوربية إلى تحقيق استفادة قصوى من التبادل مع المغرب انطلاقا من مرسى سلا الجديد، مع مطالبته بإلحاح بضمان حرية التجارة، وبتقنين الحقوق الجمركية من خلال المعاهدات والاتفاقيات المبرمة مع مختلف السلطات المتعاقبة على حكم الضفتين.

ومقابل هذه الطفرة الاقتصادية التي أنعشت المنطقة، بدا واضحا أن أثارها إقليمية ضيقة لم تتعد أسوار سلا البالي والجديد إلا نادرا، وحتى ما شع منها كان أساسا باتجاه المراكز الرئيسية الأخرى: فاس ومراكش ومكناس؛ في حين ظلت الناحية المحيطة بالأسوار تعيش حياتها بمعزل عن مجريات الأمور الاقتصادية بالمصب، وفي بؤس وتخلف عن مركزيه اللذين اغتنت ساكنتهما الحضرية، ووفرت حتى للفئات الدنيا مستوى معيشيا مرتفعا نسبيا²، نتاج الربيع المولدة عن السيولة النقدية (مداخل الجهاد، التجارة الخارجية...)، بمقابل رخص أسعار المواد الفلاحية المرتبط بضالة التكاليف المتأثرة باليد العاملة المسخرة محليا من جهة، وفارق المستوى المعيشي بين الحاضرة والبادية من جهة أخرى.

1 - الإنتاج الطبيعي والفلاحي

كانت الوضعية الطبيعية لمنطقة مصب أبي رقران مواتية جدا لقيام نشاط فلاحي هام، حيث إلى جانب تمتعها بمناخ معتدل ورطب ومنفتح على التأثيرات المحيطية بشكل جعلها تحظى بتساقطات منتظمة وكافية، كانت تتوفر على مصادر مياه باطنية برع السكان في استغلالها بالدواليب والسواقي وبحفر الآبار، بتجميعها في الصهاريج والبرك، قبل توزيعها بالصيغ الملانمة " حتى أن الماء القليل يكفي مساحة كبيرة من الأرض في السقي"³.

¹ Coindreau - Op. cit - p 49.

² Monlaü - Op. cit - p 106.

³ الدكالي - نفسه - ص 37-38.

وقد تميزت المنطقة بوجودها في سهل منبسط ذي تربة خصيبة صالحة للزراعة والرعي - رغم ترميلها¹ -، نتيجة وقوعها في نهايتي إقليمي تامسا والعرب المشكلين لنطاق سهلي متميز بشساعته وبقوته الإنتاجية. وساندت هذه الظروف الملائمة ورو- كفاءات بشرية على درجة هامة من الخبرة والدراية في المجال الفلاحي، حيث أن الأندلسيين النازحين قد دعموا بنية الإنتاج بعدوتي المصّب، موسعين نطاقها المتمركز أصلا في الضاحية الشمالية إلى نظيرتها الجنوبية (من نهاية الجزء المعمور إلى الأسوار الجنوبية) أيضا، معتمدين في ذلك على موروثاتهم التقنية من أساليب ووسائل العمل وتنويع للمنتوجات، ومستفيدين من الخدمات قليلة التكاليف التي يقدمها الأمري²، حتى أضحي مركزا سلا الجديد والبالى وهوامشهما عبارة عن حقول وبساتين كثيفة المردودية³، مقدمين بذلك نموذجا للمدن الجهادية إن على المستوى البشري أو الإنتاجي⁴.

اعتمد نظام البستنة هذا كأساس للنشاط الزراعي الحضري، ولم يقتصر على الضيعات الواقعة خارج النطاق السكاني فحسب، وإنما امتد أيضا حتى داخل رياض المنازل خاصة وأن الأندلسيين حرصوا على غرس الكروم التي "يحسنون معالجتها حتى في الديار باتخاذ العريش في غالب المساكن، فتجد البلد بين بياض القصور والمساكن واخضرار العريش في منظر عجيب ورونق رفيع"⁵. وقد سمح هذا بتعدد الإنتاج وتنوع ثمراته حتى على مستوى الصنف الواحد، مثل العنب بنوعيه الحريري والمسكي، والإجاص والمشمش والسفرجل والخوخ واللوز والرمال كثير الأنواع، والبرقوق، والنانرج، والليمون الطرابلسي، والليم الرقيق، والتين بأنواعه المتعددة، والتفاح، والتوت، وأنواع عديدة من الأزهار والرياحين مثل الورد، وأنواع الياسمين، والفل، والقرنفل، والخابور، والحبق، والفرجس، والبحار. وكان السكان يعتمدون إلى غرس بعض هذه الرياحين وبعض الأشجار وسط الديار لجماليتها وطيب رانحتها⁶.

¹ Dan - Op cit - p 208.

² Lev S / H M - 1^{re} série - France - T III - p 560.

³ Ibid 2^{me} série - France - T II - p 181.

⁴ المقارنة بين مركزي سلا والجزائر في هذا المجال، يشير الأب دان قائلا: "بالجزائر ترى بساتين جميلة جدا، والبساتين الكثيرة في زراعة الأرض ورعي الماشية". انظر: Dan - Op cit - p 87-88. نفسه - ص 38. نفسه - ص 39.

وزيادة عن نشاط الغراسة المختص بإنتاج المواد الغذائية التكميلية، كان جزء مهم من الأراضي مخصصا لزراعة الحبوب كالقمح والشعير، وأنواع الخضراوات الضرورية للاستهلاك¹. إذ كان لزاما على سكان العدوتين البحث في سبل تأمين الاكتفاء الذاتي، لا سيما وأن الظروف التاريخية وصمت العلاقة بين المجالين الحضري والبدوي بالاضطراب، وكان تفتح المعاملات الاقتصادية بينهما مرتعنا بحسب درجة العلاقة المصلحية بين عناصرهما من جهة، وبحسب التأثيرات الاجتماعية والسياسية التي تطبعها، وأساسا بالنسبة لمقر الاستقرار الأندلسي الذي كان الاتصال بينه وبين العالم البدوي متذبذبا خلال النصف الأول من القرن 17، محتما عليه تأسيس نشاط زراعي يفي بجزء أساسي من حاجياته، وسعيه إلى توفير الخصائص - سيما أثناء الحصار الاقتصادي التي تعرض لها - باللجوء إلى مناطق إنتاج أخرى، كالجوء ساكنة سلا الجديد لدى السلطان السعدي خلال أزمة 1637-1640، أو لدى الإسبان والإنجليز خلال نفس الفترة²، في الوقت الذي كان فيه خصومهم يحاولون شن هجمات تخريبية على مزارعهم ومغارسهم داخل الأسوار⁴.

وبمقابل الأهمية التي كانت تولى للمزروعات الغذائية، كان قسم آخر من الأراضي يخصص للإنتاج الفلاحي الموجه لصناعة النسيج، وعلى رأس ذلك زراعة القطن⁵ والكتان، الذين انتشر نطاقهما بهوامش المركزين وبضفاف النهر وبلاد الولجة وبالساحل البحري لسلا البالي، وكان " يعمر بغرسه مسافات من الأرض المجاورة لسلا، إلا ما قبل كبلاد الولجة وما جاور أسмир فإنه كان يسقى بمائه "6. وكان إنتاج هذين المادتين إلى جانب تربية دود القز وغراسة أشجار التوت موجهة للاستغلال في هذه الصناعة.

وقد ساد النشاط الرعوي في المنطقة كجزء تكميلي، لا سيما تربية الدواجن التي لاحظ الأب دان كثرة وحداتها بالمنطقة، إلى درجة أن أسعارها لم تكن تساوي إلا شيئا

¹ Caillé: "La ville de Rabat..." - Op. cit - p 246.

² Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - pp 543-44 et 585-88.

³ Ibid - Pays-Bas - T V - p 45.

⁴ Ibid - France - T III - p 536-41.

⁵ Dan - Op. cit - p 208.

⁶ الدكالي - نفسه - ص 39.

وهذا¹. وكان الاهتمام بتربية الماشية - خاصة الأبقار - مزدوجا لاستغلالها في التغذية (لحوم وألبان)، وفي صناعات النسيج والدباغة والخرازة (أصواف وجلود). ومن جهته ساهم المجال النهرى في إمداد السكان بمواد متنوعة، بداية بالصيد حيث يكثر سمك الشابل بنهر أبي رقران، الذي يشرع في اصطياده خلال الفترة الممتدة من بداية فصل الخريف إلى نهاية فصل الشتاء، حيث تجمع كميات وافرة منه بالشباك والحواجز والشروء، كان الصيادون يعمدون إلى نصبها بناحية السهول². وإلى جانب ذلك كان النهر يوفر على جانبيه مود طبيعية قابلة للاستغلال في صناعة الحصر (الديس أو السمار).

ويتضح من خلال هذا أن الطبيعة الحضرية للعوتيين قد فرضت نمطا فلاحيا قائما على الاستغلال الأقصى لمساحات ضيقة من الأراضي لا تقي بحاجيات الاستهلاك، وتوجهها في الوقت ذاته إلى إنتاج مواد غذائية حضرية لا توفرها البادية المحيطة بها، ومواد نباتية يعتمد عليها في صناعة المفروشات والألبسة، الأمر الذي كان يجعل المدينتين مشدودتين بقوة إلى استكمال خصائصها من المجال البدوي، رغم ارتئان إنتاجية هذا المجال بالظروف المناخية المتحكمة فيه (جفاف، جراد...) ³ من جهة، وارتئان طبيعة العلاقات بين الطرفين بالتفاعلات السياسية والاجتماعية، بما يجعل المنطقة تعاني اضطرابات دورية كلما اشتد الخصائص وتدنّى مستوى المعيشة الناجم عن الارتفاعات الظرفية للأسعار (سنوات 1630، 1637، 1650، 1653، 1663، 1677..)⁴، والتي تحصل في أعقابها أوبئة وطواعين كارثية⁵ تؤثر بشدة على البنية البشرية للمنطقة؛ فقد قدر مويط عدد ضحايا ذلك خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1678 و1680 بثمانية عشر ألف ضحية في سلا وحدها⁶.

¹ Ibid - p 208.

² الناصري - نفسه - ص 122.

³ القادري - نفسه - الجزء الثاني - ص 234.

⁴ كتاب التصل الهولندي دو فريز في أكتوبر 1653 عن سلا قائلا: "بالنسبة لهذا البلد فإنه في وضعية مؤسفة جدا رغم العلم، وذلك نتيجة الحصاد السيء للمنتجين أو الثلاث سنوات الأخيرة، والوفيات مهمة في صفوف الأهالي الفقراء، ولي كل يوم يسقط موتى تلقى جثثهم في الزقاق مثل الكلاب، " انظر: Les S. I. H. M. - 1^o série - Pays-Bas - T V - p 352. السادس - ص 112 ورزوق - نفسه - ص 223.

⁵ القادري - نفسه - ص 223.

Penz - Op. cit - p 316. وأيضا: 250، 217، 134، 31، 29.

⁶ Les S. I. H. M. - 2^o série - France - T II - p 174.

2- التصنيع الحرفي

تركزت بالمنطقة مجموعة من الأنشطة الصناعية الصغيرة الموجهة للاستهلاك المحلي وتغطية السوق الإقليمية من ناحية، ولتصدير جزء منها نحو المراكز الداخلية الرئيسية، ولمقاومتها بالسلع الأوروبية من ناحية أخرى. وقد اعتمدت الصناعة المحلية هذه على المواد الفلاحية والطبيعية بالدرجة الأولى، ويمكن تلخيصها على النحو التالي:

أ- صناعة النسيج والمفروشات: وتأتي على رأسها الحياكة التي ازدهرت منذ استقرار الأندلسيين الأوائل عقب سقوط غرناطة، وزادت قوتها مع توالي هجرات إخوانهم إلى المنطقة وإشاعة زراعة القطن والكتان بحقولها، إلى درجة أضحت الحياكة في مختلف أسلاكها الحرفة الرائجة بالمدينتين، حيث كان "يجيء من هذه الغرسة القطنية والكتانية ما يشغل نساء العدوتين ورجالهما بالتنقية والنفس والغزل، وأصبحوا في صناعة الحياكة في الدرجة الأولى".¹

وقد كان تنظيم الحياكة والطرز في معامل حرفية متعددة بالعدوتين تكاد لا تحصى، مختصة بنسج الأقمشة والملابس، خاصة منها تلك المتوقفة على الحضر وفناتهم الميسورة، فارتبطت بها مهن أخرى مثل ظفر الحرير والخياطة وطرز الثياب الفاخرة. وإلى جانبها نشطت صناعة الكساء والزرايبي بالاعتماد على الأصواف، كما ازدهرت صناعة الحصر اعتمادا على سمار ضفاف أبي رقراق. وكان الإنتاج يتسم بالجودة والإتقان وحسن المنظر وعجيب الرقم، وكان له رواج في سائر بلاد المغرب ومناطقه، حتى اعتبرت صناعة الحصر من اختصاص أهالي سلا البالي.²

ب - الدباغة والخرارة: كان يعتمد فيها على ما تدره تربية الماشية من جلود، وما يستقدم من البادية من مواد خام؛ وكانت من أعظم الحرف بالمدينتين، حيث برع الصناع المتخصصون في معالجة الجلود ودباغتها وصبغها بالألوان المتنوعة، وبإتقان استغلالها لصناعة الملابس من أردية ونعال على غرار ما اشتهرت به مدن فاس ومراكش وتطوان.

¹ الديكالي - نفسه - ص 39.

² نفسه - ص 41.

ج- الفخار وأحجار البناء: كانت من أهم الصناعات بالدوتين، وتمتد منازلها بالأواني والأجفان الضرورية في الحياة اليومية، معتمدة في ذلك على الطين الذي تزرع به حدود سلا البالي؛ فتعددت دور صناعتها وأفرانها، وتعددت الأنواع المنتوجة، بالغة درجة كبيرة من الإبداع، مثل الفخار المزجج الذي يكاد يكون حكرًا على المنطقة.

كما تفتن المختصون بأشغال البناء في صناعة الأجور الملون الرفيع " الزليج "، الذي كان خاصا بتزيين أرضيات وجداريات الدور؛ وإلى جانبها تعددت الحرف الأخرى المتعلقة بفن المعمار مع ازدهار المهن المرتبطة بنقش الحجر وتخريمه، وكذا استغلال الجير الأبيض الشبيه بالجبص لإنجاز معالات القصور والديار وتنجيدها¹.

د- النجارة: إلى جانب أهميتها كصناعة ارتبطت في جزنها الأساسي بالجهاد البحري، وبأوراش بناء السفن نتاج توفر المنطقة على أخشاب غابة المعمورة داخليا، واستغلال الصنوبر الأوربي المستورد. ولا بد أن تكون النجارة قد تعدت صناعة المراكب لتقوم بإمداد المدينتين بلوازمهما الحضرية من أثاث وتجهيزات منزلية وغيرها.

هـ- حرف تعدينية: شهدت المنطقة قيام عدة صناعات صغيرة قائمة على استغلال المعادن المستخرجة من بعض المناجم القريبة منها، كالقصدير الذي كان - حسب شهادة الأب دان - يدر عليها مداخيل هامة²، أو باستغلال معادن أخرى من داخل المغرب كالتحاس الذي كان يعتمد إلى تسبيكه وتجزئته³، أو بإعادة استغلال معادن صنعت من قبل، مثل إعادة إذابة بعض قطع المدفعية غير صالحة الاستعمال⁴. وحسب وظيفة المنطقة جهاديا تجدر الإشارة إلى أنها حظيت أيضا بظهور صناعة الأسلحة محليا باستغلال خبرات الأندلسيين وكفاءة رفاقهم من العلوج، حيث يؤكد الأب دان الدور الكبير الذي قاموا به في هذا المضمار، بقوله: " لقد الحق هؤلاء أضرارا عديدة بالعالم المسيحي منذ أمد، لأنهم لقنوا للمسلمين طرق استعمال وصنع الأسلحة، ومنها أخرى عديدة أيضا " ⁵.

أنفسه والصفحة.

² Dan - Op. cit - p 207.

³ Les S I H M. - 2^e série - France - T IV - p 472.

⁴ Ibid p 428.

⁵ Dan - Op. cit - p 203.

وكافة هذه الصناعات كانت تخضع لنظام مقنن ومتعارف عليه، حيث يتوزع الصناع والحرفيون إلى "حنطات" وفق التخصص، منتظمة في إطار مهني على شاكلة الحواضر المغربية يتألف من المعلمين والصناع والمتعلمين، ويشرف على كل حرفة أمين قائم بشؤونها ويتتبع إنتاجها ورجالها، يختار من بين العناصر الأكثر تجربة واستقامة ورسوخا في الصنعة. وكانت دور العمل ومقراته بالنسبة لكل مهنة متجاورة غالبا في زقاق خاص يحمل اسم الحرفة، بشكل ييسر مراقبة إنجاز المنتجات وتمتعها بالموصفات المطلوبة وفق نظام أو قانون ينظم محاسبة المكايل والأوزان، ويفرض شروطا للنظافة والجودة، مانعا كل مساس بالأخلاق المهنية وبسمعة الصنعة¹. ولذلك كانت سلطة المراقبة تتمثل في أمناء المهن، إلى جانب محتسبين يكونون تحت الإشراف المباشر للقائد أو القاضي.

3- العلاقات التجارية

فرضت الحياة العامة نظاما اقتصاديا داخل العدوتين يركز على تيسير عملية تسويق البضائع المحلية والمستوردة من المناطق الأخرى أو من الخارج، وفق نسق معمول به يسائر النظام المذكور للحرف، من حيث تجمع دكاكين وحوانيت البضائع المنسجمة في أحياء خاصة بها تكنى بنوع البضاعة، وتحت إشراف أمين يراقب مختلف تفاصيل عرضها وتسويقها بما يضمن السير الحسن للسوق.

وكان النقد المستعمل في التجارة المحلية يقوم على نوعين من المسكوكات:

* مسكوكات ذهبية: استعملت منها ثلاث قطع مختلفة الحجم واللون وفقا لقيمتها، هي المتقال، ونصف المتقال، وربعه².

* مسكوكات فضية: ذكر منها الأب دان ثلاث قطع أيضا، تتمثل في الدرهم الكبير، والدرهم الصغير، والفلس؛ كما استعملت في عهد مولاي إسماعيل قطعة فضية أخرى سميت "الموزونة"³.

وإذا كانت هذه القطع متداولة بشكل عادي كمسكوكات محلية، فإنه من المفترض أن يشيع استعمال مسكوكات أخرى غير محلية على الهامش، باعتبار عائدات الجهاد البحري والتجارة الخارجية التي كانت تراكم في أيدي سكان المدينتين عملات أوروبية مثل الفلورين، والدوكا، والإيكوس، والليرة وغيرها، مما يحتم تداولها كرافد جانبي في

¹ Hubac - Op. cit - p 189.

² Dan - Op. cit - p 233.

³ Savine - Op. cit - p 14.

الدورة النقدية العامة، لقوة هذه الدورة في المنطقة مقارنة بحركيتها على الصعيد النقدي العام للبلد.

ولوجودها كمحور حضري في وسط بدوي أو شبه قروي شاسع وبعيد عن تأثيرات أي مركز حضري آخر، حازت منطقة مصب أبي رقرق أهمية كبرى في ربط العلاقات التجارية بينها وبين المحيط الدائر بها، وتمثل ذلك في مقايضة المنتجات الريفية بالمصنوعات الحضرية، محصلة بذلك على حاجياتها من الخشب والجلود والديس والشمع، فضلا عن المنتجات الزراعية، خاصة الكتان من ناحية مكّاس، وريش النعام من تافيلالت عبر فاس، ومواد أخرى من المناطق البعيدة. وكانت هذه المستوردات تستجلب إما لتصنيعها محليا أو للاستهلاك المباشر، كما كان منها ما تقوم المنطقة فقط بعملية احتضانه مؤقتا من أجل إعادة تصديره إلى أوروبا. وفي المقابل كانت المنطقة تصدر إلى داخل البلد مصنوعات من الحصر والفخار إلى إقليم الغرب، والنسيج إلى مختلف المناطق، والمصنوعات الجلدية إلى البوادي، والجلود المدبوغة إلى فاس ومراكش¹.

وعلى صعيد التجارة الخارجية استثمرت منطقة مصب أبي رقرق إرثها الاقتصادي كيوابة تجارية رئيسية في المغرب، تدعمت بإفلاتها من السقوط في يد الاحتلال الإسباني على عكس المراسي الأخرى الواقعة شمالها، مما جعلها المرسى المغربية الأقرب إلى أوروبا. وكانت دول هذه الأخيرة تتنافس في ما بينها لتصرف عبرها منتوجاتها المتنوعة باتجاه الأسواق الداخلية²، خاصة وأن الجهاد البحري قد انعكس بشكل إيجابي على الحركة التجارية بين مرسى سلا الجديد والموانئ الأوربية، حيث أن جزءا أساسيا من المبادلات تولد عن اضطراب رياس الجهاد إلى تأمين خط استيراد متواصل بين مراكز إنتاج العتاد وأجهزة الحرب ووسائل الملاحة، مقابل نصريف القسط الأوفر من المغنم، مانحين للتجار الأوربيين وضعية ملائمة لتنشيط المبادلات المغربية-الأوربية، وممتعينهم بنوع من الحرية المدنية والدينية³ في سبيل ذلك؛ فكان أن استقطب الجهاد البحري التجارة طيلة القرن 17 بدل تنغيرها من جراء رغبة الأطراف المستفيدة في الحفاظ على الوضع القائم⁴.

¹ راجع المؤلفات التالية: الكلي - نفسه - ص 41-43، والشاذلي - نفسه - ص 144-145، وأيضا:

Les S I H M - 2^e serie - France - T IV - p 471-72.

² De Castries - Op cit - p 821.

³ Dan - Op cit - p 429.

⁴ Monlau - Op. cit - p 90.

إن تركّز الجهاد البحري بالضفة الجنوبية مع احتضانها للمرسى والعناصر النشيطة في هذا المضمار قد جعل سلا الجديد تستقطب الفاعليات التجارية الأوربية، من تجار ومهربيين ووسطاء وبعثات تحرير الأسرى، إلى جانب من يشرف على المصالح الأوربية من قناصل ومفاوضين ووكلاء؛ وأدى ذلك إلى انقلاب الثقل التجاري في المنطقة تضرر منه مركز سلا البالي؛ إذ كانت الاستفادة القصوى لفائدة الأندلسيين بمقابل إفقار عناصر الضفة الشمالية¹، في وقت كانت فيه دول أوروبا تتنافس من أجل الظفر بامتيازات في السوق المغربية. فتوالى ورود السفن الهولندية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية كاستمرار لحركتها خلال القرن الأسبق، بل وحتى السفن الإسبانية أذن لها الملك فيليب الرابع بصفة استثنائية بالتعامل مع سكان القسبة وسلا الجديد سنة 1626².

وحتى خلال فترات الأزمة بين سلطات الجهاد والدول الأوربية من جراء كثافة العمليات ضد سفنها، كانت المسألة التجارية تظل فوق كافة الاعتبارات، وتحظى باهتمام شديد من طرف هذه الدول، تشهد عليه مختلف المعاهدات والاتفاقيات المبرمة مع قواد المنطقة طيلة القرن. ومن بادر من ملوك أوروبا إلى إقرار الحظر التجاري على المنطقة لتعزيز الحصار العسكري، كان لا يلبث أن يعدل عنه تحت وطأة مصالح رعاياه من التجار³.

ويفسر هذا الدور التجاري الكبير الذي كانت تضطلع به مرسى سلا الجديد، رغم تأثرها بحالة الاستقرار السياسي وبقوة الضغوط الأوربية، حيث يبدو أن الحركة التجارية عرفت أثناء النصف الأول من القرن قوة وازدهارا واضحين، مستغلة الانعكاس الإيجابي لتجارة المغنم عليها. ففي غضون شهر واحد من سنة 1630 أحصى المندوب الإنجليزي هاريسون وصول أكثر من ثلاثين سفينة تجارية إلى مصب أبي رقران⁴.

ومنذ انطلاق الدول الأوربية في نهج خيار الضغط العسكري المتلاحق خلال العهد العلوي، أضحت الحياة التجارية للمنطقة تعرف نوعا من التراجع والتذبذب

¹ الشاذلي - نفسه - ص 151.

² ج. الناصري - نفسه - ص 903.

³ في سنة 1688 اضطر لويس الرابع عشر إلى إلغاء قرار الحظر الذي سبق أن اتخذته ضد المغرب، وذلك بناء على شكوى التجار الفرنسيين من أنه لا يخدم إلا مصلحة منافسيهم الإنجليز. انظر:

Les S. I. H. M. - 2° série - France - T III - p 179

⁴ ج. الناصري - نفسه - ص 903.

وصل أحيانا إلى ركود شامل (1671م)¹، أو إلى تقلص أهميتها من جراء توتر العلاقات بين المنطقة وأوربا². فحسب مذكرة القنصل الفرنسي إيستيل كان عدد السفن الفرنسية التي وصلت إلى مرسى سلا الجديد من أجل التجارة سنة 1696 ثلاث سفن وسبعة زوارق في غضون عشرة أشهر³.

وقد أدى لجوء السلطان مولاي إسماعيل إلى اتباع سياسة توجيهية للجهاد البحري وفقا لمصالح الدولة إلى اكتساب التجارة لقوة أكبر على حساب ضعف المواسم الجهادية، نتاج الرغبة المتبادلة بين السلطان والدول الأوربية في إقرار علاقات تبادل سلمية تسمح له بالحصول على مداخيل جمركية منتظمة ومقبولة، بمقدورها تغطية خصائص مداخيل المغانم، وتتيح لأوربا التبادل مع المغرب في ظروف أمنية مستقرة. وقد بلغ عدد السفن التجارية الفرنسية المبحرة إلى سلا خلال عشرة أشهر من سنة 1697 (فبراير-نوفمبر) ست عشرة سفينة، تسع منها من مارسيليا، وسبع من المراسي الغربية لفرنسا⁴.

وقد كانت الصادرات التي تتم عبر مرسى سلا الجديد تتمثل بالأساس - فضلا عن بضائع المغانم - في المواد الفلاحية (حبوب، لوز، ريش النعام...)، والمواد الخام أو تلك الخاضعة للمعالجة الأولية (شمع، صوف، جلود، غاسول، قصدير، حامض الكبريت، نحاس، أينسون...)، وأحيانا العملات الذهبية رغم الحظر الساري على خروج المسكوكات من البلد⁵.

لما واردات المنطقة فكانت تضم - إلى جانب الأدوات الملاحية والعسكرية - مصنوعات نسيجية بشكل كثيف، فكانت إنجلترا تصدر الأجواخ الزرقاء المستعملة في حياكة البرانس والجلاليب⁶؛ فيما كانت فرنسا تصدر من ليون المنسوجات الحريرية والخيوط الذهبية والفضية، ومن منطقة لانكدوك الأقمشة والأصواف الغليظة، ومن مارسيليا الرق والقبعات والمشط. ومن الأقاليم المتحدة كانت تصل شحنات التبغ والقطن والنسيج الهولندي والتوابل والزجاج؛ وكانت إيطاليا تصدر الأدوات الحديدية

¹ Ibid T I p 379.

² Ibid T II - p 428.

³ Ibid T IV p 437.

⁴ Ibid p 590.

⁵ Ibid T II p 428, T IV - p 472 et Caillé - Op. cit - p 293.

⁶ Roland Lebel: "Le Maroc chez les auteurs Anglais du 16e au 19e siècle" - éd. La rose - Paris 1939 p 26.

والكبريت وملح البارود. ومن شرق المتوسط كانت المنطقة تستورد الحرير والقطن والأفيون من مختلف العقاقير، كانت تصل إلى سلا الجديد على متن السفن الفرنسية عبر مارسيليا؛ وكانت المعاملات تتم عادة بأسلوب المقايضة بدل النقد¹.

كانت الصادرات والواردات تخضع للتعريفات الجمركية التي كانت تفرض على كل السلع عند الشحن والإفراغ ضريبة العشر من القيمة تؤدي نقدا أو عينا²، باستثناء الجلود التي ارتفعت اقتطاعاتها الجمركية إلى ربع القيمة (25%)³. فضلا عن ذلك كانت هناك مكوس أخرى تفرض على السلع، مثل حق الأبواب المفروضة عليها بمجرد تجاوزها مدخل المدينة، والذي ارتفع من مبلغ خمسة مثاقيل في النصف الأول من القرن إلى نسبة 12% من مجموع القيمة خلال العهد العلوي⁴.

كان الإشراف على سير الجمرك خلال فترة الديوان موكولا لجباة أندلسيين معينين "الكتاب" يتم انتدابهم من طرف الديوان، وكانوا مسؤولين أمامه وإليه يقدمون حساباتهم مرة كل ثلاثة أشهر⁵. ثم انتقلت هذه المهمة خلال العهد العلوي إلى مسؤول مفوض من السلطة المركزية يشرف على قيادة المرسى بشكل مستقل تمام الاستقلال عن بقية قواد المنطقة، ويخضع مباشرة للسلطان، وإليه يقدم تقاريره عن نشاطها التجاري والجمركي.

وكان التجار الوافدون على سلا يخضعون في علاقات بعضهم ببعض البعض الآخر لتنظيمات وقوانين بلدانهم التي يشرف القناصل على تطبيقها وتنفيذها، مقابل أدائهم نسبة 3% عن قيمة مبادلاتهم للقنصل تعويضا له عن مهامه من جهة، ولمقابلتها عند الحاجة بما يضمن معاملات رعايا دولته إزاء سلطات المدينة وتجارها⁶.

¹ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T IV - p 471-72.

² Caillé - Op. cit - p 294.

³ ج. الناصري - نفسه - ص 935.

⁴ Les S. I. H. M. - 2° série - France - T I - p 451 note.

⁵ Dan - Op. cit - p 210.

⁶ Ibid - p 93.

الفصل الثالث: مظاهر الحياة الدينية

تأثرت الناحية الدينية للمجتمع بالظروف الاجتماعية والسياسية التي عرفتھا المنطقة، وتفاعلت بوضوح مع غلبة مظاهر الحياة التي حملھا الأندلسيون معهم، حيث أفرزت سلوكات وتقاليد مبتدعة وغريبة عن وسط تقليدي تمثله سلا البالي والنواحي، وكانت سببا رئيسيا في حدوث التنافر. فالمستقرون الجدد بنوا بمظهر حياة قوامه خليط من المظاهر الإسبانية والإسلامية، نتاج فترة محنتهم بالأندلس منذ سقوط غرناطة إلى حين تنفيذ قرار الطرد، وما فرضته عليهم من الأخذ بعمق الدين الإسلامي والاقتصار على أسسه الضرورية، دون الأعراف والتقاليد الخاصة بالملوك والمعاملات تجنباً للضغط المفروضة عليهم؛ وهو ما جعلهم مميزين عن باقي عناصر المنطقة، خاصة وأن سكان سلا عرفوا بتيارهم المحافظ على مكارم الأخلاق وعلى الأجزاء التفصيلية في الحياة الإسلامية، وبالعيرة على التقاليد والعادات الدينية¹.

هذه السمات المختلفة التي أدلت بدلوها في التباعد بين العدوتين أظهرتهما كمجتمعين منفصلين، وأساسا خلال عهد المجاهد العياشي، وسعيه لاستغلال ذلك في طموحه إلى توحيد الضفتين معا تحت رايته. ولن تخفت حدة ذلك إلا عند سيطرة الدلائين على المنطقة، وتوفيرها لفرص تأقلم للعناصر الأندلسية مع محيطها، وامتزاج العناصر المتنافرة في ما بينها، إيذانا بانتقاء علامات التميز التي عرفتھا المنطقة إلى حدود تلك الفترة، لتصبح على منوال الحياة الدينية العامة بالمغرب.

لكن حضور مصب أبي رقراق كثغر متحرك قائم على الجهاد البحري، مع ما لذلك من مردودية بشرية تتمثل في استقدام أفواج منتظمة من العناصر الأوروبية كعسرى، ويحتضن جزءا هاما من التجارة الخارجية مع ما يرافقها من تجار مسيحيين ومثلي مصالح الدول الأوروبية، لزم على العدوتين - خصوصا سلا الجديد - تحقيق نوع من الانفتاح الديني، على شاكلة المدن الساحلية المعتمدة على علاقاتها المتنوعة مع أوروبا؛ فكانت كل الديانات مسموح بها، وكل الأجانب عبيدا وأحرارا متاحة لهم حرية التندين، فكان لهم قساوستهم وكنائسهم الصغيرة، مثلما وفرت السلطات المحلية

¹ Burlot Op. cit. p 95.

لهذه الديانات شروط قيامها، مقابل التزام معتنقيها بعدم التعرض للدين الإسلامي ولا للسلطات الحاكمة، معتبرة ذلك مخالفة لا تغفر¹.

1- المظاهر الدينية العامة

تتحدث مختلف المؤلفات المعاصرة عن كون منطقة مصب أبي رقران قد اتسمت بورع عناصرها وتقواهم، وتشبههم بمظاهر الدين الحنيف. وقد جاء في مذكرة فرنسية مؤرخة بسنة 1654م: "إن أناس هذه المنطقة محافظون على شريعة محمد (ﷺ)، ويوجد بالعدوتين عدد كبير من المساجد، وهم يعتقدون في وحدانية الله وليس في الثالث المقدس. ولو توقف أحد المسيحيين ولو لمدة يسيرة أمام منزل مفتي أو صالح أو فقيه لا اعتبر ذلك زلة"². وليس هذا بغريب، لأن سلا كانت من المراكز الساحلية ذات الإشعاع الديني، يشبه البعض دورها في هذا المجال وسط إقليمي تامسنا والغرب بدور مدينة فاس³.

فقد كان سكان سلا البالي يؤثرون اتباع الفرائض والشرائع على انشغالاتهم الدنيوية، محافظين بشدة على الصلوات الخمس بالمساجد، بحيث لم يكن الواحد منهم يصلي وحده إلا إذا حصل له مانع؛ وكانوا ملتزمين بأحكام الشريعة في ما يخص الأخلاق والآداب العامة، خصوصا على مستوى الاطهار والنظافة. وقد لاحظ الفرنسي جان أرماند مصطفى سنة 1630 ذلك قائلا: "إن الذين لحقت بأجسادهم بعض المنجسات يحجمون عن حضور تلك الطقوس (صلاة الجماعة) ولا يقصدون المصلى. ولا تذهب النساء بتاتا إليه حتى لا يبدين للرجال كعنصر غواية ويمنعنهم من أداء الفرائض، وإذا ما حرق أحد الرجال في وجه إحداهن يوما ما ولو خلال فترة الخطبة، يصبح مذنبا بشكل مباشر وساقطا تحت تأثير شهواته"⁴. ولو أن النساء كان محرما عليهن ارتياد المساجد لأداء الفروض بها، فإنه كن متدينات قانتات قائمات بواجباتهن في منازلهن.

¹ Hardy - Op. cit - p 153-54.

² Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 679-83.

³ عشاش - نفسه - ص 66.

⁴ Loc. cit.

كان الآباء حريصين على تنشئة أبنائهم تنشئة قائمة على مبادئ العقيدة، وتعليمهم فروضها منذ نعومة أظافرهم، حيث كانوا يكلفون فقهاء الكتاتيب بذلك، إلى جانب اصطحابهم إياهم إلى المساجد وأماكن التعبد. وكان من السكان من ينذر حياته لخدمة الدين فكرا وعملا، قانمين بتنشيط الحياة الروحانية لمواطنيهم، مثل الشرفاء العلميين الذين تصدوا لتلاوة القرآن بمساجد سلا منذ استقرارهم بها في عهد موالى إسماعيل¹. ولم يكن هذا الورع إلا ليشع بأخلاقهم في أوساط إخوانهم في الدين، بل وحتى بين المسيحيين الأجانب، فكان قسم المسلم في نظر التجار الأوربيين أفضل ضمانا من عشرين شهادة إبراء أو إيصال موقع².

وإلى جانب الحياة اليومية، كان احتفاء السكان بالأعياد الدينية والمناسبات الإسلامية يخضع لطقوس ملؤها التخشع ومظاهر الغبطة، وإيصال الرحم وإطعام الفقراء وارتداد المساجد. وكان احتفاءهم الخاص بعيد المولد النبوي بشكل خاص، مقيم الصلوات، ومرتلين القرآن في المساجد إلى جانب الأمداح النبوية التي كانوا يصاحبونها بالنوبات الموسيقية، لا سيما عند ضريح الشيخ سيدي عبد الله بن حسون³، وكثروا في الغالب يفضلون هذا اليوم للقيام بعملية ختان صبيانهم⁴.

وعلى غرار الأعياد كانوا يحتفون ببعض المناسبات الاجتماعية الأخرى، مثل مناسبة عاشوراء التي كانوا يتسارعون خلالها إلى تقديم الصدقات والإحسان إلى اليتامى والمساكين، مع ما يصاحب هذا اليوم من مظاهر الانشراح والمزاح بين الأفراد، بحيث كان الشبان يلقون طيلة اليوم بكميات من الماء على بعضهم البعض⁵. ومن جهة أخرى حافظ الأنثلسيون على بعض الأفراح الاجتماعية التي ألفوها بالأنثلس، مثل مناسبة " لالة كسابه " التي كانت عبارة عن مجمع سنوي تلقاني يقام في البقعة الفاصلة بين القصبة وسلا الجديد أمام ضريح الولي سيدي عبد الرافع الأنثلسي يوم الجمعة الثاني من شهر رجب، تخرج خلاله الفتيات مرتديات ثياب المرائس ومترينات بأفخر الحلل والجواهر، كما يشارك الأطفال أيضا رفقة أمهاتهم

¹ نفسه - ص 17.

² Hubac - Op. cit - p 169.

³ محمد هجي: "الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين" - الجزء الثاني - منشورات دار المغرب للثقافة والترجمة والنشر - فضالة 1978 - ص 44 والهالمتش.

⁴ Savine - Op. cit - p 77.

⁵ Lev S. I. H. M. 2^e série - France - T II - p 156.

في أبهى الحلل، يتغنون فيها بأهازيج وأغاني تفضح رغبتهم في الزواج متى آن الأوان¹.

وقد كانت للمقابر حرمتها وقديستها، وهي منتشرة في هوامش المركزين شمال وغرب سلا البالي، وفي شمال وجنوب سلا الجديد، حيث تنتصب شواهد مجهولة فوق القبور موحدة الشكل ومتوجهة صوب القبلة، حيث لا فرق بين قبور الأغنياء والفقراء. وكان أهل المنطقة لا يهابون الموت ولا يحسون نحوه بأدنى خوف، ولديهم شعور بالفته واحترامه²، وكانوا لا يرتادون المقابر إلا أيام الجمع وفي المناسبات الواجبة لزيارة الموتى، باستثناء البعض ممن كان يقصدها للاحتماء بها فرارا من المجتمع وسلطاته، وفي ذلك يقول الأسير مويط: "وقبورهم باستثناء الموتى يلجأ إليها كل أنواع المجرمين والأشخاص الهاربين من غضب السلطان، إذ أنه ليس في مقدور نفوذ السلاطين إخراجهم من المقابر بالعنف"³.

وعلى العموم، كانت هذه المظاهر الدينية شائعة في مختلف النواحي المغربية، ولم تنفرد بها المنطقة وحدها، لكن وضعيتها كقاعدة بحرية وقيامها بوظيفة الجهاد جعلها تعرف حضورا للفعل الجهادي في الحياة الدينية للسكان وللمنطقة، يؤثر فيها ويتأثر بها، خاصة وأنه انطلق من اعتقاد المسلمين بضرورة القيام بالجهاد كعمل جليل في سبيل الله، وبغية نصرته دينه الحق وتوسيع عدد أتباع القرآن، كلما أقدموا على مثل تلك الحملات التي كانوا يحيطونها بهالات قدسية وقيمون لها حفلات كبرى⁴. ولهذا كان الرياس قبل مبارحة المرسى يلجأون إلى زيارة الأولياء والصالحين وأهل الخبر المشهود لهم باستجابة الدعاء، طلبا للبركة واليمن ونجاح الرحلة، مقدمين لهم الهدايا من أضحيات وأعطيات أملا في تخفيف أهوال البحر وتحقيق المغنم، كما كانوا بمجرد عودتهم سالمين يعودونهم مجددا مقدمين لهم هدايا من المغنم طالبين المزيد من دعواتهم⁵.

وكانت حياة رجال الجهاد على متن السفن مدموغة بالطابع الديني المتجلي في الحضور اليومي للآيات القرآنية والدعوات الدينية، فكان من يمطي السفينة يبادر إلى

¹ المويصي - نفسه - ص 159.

² Burlot - Op. cit - p 101.

³ Les S. I. H. M. - 2^e série - France - T II - p 157-58.

⁴ Savine - Op. cit - p 19.

⁵ Dan - Op. cit - p 298-99.

التوكل على الله بعد البسملة تاليا الآية: "باسم الله مجراها ومرساها"¹. وخلال الطريق تتم تلاوة حزب البحر للطريقة الشاذلية المنتشرة آنذاك في المنطقة²؛ وأثناء الأوقات العصيبة التي تتعرض فيها السفينة لخطر التيه أو لسوء أحوال الطقس كان الاستنجاد بالآية: "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا مقرنين"³، وأيضا الآية: "إن آية ملكه أن ياتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم"⁴.

ولم يكن هذا حكرا على رجال الجهاد فقط، وإنما كان المجتمع كافته منخرطا مغنويا في سلك القاعدة المعنوية لهذا الفرض، من خلال الإكثار في الدعاء في المساجد بالنجاة والفلاح لرياس السفن، خاصة خلال الأوقات الوارد فيها قبول الدعاء كمصلاة الفجر وأيام الجمع وفي رمضان والمناسبات الدينية، فكان الخطباء يختمون دعاء الخطبة الثانية بقولهم: "... واشف مرضانا، وفك أسرانا، وبلغ مسافرينا..."، وعلى منوالهم الوعاظ والمرشدون وشيوخ الطرق في حلقات الذكر⁵.

2- المؤسسات الدينية

عرفت المنطقة تركزا للمؤسسات الدينية المشعة بتأثيراتها في أوساط القبائل المستقرة بجوار المدينتين، مستفيدة في ذلك من الدور التاريخي الذي اضطلعت به بنينا منذ العهد المريني، الذي جعل شالة جبانة ملوكية بما اكتسبته من صبغة دينية، مع مارافقها من اهتمام بسلا كمركز حضري قريب منها، دافعا بالملوك المرينيين إلى تعزيز منشأتها الموحدية، مضيفين المساجد والزوايا والأضرحة، حتى بدت من الحواضر المتمظهرة بالطابع الديني على غرار فاس ومراكش.

ورغم ما لحقها من تقهقر في العهدين الوطاسي والسعدي بفعل ابتعادها عن المراكز الرئيسية، نجحت سلا في الاحتفاظ بجزء من أهميتها الدينية، لا سيما وأنها قد برزت كأقرب معقل إلى مراكز الاحتلال المنتشرة شمالها وجنوبها، مما كان يحتم عليها استقبال أفواج المجاهدين والعلماء والأولياء المنقطعين للجهاد في سبيل الدين والحث عليه، وبالتالي عمل هذا على تنشيط مؤسساتها وحمائيتها من الخراب والفناء.

¹ سورة هود - الآية 41.

² Brunot - Op. cit - p 247.

³ سورة الخزف - الآية 12.

⁴ سورة البقرة - الآية 248.

⁵ ج. الناصري - نفسه - ص 469.

في حين فقدت رباط الفتح مؤسساتها المماثلة نتاج تقلص ساكنتها وفراغ فضائها باستثناء القسبة، وظلت على هذه الحال إلى حين تعمیرها على يد الأندلسيين الذين أعادوا لها قوتها المفقودة، وجعلوا مؤسساتها تتسع مع انتشار العمران، دون أن يؤدي ذلك إلى منافستها لسلا البالي.

ومن المساجد التي كانت عامرة خلال القرن 17، نذكرها حسب المراكز:

1- سلا البالي: بلغ عدد مساجدها سبعة، وهو رقم مهم مقارنة بعدد سكانها المتوسط آنذاك، وهي حسب الأهمية:

* المسجد الأعظم: بطالعة المدينة، وهو من إنشاءات الموحدين¹، وأعظم المساجد وأحسنها شكلا وهينة. وقد كان يشمل فضلا عن المحراب ورحاب الصلاة والفناء على مرفق للوضوء، حيث وصل بالماء المستقدم من عيون بركة بغابة المعمورة بواسطة قنوات من الطين المطبوخ تحت سور الأقواس بمدخل سلا من جهة الشمال-الشرقي².

* مسجد الشهباء: أقدمها جميعا بعد المسجد القديم لبني العشرة، وقد أسس خلال العهد المرابطي، وبه كانت تقام صلاة الجمعة قبل إنشاء المسجد الأعظم³.

* مسجد الزرقاء: من الإنشاءات المرينية بحي زناتة. وقد سمي بهذا الاسم لأن أسطوانته كان مفروشا بالحجارة الزرقاء الصلدة التي جلبت من أنقاض مدينة شالة القديمة. وقد ألحق به مرفق للوضوء يستمد مياهه من قنوات سور الأقواس المذكورة⁴.

* المسجد المريني: من الإنشاءات المرينية بحي باب حسين، ويعتقد بأن بانيه هو ومسجد الزرقاء شخص واحد؛ وهو أقل اتساعا من سابقه، ويشتمل بدوره على مرفق للوضوء يجلب ماؤه من بئر موجودة داخله⁵.

* مسجد سيدي الحاج عبد الله: من المساجد المرينية أيضا الأقل حجما وشكلا من سابقه⁶.

¹ هناك من يرى أنه من إنشاء السلطان يوسف الموحدي لا ولده يعقوب المنصور. انظر: Burlot - Op. cit - p 96.

² الدكالي - نفسه - ص 51-52.

³ بشير عشاش إلى أن صلا الجمعة لم تتوقف به حتى بعد تأسيس المسجد الأعظم، واستمر ذلك حتى إلى القرن 17. انظر: عشاش - نفسه - ص 66.

⁴ الدكالي - نفسه - ص 57.

⁵ نفسه والصفحة.

⁶ يعتقد بأنه هو مسجد سيدي عبد الله بنسعيد حاليا الذي تقع المدرسة المرينية فاصلا بينه وبين المسجد الأعظم.

* مسجد الشيخ ابن عباد¹.

* مسجد الشيخ ابن عاشر: يقع خارج المدينة قرب برج الدموع.

2- سلا الجديد: بصرف النظر عن مسجد حسان الذي لا يعتقد في استغلاله نظرا لوجوده خارج المركز، فرض الاستقرار الجديد إحياء بعض مساجد العهد المريني وإنشاء أخرى جديدة²، تمثل أبرزها في:

* المسجد الكبير: أكبر مساجد المدينة، وهو من المنشآت المرينية ويقع في حدود المقبرة الواقعة بين المركز والصور الأندلسي.

* مسجد لالة فاطمة طريدة: من المساجد الصغيرة القريبة من أهل الحرف، ويقع في الحي القريب من المرسى على مقربة من الفنادق، ويتميز بشذوذه عن النمط التقليدي للمساجد المغربية من حيث عدم توفره على صحن داخلي³.

* مسجد ابن عطية: من المساجد الصغيرة المؤسسة أواخر القرن السابع عشر على عهد مولاي إسماعيل بحي تحت الحمام⁴.

3- القصبية: لم يكن بها إلا مسجد واحد " المسجد العتيق " أقدم مساجد الضفة الجنوبية، وثالث مسجد موحدي بعد مسجدي الكتبية وتازة، وقد أنشاه عبد المؤمن الموحد خلال منتصف القرن 12م⁵، وظل يلعب دور الجامع الرئيسي عبر التاريخ. وقد كانت هذه المساجد تستمد مواردها لتغطية تكاليف الصيانة والتجهيز ونفقات المنقطعين من مساهمات السكان، باعتبار ذلك واجبا دينيا وتطبيقا لتعاليم الإسلام⁶؛ فبارى أهل الخير والإحسان في تحبيس الأحباس والضياع المغلة عليها، كما عمدوا - رعيا وسلطات - إلى التصدي للإصلاحات التي تتطلبها المرافق الملحقة بها لا سيما قنوات المياه، حيث خصص مولاي إسماعيل لترميم قنوات سور الأقواس بسلا ربع مداخل سمك الشابل المصطاد بالنهر، ثم أرفه بعد ذلك بتحبيسها كاملة⁷.

وقد عرفت المنطقة إلى جانب المساجد تعددا للأضرحة وللزوايا المقصودة للترهد والتعبد، فكانت تحظى بدورها بنوع من التقديس وبوقف الأحباس عليها

¹ لعله حاليا مسجد الشيخ عباد قرب درب سيدي علي بوشاقور.

² Les S. I. H. M. - 1^{re} série - France - T III - p 679-83.

³ ليس مكانه مسجد الجزارين. انظر: Caillé: " La petite histoire... " - Op. cit - p 26.

⁴ Ibid - p 24.

⁵ المويدي - نفسه - ص 73.

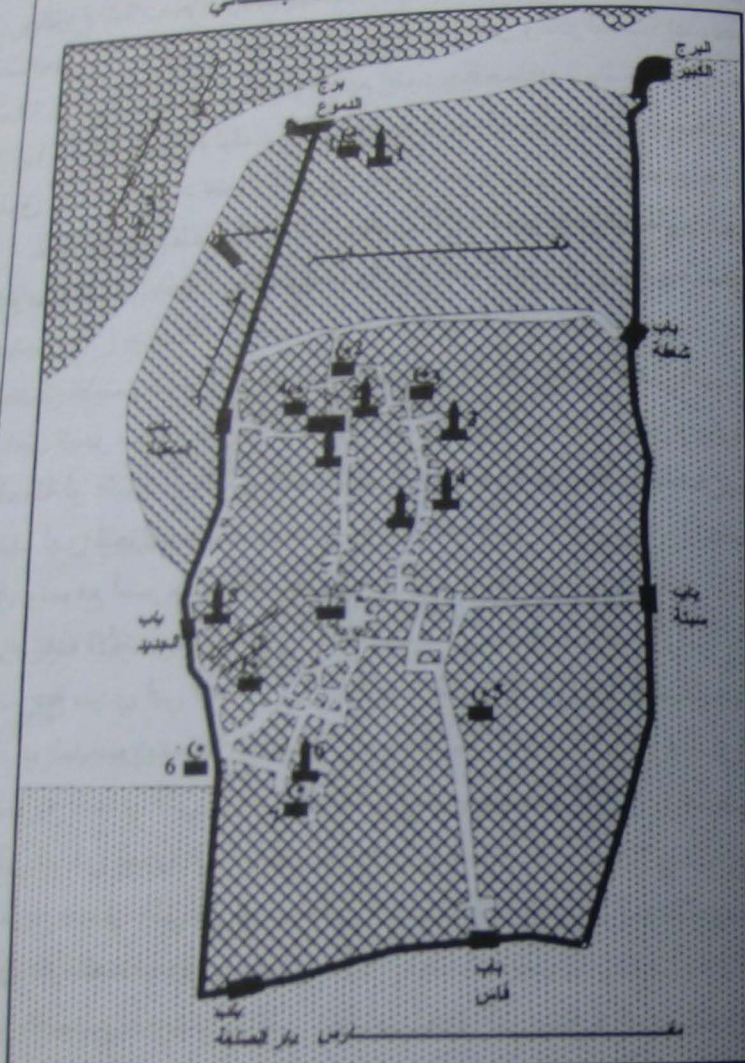
⁶ ج. الناصري - نفسه - ص 117.

⁷ نفسه - ص 122-24.

وصلتها بالأعطيات، وحظر ارتيادها على الأشخاص غير المؤهلين، وخاصة الأجانب
 "ولو ولج مسيحي إحداها لا اعتبروه مذنباً وجب إحراقه بالنار، أو اعتناق دينهم".¹

¹ Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 679-83.

خريطة سلا البالي



مسجد	نمبر	توضیحات	پ	مدرس
1 - مسجد ابن عائشہ	1	ابن عائشہ		
2 - الأعظم	2	ابن حنفیہ		
3 - قزاقیہ	3	الشیخ مفتاح		
4 - ابن عبد	4	سیدی قطب		
5 - قرینی	5	سیدی احمد حبی		
	6	سیدی ابو حاجہ		
	7	سیدی قزاقی		

وكان انتشار هذه المؤسسات تثمينا للمعتقدات الإسلامية، وتعظيما لرفات الأولياء والصالحين والمجاهدين والمشهود لهم بأعمال الخير والكرامات، إذ - حسب مويط - كانوا " يؤسسون لهؤلاء بعد وفاتهم أضرحة صغيرة يسمونها روضة يحجون لزيارتها " ¹. لقد كان الأولياء في حياتهم ومماتهم ملجأ للياثسين، ووسطاء مقبولين بين المخلوق والخالق؛ وزاد صيتهم مع بروزهم كضرورة روحانية لجموع المجاهدين برا وبحرا، حيث كان هؤلاء غالبا ما يتوجهون قبل الشروع في عملهم الجهادي أو بعد الفراغ منه لشحذ طاقاتهم المعنوية، ولنيل رضاهم بزيارتهم مصحوبين بالهدايا والأضاحي ².

وكانت الأضرحة المزارة من طرف الرياس ورجال البحر هي تلك المنتشرة على ساحل البحر، حيث كان يرى أصحابها " أولياء للساحل " مؤثرين مباشرين في نجاح الحملة أو فشلها، وبالتالي كانت تجب زيارتهم قبل امتطاء السفن. وقد اكتسبوا هذه الصفة ليس لتجربتهم الملاحية أو جهادهم البحري السابق، وإنما اعتبارا لشهرتهم بالمنطقة، ولموقع أضرحتهم الساحل للبحر ³. وأبرز هذه الأضرحة، نذكر:

* ضريح سيدي أبي العباس (من صلحاء القرن 6 هـ) خارج سلا جهة باب فاس، حلاه الملوك المرينيون بمزار حفي ⁴.

* ضريح سيدي أبي موسى الدكالي (من صلحاء القرن 6 هـ) مزاره خارج المدينة على شاطئ البحر.

* ضريح سيدي علي بن أيوب (من صلحاء القرن 8 هـ) بسلا، ومزاره بحارة السوق بين دار الصنعة وباب فاس.

* ضريح سيدي أحمد بن عاشر (من صلحاء القرن 8 هـ)، بسلا، ومزاره على مقربة من ساحل البحر، وهو مقصود للتبرك والاستشفاء خاصة من الجنون ⁵.

* ضريح سيدي محمد بن القاسم: أو سيدي قاسم غليظ، مزاره قرب باب حسين.

¹ Ibid - 2° série - France - T II - p 157-58.

² Dan - Op. cit - p 289-99.

³ حتى منتصف القرن الحالي كانت إحدى فرق الطريقة الهداوية من مجازيب مدينة الرباط تقيم احتفالا دينيا عند ضريح سيدي الياثوري، تشارك فيه طائفة بحارة القوارب يتغنون في أهازيجهم بسيادة الياثوري كولي للمرسى.

⁴ نفسه - الملحق - ص 150.

⁵ الدكالي - نفسه - ص 96-97.

الفترة، لا سيما بالزاوية الأحمدية العايدية على يد الشيخ سيدي أبي الحسن علي العكاري¹ وولده أبي عبد الله محمد²، وتلامذته أمثال سيدي محمد العايدي³ وسيدي أحمد الكراري الكولاني⁴ وسيدي عبد الله الحويشي⁵؛ وبسلا على يد سيدي أحمد حجي⁶ الذي كانت طريقته أقرب إلى الجذب من السلوك. وعامة كان تأثير الطريقة الشاذلية واضحا في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والدينية، وحتى بالنسبة لحياة البحر.

3- تفاعل الإسلام بالمسيحية واليهودية

كان لحضور المنطقة كحد بحري بين العالمين الإسلامي والمسيحي أن احتضنت عددا من العناصر المسيحية، فرض عليها الاستقرار بين ظهراني المسلمين بصفة مؤقتة أو دائمة بحسب المدة الفاصلة بين زمان الأسر وورود الفديتات، وجعلها تفتح بعض حاراتها لاستقبال طائفة من التجار اليهود والمسيحيين للغرض ذاته، وكذا المبعوثين الرسميين المكلفين بالسهر على مصالح رعايا أوروبا وبافتكاك أسراها. وقد أثر حضور هاتين الطائفتين في تعايش الإسلام جنبا إلى جنب مع العقيدتين المسيحية واليهودية، وسماح المسلمين لأفرادهما بحرية ممارسة الشعائر نظرا للمصالح المشتركة من جهة، وللتسامح الإسلامي الذي كان يكفل حقوق أتباع الديانتين من جهة أخرى. بيد أن هذه الحالة لم تكن تعني إقامة الحد بين الديانات الثلاث، وإنما كان الدين الرسمي يعمل جاهدا من أجل حمل أتباع الديانتين الأخريتين على الانخراط في

¹ الشيخ العكاري: أبو الحسن علي بن محمد بن علي، المراكشي منشئا والرباطي وفاة (1118هـ/1706-1707م)، كان من أجل علماء وقته، وأول من أسس العلم بالرباط. أخذ عن الشيخ سعيد الهوزالي والقاضي أبي القاسم الدرعي وغيرهما؛ وتصدر للعلم بسجله ثم فاس فسلا قبل أن يستقر بالرباط، حيث نبغت على يده جماعة من أهل العلم. أنظر: "الاغتيال..." - نفسه - ص 38-436.

² محمد بن علي العكاري: تخرج على يد والده واقتصر على الأخذ عنه دون سواه. وبعد وفاته تصدى للتدريس والفتيا في كل فن، وكان يلقي الإنكار على الطريقة الناصرية لمن أراد الانخراط في سلك ابن ناصر. أنظر: بوجندار - نفسه - ص 100.

³ الشيخ العايدي: دفن الزاوية العايدية بالرباط من أهل العلم والصلاح، أخذ عن الشيخ العكاري الطريقة الشاذلية، كما لازمه وهو يملئ دروسه العلمية بالزاوية الأحمدية. نفسه - ص 98.

⁴ الشيخ الكراري الرباعي الكولاني الغرناطي الفاسي ثم الرباطي، المشهور بابي العباس (ت 1138 هـ)، كان له شيوخ كثيرون وعنده أبو الحسن العكاري، وقد أخذ أيضا عن القطب ابن ناصر ومقدما من قبله لتلقي الأوراد والقيام بوظائف الطريقة الناصرية. نفسه - ص 18-20.

⁵ الشيخ الحويشي: ولي صالح منتسب لسيدي علي بن عبد الرحمن، وعنه أخذ الطريقة الجزولية الشاذلية، وكان يلتقيها إلى أن توفي بالرباط سنة 1103هـ/1692م. نفسه - ص 384-85.

⁶ سيدي أحمد حجي: أبو العباس أحمد بن محمد السلاوي، أخذ عن سيدي عبد الله الجزار المكناسي الطريقة الشاذلية، وكانت بينه وبين الشيخ العكاري صداقة وأخوة، توفي سنة 1103هـ/1692م. أنظر: الدكالي - نفسه - ص 101.

صفوفه كعلوج مسلمين، مرتكزا في ذلك على قناعة رجاله بسلامة العقيدة، وبالأجر والثواب المتوخين من وراء هذه المجهودات.

لقد سمح المجتمع للجالية اليهودية بحق تأسيس المعابد وحرية التدين، كما أباح لها الاحتفاء بأعيادها ومواسمها واتباع عاداتها وتقاليدها¹، الشيء الذي كان يؤثر بالإيجاب في الوضعية العامة لأفرادها الذين كانوا يعاملون اجتماعيا حسب قدراتهم وكفاءاتهم، وجعل بعضهم يتقلد أسمى المناصب الاقتصادية والدبلوماسية؛ ولذلك لم تكن مظاهر التمييز التي كانت مفروضة عليهم - مثل وحدة اللباس - أكثر من تمييز على مستوى الشكل.

وكان هذا نفس الموقف الذي اتخذ إزاء العناصر المسيحية، حيث تركت للتجار المسيحيين حرية إقامة الشعائر وحق إقامة كنائس صغيرة بداخل القنصليات²، وامتد هذا الامتياز ليشمل حتى الأسرى داخل المطمورات، إذ أتاحت لهم حرية إنشاء المعابد الخاصة يشرف عليها قساوسة من بينهم³. فقد فرضت العلاقات السلاوية-الأوربية نوعا من المرونة على كافة المستويات. فخلال فترة ممارسة الفرنسي أنطوان ج. باراصول (A. G. Parasol) لمهمة نيابة القنصل بسلا أشرف على إنشاء كنيسة بمقر القنصلية في يناير 1653، وضعت رهن إشارة الرهبان الفرنسيين⁴. ويبرز هذا الوضع بجلاء مركز سلا الجديد كمجتمع منفتح في نظر المسيحيين، مميزا عن غيره من المناطق المغربية التي كانت تجعل تقديم الإغاثات والخدمات الدينية للأسرى بها عملية صعبة جدا⁵.

ومقابل هذا التسامح، كان سكان مركزي مصب أبى رقران يجهرون باعتقادهم في انحراف المسيحية واتباعها، رانين في ذلك تشويها لما جاء به المسيح عيسى (عليه السلام). وتقول بعض المصادر الأوربية في هذا الصدد: "أناس هذه المنطقة يعتقدون بوحداية الله لا في الثالوث المقدس... ويقولون أن النصارى يخطنون في حق الله باعتقادهم أن عيسى إله، ويخطنون في حق عيسى باعتقادهم في مقتله؛ وهذه أسباب

سن علي
3 وسيدى
دي أحمد
الطريقة
سبة لحياة

حتضنت
ن بصفة
لها تفتح
ه، وكذا
ها. وقد
مسيحية
مصالح
ن جهة
ن الدين
راط في

(، كان من
وغيرها؛
م. انظر: "

يس والفتيا
ار - نفسه

لأذلية، كما

له شيوخ
راد والقيام

كان يلتقيها

الشاذلية،
10.

¹ Dan Op cit - p 349.

² Dan op. cit - p 429.

³ Ibid p 255.

⁴ Penz Op cit - p 62.

⁵ Ibid p 134.

اختلافهم مع المسيحيين¹. ولهذا كان المسلمون يستنبطون من ذلك أسسا للقيام بالجهاد في سبيل نصره الدين الحق، وفريضة لهداية البشرية إلى الإسلام وفق أوامر القرآن، حيث يشير مويط إلى أن مجابتههم ضد المسيحيين لأنهم ينفون عن المسيح صفة الرسول، زيادة عن كفرهم برسالة محمد (ﷺ)، راغبين في إدراك الحياة الآخرة عن طريق الشهادة، بما يكفل لهم ذلك من أجر وثواب².

وكان المسلمون يرون في تصديهم للجهاد عملا من صميم أدوارهم إزاء من اعتادوا نعتهم بالكفار من يهود ومسيحيين³، ومجاهدتهم خالصا لوجه الله من أجل توسيع عدد أتباع القرآن، كلما قاموا بمثل تلك الحملات الجهادية البحرية وما تدره من أسرى وعلوج. ولذلك كانت تقام مظاهر احتفالية كبرى عند استعراض الأسرى، محاولين توفير فرص تشجيع هؤلاء على اعتناق الإسلام دون إكراه⁴. وقد كان هذا التشجيع يتلخص في توفير جملة من الامتيازات، ولا سيما تقريب الأسير الراغب في اعتناق الإسلام من استعادة حريته المفقودة⁵. فقد كان المجتمع بمختلف فئاته يحتفي بأي حدث من هذا القبيل، حيث يطاف بالمسلم الحديث في أزقة وحارات المدينة على صهوة حصان مطهم، مرتديا أفخر الحلل، ومرفوقا بتكبيرات الرجال وزغاريد النساء، وبالأمداح النبوية المواكبة بقرع الطبول؛ وغالبا ما يمر هذا الموكب المتميز بالقرب من المطمورات ومن مساكن المسيحيين لإذكاء الغيرة في صفوفهم قصد استقطابهم مستقبلا⁶.

وقد كانت عملية تحول الأسير إلى علج مسلم تتم عند إبداء رغبته، حيث يبادر سيده إلى لم أصدقائه بمنزله، وبمحضرهم جميعا يستفسر أسيره عن رغبته في التحول إلى علج، وأنداك يقوم بتكرار الشهادتين نقلا عن سيده، ليخضع بعد ذلك لجملة من العمليات ذات المظاهر الإسلامية، مثل حلق شعر الرأس، واعتماد العمامة بدل القبعة، واتخاذ الملابس على شاكلة المجتمع؛ ثم يدفع إلى تصدر المجلس باعتباره محور الحفل، ويستقدم الجراح للقيام بعملية الختان في حضرة الجماعة تعبيرا عن دخوله

¹ Les S. I. H. M. - 1^o série - France - T III - p 680-83.

² Ibid - 2^o série - France - T II - p 157.

³ Savine - Op. cit - p 13.

⁴ Ibid - p 19.

⁵ Penz - Op. cit - p 120.

⁶ Ibid - p 231.

فعلينا في عداد المسلمين، ويختار له لقب إسلامي بديلا عن اسمه الأصلي¹، وهي تقريبا نفس الطقوس التي كانت تطبق أيضا على الأسيرات². أما بالنسبة لتحول العنصر اليهودي إلى علج، فإن هذا التحول يتم عبر مرحلتين، إذ يستوجب أولا التحول إلى المسيحية قبل التحول إلى الإسلام؛ حيث أن اعتقاد المسلمين في انحراف الدين اليهودي وعدم إيمان أتباعها بنبوة المسيح، كان يدفعهم إلى الوقوف على حقيقة رغبة العنصر اليهودي في اعتناق الإسلام، ومطالبته بالاعتقاد في الدين المسيحي عن طريق تناوله للحم الخنزير، والجهر بقوله: "عيسى حق"، وعقب ذلك مباشرة يسمح له بإعلان إسلامه وفق الطقوس المذكورة أعلاه³.

¹ Dan - Op. cit - p 349-50.

² Ibid p 350.

³ Ibid p 352-53.

الملاي
اللقيام
وامر
سبح
آخرة
من
أجل
من
رى،
هذا
في
حتفي
على
أريد
تميز
تصد
يادر
حول
من
تبعه،
حور
فوله

1 Les
2 Ibid
3 Sav
4 Ibid
5 Pen
6 Ibid

الفصل الرابع: الحياة العلمية والفكرية

اتسمت الحياة العلمية بالمنطقة غداة مطلع القرن 17 بنوع من الفتور الناجم عن بعدها عن مركزي فاس ومراكش، ولوجودها أيضا في ناحية ينعدم فيها الأمن الضروري لاجتذاب العلماء نظرا لقربها من مراكز الاحتلال؛ ولذلك لم يقيم مركز سلا - رغم حفاظه على منشآته الموحدية والمرينية - بدور إشعاعي في هذا المضمار، تأثرا بالظروف السياسية والاجتماعية الطارئة على المنطقة أثناء ورود الأندلسيين بتأثيراتهم العسكرية والنفسية من جهة، وبرز المجاهد العياشي ومن ورائه الرغبة الملحة في الاضطلاع بدور الجهاد. فانخرط مجتمع العدوتين في الأنشطة العسكرية برا وبحرا كمشاغل ذات أولوية، ونبذت الأقلام والطروس، باستثناء طائفة ظلت محافظة على ارتباط المنطقة بالعلم والتدريس¹. وخلال مدة طويلة ظلت سلا البالي تواجه الدور الاقتصادي الذي كانت تلعبه سلا الجديد باحتكارها للدور الديني والفكري، بفعل احتضانها لمجموعة قديمة الاستقرار بها، منفتحة على الفاعليات الفكرية المتواجدة خارج المنطقة، وأساسا في فاس؛ فظهرت كمركز ثقافي ملحق بالمركز المذكور، يشع على منطقة فسيحة تفتقد لمراكز ثقافية أخرى.

في حين لم يؤد استقرار الأندلسيين بالعدوة الجنوبية إلى حدوث نهضة فكرية، بل حمل معه هذا الاستقرار حمولات فكرية غريبة، وغير مقبولة من طرف العناصر المحيطة بها، نتاجا لسياسة الحصار الفكري الذي فرضته إسبانيا على العناصر العربية الأصلية قبل قرار الطرد. ولهذا، لم يكن منتظرا من الوافدين الجدد الاضطلاع بأي دور في الحياة الفكرية قبل مضي مدة من الوقت كافية بانسلاخهم عن آثارهم القديمة، وزاد من حدة ذلك انشغالهم بميدان الجهاد الحري من جهة، وتباعدهم مع العناصر المغربية المجاورة من جهة أخرى، الأمر الذي أظهر عدم توازن سلا الجديد فكريا مع سلا البالي.

ولن تعرف المنطقة تطورا في حياتها العلمية إلا بعد انتفاء أسباب التراجع بدءا من العهد الدلائي، إذ بمجرد بزوغ العهد الإسماعيلي وجنوح العناصر نحو الاستقرار

¹ حجي: "الحركة الفكرية ... " - الجزء الثاني - ص 443.

مع تقلص مأمورية رياس البحر، وتقلص عدد الثغور المحتلة، أخذت المنطقة في الاستفادة من ثمراتها الفكرية في المجالات المتعددة¹.

1 - بنيات الحياة الفكرية

باستغلال العدوتين للمخلفات المادية للجهاد البحري استفادت من إحداث تطور كبير داخل المجتمع، نتيجة الرغبات العلمية والروحية التي كان مفروضا تغطيتها، عاملتين على استئثار اليد العاملة غير المكلفة، وتعدد الأعباس التي كان جزء من مداخيلها مخصصا لتسيير المدارس والكتاتيب، وتمويل الطلبة والمعلمين². وما كاد القرن يشرف على نهايته حتى كانتا تجمعان جملة من أهل الفضل والعلم والأدب النازحين إليها من مختلف المراكز، و"بهم راجت بضاعة العلم ونفقت أسواقه وعمرت مجالسه"³.

وقد كانت التريتان الدينية والعلمية مترادفتين، يبدأ الاهتمام بهما منذ الصغر، فكان سكان العدوتين حريصين على تهذيب الصبيان وتلقينهم مبادئ العلوم المتشعبة بالقيم الدينية، انطلاقا من حثهم على تلاوة وحفظ القرآن عن ظهر قلب، وتعلم المبادئ الأولى في القراءة والكتابة وأسس الدين في كتاتيب خاصة، مثل كتاتيب الطالعة وزناتة بسلا البالي، وتحت إشراف بعض الفقهاء مثل أبي العباس أحمد بن عمر السلاوي (ت 1095 هـ)⁴. وتدوم هذه الحقبة الأولى من التعليم إلى حين تمكن الحدث من ختم القرآن، حيث يعمد الآباء إلى إقامة حفل على شرفه إيذانا بنبوغه ونجابته، وقرب انتقاله إلى مرحلة علمية عليا، ليكون بمقدوره مواصلة الدروس بالمساجد والمدارس على يد علماء المدينة، بغية تعميق معارفه في أصول وفروع العلوم الدينية والأدبية⁵.

وقد كانت المؤسسات التعليمية التي اضطلعت بدور التكوين وتخريج النابغين متوزعة على العدوتين، في شكل مدارس أعدت لهذا الغرض منذ العهدين الموحدوي والمريني ظلت محافظة على دورها العلمي من جهة، أو في شكل مساجد يتحول

¹ نفسه - ص 449.

² Monlati - Op. cit - p 106.

³ بوجندار: "تعطير البساط..." - نفسه - ص 3.

⁴ الدكالي - نفسه - ص 100.

⁵ عشاش - نفسه - ص 67.

رحابها إلى فضاء علمي مواز لأدوارها الدينية، اعتبارا للترابط القائم بين هاتين الناحيتين في الحياة الإسلامية.

ومن أبرز المدارس التي ظلت نشيطة خلال القرن 17، نذكر:

* المدرسة المرينية بطالعة سلا البالي، وقد حافظت على رونقها وشكلها، وكانت تحضن حلقات التدريس إلى جانب إيوانها للطلبة المتفرغين في غرف أعدت بها لهذا الغرض¹.

* المدرسة العجيبة قرب باب حسين².

* المدرسة الموحدية بجوار المسجد الأعظم.

* مدرسة الملاحة بالضفة الجنوبية بجوار القصبة، وكانت مختصة بتعليم فنون الملاحة والحرب، كالرماية واستعمال السلاح، وكان دورها خاصا بتطعيم كفاءات الجهاد البحري.

* مدرسة الجامع الكبير بسلا الجديد، وهي المقابلة له والمعروفة بالمارستان المريني، وقد جعلت محلا لإيواء الطلبة المترددين على دروس المسجد.

* مدرسة درب والزهراء، أنشئت أواخر القرن 17 في عهد مولاي إسماعيل، وكانت هي الأخرى مقاما لبعض الطلبة³.

وإلى جانب هذه المدارس كانت رحاب المساجد والزوايا هي المقرات الأساسية لتلقين العلوم وإقامة حلقات التدريس، وعلى رأسها المسجد الأعظم بسلا البالي⁴، والجامع الكبير والزاوية العايدية بسلا الجديد⁵.

ولمواجهة متطلبات وتكاليف الحياة العلمية، وتغطية نفقات القائمين عليها وحاجيات الطلبة، حرص السكان والسلطات على توفير الشروط المناسبة لقيام مناخ علمي إيجابي، حيث وقفت الأحباس واستثمرت غلاتها لأداء الأجور ولصيانة المساجد ودور العلم⁶، مما عجل بانتقال المنطقة من ركود بين إلى البروز كمركز جذب لرجال العلم والفكر في مدة زمنية وجيزة.

¹ Burlot - Op cit - p 96.

² هي المعروفة حاليا بفندق أسكور. أنظر: Loc. cit.
³ بوجدان: "مقدمة الفتح..." - نفسه - ص 47-146.
⁴ حجي - نفسه - ص 444.
⁵ بوجدان: "الاعتباط..." - نفسه - ص 16 و 98.
⁶ ج. الناصري - نفسه - ص 117.

فقد وفد على العدوتين فحول وعلماء كان لهم الأثر الكبير في نهضتها الفكرية التي بلغت في نهاية القرن 17، متميزين بنبوغهم العلمي وبسعة المعارف، وتعدد الفنون والتمسك بالدين، والسعي لإشاعة العلم في أوساط الخاصة والعامة اقتداء بالسلف الصالح، مثل قطب سلا سيدي عبد الله بن حسون¹، والمجاهد سيدي أحمد حجي، وسيدي أحمد الطالب القصري². بل نجد أن رغبة مولاي إسماعيل في إشاعة الدين والعلوم الإسلامية الحقبة في صفوف أهالي المنطقة، خاصة الأندلسيين التواقين للانخراط في سلك الحضارة المغربية وعلومها، هو ما دفعه إلى تحفيز جملة من العلماء الأجلاء على النزوح إلى العدوتين، فكان منهم آل بوعلو التلمسانيين انتقلا من مكناس إلى سلا بطلب من أهلها للتدريس ونشر العلم³، والشيخ أبي الحسن العكاري من مراكش إلى سلا الجديد⁴.

وقد تميز حضور هؤلاء العلماء بنهلهم من مختلف مصادر العلوم، وأخذهم عن جملة من كبار الشيوخ، وأساسا تخرج العدد الأكبر منهم من العاصمة العلمية فاس إما تتلمذا أو قياما بالرحلة العلمية إليها⁵، الأمر الذي جعل المنطقة تطلع عن كثر على مختلف الاجتهادات وعلى الجديد من التأليف، وتطعم دروسها وطلبتها بالخبرات وبمستجدات العلوم والفنون. وقد ظلت محافظة على هذه العلاقة، دافعة بالنابغين من طلبتها - بعد النهل من معارف الشيوخ المستقرين بالمنطقة - إلى القيام برحلاتهم العلمية إلى فاس لتتميم معارفهم واستكمال مداركهم⁶.

¹ سيدي عبد الله بن حسون الخالدي السلاسي الأصل ، كان عالما كبيرا ووليا مشهورا، وله تلامذة عظام من بينهم المجاهد العياشي، توفي سنة 1013 هـ/1604م. انظر: الدكالي - نفسه - ص 96-97.

² أحمد الطالب القصري، من تلامذة الشيخ محمد بن سعيد العتابي، حيث رحل إليه من مدينة القصر باذن من الشيخ سيدي محمد المجول القصري. وقد كان له باع طويل في علم التصوف، وتوفي سنة 1072 هـ/1662م. نفسه - ص 99.

³ قال عشايش عن آل بوعلو: "أمر (مولاي إسماعيل) بنقل سيدي محمد السنوسي وسيدي محمد الصيني اللذين كانا من أشهر علماء تلمسان في ذلك العصر، وأنزلهما بمكناسة الزيتون؛ ثم بطلب من أهل سلا أذن لهما في السكنى بها".

عشايش - نفسه - ص 59.

⁴ السويدي - نفسه - ص 168.

⁵ حجي - نفسه - ص 444-49.

⁶ انظر على سبيل المثال الرحلة العلمية لكل من القاضي محمد مورينو والأديب أحمد بن يحيى والزهراني، في: "الإغلاقات..." - صص 12-13 و102.

2- المجالات الفكرية السائدة

كانت الحياة العلمية تفرض على الطلبة أخذ شتى أنواع العلوم، منطوقها ومفهومها عن الشيوخ، والإلمام بعلمي المعقول والمنقول أصولاً وفروعاً¹، فكانت ميادينها متعددة في الشريعة وعلوم القرآن والأدب والبيان وغيرها اقتداءً بتشعب معارف شيوخهم وسعة اطلاعهم. فقد كان أبو الحسن العكاري يلقي في حلقات التدريس علوماً جمة كالنحو والبيان والميزان والكلام والأصول والفقه والحديث، قراءة وبحثاً وتحقيقاً وتنقيحاً وتدقيقاً، مع الاعتناء بمطالعة الشروح والحواشي، والتنافس في تحرير المنقول وحل المشكلات، والبحث عن الغوامض والإيرادات². وعلى غرارهِ كان الشيخ أبو الحسن الأنصاري السجلماسي³ يلقي الفقه والتفسير والأصول والسير، إلى جانب تخصصات أخرى كالطب والتشريح. وكان هذا عاماً لدى العلماء وقاعدة ينشئون عليها طلابهم، حيث كان العكاري يقول لهم: "شدوا أرواحكم في أخذ العلم وطلبه وتحصيله، وأرجو إن شاء الله أن تكونوا محتسبين على غيركم"⁴.

وقد كانت المراجع الرئيسية التي يقوم عليها التدريس هي مدارك الشيوخ المدرسين ومعارفهم، ورواياتهم عن العلماء والفقهاء الذين أخذوا عنهم قبلاً، إلى جانب اعتماد بعض التأليف العلمية المتداولة آنذاك مثل مختصر خليل⁵، وكتاب الغزالي⁶، و"المباحث الأصلية" لابن البناء وشرحها للشيخ زروق⁷، وسلم الأخضر⁸، ومقدمة ابن آجروم. وعند تمكن الطالب من علوم ودروس شيخه بحسب التخصص يطلب استجازته، حيث يعمد الشيخ المذكور إلى إجازته إجازة وفق الفروع والأصول التي نبغ فيها طبقاً لطقوس علمية متعارف عليها. ويصف أحد الطلبة ذلك: "سمعت عليه الحديث المسلسل بالأولية وأحاديث الصحيحين، وأجازني فيهما وفي ما له

¹ نفسه - ص 12.

² نفسه - ص 99.

³ علي بن عبد الواحد السجلماسي: درس بمسقط رأسه بسجلماسة، ثم بفاس وبالأزوية الدلانية ومصر، قبل أن يستوطن سلا ويتفرغ بها للتدريس والتأليف في شتى العلوم الفقهية والطبية، وقد انتقل في أواخر حياته إلى الجزائر حيث كانت وفاته بها مصاباً بالطاعون سنة 1054 هـ/1644 م. أنظر: حجي - نفسه - ص 449.

⁴ بوجدار - نفسه - ص 99.

⁵ الديكالي - نفسه - ص 97، وبوجدار - نفسه - ص 100.

⁶ شاش - نفسه - ص 18.

⁷ الديكالي - نفسه - ص 99.

⁸ بوجدار - نفسه - ص 459.

من مقروء ومسموع، وأضافني على الأسودين، وصافحني وشابكني وألبسني وناولني السبحة¹.

وقد كان المتخرجون غالبا ما يصيرون نبهاء في ميادين مختلفة اقتداء بشيوخهم، مثل القاضي أبي عبد الله محمد مورينو الذي برع في الفقه براعته في الأدب، فكان إلى جانب مهمته كقاض مشهود له بالنبوغ يقرض الشعر مدحا نبويا وموشحا وزجلا في شتى الأغراض²؛ وعلى منواله كان سيدي يوسف بن محمد الدادسي³، وسيدي عبد الله بن محمد العياشي⁴.

وكان علماء المنطقة وفقهاؤها وطلبتها مثالا للأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة، متمسكين بحدود الشريعة وبالسنة النبوية الشريفة، صادعين بالحق وغاضين الطرف عن كل ما من شأنه أن يشغلهم عن اتباع سواء السبيل، متصفين بالسماحة والصدق والتنزّل والاعتناء بأهل العلم، وبالتأدب في أضرحة الصالحين والتظاهر بالخشوع ولين الجانب⁵، بعيدين بذلك عن كافة المغريات ومتاهات الحياة، وغير مباليين بالأموال وبالمظاهر الاجتماعية مقتدين في ذلك بسنة الخلفاء الراشدين⁶.

وقد برز إلى جانب العلوم الدينية المرتبطة بالعبادة والخطابة والوعظ ميدانان آخران، ينظم أحدهما العلاقات بين أفراد المجتمع، كانت الحياة العلمية تمده بالرجال الأكفاء للاضطلاع به بكيفية ناجعة، ونقصد بذلك ميدان القضاء؛ وآخر إبداعي يهتم بضروب الأدب، خاصة الشعر والفنون.

أ- الميدان القضائي: باستثناء الفترة الأولى التي عرفت خلالها العدوتان وحدة في نظمه وطرق ممارسته، كان الأندلسيون خلال فترة استقرارهم يسندون تسييره في العودة الجنوبية إلى قاضيين من بين عناصرهم تحت إشراف الديوان، محتفظين تقريبا بالأعراف والقوانين التي دأبوا عليها بإسبانيا؛ ويقول الأب دان في ذلك: "كان لهم من

¹ نفسه - ص 10-11.

² نفسه - ص 102-03.

³ سيدي يوسف الدادسي: فقيه عدل، أديب عروضي، أحد تلامذة الشيخ العكاري ومن جملة الملازمين له، وقد رثاه في قصيدة طويلة عند وفاته. أنظر: بوجدنار - نفسه - ص 474.

⁴ عبد الله العياشي (ت 1073هـ/1663م): ابن المجاهد المشهور، كان فقيها وأديبا، درس بسلا وفاس ونال إجازات كبار العلماء في المغرب والمشرق، وكانت له زمن أبيه مجالس علمية راقية يحضرها أعيان علماء المغرب. أنظر: حجي - نفسه - ص 48-47.

⁵ بوجدنار - نفسه - ص 102-03.

⁶ حجي - نفسه - ص 444.

بينهم رجال على شاكلة وکلاننا ومقدمي التماساتنا الذين يدافعون عنا، ويطالبون بحقوق الأطراف المتنازعة¹.

وبمجرد اندماج العدوتين انصهرت الضفة الجنوبية في النظام القضائي العام بالمغرب، خاضعة في تنظيم المعاملات كالزواج والإرث والتحبس للسلطة الشرعية للعدول²، وفي ما يخص النزاعات والقضايا وإصدار الأحكام لسلطة القضاة. وقد كان قضاة العدوتين يعقدون جلسات التقاضي يوميا بالمساجد أو بمحلات ملحقة بها³، مستقبليين المنازعات والخصومات بين السكان أو بين عرب البادية القادمين إليهم، وغالبا ما يصدر عن الأحكام مباشرة بعد الاستماع إلى الطرفين ومراقبة الأقوال والبيانات، واستشارة معارفهم المأخوذة عن الكتاب والسنة وفتاوي السلف؛ ولكنه إذا ما أراد أحد المتنازعين إحضار شهود سمح له بذلك في غضون ثلاثة أيام، كما يسمح بمثلها للطرف الآخر لتفنيده الشهادة⁴.

وقد كان حرص القضاة على الظهور بحياد ونزاهة تامين، مع الاستقامة في السلوك والورع والتقوى، لا سيما في عهد مولاي إسماعيل الذي تميز بمراقبتهم عن كثب، وبتعريض المشبوهين منهم للعقاب⁵. ومن أبرز القضاة الذين عرفتهم العدوتان: القاضي أبو المكارم أحمد بن محمد بن عيسى آدم⁶، والقاضي أحمد بن ناجي السجلماسي⁷، والقاضي أبو محمد عبد الله الدرعي⁸ وغيرهم.

وكانت للنساء منزلة خاصة لدى القضاة، حيث يبادرون إلى الأخذ بأيديهن نظرا لضعفهن وضعف استنادهن من أجل استعادة ما سلب منهن من حقوق، فكانت اللاتي لهن شكايات يجمعن قريباتهن وصفياتهن ويتوجهن إلى باب القضاء طالبات تنفيذ "

¹ Dan Op. cit. - p 209.

² نكل على ذلك صفة العدل الملحقة ببعض الفقهاء، أمثال محمد بن غنام وعبد الرحمن المجذوب وعبد الله الحيمر. انظر: بوجندار - نفسه - صص 102، و384، و386.

³ ج. الناصري - نفسه - ص 116.

⁴ Les S I H. M. 1^{re} série - Angleterre - T II - p 397-98.

⁵ يذكر القادري أن أحد قضاة سلا قد ثقف بسبب ذكر بعض الوشاة فيه بسوء السيرة، حيث عزره السلطان، فكان يخرج ليوم بالناس صلاة الجمعة ويخطب فيهم، ثم يرد إلى سجنه. انظر: "نشر المثنائي" - الجزء الثاني - ص 269.

⁶ أحمد بن محمد بن عيسى آدم تزيل الرباط أخذ عن شيوخ فاس، كما رحل للأخذ عن شيخ الجزائر العلامة سعيد بن إبراهيم التونسي (ت 1094 هـ/1683 م). بوجندار - نفسه - ص 10-11.

⁷ أحمد بن ناجي السجلماسي (ت 1122 هـ/1710-11 م)، فقيه وعلامة، كان يدرس الحديث والفقه والتفسير وقد مكث في قضاء العدوتين مدة عقدين كاملين قبل أن ينتقل إلى فاس ثم مراكش. انظر: النكالي - نفسه - ص 11.

⁸ عبد الله الدرعي، كان من خاصة الشيخ العكاري الملازمين له، وكان كثيرا ما يرجع إليه في المشكلات ويتردد إليه في حل العويصات من المسائل والمعضلات. بوجندار - نفسه - ص 385.

شرع الله"، حيث يحظين باهتمام كبير من طرف القائمين على العدالة¹. وكان القضاء الإسلامي يطول أيضا حتى العناصر المسيحية واليهودية التي لها نزاع مع المسلمين، على أن القنصل كان هو الفصيل في الخصومات الناشبة بين رعايا بلاده. في حين كان لليهود قضائهم الذين يبتون في القضايا الثانوية التي قد تقع بين أفراد جاليته بحضرة قاض مسلم اعتبارا لتبعية كذمين².

2. الأدب والفنون: كعادة المجتمعات الحضرية ازدهرت الحياة الأدبية والفنية بالعدوتين، حيث نشط مجال الإبداع والمسامرة تنفيسا عن متاعب الحياة اليومية، فكان الأعيان وعلية القوم يتنافسون في إقامة المنتديات الأدبية والمجالس العلمية، يحضرها المشاهير من رجال الفكر والأدب حتى من خارج المنطقة، وكان عبد الله العياشي من أبرز القائمين بهذا الأمر خلال النصف الأول من القرن بسلا البالي³. وكانت هذه الجلسات تتخللها المساجلات الأدبية والقراءات، والتراويل الموسيقية والتواشيح والأمداح، إلى جانب مزولة الرائج من الألعاب الفكرية كالشطرنج⁴.

وقد نبغ من أدباء العدوتين في مجال الشعر عدة مبدعين، من بينهم سيدي عبد الله العياشي المذكور، وسيدي يوسف الدادسي، والقاضي محمد مورينو، وأخوه أحمد حجي⁵؛ وكان الطابع الديني هو الغالب على القصائد، حيث برزت في إبداعاتهم قصائد المدح النبوي والموشحات وتعظيم الأولياء والصالحين؛ أما مجال النثر فكان مرتبطا بالأساس بالخطابة والوعظ في ما يتعلق بالحياة الدينية والخلقية للمسلم ومجتمعه.

ومن جهة أخرى برز فن الأشعار الزجلية كأقرب الوسائل المعبرة عن روح المجتمع وهمومه وتطلعاته، إذ بمقابل ما حظي به الجهاد البحري من اهتمام في صنف الخطابة، وجد أسلوبه الجمالي في الأزجال العامة لما كانت تتميز به من يسر في النظم وسلاسة في التعبير، وتعميم للفائدة طبقا لذيوع استعمال اللهجة العامة مقابل وقف الفصحى حكرا على الشيوخ والطلبة. ولم تأت هذه الأزجال كلون جديد في

¹ Dan - Op. cit - p 103.

² Hardy - Op. cit - p 119.

³ حجي - نفسه - ص 444-48.

⁴ Savine - Op. cit - p 184.

⁵ أحمد حجي مورينو: أخذ عن الشيخ العكاري، وكان أخص الناس به والقارئ بين يديه، كان شاعرا وشاحا له تواشيح كثيرة في المدح النبوي، توفي أواسط القرن 12 هـ. حجي - نفسه - ص 447.

اهتمامها بحركة الجهاد البحري، وإنما كامتداد لنظم شيوخ القرن 16م الذين بادروا إلى تصوير حياة الجهاد آنذاك، أمثال الشيخ محمد بن سليمان الفاسي وقصيدته "القرصان"¹. ومن أشهر الزجالين الذين عرفتهم المنطقة خلال القرن 17 والذين اعتنوا بوصف أسطول الجهاد وهو في بداية نشأته الشيخ عبد العزيز المغراوي²، الذي عد من أشهر شيوخ الملحون وأحسنهم ترصيفا وتنسيقا، وكانت أشهر قصائده في هذا الغرض " السلوانية"³.

وتعطي لنا بعض القصائد الانطباع بأن الجهاد البحري قد أثر جليا في هذا الجانب الأدبي المتميز حتى في فترات متأخرة عن ازدهار القرن السابع عشر، ولا سيما منه قصيدة القرصان لمحمد بن الحسن فريحة⁴. ومن المؤكد أن هذه القصائد ما كانت لتكثر وتشجع المبدعين على المزيد من الإنتاج لولا أنها كانت منشأة لغرض مزجها بالموسيقى لتعطي " ملحونا " محبذا⁵، رغم المواقف المتصلبة من قبل الفقهاء والعلماء من الموسيقى وأدواتها، باستثناء موسيقى الطرق الدينية المعتمدة في الاحتفالات الصوفية⁶.

وبإزاء الملحون انتشرت الموسيقى الأندلسية متأثرة بالمدرستين البنفسية والغرناطية وفق مصادر الهجرات، حيث أنها انتقلت مع الأندلسيين من بين ما حملوه معهم من مظاهر ثقافية وحضارية، رغم تقلص عدد نوباتها الأصلية " الطبع 7"

¹ أبو عبد الله محمد بن سليمان الفاسي: من شيوخ فاس ومن أكبر شعرائها خلال القرن 16. كان حيا بعد العشرين من القرن 17. انظر نص قصيدته لدى: ج. الناصري - نفسه - ص 916-17.

² عبد العزيز المغراوي: أصله من صحراء تافيلالت، كان معنودا من علماء وقته، وقيل أنه درس بجامعة القرويين لما رحل من بلاده متجولا بأهم مدن المغرب وعواصمه، وخلال هذه الرحلة دخل إلى سلا وربط الفتح حوالي سنة 1027/1618م. نفسه - ص 917-18.

³ حول محمد بن علي الدكالي هذه القصيدة إلى أرجوزة سماها "أرجوزة القصيدة السلوانية"، مما جاء فيها:

ولو ترى السفن على لج البحار	فقل جبل أو جمال في قيسار
فكان يومنا كعمرس في سلا	وساعد الدهر بصفـو وولا
وسرت القلوب والأرواح	وقد سلا الخاطر والأشباح
ولو رأيت خوضنا لج البحار	في قارب يسرع في خوض الغمار
وأعلت مجانف في الماء	كاننا نطير في السماء
حتى قصدنا من مراكب العدو	أربعة الأجنح حلت بهو
ملاها صناديد صغار	كانهم أبكار عمر ناروا

انظر: ج. الناصري - نفسه - ص 920.

⁴ انظر نص القصيدة لدى: Brunot - Op. cit - p 323-25.

⁵ للموسيقى - نفسه - ص 186.

⁶ دون فرناندو بلدرا ما مرتينيث: "كنش الحايك، أو مجموعة أغاني مغربية من القرن 12هـ" - محاضرة - دار الطباعة المغربية - تطوان 1953 - ص 17.

⁷ مرتينيث - نفسه - ص 14.

بفعل ظروف الاستقرار الأندلسي بإسبانيا الكاثوليكية، وما واكبها من محاولات طمس الهوية الأندلسية العربية. ولذلك من المحتمل ألا تكون المنطقة قد عرفت إلا انبعاث النوبات الإحدى عشر المتداولة بالمغرب أثناء وبعد لجونهم إليه!

3. التأليف والاستنساخ

كان من الطبيعي أن يواكب التطور العلمي للمنطقة نشاطا موازيا في مجال الاستنساخ والتأليف واقتناء الكتب العلمية، لا سيما وأن الحياة العامة قد تأثرت بإدماج الوافدين على العدوتين من رجال الفكر، فضلا على أن طابعها المميز كأحد معقل الجهادين البري والبحري كان من دوافع النخبة إلى تأليف الكتب الخاصة بالحض على هذا الفرض المقدس².

وقد تميزت التأليف بالتنوع ما بين الفقه والتفسير والبلاغة والشعر، كما تميزت بإنجازها على أتم وجه وبجمالية واضحة، لما عرف عن أهل العدوتين من إتقان للخطوط الرائقة الشبيهة بخطوط أهل فاس في الجودة والأصالة واستقامة الحرف ولطافة الشكل، اقتداءً بأسلافهم الذين ظلت خطوطهم القديمة على طراز الخط الأندلسي تزين بناءات الموحدين والمرينيين³، فأنت بذلك آية في الصنعة، جاعلة المنطقة ترقى إلى مستوى الحواضر العلمية الملتحقة بركب المركز العلمي فاس.

وبصرف النظر عن التأليف الأدبية في مجال الشعر والزجل والخطابة، برزت كتابات بعض علماء المنطقة في ميادين البيان وعلم اللغة، والسير والأنساب، والنوازل الفقهية، في شكل تقايد وتعليق وشروح تجمع بين ما تم التوصل إليه آنذاك، وارتباطا بكلام المتقدمين وما أخذ عن الشيوخ. ومن بين هؤلاء المؤلفين، نذكر محمد شعبان الأندلسي⁴ وتقايدته عن الشيخ علي العكاري في علمي النحو والميزان، وأيضا تعليقه على الخلاصة الكبرى وعلى سلم الأخضر، وإلى جانبه برز أبو يعزى المسطاسي⁵ في التأليف في مناقب الشيخ العكاري وفي أخباره وترجمته؛ وعلى منوال

¹ نفسه - ص 14-15.

² ج. الناصري - نفسه - ص 469.

³ الدكالي - نفسه - ص 42.

⁴ محمد شعبان الأندلسي: فقيه أديب، وعالم واعظ مؤلف، أخذ عن الشيخ العكاري وقيد عنه تقايد مفيدة جاءت من أحسن المقيّدات. انظر: بوجداد، "الاغبط" - نفسه - ص 459.

⁵ أبو يعزى المسطاسي بن محمد السلاوي، أحد تلامذة الشيخ العكاري وأحد خاصته، وهو أول من ألف في مناقبه وأخباره. توفي في منتصف القرن 12 هـ. نفسه - ص 273.

السابقين سار محمد بن الشيخ المذكور، وتصدى الفقيه الحداد الأندلسي² لتقييد بعض الإجابات الفقهية، فكانوا جميعا مثالا لغيرهم من المجتهدين في هذا المضمار. وقد كان احترام الكتب والحفاظ عليها من صميم أخلاقيات رجال العلم، فصارت بضاعة تتفق أسواقها، واشتهرت لدى الخاصة والعامة ولدى المحلي والأجنبي، وأضحى أمر اقتنائها يهم الجميع كافة، إلى درجة دفعت بالدول الأوربية إلى السعي من أجل الحصول عليها وعلى الجديد منها. فقد سعت الأقاليم المتحدة تحت إلهام مفكريها من أجل اقتناء بعضها سنة 1655، حينما كلفت أميرها رويتر وقنصلها دو فريز بالحصول على قائمة منها على نفقة الدولة، ومن المحتمل أن يكون المكلفان قد نجحا في مهمتهما³، رغم الحواجز والعراقيل التي كانت موضوعا من طرف سلطات مرسى سلا الجديد للحيلولة دون خروج الكتب الإسلامية من المغرب إلى أوروبا، لما لذلك من اعتقاد بتحريم الشريعة لذلك.

ونجد أن الدول الأوربية قد واصلت محاولاتها هذه، حيث عملت فرنسا من جهتها من أجل الحصول على بعض الكتب الإسلامية الموجودة بالمغرب في ما بين سنتي 1682 و1684. فقد كتب السفير الفرنسي دو سان أمانس - قبيل مغادرته فرنسا متوجها إلى المغرب - إلى الوزير سينيولاي في يوليو 1682 قائلا: "سوف أبذل كل جهدي لتوفير التسهيلات الممكنة للسيد دولا كروا (*de La Croix*) بقصد اقتناء الكتب التي تودون أن ينقب عنها في فاس". وقد أشار في الوقت نفسه إلى الصعوبات التي تنتظره في هذا الباب: "وعلى كل حال أظن أنه سيصادف صعوبات جمة، لأن المغاربة هم أكثر حذرا من الأتراك، ويعتقدون بأن السماح للمسيحيين باقتناء كتبهم يتنافى وشريعتهم"⁴.

وقد تبين من خلال الأحداث أن المسلمين كانوا أشد حرصا على الكتب المرتبطة بأمور الشريعة والدين، وهو ما يؤكد اعتقاد دو سان أمانس في إمكانية اعتقال دو لأكروا الذي عمل على استنساخ مؤلفات عربية يقال أنها كتب دينية، حيث عند محاولة تصديرها عبر سلا أقدمت سلطات المرسى على مصادرتها، ووضعها تحت تصرف

¹ نفسه - ص 100.

² الحداد الأندلسي: أبو عبد الله محمد العالم المدرس، من فقهاء الرباط وأعيانها، ومن تلامذة العكاري. أصله في امر صره خيل في عتله وتوفي في منتصف القرن 12 هـ. الذكالي - نفسه - ص 105-06.

³ *Les S I H M* - 1^{re} série - Pays-Bas - T IV - p 105 et note.

⁴ *Ibid* - 2^{de} série - France - T II - p 222.

القاضي ليبث في الأمر¹. وإذا كان دو لأكروا قد أفلح في استعادة ثلاثين مؤلفا كلفته سننين من التنقيب ومساعدة عناصر مغربية، ومصاريف بلغت في مجموعها ألفا وخمسمائة ليرة²؛ فإنه لم ينجح في تصدير الكل نحو باريس إثر مصادرة أربع منها بحجة أن قوانين البلد لا تسمح بهذا النوع من المبادلات³، بل من المحتمل أن يكون نجاحه في إخراج الكتب الأخرى لم يتم إلا عن طريق التهريب.

¹ Ibid - p 370-73.

² قام دو لأكروا بتوزيع ستمائة ليرة على مغاربة وعرب من مملكة مراکش من أجل اقتناء الكتب، واشترى ثلاثين مؤلفا كلها بتسعمائة ليرة. وقد ترك ثلاثمائة ليرة أخرى للقتل الفرنسي لتتميم نفس المهمة. انظر: Ibid - p 411

³ Loc. cit.

لن يكون مؤلفا كلفته
مجموعها ألفا
أدرة أربع منها
حتمل أن يكون

خاتمة

لم يكن الجهاد البحري ليزر بمنطقة مصب أبي رقرق إلا كضرورة ملحة فرضتها المتغيرات البشرية التي عرفتھا في مستهل القرن 17م، والتي زامنھا سكونها السياسي، مما أهلھا لاحتضان نموذج إداري جديد يفصل عن السلطة الشرعية أو ينمو على هامشھا؛ فالعناصر الأندلسية حديثة الاستقرار في افتقارھا إلى كل إمكانيات الاندماج بالوسط الذي أجبرت على الانغراس فيه، وفي لمسھا لحواجز جلی تمنعھا من الامتزاج الاجتماعي نتاج شعورها باغترابھا الشديد عن بيئتها ومجتمعھا الجديدين، كان مفروضا عليها العيش بمعزل عن الحياة القائمة قاريا خلف أسوار رباط الفتح، في وقت حملت معها إلى المنطقة رغبة نفسية توافقة إلى إبداء ردود فعل عنيفة ضد مصالح إسبانيا، انتقاما لما لحقھا من حكامھا من حيف وظلم توجا بإقرار سلخھا عن مناطقھا الأندلسية الأصلية.

وهكذا كان تباعدها الاجتماعي مع العناصر الأصلية، وخلفيتها النفسية المعادية لإسبانيا، قد وجدا في ما تقدمه الضرورة التقليدية للمجابهة بين الإسلام والمسيحية - المترسخة في الأفكار كما في الأخلاق - من دوافع شرعية دعائم لبنية معنوية متكاملة، היא لها وقوع مصب أبي رقرق كقاعدة مفتوحة على المصالح الأوربية عموما، والإسبانية على وجه الخصوص، كل السبل لترجمتها فوريا وفعليا في شكل حملات ومواسم جهادية جريئة، سوف تتطور من مجابهة أندلسية-إسبانية إلى مجابهة إسلامية-مسيحية شاملة، بتوسيع ضربات الجهاد البحري كرد فعل ضد تجاوزات القوى المختلفة، أفرادا ودولا.

ولم يكن بمقدور الجهاد أن ينمو ويطرد باستمرار طيلة القرن لولا حدوث تغييرين هامین مسا المنطقة:

- تغيير سياسي تجلی في التسلسل المنطقي لمجتمع الجهاد من جهة انسلاخه تدرجيا عن أية سلطة خارجية عنه ليصل إلى مستوى التنظيم المستقل بدءا من سنة 1627، ثم محافظته على كيانه الخاص بصفة شبه تامة إلى حدود سنة 1641، وبعد

¹ Ibid - p 370-7
شترى ثلاثين مؤلفا

Ibid - p
² Loc. cit.

ذلك في شكل استقلال ذاتي تحت إشراف الدلانيين ثم غيلان بنفس المقومات والتنظيمات حتى انخرط المنطقة في المغرب العلوي الموحد سنة 1666.

- تغيير اجتماعي مرتبط بالأول، حيث واكب الامتزاج السياسي للدولتين منذ بداية العهد الدلاني تلاحم اجتماعي متدرج، سمح بانصهار العناصر المنفصلة بعضها عن بعض، بعدما بليت أسباب النفرة القديمة مع طول مقام الأندلسي بالمنطقة واحتكاكه بالمناخ التقليدي، وبانتقاء العناصر المتشددة التي كانت تساهم بموقفها المتصلب في تأجيج حدة الخلاف، ونقص بذلك مقتل المجاهد العياشي وتشيت أتباعه بعد ذلك.

إن هذا التقارب على المستويين السياسي والاجتماعي قد مكن مجتمع الجهاد من توسيع مدى المشاركة ليشمل الضفتين معاً، بعدما ظلت حكراً على سلا الجديد، فدعمت المواسم الجهادية بانفتاحها أكثر على الخلفية التجارية التي كانت قبلئذ أكثر حياداً إزاء هذا النشاط وتبعاته، الأمر الذي أكسب الجهاد البحري نوعاً من الانتظام والاستمرارية، خصوصاً وقد واكب ذلك تناقض المواقف الأوروبية وتذبذب خياراتها. لقد استفاد الجهاد منذ بدايته من تضارب المصالح الأوروبية واختلاف التوجهات السياسية لدولها، حيث استغل رياس البحر في البداية تأجج التطاحن السياسي المتولد عن الصراع الديني الكاثوليكي-البروتستانتي الذي تجاوز القارة لينقل جزءاً من حروبه إلى الخطوط التجارية الأطلنטיكية، مما وفر للجهاد البحري فرصة الاعتماد على الدعم الاستراتيجي للأقاليم المتحدة وإنجلترا بصفة أقل، سواء على مستوى السلاح والعتاد، أو على مستوى الرجال والخبرة، وذلك بناء على رغبة الدولتين في إشراك رياس الجهاد كحليف استراتيجي ضالع في تنفيذ حروب الاستنزاف ضد مصالح إسبانيا.

ومع تراجع هذه الأخيرة في ريادة التجارة العالمية لفائدة الدولتين المذكورتين، أضحت كلاتهما ترغب في توجيه حروب الاستنزاف ضد مصالح الأخرى، ومن ثم اللجوء إلى استخدام السفن الجهادية كسفن حليفة على المستوى الاستراتيجي؛ فعمدت الأقاليم المتحدة إلى إدماج رياس البحر السلاويين كقوة ملحقة بها بهدف فك تحكم الإنجليز في المجال الأطلنטיكي، وهو ما يبرز انحيازها الشديد والمتواصل لتلبية مطالب الأسطول السلاوي العسكرية والملاحية.

ن بنفس المقومات
1666.

سياسي للعدوتين منذ
المنفصلة بعضها
الأندلسي بالمنطقة
تساهم بموقفها
وتشتيت أتباعه

مجتمع الجهاد من
على سلا الجديد،
كانت قبلئذ أكثر
نوعا من الانتظام
تذبذب خياراتها.

اختلاف التوجهات
السياسي المتولد
لينقل جزءا من
فرصة الاعتماد
إلى على مستوى
رغبة الدولتين في
الاستنزاف ضد

تتين المذكورتين،
لأخرى، ومن ثم
راتيجي؛ فعمدت
بهدف فك تحكم
المواصل لتلبية

ولهذا كان التنافس الأوربي على المستويين السياسي والاقتصادي قد جعل حركة أساطيل الردع المختلفة لا تؤدي مهمتها إلا في صورة استعراضية محدودة من حيث النتائج، لأن الدول الأوربية بدت وكأنها تنهج خيارين يناقض أحدهما الآخر: فهي تطمح من جهة إلى القضاء على من ترى فيهم " وباء المسيحية "، وتدعم من جهة معاكسة آليات الجهاد البحري بجل متطلباتها بصورة رسمية أو غير رسمية. فكان الجهاد البحري بذلك يبرز وكأنه متمتع ضمنيا بالحماية الأوربية التي كان التنافس الغيور بين دولها يوافق على هذه الوضعية، أكثر من أن تفلح إحداها في النمو على حساب الأخريات.

وكان من نتائج هذه المواقف المتناقضة استمرار حركية بضع سفن في تهديد الخطوط التجارية والسواحل الأوربية بتأييد أوربي، تختلف أشكاله من إمدادات عتادية وتجهيزية، إلى اعترافات شرعية وقانونية بالفعل الجهادي؛ بل وبتفضيل السلطات الأوربية لأسلوب التفاوض السلمي والركوع - حسب تعبير كواندرو - " تحت النظام الدليل للمعاهدات والاتفاقيات التي تجعل منها (أي الدول الأوربية) أشبه بتابع أو بمؤدي الغرامة للقرصنة (الجهاد) ".

وإلى جانب هذا برز الجهاد البحري كفاعل أساسي حال دون تأثر البلاد سلبا بحالة التفكك السياسي الطويلة زمنيا (1603-66)، والشبيهة إلى حد ما بالفترة الانتقالية ما بين المغربين المريني والسعدي على مستوى الضغوط الخارجية. ذلك أن الاحتلال الأوربي لم يتمكن من بسط نفوذه على المراكز الساحلية الخارجية عن سلطته منذ 1614 (احتلال المعمورة)، التي تصادف البداية الفعلية للجهاد البحري. فقد فتح رياس البحر في وجه السياسة الاستعمارية مجالا جديدا للمجابهة يتميز ببعده عن القارة، جاعلين المبادرة هذه المرة بيد المغرب على مستوى اختيار زمكان الالتحام العسكري وأدواته وأسلوبه، ومدعين بصورة غير مباشرة حركة الجهاد البري، فكانت السفن السلاوية بمثابة درع واق للسواحل يصعب اختراقه.

لقد بدا رجال الجهاد البحري بمثابة فرق متطوعة تنحصر مسؤوليتهم في التضيق على مراكز الاحتلال من خلال تخريب قنوات الاتصال بينها والمركز، بل وطورت ذلك في إطار انخراطها في الصراع الإسلامي-المسيحي العام لتدخل أسس الاقتصاد الأوربي، مستخدمة في ذلك - إلى جانب الأساليب العسكرية-الملاحية -

أساليب ضغط سياسية واقتصادية، تمثلت في مسألتى الأسرى والعلاقات التجارية، كما بدت كفرق يعول عليها بالسلب أو بالإيجاب في العلاقات الأوروبية-الأوربية. وكان من نتائج ذلك أن انتقلت حدود التماس بين المغرب وأوروبا عسكريا وسياسيا إلى المجال البحري، وما من موطن قدم بري سوى مركز سلا الجديد (إلى جانب تطوان) بمهمتيه الدبلوماسية والتجارية، بصيرورته منذ ذلك الوقت مقرا لقنصليات مختلف الدول الأوروبية، وببروزه كفضاء منفتح على البضائع كما على الأفكار الأوروبية الراغبة في التسلل عبره صوب الداخل.

ومن الوجهة المحلية لم يتوقف الجهاد البحري عند تأثيراته السياسية، بل ظهر في المنطقة كمؤسسة اقتصادية متكاملة تتوفر على رؤوس أموالها الخاصة نشأة على يد الحراناشيين، ثم توالدا عن طريق توظيفها الذكي في مجال تطلب تكاليف مهمة جدا، لكن بعائدات أهم من ذلك بأضعاف مضاعفة، ناجمة عن جراءة الرياس، الذين رغم تنوع الميول والأجناس والعادات كانوا يخضعون لحد أدنى مشترك وكفيل بإنجاح العمليات، تمثل في وحدة الدين، وفي الخضوع لنظام مؤسسة الجهاد وأعراف وتقاليده النشاط المذكور، وفي احترام تراتبية العناصر المساهمة وعلى رأسها فئة الممولين، وبالسعي إلى استدارا أقصى ما يمكن من العادات، الأمر الذي كان يعود على رجال الجهاد البحري ومؤسساته وقاعدته بمداخليل رفعت مستوياتهم الاجتماعية قياسا بالوسط المحيط بهم، وثبتت دور المنطقة كخلفية حضرية سياسية واقتصادية، ورفعت حجمها الإشعاعي ليتعدى مستوى الإقليم. وهذا كان له أبلغ الأثر على حياتها الاجتماعية والفكرية، بدت نتائجها بالخصوص عند الاستقرار النهائي للمنطقة خلال العهد العلوي. وقد كانت هذه الأهمية سببا رئيسيا في دفع مختلف السلطات إلى محاولة بسط سيطرتها على منطقة مصب أبي رقرق، لما يتيح لها ذلك من استفادة مزدوجة، متمثلة في التحكم في وجهة الجهاد البحري وفي استغلال مردوديته المتنوعة بما فيها المردودية البشرية من جهة، وفي إشعاع سمعتها السياسية داخليا وخارجيا بانفتاح قاعدتها على أوروبا سياسيا وتجاريا، الأمر الذي جعل أنجح هذه السلطات (السلطة العلوية) تسعى إلى إدراج الجهاد البحري ضمن مسؤوليات الدولة، عن طريق تحويل الجزء الأكبر من مردودية المواسم إلى خزينتها، اعتبارا لاشتراك السلطان في مؤسسة الجهاد ليس كعاهل شرعي فقط، وإنما كمساهم أيضا في تمويل الحملات.

إلا أنه بفقدانه لصفته الشعبية ولمبادرة رياسه واستقلالية مؤسسته، مقابل تقيده بسياسة الدولة وتوجهات مصالحها، وعودته من جديد إلى إطاره الرسمي، ضيق على الجهاد البحري هامش الفعل، وتقلصت المردودية المباشرة لمنشطيه ومن ثم خفوت الدوافع الربعية التي كانت أحد الأسس التي قام عليها. فراحت حركيته المعتمدة على الصراع مع الذات من أجل تحقيق الربيع غير المنتظرة تتجه نحو الانهيار بخطوات ثابتة، زاد من سرعة وتيرتها ركود مجال السفانة والملاحة المغربيين، في وقت كانت أوربا تحقق المزيد من التقدم في هذا المضمار.

وهذا ما يفسر سكون العمل الجهادي بعد سنة 1698، وأساسا بعد وفاة مولاي إسماعيل، وفقدان الجهاد البحري لآخر ممول رئيسي، نتاج انشغال خلفائه بالصراع القاري حول الحكم. ولن يعاود ظهوره إلا بعد استتباب الاستقرار ثانية على عهد حفيده سيدي محمد بن عبد الله، الذي سيعمل جاهدا من أجل إعادة انبعاث الأسطول الجهادي بآليات متطورة، وأساسا بتأسيس قاعدة الصويرة، استجابة لحاجة السفانة المنتظرة إلى مرسى بحرية أكثر تطور، وعاملة في شتى الفصول.

ية، كما
كان من
المجال
بمهميته
الدول
اغية في
ظهر في
على يد
مة جدا،
ين رغم
، بإنجاح
وتقاليد
لممولين،
ى رجال
بالوسط
ت حجمها
اجتماعية
العلوي.
ولة بسط
مزوجة،
ة بما فيها
يا بانفتاح
(السلطة
يق تحويل
سلطان في
لات.

بيبلوغرافيا

1- المصادر

- 1- عبد الرحمن بن خلدون: "العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من نوري السلطان الأكبر" - الجزء السابع - دار الكتاب اللبناني - بيروت 1959.
- 2- عبد الرحمن بن خلدون: "المقدمة" - دار الكتاب اللبناني - بيروت 1961.
- 3- الشهاب الحجري: "ناصر الدين على القوم الكافرين" - تحقيق محمد رزوق - كلية الآداب - البيضاء 1987.
- 4- محمد القادري: "نشر المئاني لأهل القرن الحادي والثاني" - الجزء الثاني - تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق - مكتبة الطالب - الرباط 1982.
- 5- مؤلف مجهول: "تاريخ الدولة الدرعية التاكدارنية" - نشر جورج كولان - المطبعة الجديدة - الرباط 1934.
- 6- عبد الواحد المراكشي: "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" - الطبعة السابعة - تحقيق سعيد العريان ومحمد العلمي - دار الكتاب - البيضاء 1978.
- 7- مؤلف مراكشي: "كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار" - نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد - جامعة الإسكندرية - 1958.
- 8- أحمد المقري: "نفع الطبيب من غصن الأنثوس الرطيب" - تحقيق إحسان عباس - الجزء الرابع - دار صادر - بيروت 1968.
- 9- محمد الصغير الوفرائي: "نزعة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي" - تصحيح هوداس - الطبعة الثانية - مكتبة الطالب - دت.

10- Léon l'Africain: "Description de l'Afrique" - Traduction A. Epaulard - Adrien Maisonneuve - T I - Paris 1956.

11- Louis Chenier: "Journal du Consulat général de France à Maroc" - Introductions et commentaires de Charles Penz - Publications de l'Institut de Hautes Etudes Marocaines (P.I.H.E.M.) - T42 - Casablanca 1943.

12- Le Père Pierre Dan: "Histoire de Barbarie et de ses corsaires" - 2^o édition - Imprimerie et Librairie ordinaire du Roi au Palais - Paris 1649.

2. المراجع

- 13- عبد القاهر أبو إملق: "الخبر عن ظهور العياشي بهذه البلاد ونكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد" - ضمن مؤلف الحركة العياشية.
- 14- بلقاسم عشاش: "تاريخ عائلات سلا" - مخطوط بالخزانة الصبيحية - رقم 146-2.
- 15- عبد العزيز بنعبد الله: "معاجم في السفانة والسفن" - المطبعة العربية للتربية والثقافة والعلوم - الرباط 1400-1399 هـ.
- 16- عبد العزيز بنعبد الله: "الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية" - الجزءان الثاني والثالث - مطبوعات وزارة الأوقاف - الرباط 1975.
- 17- محمد بوجندار: "الاغتياب بتراجم أعلام الرباط" - نشر عبد الكريم كريم - الرباط 1987.
- 18- محمد بوجندار: "تعطير البساط بنكر تراجم قضاة الرباط" - د.ت.
- 19- محمد بوجندار: "مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح" - المطبعة الرسمية - الرباط 1345 هـ.
- 20- أرنولد توينبي: "العالم والغرب" - تعريب نجدة هاجر وسعيد الغز - بيروت 1960.
- 21- محمد حجي: "الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين" - الجزء الثاني - دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر - الرباط 1978.
- 22- محمد حجي: "الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي" - المطبعة الوطنية - الرباط 1964.
- 23- إبراهيم حر كات: "المغرب عبر التاريخ" - الجزء الثاني - الطبعة الثانية - دار الرشد الحديثة - البيضاء 1984.
- 24- محمد بن علي الدكالي: "الإتحاف الوجيز: تاريخ العدوتين" - تحقيق مصطفى بوشعراء - منشورات الخزانة الصبيحية - سلا 1988.
- 25- محمد رزوق: "الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرن 16 و17م" - إفريقيا-الشرق - البيضاء 1989.
- 26- السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي: "تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس" - دار النهضة العربية - بيروت 1969.
- 27- عبد الله السويسي: "تاريخ رباط الفتح" - دار المغرب ت. ن. ت. - الرباط 1979.
- 28- عبد اللطيف الشاذلي: "الحركة العياشية" - كلية الآداب الرباط - 1982.
- 29- أنور عبد العليم: "الملاحة وعلوم البحار عند العرب" - عالم المعرفة - عدد 13 - الكويت 1979.
- 30- عبد الله عنان: "نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين" - الطبعة الثالثة - القاهرة 1966.

- 31- محمد بشير الكافي: "قاموس المصطلحات البحري" - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت 1981.
- 32- دون فرناندو بلدراما مرتينيث: "كناشة الحانك، أو مجموعة أغاني مغربية من القرن 12 هـ" - دار الطباعة المغربية - تطوان 1953.
- 33- أحمد الناصري: "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" - تحقيق - جعفر ومحمد الناصري - دار الكتاب - البيضاء 1955.
- 34- جعفر الناصري: "سلا ورباط الفتح وأسطولهما القرصاني الجهادي" - مخطوط بالخزانة الصبيحية - سلا.
- 35- André Alba: "Les temps modernes" - Hachette - 2e édition - Paris 1956.
- 36- Fernand Braudel: "La Méditerranée et le monde méditerranéen au temps de Philippe II" - T I - éd. Colin - Paris 1966.
- 37- Jean Brignon et Autres: "Histoire du Maroc" - Hatier - Paris 1967.
- 38- Louis Brunot: "La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé" - éd. Leroux - Paris 1920.
- 39- Joseph Burlot: "Découverte de Rabat" - éd. La porte - Rabat 1972.
- 40- Jacques Caillé: "La petite histoire de Rabat" - Cherifienne d'édition et de publicité - Rabat s.d.
- 41- Jacques Caillé: "La ville de Rabat jusqu'au Protectorat français" - T I - éd. d'Art et d'Histoire - Paris 1949.
- 42- Louis Cardaillac: "Mori:ques et Chrétiens: un affrontement polémique (1429-1640)" - Librairie Klincksieck - Paris 1977.
- 43- Roger Coindreau: "Les Corsaires de Salé" - P. I. H. E. M. - Paris 1948.
- 44- Hubert Des Champs: "Pirates et flibustiers" - éd. P. U. F. - Paris 1952.
- 45- Philipe Gosse: "Histoire de la piraterie" - Traduction p. Teillac - Payot - Paris 1952.
- 46- George Hardy: "Histoire des Etats barbaresques" - T I - Traduit de l'Anglais - Paris 1757.
- 47- Pierre Hubac: "Les Barbaresques" - éd. Berger-Levrault - Paris 1949.
- 48- Ernest Lavisse et Alfred Rombbaud: "Histoire générale" - 2° éd. - Colin - Paris 1905.

- 49- Roland Lebel:" *Le Maroc chez les auteurs Anglais du 16e au 19e siècle* " – éd. La rose – Paris 1939.
- 50- Ernest Leroux:" *Rabat et sa région* " – éd. Leroux – Paris 1918.
- 51- Jean Monlaü:" *Les Etats barbaresques* " – P. U. F. – Paris 1964.
- 52- *Musée de la marine* " – Paris de Chaillot – Paris 1970.
- 53- Charles Penz:" *Les captifs Français du Maroc au 17° siècle* " – P. I. H. E. M. – Rabat 1944.
- 54- André Piettre:" *Pensée économique et théories contemporaines* " – éd. Dalloz – Paris 1973.
- 55- Edmond Préclin et Victor L. Tapié:" *Le XVII° Siècle* " – P. U. F. – Paris 1949.
- 56- Albert Savine:" *Dans les fers du Moghreb* " – éd. Louis Michaud – Paris 1912.
- 57-"*Les Sources inédites de l'histoire du Maroc*"-1°et2°série-Paris1905-53.
- 58- Henri Terrasse;" *A travers Rabat* " – Office Cherifienne du tourisme – Rabat 1938.

3 المقالات

- 59- عبد العزيز بنعبداالله:" *البحرية المغربية* " – مجلة تطوان – عدد مزدوج 3-4 – السنة 1958-59.
- 60- عبد الهادي التازي:" *الأسطول المغربي عبر التاريخ* " – مجلة البحث العلمي – عدد 33 – السنة 18 – نونبر 1982.
- 61- Jacques Caillé:" *Ambassadeurs et représentants officiels de la France au Maroc* " – Hes-péris – T 38 – Paris 1951.
- 62- Henri de Castries : "*Le Maroc d'autrefois : Les corsaires de Salé* " – Revue des deux mondes – Fev. 1903.
- 63- Georges S. Colin:" *Projet de traité entre les Morisques de la Casba de Rabat et le Roi d'Espagne en 1631* " – Hespéris – T 42 – Paris 1955.
- 64- Louis Mougin:"*Projet d'occupation de la Qasba de Rabat par l'Espagne en 1619*"-Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée – N° 26 – Marseille 1978.

فهرس الموضوعات

7	مقدمة
11	الباب الأول، مرتكزات الجهاد البحري بمصب أبي رفراق
15	الفصل الأول: خصوصيات المنطقة
29	الفصل الثاني: النسيج البشري للمنطقة
49	الفصل الثالث: مسألة الجهاد البحري
63	الفصل الرابع: الجهاد البحري بالأطلنتيكي إلى نهاية القرن 16
77	الباب الثاني، مقومات وتلفيمات الجهاد البحري
81	الفصل الأول: البنية المالية والبشرية
101	الفصل الثاني: السفانة وتجهيزات الجهاد
123	الفصل الثالث: الحياة العملية للمجاهدين
147	الفصل الرابع: مردودية الجهاد البحري
167	الباب الثالث، التطور المرحلي للجهاد البحري
173	الفصل الأول: مرحلة الانطلاقة
199	الفصل الثاني: مرحلة الازدهار
299	الفصل الثالث: مرحلة الاستقرار
249	الفصل الرابع: مرحلة إشراف الدولة

49- Rolan
" - é

50- Ernes

51- Jean

52- Musé

53- Charl

E. M.

54- Andre

Dallo

55- Edmo

1949.

56- Albert

1912.

57- "Les S

58- Henri

Rabat

59-1958

د 33 - السنة

61- Jacqu

au Mar

62- Henri

- Revu

63- George

Rabat et

64- Louis

l'Eespag

Méditerr

273	الباب الرابع، المجتمع الجهادي، مصب أبي رثراق نموذجاً
279	الفصل الأول: الحياة المدنية
307	الفصل الثاني: الأنشطة الاقتصادية
319	الفصل الثالث: مظاهر الحياة الدينية
335	الفصل الرابع: الحياة العلمية والفكرية
347	خاتمة
353	بيبلوغرافيا



10 شارع العلويين رقم 3 حسان الرباط

الهاتف : 037 20 75 83

الفاكس: 037 20 75 89

... مفهوم القرصنة بهذا المعنى لا يأتي من باب القدر حينما اصطلح على المجاهدين البحريين، ومن ضمنهم بحارة مصب أبي رقراق، لأنه يتوافق والدوافع المشروعة التي ولدت لديهم الاهتمام بهذا النوع من أشكال المواجهة مع الخصم، وهو ما توصل إليه الكونت دو كاستر بعمق أكثر من غيره من المؤرخين الأوروبيين، حيث يقول : "إن الاختلاف بين القرصان واللص، بين القرصنة كوسيلة مشروعة في الحرب البحرية، والأعمال اللصوصية في البحر المباشرة في كل وقت وضد أية دولة، لم يعترف به أبدا للمسلمين، إذ بالنسبة لهم يعتبر المسيحي عدوا بسبب اختلافه الديني، لذلك كانوا يرون انفسهم في وضعية قانونية مستمرة لنصبه العداء ...".



د. حسن أميلي

أستاذ التعليم العالي

كلية الآداب - المحمدية

- ♦ من مواليد الرباط سنة 1958.
- ♦ حاصل على دبلوم الدراسات العليا بالرباط (1989)
- ♦ حاصل على دكتوراة الدولة في التاريخ بالمحمدية (2002)
- ♦ أستاذ متخصص في التاريخ الحديث المغربي، والتاريخ البحري، والذهنية المغربية، والثقافة المحلية.
- ♦ صدر له :
- "البهموت" ديوان زجلي (1996).
- "فضالة أو عودة الذاكرة" مشتركا مع د. أحمد سراج (2000)
- "العمل الجماعي بالمغرب : التاريخ والهوية" - تسيق (2003)
- "طريق الوحدة - صيف 1957" (2006)
- "لاميج ملحمة النضال والأمل" (2006)
- ♦ قيد النشر :
- "المغاربة والمجال البحري في القرنين 17 و 18".
- "تاريخ بارباريا وقراصنتها" للراهب دان (ترجمة).